

عبد الكريم الخطيب



الْقَصَصُ الْقُرْآنِي

في منظومة ومفهوم

مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ، ديف

[نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

الْقُرْآنَ] . « قرآن كريم »

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين السراج المنير
والرحمة المهداة للعالمين . وعلى آله وصحبه وسلم

الطبعة الثانية

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

بجدة - مكة

جميع الحقوق محفوظة

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة

نستطيع أن نقرر — في غير مجازفة أو مبالغة — أن القصة كانت أول رفيق صاحب الإنسان منذ خطواته الأولى على هذا الكوكب الأرضي ، فأنس وحشته ووصل ما بين عالمه ، المائج في كيانه ، وبين الطبيعة وما وراء الطبيعية . وهو السابح دائماً في لججهما ، التائه في مسالكهما ودروبهما ... فنذ التقى الإنسان بالحياة وهو في صراع عنيف ، مرير ، متصل ، مع كل شيء فيها . . ما يقع منها تحت حواسه ، وما يتولد من صرورها في أوهامه وخيالاته ورؤاه .

ولهذا فإن خطوات الإنسانية الأولى في الحياة كانت تتحرك على قصص مثيرة مذهلة ، يقصر عن تصويرها أروع خيال لإنسان في يومنا هذا . . . فليدرك أن كل شيء — على الإطلاق — يبدو لمعنى الإنسان يومذاك عالماً مهولاً مخوفاً ، ينطوى في كيانه على قوى وأسرار ، يعجز الإنسان عجزاً مطلقاً عن تأويلها ، وإدراك أسرارها ، أو الوقوع على شيء من عللها وأسبابها . . فالحجاب ، والمطر والرعد والبرق ، والرياح ، والنار ، والشمس والقمر ، والنجوم ، والليل ، والظلام ، والنبات ، والحب ، والثمر . . وكل صغير وكبير ، وحى وميت ، ومتحرك وثابت . . كل أولئك جميعاً وكثير غيرهن مما في هذا الوجود من موجودات — كان عند الإنسان الأول عوالم مجهولة ترمي إليه بالحيرة ، والرعدة والفرع ، وكل صغير وكبير منها هو — في عيني الإنسان الأول — كرن كبير مليء بالمعجائب والغرائب ، يقف إزاءه هذا

الإنسان خائفاً مرتعشاً ، أو يفر منه متعثرًا مضطرباً .. بل مسكروباً ، مذعوراً ، يتوقع أيدياً قوية ومخالب كبيرة حادة تنبسه ، وتطلق وراعه في كل مسلك يسلكه ، أو تهرب يهرب إليه ، وأنها وشيكة أن تمسك به ، وتنشب فيه .. ومن هنا تكثر وساوسه ، وتتضخم مخاوفه ، وتتجسد خيالاته وأوهامه ، وتتصل رؤاه ، وأحلامه ، وكلها تحكى قصصاً يعيش فيها مع اليقظة والنوم ، وفيما بين اليقظة والنوم ! مفزعاً مضطرباً ، منهكشاً على نفسه ، لا يفتح عينيه إلا على أهوال ومهالكات !

وإذن فلم يكن عن مبالغة منا إذ قلنا إن القصة كانت أول من صحب الإنسان في هذه الحياة ، وأنها كانت أقدم ما عرف من تصورات عقله ، وصيد خواطره وطوارق أحلامه ، وهو اجس رؤاه .. ولسنا بالمبالغين أيضاً إذا قلنا إن أحداث القصة وخيالاتها وتصوراتها كانت أقوى قوة دفعت الإنسان إلى تحريك لسانه وإلى إيقاظ ملكاته ، وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه ، بحثاً عن الكلمات التي يضعها على شفثيه ، ليصور بها هذه الأهوال التي تضرب في أعماقه ، وتملأ مسارب تفكيره ، وتراقص على مسرح خياله ، والتي تولد منها ما عرف فيما بعد باسم « القصة » أو « الحكاية » والتي احتفظ منها التاريخ ببعض هذه الأساطير ، التي تراها في مخلفات اليونان ، والفراعنة ، والهند والصين ، وبابل وآشور ، وغيرها من الأمم التي صحبت الحياة منذ فجرها الأول ، والتي لم تكن هذه الأساطير التي سطرها إلا رموزاً باهتة ، وإلا إشارات خافتة لما كان يوج في كيائها من خواطر وتصورات .. وما يقع في يقظتها ونومها من خيالات وأوهام .. إنها ليست إلا قطرات مما فاض به الوعاء الذي كانت تتدق فيه مشاعرها ، وتندرب فيه أفكارها ، مما يطررها من الحياة وما تحمل الحياة من كائنات !

وكانت اللغة - بلا شك - هي اليد الرحيمة الرفيقة ، التي رفعت - في الوقت

المناسب - الغطاء عن صدر الإنسان ، وقد كان يغلى بهذه الخواطر والتصورات التي تدافعت سيولها إليه من كل منحدر ، وكادت تعصف به وتحمله مزمعا .. فما أن جرت على لسانه بعض الكلمات ، وما أن وجد لها آذانا تسمع وعقولا تسمى ، حتى أحسَّ بَرْد الراحة في صدره ، وسكن هذا الغليان الذي كان يضطرب بين جوانحه ..

وهكذا بدأ الإنسان يكتب الصفحات الأولى من تاريخه الطويل في هذه الحياة .. وكانت الكلمة هي أبلغ وأوضح ما يخط به في صحف التاريخ ، فكان إذا أسعفته اللغة حكى لأهله وأصحابه بعض ما في صدره وعقله من رؤى وخواطر ومخاوف وأوهام ، وإن لم يجد اللغة التي تترجم عن أحاسيسه ومشاعره تلك ، حبسها في صدره واختزنها في عقله ، ثم راح يطلق بعضها في صورة بخور وتعاويد ، ورقى ، وحركات ، ورقص ، وصلوات .. رجاء أن يدفع بهذا كله أذى هذه الكائنات أو الأكران المظلة عليه ، وكأنها تأتمر فيما بينها وتتداول الرأي والتدبير لاختطافه واقتراسه .. وقليل من هذه الأعمال التي كان يقدمها الإنسان بين يدي مخاوفه ، ما كان يُرجى من ورائه نفع ، أو يُستمتع منه خير ، لأن نظرة الشر إلى الوجود كانت هي الغالبة على الإنسان ، والمحسبدة بعقله وقلبه في هذا الصراع المحتدم بينه وبين الحياة .

* * *

ومن هذه النظرة ، ومن خلالها نشأ الدين .. فالخوف هو «أبو الآلهة» كما يقال ، إذ عن مشاعر الخوف تولد الرغْب والرهْب إلى تلك القوى الخفية التي سرعان ما تجسدت في خيال الإنسان وتصوراته ، فكانت آلهة على صور شتى من حيوان ونبات وجماد .

ولعل هذه النظرة التي ينظر بها كثير من الديانات وكثير من المتدينين إلى « الله » ، على أنه الإله المنتقم الجبار الذي لا يرحم ، والذي يأخذ الأبناء

بذنوب الآباء إلى سبعة أجيال — لعل هذه النظرة هي من بقايا هذه المساعير الإنسانية في دورها الطفولي ، قد توارثته الأجيال ، جيلاً بعد جيل .. ولعل هذا الإحساس هو الذى جعل آلهة اليونان قوى عاتية ترمى الناس بالمهلكات ، وتصب عليهم اللعنات صباً .. ثم بعد أن طال ليل هذه الآلهة تنفس الصبح عن آلهة الجمال ، والخير ، والحجر ، والحياة .. ولكنها مع هذا كانت تحل ركننا ضيقاً فى مسرح الحياة الإنسانية . لا تترى فيه إلا نادراً ، ولا تعطى إلا فى قصد ، وحذر .. على حين ظلت آلهة الشر رائحة غادية تملأ دنيا الناس ، وتتحكم فى مصائرهم . ثم لعل هذا الإحساس أيضاً هو الذى جعل من الإنسان نفسه قرباناً يضحي به على مذبح الآلهة .. على تقدير أن الإنسان مطلوب لهذه الأنواء الكثيرة المفتوحة لابتلاعه ، من تلك الكائنات المحيطة به ، وأما وقد استطاع خياله أن يتصور هذه الآلهة ويصورها ، فإن الفرار إليها ، والموت على مذبحها خير من الموت بين فكى أسد ، أو تحت أقدام فيل .. وفى الشر خيار كما يقال أو كما يقول الشاعر :

فإن كنت ما كر لا فكن خير آكلٍ وإلا فأدركنى ولما أمزق

وعلى أى فإن الدين فى صورته الأولى لم يكن سوى القصة أو الحكاية ، أو الخرافة ، ممثلة على مسرح الحياة فى خطوات الإنسان الأول ، وفى خطراته ووساوسه وأوهامه .

إن معتقدات الأولين كانت فى الأغلب الأعم منها ، من سيج الوهم والخيال والخرافة ، وقد ظل هذا متوارثاً فى أجيال الناس فنهجت منه قص اليونان والفرعنة ، والفرس ، والهنود وغيرهم ، وهذه التصهص كلها قد ولدتها الإنسانية من هذه الأشياء التى جمعت منها آلهة أسكنتها الدماء ، ثم زلت بها إلى الأرض ، لتتحكم فى مصائر الناس ، وتقدم العالم الذى يعيشون فيه بعضها يكون ممدراً للخير والرزق الذى يملأ أيدى الناس ، ويهدق قلوبهم ، ويرضى نفوسهم ، من ماء ونبات ، وحيوان وفاكهة ، وحب .. وغيرها

من مصادر الرزق.. وبعضها يكون مصدراً للضر والأذى الذى يزل بهم ،
ويفسد حياتهم ، ويعكر صفوهم . من مرض ، وجذب ، وظلام ،
وموت وفناء .

نقول هذا ، لنرى مبلغ العلاقة الوثيقة التى بين الدين والقصة ، وأن
الدين أحياناً قد يكون كله مجرد قصة طويلة ، كانت يوماً ما كتاباً مقدساً
عند أهلها ، وإن بدت لنا اليوم نسيجاً مهلهلاً من خرافات وأباطيل
وضلالات !

ونقول هذا أيضاً لنذكر بعض المرامى التى قصد إليها القرآن الكريم
من هذا القصص الكثير الذى ضمت عليه آياته وسوره ، فى هذا القصص
يلتقى الإنسان مع أقوى دوافعه وعواطفه التى ولدت فى ضباب طقوله ،
والتي نضجت على الزمن فى صراعه الطويل مع الحياة .. ومن هذه الدوافع
والعواطف يقاد الإنسان ويؤخذ بناصيته إلى الغايات التى تدعوه إليها القصة ،
وتسوقه نحوها .

فالقصة كانت ولا تزال مدخلاً طبيعياً يدخل منه أصحاب الرسائل
والدعوات ، والهداة ، والقادة ، إلى الناس ، وإلى عقولهم وقلوبهم ، ليلسقوا فيها
بما يريدونهم عليه ، من آراء ، ومعتقدات ، وأعمال .. ولعل عصرنا هذا هو
خير شاهد على مalleقصة من سلطان فى الحياة ، ومن أثر فى تغيير أوضاعها ،
وتلوين وجوها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، إذهى أقوى جهاز من
أجهزة التأثير فى قيادة الجماعات البشرية فى الحرب والسلم على السواء ..

* * *

لقد أصبحت الفنون كلها اليوم من وراء القصة .. فالغناء ، والتمثيل ،
والرسم ، والتصوير ، والموسيقى .. كلها تتبع القصة ، وتعمل على تجسيد
كلماتها ، وتشخيصها ، وتلوينها ، وتنغميمها حتى ينتظم من هذه الكلمات موكب
حافل من مواكب الحياة فى جدها وهزلها ، وفى خيرها وشرها ، وفى نعيمها

ويؤسرها .. وبهذا كان للقصة على الناس هذا السلطان الذي تجتمع لديه قوى
القنون كلها ، ومالها على الناس من تسلط وسلطان !!

من أجل هذا كانت القصة في القرآن ركيزة قوية من ركائز الدعوة
الإسلامية القائمة على الإقناع العقلي والاطمئنان القلبي ، بما تدعو إليه من
الإيمان بالله ، ورسله ، وكتبه واليوم الآخر ، وبما تحمل من مُثُل في مجال
الجهاد والكفاح والبذل والتضحية والفداء ، في سبيل الدعوة إلى الحق ،
والتوجيه إلى الخير والهدى ، والتنكر للباطل والضلال ، والصمود في وجه
الظلم والطغيان .

* * *

وهذه الدراسة التي نريد لقاء القصص القرآن في بها ، إنما هي محاولة للكشف
عن أسلوب من أساليب القرآن في تبليغ الرسالة السماوية ، وفي لفت العقول
والقلوب إليها ، لفتاً يأخذ عليها السبيل إلى المصاولة والمقاولة ، وإلى المراء
والمهاترة ، إذ يربها الحق مشرقاً مشرقاً عليها ، لا تملك معه إلا التسليم به ،
والإذعان له ، ما لم يستبد بها الحق والنزق ، وما لم تأخذها العزة بالإثم ،
فتضمض عينها وتضم أذنيها ، وتلوذ بالفرار والهرب !

فالقصص هو أحد الأساليب التي حملها القرآن ليحاج بها الناس ، وليقطعهم
عن الجدل والمباحكة ، شأنه في هذا شأن ما جاء في القرآن من أساليب
الاستدلال والمنظرة ، والتعجيز ، والوعد ، والوعيد ، والتهديد . وغيرها من
المشاهد والمواقف المبثوثة في القرآن الكريم كله ، من قصار السور إلى
طوالها .. لا نجد سورة — مهما قصرت — تخلو من مشهد أو موقف ،
يمهد للدعوة الإسلامية ، ويضع معلماً أو معالم للهدى إليها والتبصرة بها . في
منطق محكم ، وحجة دامغة ، وبيان معجز مفهم .

* * *

ولسكن كيف نلتقى بالقصة القرآنية ؟ ومن أى جانب ننظر إليها ؟ وبأى مقاييس نقيسها ؟

فالقصاص القرآنى نهج وحده فى موضوعه ، وفى أسلوب أدائه ، وفى مقاصده وغاياته . .

فهو فى موضوعه نسيج من الصدق الخالص ، وعصارة من الحقيقة المصفدة ، لا تشوبه شائبة من وهم ، أو خيال ! إنه يُبنى من لبنات الواقع ، بلا تزويق ولا تمويه . وهذا الواقع لا يتغير وجهه حين يعرض هذا العرض المعجز فى ذلك الأسلوب القرآنى الرائع .. فالإعجاز والروعة إنما يتجليان فى صدق الأداء ، وفى نقل الواقع وما تلبس به من مرائر النفوس ، وخلجات الصدور .. وإنه ليس النقل « الفتوغرافى » الذى يقف عند « السطح » ، ولا يتجاوز شيئاً كما وراءه من أبعاد وأعماق ! ، بل هو نقل حى للأحداث ، حتى لكأنها تتجسد فى الزمان والمكان اللذين حملها ، فتظهر وكأنها فى ساعة ميلادها .. لا يختلف يومها عن أمسها ، ولا يفقد من يشهدها اليوم شيئاً مما شهدته منها الشاهدون بالأمس .. من صور وأشكال ، ومن مشاعر وأحاسيس .. وهذا هو الإعجاز الذى نشهده فى كلمات القرآن .. وهو أيضاً الروعة التى تطلع علينا من عبقریات الفن وآياته ..

وهنا أمر ينبغى أن نلتفت إليه . . وهو التفرقة بين الواقع فى ذاته ، وبين نقله مصوراً فى كلمات ، أو فى عمل من أعمال الرسم ، أو النحت ، أو الموسيقى . . إذ ليس الإعجاب الذى يستولى علينا ، والروعة التى تأمر ألباننا ، وتملك مشاعرنا من آيات هذه الفنون - ليس ذلك المجرد الدقة فى الحكاية ، والصدق فى النقل عن الواقع بقدر ما هو كشف عما يمكن وراء القشرة السطحية للأشياء ، والتصريح بمسكنونها الذى لا ينكشف إلا لنظر الفنان ، ولا يدلى بأسراره إلا إليه .

فالزهرة فى الطبيعة هى فى مرأى العين زهرة .. هراء ، أو بيضاء ، أو صفراء .. لها ريح طيب نفاذ أو غير نفاذ !

فهى فى مجال النظر والشم : بنبته ذات لون وريح . . ولكنها فى مجال الشعور والوجدان ، وفى مجئى الخاطر والبصيرة . كأننى حتى شئ يحدق بأحداق ، ويحدث بلسان ، ويُبسم بفم . . فهى ترضى وتسخط ، وتبسم وتعبس ، وتمنع وتمنع . إلى غير ذلك مما يكون للكائن الحى ذى العاطفة والشعور !
والفن إذ ينقل هذه الزهرة فى عمل فنى - بأية أداة من أدواته التى تحملها يد فنان صناع - لا ينقل هذه الزهرة مجرد نقل «فتوغرافى» يتناول السطح ولا يجاوزه إلى الأعماق ، وإنما ينقل الزهرة محملة بهذه الرؤى التى انكشفت لبصيرته ، وتجلت لخطاؤه ، ووقعت لسمعه وبصره وقلبه .

وقد يبدو هنا سؤال ، وهو : ألا تكون هذه الرؤى التى يراها الفنان فى الأشياء ، وينقلها معها فى عمله الفنى - ألا تكون هذه إضافات تبدل من حقيقة الشئ ، وتخرج به عن طبيعته ؟ ثم ألا يكون لنا أن نقول عن هذا الشئ : إنه ليس هو فى الحقيقة ولكنه شئ آخر من توليدات الفنان وتركيباته ؟ .

ونقول : إن الإجابة على هذا السؤال من وجهين :

فأولاً : إن أصالة العمل الفنى هى التى تضفى الخلود على هذا العمل ، وتقيمته فى الحياة مقام الأحياء . . ولن يكون العمل الفنى أصيلاً إلا إذا كان من منبعه إلى مصبه مائزماً للحق ، جارياً معه ، أو بمعنى أدق .. الفنان الأصيل لا يمكن أن ينحرف عن الحق ، لأن أصالته لا تقبل الزيف ، ولا تلتم مع الباطل .. أبداً .. وما خلد ما خلد من أعمال فنية إلا لما تحمل من قوى الحق ، الذى كُتب له وحده البقاء والخلود فى ذاته ، وفى كل ما تلبس به .
وإذن فالعمل الفنى الأصيل يخرج فى ضمان هذه الأصالة ، معافى من الزيف سليماً من التمويه والكذب .

وثانياً : الفن مهما بلغ من الأصالة لا يمكن أن يجمع الحق من جميع

أطرافه ، وإنما بحسبه من الأصالة أن يلم ببعض من أطراف الحق - وإذا كان ذلك هو غاية مستطاع الفن في أعلى منازلها - فإن كلمات القرآن الكريم وحدها - دون سائر الكلام - هي القادرة قدرة مطلقة على أن تحمل الحق كله وتضمه إليها ، لأنها هي ذاتها حق مطلق ؛ لا يتلبس بها إلا الحق ، ولا يُحمل عليها إلا ما هو حق .. وحق مطلق ! .

وإذن فنحن في مواجهة القصص القرآني ، وفي لقاء الأحداث التي يعرضها - إنما نشهد الواقع في أروع ما تراه عين ، أو تكشفه بصيرة ! .

وإذن - مرة أخرى - فليس القصص القرآني إلا القرآن الكريم في صدقه المطلق ، في كل لحظة منه ، وفي كل إشارة له من بعيد أو قريب .. إن لحته وسداه ، هو الحق الذي : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

* * *

هذا ، وقد انخدع بعض الدارسين المحدثين بكلمة « قصص » التي جعلها القرآن عنواناً دائماً على ما ذكر فيه من سير الأولين وأخبار الغابرين - فوقع لفهم هؤلاء أنهم قد يكونون في المجتهدين - في الإسلام - أو المجددين في الأدب إذا هم أخذوا القصص القرآني بمعايير القصص الأدبي بما فيه من تلفيقات الوهم والخيال .. ثم جرّم هذا أو جرّاهم على القول بأن القصص القرآني ليس كله حقاً وصدقاً ، إذ ليس الحق والصدق من مقاصده ، وإنما هو مسوق للإثارة الفنية التي تجبىء من ورائها العبرة والعظة ، وإنه لا إثارة للفن إذا التزم حدود الحق والصدق .. إذ أن الفن في صميمه حرية ، ولا حرية مع إلزام والتزام ! .

ولقد اندفع أصحاب هذا الرأي إلى أبعد من هذا فقايسوا بين الله وبين الإنسان ، فوالله - في حسابهم هنا - إلا فنان ينزل على حكم الضرورة والتصور ، فيسوّى قصصه على نحو ما يسوى الفنانون قصصهم .. من مزجها الحقيقة بالخيال ، والواقع بالوهم والمحال !

وهذه المقولات فوق أنها عدوان على الحق في جانب الله ، وما ينبغي لذاته
وكلماته من تنزيه وتقديس عن نقائص البشر وقصورهم — هي عدوان صارخ
على الفن وما ينبغي له من تصور عن التلفيق ، والكذب والتقوية . إذ الفن
يعنى هذه الكلمة — نسيج محكم من صميم الحق ، ورحيق مصفى من لباب
الواقع أو المتوقع ، وبغير هذا لا يكون العمل الفنى فناً رفيعاً يأخذ مكان
البقاء والخلود !!

تلك إشارة كان لابد منها في هذه المقدمة ، إذ أن لنا موقفاً في هذا
الكتاب ، مع تلك المقولات ، حيث ينفصح لنا المجال بعرضها على وجهها كما
صوره أصحابها ، وحيث يتسع لنا المقام لإبداء الرأى فيها .

* * *

أما مقاصد القصص القرآنى وغاياته فهى الدعوة إلى الحق ، والهداية إلى
مواقع الخير ، وإقامة وجه الإنسانية على مسالك الحق والخير ، والميل بها عن
مسارب الضلال والبوار — فليس فى القصص القرآنى ما فى غيره من القصص ..
من تلك المواقف والصور التى يراد منها استثارة العواطف المريضة ، واسترضاء
الميول المنحرفة فى الإنسان وتملقه بها ، واقتياده منها .. وإنما القصص القرآنى
حرب على هذه العواطف المريضة ، وتلك الميول المنحرفة ، يلقاها فى حزم
وحسم ، وينزل أصحابها منازل البوار والهوان فى كل موقف يلقاهم فيه ..
ذلك لأنه كما وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : « إن هذا لهُو القصص الحق » .
وما كان للحق أن يلبس الباطل ، أو يسلك مسالكه .

بقيت تلك الأسئلة التى سألتها آنفاً : كيف نلتقى بالقصة القرآنية ؟ ومن
أى جانب ننظر إليها ؟ وبأى مقاييس نقيسها ؟ بقيت هذه الأسئلة تنتظر
الجواب .. فأين جوابها ؟

والجواب هو ما تنتظمه أبواب هذا البحث وفصوله .

والله المستعان ، وهو ولى التوفيق .

المؤلف

مرسل إلى البحث

القصة في الحياة العربية

ربما كان من المناسب قبل أن نلتقي بالقصص القرآن أن نقف وقفة قصيرة نتطلع من خلالها إلى ملامح القصة في الحياة العربية وفي الأدب العربي ، إن كان لها وجود هنا أو هناك ، أو إن كان لها سمات واضحة محددة إن ثبت وجودها .. فهذه الوقفة تعيننا كثيراً على فهم القصص القرآن ، والاستدلال على كثير من مرامي أحداثه ومواقفه .. إذ لا شك أن القرآن الكريم لم ينجى إلى العرب بشيء بعيد عن مدركاتهم ، أو غريب على تصوراتهم ، وإنما جاء إلى القوم وبينه وبينهم نسب قريب ، ورحم ماسة ، فهو بلسانهم الذي ينطقون وعلى أسلوب فصاحتهم وما يتفاحون ، وفي اتجاه منازعهم التي يزعجون . وإن يكن في القرآن جديد على العرب في هذه الأمور وما إليها ، فهو في تقويم ما عوج ، وإقامة ما انحرف ، وتصفية ما كدر .. وهكذا كان القرآن ينزل على العرب ، فيجد عقولا متفاهمة معه ، وقلوباً متقبلة له ، مؤمنة به .. وهذا مما تشير إليه الآية الكريمة : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ! فقد جاءت الرسالة الإسلامية بمكانها الملائم لها كل الملاءمة ، والتقت بأهلها الذين هم أعرف الناس بها ، وأحقهم بالنظر إليها ، والإفادة منها .

ولا نلتفت هنا كثيراً إلى ما كان من المشركين من قريش ، من تصد للدعوة الإسلامية ، ومن محاربة لها ، فذلك أمر دعا إليه ما طبع عليه انقوم من عناد ، وكبر ، وإباء ، يحول بينهم وبين الانقياد لغيرهم . فهم في باطنهم مؤمنون بأن القرآن من عند الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولكن يأبى عليهم كبرهم أن يذعنوا للحق ، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى مواسياً النبي الكريم : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي تقولون .. فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (٣٣ الأنعام) وقوله سبحانه : « يعرفون نعمة الله ثم ينسكرونها وأكثرهم الكافرون » (٨٣ النحل) .

وإذن فإن لنا ، بناء على هذا ، أن تتوقع سلفاً - قبل البحث والنظر - وجود القصة في الحياة العربية قبل الإسلام ، وفي الأدب العربي الجاهلي شعراً ونثراً ، إذ ليس من المعقول أن يجيء القرآن الكريم بهذا القدر الكبير من القصص في معرض الدعوة إلى الله ، وفي تثبيت العقيدة على ركائز قوية من العبر والعظات المستوحاة من هذا القصص - نقول إنه ليس من المعقول أن يأخذ القصص هذا المكان البارز في القرآن ، كتاب العرب الأعظم - ثم لا يكون عندها رصيد من القصص الذي نسجته من واقع حياتها ، أو من أطياف آمالها وأحلامها .. كما أن لنا أن نتصور - سلفاً أيضاً - أن هذا القصص العربي على شيء كثير من الشبه بالقصص القرآني ، في الغاية المتوخاة منه ، وهي العبرة والعظة ، بما ضمت عليه القصة من مضامين المراقف والأحداث هذه دعوى .. لا أكثر ولا أقل . فهل يصدقها الواقع ؟ وهل إذا استعرضنا التاريخ - تاريخ الأمة في جاهليتها العربية ، والأدب العربي قبل الإسلام - هل نجد ما يؤيد هذه الدعوى أو ينقضها ؟ هذا ما نريد أن ننظر فيه الآن .

القصة في الغيا، العربية :

بما لا يكاد يتصور أن تخلو حياة إنسان من قصة ، أو عدة قصص ، ذلك أن الأحداث المثيرة ، والمواقف الحرجة المتأزمة ، هي الدوافع التي تتخلق منها القصص ، بعد أن تستترجن في كيان الإنسان ، وتستجيش في مشاعره ، وتسكن إلى وجدانه . وتغتنى من نبضات قلبه ، وخفقات صدره .

وإذا كان ذلك كذلك فإن حياة الإنسان سلسلة متصلة من القصص ، لما يطرقة دائماً من أحداث تهز كيانه ، وما يساق إليه من مواقف مزعجة محرجة تتشكل منها صور مثيرة تروى وتحكى ، إذ أن الحياة لا تدع الإنسان - أي إنسان - دون أن تطرقه بأحداثها ، أو ترميه بمزعجاتها .

وإذا كان ذلك في حياة الفرد الواحد ، فكيف يكون الأمر في أمة بأسرها ؟ في أجيالها المتعاقبة على مدى الزمن الطويل ؟

ولو أننا نظرنا إلى الأمة العربية - من هذا الجانب - لرأينا أن حظها من الأحداث والتواريخ كان حظاً موفوراً ، تكاد تنافس به أكثر الأمم كوارث ونكبات .. فهناك الحياة في أقسى أحوالها وأكبح وجوهها .. جذب ، وجوع ، وحروب ، وغارات ، وعواصف ، وأعاصير ، ومخاوف تطلع على الناس من كل فج ، وتقع عليهم من كل مكان !

ولهذا فإن حياة الأمة العربية كانت قصة طويلة مثيرة ، في صراعاتها العنيف المرير ، مع الحياة ومطالب العيش من جهة ، وفي صراعاتها الدامي المتصل فيما بين أفرادها وجماعاتها من جهة أخرى .

فالطبيعة القاسية التي بسطت سلطانها الباطش العنيف على الأحياء في هذا الموطن القفر الجديب قد جعل الإنسان والحيوان ، بل والنبات ، يواجه كل يوم ، بل كل لحظة امتحاناً قاسياً ، يتهدد وجوده ويفقر فاه لا ابتلاء .. فكل خير في هذا الموطن منقوص من أطرافه .. الماء وما يأت به من زرع ، وما يحوي من ضرع .. كله قليل إلى حد الندرة .. وعلى عكس هذا كل ما كان من شر وبلاء ، هو هناك كثير مرفور .. السموم المحرق ، والمحرّ اللافح ، والعواصف المتهبة العاتية ، والرمال المتدفقة النائرة .. كل أولئك ضارب بحجرانه ، جاثم على صدر الصحراء ، في قوة عارمة ، وفي امتداد فسيح مريض اذلك مما جعل الأحياء هناك في معركة حامية متصلة مع الطبيعة .. في سبيل الحياة والبقاء .

ثم كان من شأن هذه الحياة الصلدة القاسية أن أغرت الناس بعضهم ببعض ، فنهش بعضهم لحم بعض ، وولغ بعضهم في دم بعض ، ووقع بينهم ما يقع بين عالم الحيوان من عدوان وافتراس . يأكل القوي الضعيف ، ويستبد ذو الخلب به لا مخالب له ، فن لم يكن ذنباً أكلكه الذئاب .

وحياة تلك صورها وهذه ألوانها لا بد أن تلقى في أفكار الناس وفي تصوراتهم وخيالهم بكثير من ألوانها وظلالها ، حيث ينظرون من خلالها إلى الحياة نظرة واقعية ، أقرب إلى التشاؤم والوجوم منها إلى التفاؤل والانطلاق .

فأفقد قيِّد الواقع الملح بأحذائه المتلاحقة ، من خيال الناس هناك ، وحدث من آمالهم إذ لم تدع لهم الحياة متنفساً يتنفسون فيه ، كما لم تترك لهم فرجة يفرون منها ، من هذا الواقع المطبق عليهم من كل جهة ، ولو إلى أودية الخيال ، وعوالم الأحلام ، وهكذا ظل سكان هذا المسكان الجديب ، يدورون داخل هذا السجن الرهيب ، ويحيون على هذا الزاد الذي فرضته عليهم الحياة . . . بل وأكثر من هذا ، فلقد دفع بهم هذا الفراغ الملء داخل هذا المنفى الخفيف إلى أن يمدنوا تماطى هذه الحياة بكل ما فيها من مرارة وقسوة ، وأن يستمرئوا هذا الطعام الوبيل ، وأن يفرقوا فيه ، متهاوتين عليه تهافت الفراش على النار ، أو مدمن الخمر على الشراب . . حتى كأنهم بهذا الإغراق في الواقعية ، إنما يريدون أن يذهبوا عن هذا الواقع ، وأن يتلووا عنه ، ولو بقتل أنفسهم ، وسفك دمائهم .

وبعض السم ترياق لبعض وقد يشرفى المضال من المضال إنه خداع الطبيعة للناس ، أو خداع الناس لأنفسهم ، هو الذى سوَّغ مرارة هذه الحياة القاسية ، وأغرى الناس بالمقام فيها . . ! ولولا هذا الإغراء لكان لهم فى الأرض الفسيحة مذهب عن هذا الوجه الكالح الجديب .

فإذا قلنا إن حياة العرب الجاهليين فى موطنهم الأول كانت قصة طويلة مثيرة ، فذلك هو الواقع الذى تنطق به شواهد الحال ، وتحدث عنه صحف التاريخ . . . ولكن لنا أن نسأل بعد هذا : أى لون من ألوان القصص كانت هذه القصة الطويلة ؟ ونجيب فنقول : إنها مأساة أو درامة ، كتبت بحروفها ، وكلماتها ، وفصولها بدم الإنسان ، وعرقه ، ودموعه ، وإنها صورة مصغرة من الحقيقة التى كان يعيش فيها الناس ، ليس فيها شيء من الخيال البعيد أو القريب . !

القصة فى الأدب العربى :

وهكذا كانت تعيش الحياة الصحراوية فى ضمير العرب . وهكذا

كانت تدور في كيانهم ، وتتحرك في ذكرياتهم . . فإذا كان فيهم الشاعر الذي يستطيع أن يمسك بها في كلمات ، وأن يصورها في أبيات — لم يكن له أن يخرج بها عن هذا المستوى الذي يعيش فيه الناس جميعاً ، ولا أن يبعد عن هذا الواقع المشهود الذي لا تبرق فيه بارقة من أمل أو خيال ، تشير إلى تعديله ، أو تغييره بحال أبداً .

لهذا كان الشعر العربي كله واقعياً ملحقاً في الواقعية ، مغرقاً فيها ، بعيداً عن الرؤى والخيالات . . وكانت الأحداث التي تسجل فيه — والتي كان من الممكن أن تكون مركز انطلاق للملحمة ، أو مأساة ، أو قصة يؤدي فيها الخيال دوراً بطولياً — كانت هذه الأحداث تبرز في شعر الشاعر وكأنها صورة مكررة للواقع الذي حدث ، رواها مشاهد أمين ، أو التقطها مصور ماهر لم يدع جزئية من جزئياتها دون أن يلتقطها كما هي ، بلا ألوان ولا أصباغ ، ولا إضافة أو حذف !

خذ عنتره مثلاً . . فهو — كما يحدث التاريخ — بطل الحروب ، وفارس الفرسان . . كان من الممكن أن يكون بطلاً أسطورياً ، وأن تصور أفعاله ، ومعاركه بما تصور به الأساطير عند الأمم الأخرى غير العرب . . ولكن ظل عنتره بطلاً إنسانياً في بطولته ، لم يخرق الأرض ، ولم يبلغ الجبال طولاً ، وإن ملأ قلوب الناس إعجاباً به ، وببطولته . . !

ولو أن عنتره هذا كان في الأمة اليونانية مثلاً لكان أسطورة من أساطيرها ، ولكان له مواقع مع الآلهة ، بل لربما تحول آخر الأمر إلى إله أو نصف إله . . إذ هكذا كان يعمل الخيال في عقل الأمة اليونانية ، وهكذا كانت تنمو الأحداث وتتضخم في خيالهم . ! فإن لمسة خفيفة من لمسات الواقع كانت تفعل في خيالهم ما يفعله الحجر يلقى به في صفحة القدير الرقاقة الصافية ، فتثير فيها دوائر متلاصقة متدافعة ! ! على أن « عنتره » لم يكن عند نفسه بل وعند العرب إلا فارساً من فرسان العرب ، وبطلاً من (٢ - القصص القرآني)

أبطالهم ، لم تخرج به بطولته الفذة النادرة عن هذا الحد عند نفسه ، ولا عند قومه .. فهو بطل قد يغلب وقد يُغلب . وهو وإن يكن قد ذاق حلاوة النصر في جميع معاركه فلقد أذاقته الحياة كثرة ما مريرة من يديها ، ولم يكن له أن يدفع شيئاً منها بقوته وبطولته ! إذ ماذا يعمل مثلاً في هذا الجذب الذي يشوى وجه الأرض ويأكل ما عليها من نبات وحيوان ؟ وكيف له أن يدفع هذا السموم اللاصق ، ويرد هذه العواصف المزمجرة ، أو يسكن نائفة هذه الرمال الثائرة ؟ إنه في هذا — شأنه شأن كل عربي — محكوم عليه أن يحيا هذه الحياة ، وأن يتلقى ضرباتها في صمت وصبر ، إن أراد أن يعيش ، وأن يسكن في الأحياء !

يقول غنتره ، وهو يفخر بطولته ، ومواقفه في الحرب :

وَمَدَّجِجَ كَرِهَ السَّكَاةَ زَالَةً لَا مَعْنَى هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمَ
جَادَتْ يَدَايَ لَهْ بِعَاجِلِ طَلْعَةٍ بِمُتَقَفِّ صَدَقِ السَّكُوبِ مَقُومِ
فَشَكَّكَتْ بِالرَّمَحِ الْأَصَمِ ثِيَابَهُ
لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمَحْرَمٍ ^(١)
فَتَرَكْتَهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَنْشَنُ
بِقَضْمِ حَسَنِ بَنَانِهِ وَالْمَعْصَمِ ^(٢)
وَرَمَشَكَ سَابِقَهُ هَتَكَتْ فَرُوجَهَا
بِالسَّيْفِ عَنْ حَامِي الْحَقِيقَةِ مَعْلَمِ ^(٣)
وَبَذَّ يَدَاهُ بِالْقَدَاحِ إِذَا كُنَّا هَتَاكَ غَايَاتِ التَّجَارِ مَلُومِ ^(٤)
لَمَّا رَأَى قَدْ نَزَلَتْ أُرِيدَهُ أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لَغَيْرِ تَبَسْمِ

(١) شك بالرمح ثيابه : أي غرز ثيابه في جسمه بطامة من رعه .

(٢) جزر السباع : أي طعاماً لها ، وينشئ : أي يعطافن لحمه .

(٣) السابغة : الدرع الواسعة .

(٤) ربهذ : أي سريع الحركة ، والتجار : أصحاب خانات الحمر :

خطمته بالرمح ثم علوته بمهند صافى الجديدة مخدّم^(١)
عهدي به مدّ النهار كأنما خصبَ البنان ورأسه بالعِظَم^(٢)
وحليل رغاية تركت مجدلاً تمسكو فريسته كشدق الأعلم^(٣)

إنها الحقيقة أو هي ما دون الحقيقة هذه الصور التي يرسمها عنتره لنفسه في شعره . . وماذا كان يقول عنتره عن موقفه هذا لو أنه حكاه حكاية بغير الشعر وخيال الشعر ؟ . . إن الخيال الشعرى يضخم توافه الأشياء ، وينفخ في الرماد حتى يحيله ناراً تتأجج وتتوهج ! ! أفلنا إذن أن نزعّم أن عنتره كان أقلّ من هذا الموقف البطولي الذي رسمه في شعره ، وأن الحقيقة دون الخيال الذي لا يد أن يحمل الشعر قدراً كبيراً منه ؟ وكلا ، فإن عنتره كان على تلك الصورة ، بل أكبر منها ، ولكنه كان يعرف قدر نفسه في الحياة وأنه وإن كان أعظم وأقوى من أبطال قومه وفرسانهم فإنه ضعيف مقهور أمام قوى الطبيعة وأحداث الحياة ، ولهذا فإنه لا يزهو كثيراً بما عنده من من قوة وشجاعة ، ولا يذهب إلى أبعد مما كان يجرى على الطبيعة في ساحة الحرب . . وأنه كان إذا حدثته نفسه بزهو أو خيلاء ، نظر إلى قوى الطبيعة القاهرة من حوله فيضمر زهوه ، وينكش خيلاؤه وعجبه ، ويصفر شأنه عند نفسه ، وسرعان ما تذوب هذه الألوان الزاهية المعجبة التي صنعها الخيال لبطولته وشجاعته ، ولا يبقى إلاّ الواقع مجرداً عرياناً ، فتلتقطه شاعريته كما هو . . فما هو ذا يلقي بطلاً من أبطال الحرب المشهود لهم بالبطولة ، ممن يسكره الأبطال لقاءهم ويتقوّون منازلهم ، وما هو ذا البطل يلقي عنتره بعد أن تهياً لهذا الموقف ولبس لبوس الحرب ، وحمل أسلحتها . وهو يقدر هذا الموقف ويدرك خطره . . إنه في مواجهة عنتره ! فهو بين الإقدام والإحجام . .

(١) المخدّم : السيف القاطع .

(٢) العِظَم : زهر نبت يصنع به كالحنم والحناء .

(٣) تمسكو : تخرج صغيراً ، الأعلم : الجمل . والعلم : الشئ في اللغة العليا .

إن أقدم فلائه بطل يخشى أن يرمى بالجبن إن هو أحجم . وفي ذلك سبة الدهر ، وعار الأبد ، الذى يلحق الوالد وما ولد .. وإن أحجم وفر من المعركة فإنه في مواجهة عنتره ، ذلك البطل الذى لا يغلب ، والذى لا يعاب الفرار من لقائه !

ثم ها هو ذا عنتره يبادر هذا البطل بظعنة فيخز صريعاً ، لا يجرؤ أحد على الدنو منه لمواراته التراب ، فيترك هكذا طعاماً للسباع والنسور . !

وهكذا تجيء كل الصور التى جاء بها عنتره في شعره عن صولاته في الحرب .. كلها تحكى الواقع في قصد واعتدال .. وهكذا أيضاً تجيء جميع الصور التى تحكى قصص البطولة في الأدب العربى .. كلها حديث عن الواقع ، البعيد عن المبالغة والخيال ..

لقد تهرس العرب بهذه الطبيعة ، وقبلوا تحديها لهم بكل ما لديها من شراسة وقسوة ، وأبى عليهم كبرهم أن يستزلوا عليها بخيالهم آلهة من السماء تتحكم في مصائر الناس ، وتغير من حقائق الأشياء ، كما أبى عليهم كبرهم أن يفروا من بين يدي الواقع ، وأن ينقلوا بخيالهم إلى عالم الآلهة ..

فالذين يرمون الأمة العربية بضعف الخيال حين لا يجدون في تراثها الأدبى هذا القصص الملحمى الذى يملأ مسرح الحياة بالآلهة ، وأنصاف الآلهة — الذين يرمون الأمة العربية بهذا لم يقوموا على التعليل الصحيح لخلو التراث الأدبى العربى من مثل هذا القصص الملحمى ، وهو أن اعتزاز العربى بذانيته ، وحرصه على صحبة ذاته كما هى — هو الذى حمله على أن يعيش واقعه متحدياً لكل ما فيه غير فار منه ، أو مستمين عليه بأية قوة أو حيلة من خارج ذاته !!

* * *

ونستعرض الأدب العربى كله ، شعره ونثره ، فلا نرى فيه شيئاً من هذا الذى عرف في الأدب اليونانى مثلاً من هذه الملاحم التى تحكى عن

بتلك الحروب التي أغرقت في الوم ، وأغربت في الخيال ، فارتفعت بالآدميين إلى سماوات الآلهة ، وأنزلت الآلهة إلى دنيا الناس ، وخلطت بعضهم ببعض ، وجمعت بين السماء والأرض ، فكانت تلك المشاهد الحربية التي قبلها العقل وعاش فيها زمنا ، حتى إذا استيقظ من غفوته ، وصحا من أحلامه نظر إلى هذه المشاهد نظره إلى ما يقع له من أحلام ، تجمع الغرائب والنقائض ، وتحشد العجائب والخوارق ، فيعجب بها ، ويلذ له طعمها ، دون أن ينسکر منها شيئا .. إنها أحلام .. أو أضغاث أحلام ، وما على الأحلام من حرج أن تحمل ما تحمل ، من خيالات وخرافات وأوهام !

* * *

فهذا « عمرو بن كلثوم » التغلبي ، صاحب المعلقة المشهورة ، التي عدها قومه بنو تغلب مفخرة مفاخرهم ، كما أنها عدت في الأدب العربي أقرب شيء إلى أدب الملاحم ..

إن الظروف التي قيلت فيها تلك المعلقة كانت ذات شبه كبير بتلك الظروف النفسية التي كان يعيش فيها أصحاب الملاحم والأساطير .. فقد روى المؤرخون أن عمرو بن كلثوم قال معلقته تلك في حال كانت تتسلط على نفسه فيها سيطرة ملتزمة من الحمية والأنفة ، وتثور في كيانه ثورة عارمة عاصفة للانتقام والتجدي .. فهو — والحال كذلك — قد كان في حال من الانفعال والهباج إلى الحد الذي يملك عليه زمام تفكيره ، فلا يقف عند معقول ، ولا يلتفت إلى واقع.

ومع هذا فقد جاء ما جاء في هذه المعلقة ملتزما حدود الواقع ، كما نما التقطته آلة مصورة .. فلا شيء فيها يمكن أن يقال عنه إنه من خيال الشاعر أو نسيج أحلامه .

يقول عمرو في معلقته تلك .. مخاطباً الملك عمرو بن هند :
أبا هندٍ فلا تمجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهنّ حمرا قد رَوينا
ونحن إذا عماد الحى خُرْتُ على الأحفاض نمنع من بلبنا (١)
نجد رهوسهم فى غير رفق فما يدرون ماذا يتقونا
كأن سيوفنا منا ومنهم مخارق بأيدى لاعبين
كأن ثيابنا فينا وفيهم حضن بأرجوان أو طلينا

فهذا مبلغ ما عند الشاعر من نخر بمفاخر قومه ، ومن آثارهم فى الحرب ،
تلك الآثار التى ينبغى أن يمر بها هذا الملك الذى استصغر شأن بنى تغلب ،
قوم الشاعر ، ورأى دونه حسبا ونسبا .. وهى كما ترى تصور الواقع تصويراً
مقتصداً ، لا شئ فيه من الخيال البعيد أو القريب
ونمود فنسأل :

لماذا لم يسكن للعرب خيال كهذا الذى نسج لليونان هذه الملاحم ،
وأراهم هذه الرؤى المعجبة الرائعة ؟ لماذا لم يقم شاعر عربى بمثل ما قام به
« هوميروس » مثلاً ، فيصنع إلياذة كإلياذته ، تحكى الحروب التى كانت
تدور فى الجزيرة العربية على صورة صارخة متصلة ؟
هناك فرضان لا ثالث لهما ..

إما أن يكون الأدب العربى قد كان فيه شئ من هذا فى دور مبكر
من حياته .. دور الرؤى والأحلام .. فكان هناك شعر مغرق فى الخيال ،
يصور المواقع الحربية ، على نحو ما فعل شعراء اليونان فى تصوير حروبهم ..
وأن هذا الشعر قد ذهب به النسيان كما يذهب بكثير من الأحلام .. أو أن
العقل العربى نفسه قد زهد فيه حين صحا ، وأبى أن يصحبه ، وأن يمسك به
ويحرص عليه .. شأن كثير من الشبان يملعون بلعبة طفولتهم وأشياءها
فيروون وجوههم عنها ، ويحرقون شأنها ، على حين يحرص بعضهم على

الاحتفاظ بذكريات طفولته ، ومعايش صباه ، ومعاودة الحياة معها ؟
وهذا الفرض لم يقم له شاهد من شواهد التاريخ ، ينبىء عنه ، أو
يحدث به .

وأما الفرض الثانى فهو أن الطبيعة العربية لم تكن تتقبل أحلام اليقظة
هذه ، حتى فى دور طفولتها الأولى .

وأنها كانت فى وعى دائم ، ويقظة كاملة منذ يومها الأول فى الحياة ،
تحت ظروف الحياة القاسية التى لا تدع لأحد أن يغفو أو ينام ..
وهذا الفرض هو الذى نميل إليه ، ونأخذ به فى التعليل لخلو الأدب
العربى من قصص الأساطير ، وشعر الملاحم .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن قصور العرب أو تقصيرهم فى خلق مثل
هذه الملاحم وتلك الأساطير لم يكن لنقص فى طبيعتهم . ولا لضعف فى
ماسكة الخيال عندهم ، كما يقول بذلك المستشرقون ويردده المستغربون منا .
وإنما كان ذلك عن احترام لشخصيتهم أن يلبسوها غير لباسها ، وأن يميروها
ما ليس لها .. فإن اعتزاز العربى بشخصيته ، واحترامه لها ، وتقديره
لمشخصاتها كان يأبى عليه أن يسكون على أية صورة إلا صورته تلك التى
عرفها ، وعاش فيها .. فهو مؤمن أو وثق الإيمان بذاتيته ، حريص أشد الحرص
على أن يحتفظ بكل ماله من سمات وصفات .. أيا كانت تلك السمات وهذه
الصفات ، وأيا كان لونها ومذاقها .

ولقد كان عجباً من العجب أن يخرج عربى عن شخصيته ، وأن يتبدل
بها شخصية أخرى ، وقعت لعينيه موقع الإعجاب ، ونزلت من نفسه منزل
الأمل ، فيسكون هذا منه حديثاً يروى ، وسابقة يرى الناس فيها حدثاً له
طرفته وغرابته معاً .

كان الشاعر الفاتك الصعلوك «تأبط شرأ» نادرة فى شجاعته وفتكه وهذه

عدوه ، وكان في صورته تلك أمنية يتمناها الكثير من الناس ، وأملأ ياملون أن يكونوه .. ولكن أحداً منهم لم تحدثه نفسه أن يدعى هذه الدعوى ، وأن يلبس لباساً بطل شراً ، إذا كان كل منهم عظيماً عند نفسه .. إذا فاته بعض ما عند تأبط شراً أو غيره من صفات فإنه يفوته أو يفوتهم هو بصفات هي له دونهم .. هكذا تقوم نظرة العربي إلى نفسه ، إن نظرة ملوها الإعجاب ، والإكبار .

وتلد الأيام أعجوبة من أعاجيبها ، ويحىء إلى تأبط شراً من يقول له : لتبع لى اسمك ، فإننى أريد أن أحمله لأحمل ما يقع فى الأسماع له من رهبة وخشية واحترام .. ثم إن لك فى مقابل هذا ما تطلب ..

واتفق الرجلان ، وأخذ كل منهما اسم صاحبه ، ومضيا : كل بما معه . الرجل ومعه اسم « تأبط شراً » ، وتأبط شراً ومعه « أبو وهب » وهو اسم ذلك الرجل ، وما قدم له من عوض !!

وكان هذا الموقف الغريب المثير مما احتاجت له شاعرية « تأبط شراً » فتحرك لسانه بهذه الأبيات :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها تأبط شراً واكتنيت «أبا وهب»
هبيه تسمى اسمى وسميت باسمه فأين له صبرى على فادح الخطب؟
وأين له بأس كبأسى ونجدي وأين له فى كل فاجعة قلبى ؟

حادثة غريبة عجيبة ، تستأهل تناقل الحديث عنها ، والعجب منها .. ولو كانت فى غير الأمة العربية لكانت شيئاً مألوفاً ، بل ودون المألوف ، فما أكثر ما ينسلخ الناس عن ذاتيتهم ، وما أكثر ما يتبدل شخصياتهم ، وكأنها أثواب يخلعونها ، ويلبسون غيرها من غير حساب أو تقدير .. يكون الإنسان اليوم على رأى فإذا هو فى غدٍ على نقيض هذا الرأى ، ثم هو بعد غد على خلاف الرأين .. وهكذا .. ويكون الساعة على طريق ، فإذا هو بعد

ساعة أو ساعات على طريق عكس اتجاه طريقه الأول . وما ينكر هو شيئاً من ذلك على نفسه ، وما ينكره عليه أحد .. إذ هم جميعاً ذلك الرجل .
وليس ذلك من خلق العربي أبداً ، إن شخصيته واضحة ووضوح الطبيعة ، كلها في هذا المراء ، راسخة رسوخ ما نبت عليها من صخور وجبال . وإن الصفات التي يشتمل عليها لا يتحول عنها أبداً ، إنها ملتزمة له التزام لون بشرته الجلده .

فبعيد — والأمر كذلك — أن يتخلق في خيال العربي قصص كهذا القصص الأسطوري الذي عاش في العقل اليوناني ، ولدت مثل « الإلياذة » وغيرها من القصص الذي تغنى به شعراء اليونان .

إن واقع الحياة البدوية وما فيها من قهر وفسوة قد قيد العرب في دائرة الواقع ، فلا يتعدونه ، ولا يخرجون عنه بحال ، حتى في أحلامهم ورؤاهم ، إذ كان يزود طوارق الأحلام عنهم ثقل هذا الواقع الجاثم فوق صدورهم ، والذي لا يسمح لحلم مسعد أن يطوف بهم أبداً ، فإن ألم بهم شيء من هذه الأحلام المسعدة في لحظة خاطفة لم يفسح لهم الرجاء في أن يعيشوا فيها على أمل طيب إلى يوم تأويلها ، بل تدفع الحياة ذلك عنهم دفعا ، وتريهم منها يداً خشنة قاسية لا تلين بخير ، ولا تجود بإحسان .. حتى لقد كان مثل هذه الأحلام المسعدة ألوانا من السكيد والخلداع الذي ترميهم بها الحياة ، لتزايد في قسوتها وبلاتها .. يقول شاعرهم :

إل الله أشكو أننى كل ليلة
إذا نمت لم أعدم طوارق أوهام
فإن كان شراً فهو لاشك واقع وإن كان خيراً فهو أضغاث أحلام

هكذا الحياة في الصحراء القفر الجديب ، لا مكان للخيال فيها ، بل كل ما فيها حقائق يقضى لا تنام ، ولا تنيم !
الحمر مثلاً عند كثير من الناس مجال فسيح للهرب من الواقع الكره ،

وانخلاع من الحياة وما فيها من مكاره ، وانطلاق بلا حدود ولا قيود ،
 في آفاق الأحلام وأضغاث الأحلام .. ولكنه — أى الخمر — فى صحراء
 العرب ، يفقد هذه الخاصة ، وتقص الحياة الواقعية الجائفة بصدرها على
 الإنسان ما فيه من أجنحة ، فلا يقدر على أن يحمل العربى إلى أبعد من
 خيمته ، وما يسقى عليها من رمال ! مهما عل من الخمر ونهل !
 يقول المنخل البشكيرى :

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير
 فإذا انتشيت فإنى رب الخورق والسدير
 وإذا صحت فإنى رب الشوبة والبعير !

فى لحظة واحدة يسقط الشاعر من حالق ، سقطة يسفك عليها دمه ،
 وتتكرر أضلاعه ، أو يندق عنقه ، ويهرب كل ما كان قد انعقد بين عينيه
 من سحب تؤذن بالمطر وتبرق بالغيث .. — إنه كما قلنا — لون من ألوان
 السكيد والتدبير ، تزيد به الحياة فى فسوتها ، وتضاعف من مرارتها .

إن العربى فى اعترازه بذاتيه ، وفى شعوره بالتغلب على الطبيعة — ليجد
 فى تصورات الأمانى ، وفى طوارق الأحلام التى تخرج به عن واقعه ،
 حياة لذاته ، وفراراً من الميدان الذى قدر له أن يواجه الحياة فيه حتى إن
 ذلك الشعور ليخطر على خيال الشعراء أن يبعد كثيراً عن أرض الواقع ..
 وحتى أن الشاعر الجاهلى امرأ القيس ؛ مع انطلاقه فى الحياة ، ومع ميله إلى
 اللهو والعبث ، لم يقبل أن تكون الأحلام والأمانى مورداً له فى صحو أو
 نوم .. يقول امرؤ القيس :

ألا قاتل الله الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخواليا
 وقولك للشئ الذى لا تناله إذا هويته النفس باليت ذاليا

واعتراز العربى بشخصيته ، وإيمانه بذاتيته ، ورضاه عنها هو الذى أكّد

في نفسه أنه على الصورة التي لا يرضى الحياة إلا بها ، ولا يقبل العيش إلا معها ، وأن عزيزاً عليه أن يتخلى عن تلك الصورة لحظة ، أو ينفصل عنها ولو في الخيال والوهم .. ولهذا نستطيع أن نجعل هذه الطبيعة المتأصلة في نفس العربي سبباً أصيلاً لما ينسب إلى الأدب العربي من قصور في الأدب التمثيلي ، وإلى خلو الحياة العربية من مسارح التمثيل قبل أن ينتقل إليها ذلك من الأمم الأخرى .. وذلك احتفاظاً من العربي بشخصيته ، وضماناً لها أن يلبسها — ولو للحظات — شخصية أخرى .

هذا ، وإن بسكن قد فات الأدب العربي تلك الألوان الجميلة من الخيال وطيبونه ، فإن مافيه من جمال الصدق وروعه وجلاله لعوضاً من كل شيء .. فالصدق جميل رائع معجب بذاته ، مستغن بطبيعته عن الألوان والأصباغ والحلى .. فسكر إذا وجد اللغة التي تحسن عرضه ، وتجلي عن وجهه ؟ .

ولقد رأينا كيف صور عنزة في أبيات قليلة أكثر من معركة من معارك البطولة ، كان يخوضها في بسالة ورباطة جأش ، ويخرج منها ظافراً منتصراً .. كل ذلك في غير تم ويل ، ولا تخيل ، بل هو الواقع في حق وصدق ! وكذلك ما رأيناه من عمرو بن كلثوم في الأبيات القليلة التي رويناهها من معلقته !

إن كلا الشاعرين معترّ بشخصيته ، شأنه في هذا شأن كل عربي ، حيث يرى أن من الإزراء بتلك الشخصية والانتقاص من قدرها أن يغير من مشخصاتها ، أن يزينا بألوان وأصباغ مجلوبة من خارج ذاته !

هكذا العربي في شعره كلها ، حتى المرأة التي تدعوها طبيعتها إلى التجميل والتزين ؛ كانت تؤثر أن تستغنى بجهاها المطبوع — على أي جمال مصنوع ، أيأ يكون !

وقد كشف « المتنبي » عن فضل ما بين الجمال المطبوع الذي لا يراه الرائي

إلا في البادية، وهذا الجمال المصنوع الذي يملأ وجه الحياة في المدن والحوضر،
إذ يقول :

أَفَدَى غِلَاءَ فَلَا مَاعَرَفَنَ بِهَا مَضَغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبَغَ الْحَوَاجِبِ
وَلَا خَرَجْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً أَعْنَاقَهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِبِ
حَسَنَ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبَ بِنَظَرِيَّةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حَسَنَ غَيْرِ مَجْلُوبِ

* * *

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه في تعليل هذا القصد في الخيال عند العرب ،
ونظرتهم إلى الحياة تلك النظرة الواقعية أن « أخبار » الشاعر الفارس عنتره
التي عرفتها الجاهلية على نحو ما صورها بها صاحبها في شعره — هذه الأخبار —
حين خرجت من حياة البادية مع العرب في فتوحاتهم ونزلت معهم الأمصار
ودارت في عقول الناس هناك — تولدت منها هذه الملحمة الشعبية التي ألفها
« الجهمشيارى » في العصر الفاطمي ، في مصر ، فلا بها حياة الناس ، وشغلهم
بها عن الواقع الذي كان ينبغي أن يعيشوا فيه . . وذلك لما فيها من إغراب
بعيد في الخيال ، خدرت به ملكات التفكير ، فأصبحت ترضى بهذا الغذاء
من صيد الأوهام ، بل تتمثله في حياتها ، وتولد منه خيالات ، تولد
عنها خيالات . . وهكذا !

والذي يعمن النظر في أساليب الحياة التي كانت تتحكم في العصر
الفاطمي ، يرى أنها حياة ملونة بألوان وأصباغ كثيرة ، دخلت على حياة
الناس في مادياتهم ومغنوياتهم كلها . . ولا زالت آثار هذا العصر في البناء ،
والزخرفة ومخلفات القصور من أثاث ومتاع — تشهد بما بلغته الحياة إذ
ذاك من الإسراف في الزخرف والصنعة ، والإغراب في البعد عن الطبيعة . .
وكان من هذا أن صبغت حياة « عنتره » بهذه الألوان الصارخة ، وصورت
شخصيته بتلك الصورة التي ليس بينها وبين الحقيقة من شبه إلا ما بين حقيقة
الأشياء وظلالها . . ساعة الغروب !

ونخلص من هذا إلى القول بأن هذا النقص الذى يجده الباحثون والدراسون للقصة فى الأدب العربى ليس عن نقص فى مملكات الأمة العربية ، ولا عن قصور فى خيالها ، أو اعتلال فى مزاجها ، كما يقول بذلك أو نحوه كتاب الغرب ، ويأخذ به ، أو يردده كثير من أدبائنا .

وكلا ، فإن خلو الأدب العربى الجاهلى من قصص الملاحم والأساطير إنما يرجع — كما قلنا — إلى أمرين :

أولهما : تلك الشجاعة السادرة التى يحمل العربى أكبر قدر منها فى قلبه ، وهو بتلك الشجاعة استطاع أن يواجه الحياة فى أقصى ظروفها وأسوأ أحوالها ، وأن يعيشها كما هى ، دون أن يحجب واقعها عن نظره بأى لون من ألوان الأمانى والأحلام التى من شأنها أن تصيب النفوس الضعيفة بالتخدير وبالذهول . . فكان العربى فى صحن دائم ، وفى يقظة واعية مدركة لكل ما يحيط به ، ولهذا فإننا لا نجد فى الحياة الجاهلية عند العرب تمانجده فى الحياة اليونانية ، والاغريقية من اصطناع الآلهة لكل شأن من شئون الحياة وفى كل ما يسوء أو يسر منها . . وفى ظل هذه الآلهة المتوهمة بتحريك الناس وبوحياهم يعملون ، وبأمره يأترون . . إنها القدر الذى يتحكم فى مصائر الناس ، قد صورته فى هذه الآلهة ، ثم أنطقوا هذه الآلهة ، على لسان كهنتها بما يشاء هؤلاء الكهنة أن ينطقوا به : . أما العرب الجاهليون فإنهم واجهوا الطبيعة بشجاعة واحتملوا قسوتها وضراوتها بعزم وجد فلم يروا إلا أنفسهم وإلا واقع الحياة الذى بين أيديهم دون أن يموهوه بالوهم ، أو يلونوه بالخيال .

وثانيهما : أن هذه الصحة التى صاحب العربى الحياة عليها قد جعلته يحرص أشد الحرص على شخصيته ، وأن يحسك بقوة كى مشخص من مشخصاتها ، فلا يرضى بأى بديل منها ، بل إن هذا الشعور قد امتد إلى كل شئ يتصل به . . من أهل وعشير ، وعادات وتقاليد . ولهذا كان أشد ما واجه الدعوة الإسلامية من العرب هو هذا الحفاظ الشديد على موروثات الآباء

والأجداد ، وذلك الاستمسك القوي بحمام عليه من تلك الموروثات كما ذكر القرآن عنهم قولهم « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون »

ولهذا أيضاً كانت أعظم سبة يسب بها العربى أن يخرج عن قبيلته ، ويلتحق بغيرها . . إنه العار الذى لا يحصى ، والذى يتوارثه الأبناء عن الآباء أبداً الدهر !

ولقد كان أقصى ضربة يوجهها المرء إلى قبيلته أن يؤذنها بالتحول عنها إلى قبيلة أخرى ، يجد عندها ما لا يجد فى قبيلته من نصرة ونجدة . . وإنه إذ يصرح بهذه الثقة ليمثل له هذا المستقبل الأسود المشئوم الذى يلفه ويلف ولده من بعده ، وسرعان ما يمسك نفسه عن هذا المراد الخزى المحجل !

وحادثة واحدة حفظها الأدب العربى لشاعر ساء من قومه أن يخذلوه ، وألا يدفعوا عنه يد العدو على الوجه الذى يريد ، فلا يجد أنقع لغليله منهم ، ولا أبلغ لنكايته فيهم ، ولا أبرد لصدرة الملتهب — من هذا الهجاء الذى يرميهم به . . إذا يقول ^(١)

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لومة لانا
لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر فى شئ وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مقفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

إنها أمنيات تمنهاها الشاعر ، فسكانت سياطاً من نار عليه وعلى قومه ، وسمتهم بسما الخزى والعار ، وألبستهم لباس المذلة والهوان على مدى الأزمانه وتطاول الأجيال .

(١) هو قريط بن أنيف من بلعبر

ولشناعة هذه الفعلة وسوء مغبتها فقد تحاماهما من تدفعهم المواقف إلى مثلها من أقوامهم، فيطوون أنفسهم على ما يعتدل في كيانهم من غيظ وحنق، أو يذهبون به مذهبا آخر، لا تخف فيه موازين قبيلتهم إزاء قبيلة أخرى .. وهذا ما فعله الشاعر الجاهلي « السنفرى » حين آذن قومه بالتحول عنهم إلى أقوام آخرين .. لكنهم من عالم الحيوان والوحوش ، لا عالم البشر والناس .. يقول :

أفيحوا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل
ولى دونكم أهلون: سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيال^(١)
هم الأهل لا مستودع السر عندم مذاع ولا الجارم الجانى لديهم . علم
فهو وإن قطع صلته بقومه أو أزمع قطعها ، لا يستبدل بهم قوما
آخرين ، إذ هم عنده — على ما ساءه منهم — خير قوم ، ولكنه صائر إلى
معاشرة الوحش فى القفار ، حيث لا خير فى الناس جميعا بعد أن افتقد الخير
فى قومه .

وهذا الحفاظ الشديد من العربى على شخصيته ومقاومتها ، من طباع ،
وغرائز ، وعادات ، وأخلاق ، وهذا الاعتزاز الذى تنطوى عليه نفسه ،
لنسبه ، ودمه ، وقومه .. كل هذا قد حمى الأمة العربية من أن تنطمس معالمها
فى طوفان الأحداث والكوارث التى ألمت بها .

كما أنه حمى الواقع من أن تطفى عليه أمواج الأوهام والخيالات ، وبهذا
كانت اللغة العربية وآدابها صورة صادقة للواقع الذى تتشكل منه صور
الحياة فى الجزيرة العربية .

° ° °

(١) السيد : المذنب ، والعملس : القوى ، الأرقط : النمر ، والزهلول : الألس ، والعرفاء :
ذات العرف ، والجيال : الضبع .

ولعل سائلاً يسأل: إذا كانت قسوة الحياة في الجزيرة العربية قد أطارت من عقول العرب كل خيال يتحدث إليهم بما يخلق بهم في سماوات الآلهة ، ويدنيههم مما في أيدي هؤلاء الآلهة من مفاتيح يتحكمون بها في شئون الناس ، وفي أقدارهم — إذا كان ذلك كذلك فكيف يعلل للخيال الأسود المشغوم أن تخلو منه عقول هؤلاء القوم ، وكل شيء حولهم يغرى به ، ويسوقه إليهم سوقاً غنياً لا يستطيع دفعه أو قهره ؟ قد يكون مفهومنا أن تطير من آفاق الحياة في هذه الصحراء الجديب كل وجوه الآمال الجميلة المسعدة ؛ واشكن ليس من المفهوم أن تطير معها وجوه الشؤم والشقاة . . إنه لا بد إذا طار أحد الوجين ، أن يبقى الوجه المقابل له ! وإذن فقد كان من الطبيعي أنه إذا خلا الأدب العربي من قصص الملهاة ألا يخلو من قصص المأساة ، بل وأن يعمّض هذا النقص في ذلك الجانب بالزيادة المفرطة في الجانب الآخر .

ونقول : إن ذلك قد يكون مع النفوس الضعيفة أو المريضة ، إذ أنه حين تعبس الحياة في وجهها ، وحين تضعها وجهاً لوجه مع الشدائد والأحوال تخور وتهاوى ، وتترافق في عينها خيالات اليأس ، وتحيط بها أوهام الضياع ، فتستسلم في غير مقاومة ، وتلقى بنفسها لقمة سائغة في فم هذه الأوهام والخيالات التي تتسلط على خوارطها وأفكارها ، فتنسجج من خيوطها المظلمة قصصاً مجللاً بالسواد ، ملطخاً بالدماء !

هذا شأن النفوس الضعيفة في ملاقات الشدائد والأحوال ، سواء في ذلك الأفراد والأمم . . ولكن الأمة العربية حين رمتها الأقدار بهذه القسوة القاسية التي فرضتها عليها ظروف الحياة ، لم تستخز ، ولم تستسلم ، بل استقبلت هذه الرميات القاسية ببأس دونه بأس الحديد ، وبثبات دونه ثبات الجبال ، وبصبر دونه صبر الجمال . . بل لقد أكسبتها هذه الضربات جلادة ، وصلابة وتمرساً على لقاء الأحوال ، واحتمال الشدائد والمحن ، فكانت إذا أمسكت الحياة ضرباتها عنها وقتاماً ، أنسكرت هذا الموقف ، وعملت على التحول عنه

بما توقع فيما بينها من غارات وحروب . يقول شاعرهم (١) ، وقد أنس إلى
حياة البادية واطمأن إليها ، على حين نظر إلى حياة الحضر نظرة تفرق
واستخفاف :

فمن تكن الحضارة أعجبت	فأى رجال بادية ترانا ! ؟
ومن ربط الجحاش فإن فينا	قناً صلباً وأفراساً حسانا
وكن إذا أغرن على جناب	وأعوزهن نهب حيث كانا
نزلن من الضباب على حلول	وضبة إنه من حان حانا !
وأحيانا على بكر أخينا	إذا لم نجد إلا أخانا ! !

ومن أجل هذا لم يقع في خيال العربي شيء من هذه التصورات الخفيفة
المفرقة التي تغشى الناس حين تنزل بهم مثل هذه الشدائد والأحوال ، بل
لقد استقبل العربي هذه الحياة المجذبة بكل ما فيها من قسوة وضراوة . .
بنازها كما ينازل الأبطال في ميدان القتال ، ويصمد لها صمود من يرى
الموت أرضى لنفسه وأهنأ لقلبه من أن يفر من المعركة ، فذلك القرار لم
يكن أبداً مما تقبله نفس العربي أو تتجه إليه !

يقول شاعر الحماسة في أحد مواقف الهول - والموت للنفس بمرصده
يمسك نفسه ، ويحملها على موطن الموت في صبر ورضا :

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عز	فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى	فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يمت بسأم ويمرم	وتسلمه المنون إلى انقطاع

• * •

(١) هو النخل البشكري .

نخلص من هذا كله إلى القول بأن الأدب العربي كان أدباً واقعياً ، لم تمنح به شطحات الخيال إلى مجاوزة الواقع ، والخروج على حدوده ، وأن العربي لم يسمح لخياله أن يلعب به ، وأن يحدده عن وجوده ، وأن يحجب عنه الرؤية الواضحة للعوامل المحيطة به ، والتي يقف منها دائماً موقف الحذر المستعد لمواجهة ، وقهرها ، والخلاص منها .. هذا ، وقد ظل العربي قائماً على هذا الوجه من الحياة ، لا يتحول عنه أبداً ، في صحوه أو سكره ، في يقطعه أو نومه .. حتى في مقام الشعر الذي تهتاج له مشاعر الشاعر ، فتدسس على مدركاته ، وتسوق إليه كثيراً من الرؤى والخيالات - في هذا المقام لم يأخذ الشعر بالقدر المقدور له من الخيال الذي هو لازمة من لوازمه ، وركن وطيد من أركانه عند الأمم الأخرى . . إن الشعر العربي كما رأينا في تلك الأمثلة القليلة التي سقناها - كان يلبس ثوب الحقيقة والواقع ، غدير ملون بأي لون من أصباغ الحياة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن جمال الحقيقة وجلالها قد ألبسها حلة رائعة معجبة من الحسن والبهاء ، فترق على بحياه ألقى الصدق ووضائه .. ونود أن نذكر هنا أن الأدب العربي - وخاصة الشعر قد اعتمد اعتماداً قوياً على الصور البيانية ، وخاصة مرايا التشبيه التي تنعكس عليها الحقيقة ، فتبدو مكثرة ، يتخيلها الرأي ذات وجوه وهي وجه واحد ، ويحسبها أكثر من شيء وهي شيء واحد ! .. ولا نحسب أن هذا الإسراف في استجلاب صور التشبيه لجلاء الحقائق إلا تعويضاً لما كان يمكن أن يقوم به الخيال في هذا المقام .. ونحسب أن هذا التعليل هو أقرب وأنسب ما يعمل به لهذه الظاهرة - ظاهرة الاستكثار من صور التشبيه - في الشعر العربي .

فالمعلقات وهي الصورة المكتملة للشعر الجاهلي معرض زاهر بصور التشبيه وألوانه .. حيث لا يكاد يخلو بيت من صورة تشبيهية أو أكثر .

ولا نريد هنا أن نستعرض المعلقة ، ونقيم الشواهد من كل معلقة منها .. فذلك من شأنه أن يتحيف الحيز المقدور لهذا البحث : « القصيدة في

القرآن . وحسبنا أن تلقى نظرة عابرة على إحدى المملقات ، ولنكن مععلقة امرئ القيس مثلاً .

ففي هذه المعلقة التي بلغت عدة أبياتها نحو اثنين وثمانين بيتاً ؛ قد بلغت فيها الأبيات التي تحمل تشبيهاً نحو سبعة وأربعين بيتاً .

فمن ذلك قوله :

تري بمر الأرم في عرصاتها وفيماها كأنه حب فلفل

فهو يشبه بمر الظباء بحب الفلفل - وهذا التشبيه قد أصاب كبدي الحقيقة ، إذ ليس هناك ما يشبه بمر الأرم حجاً ، ولوناً ، غير حب الفلفل ، وما فيه من نتوء صغيرة ، هي وتلك النتوء التي في بمر الظباء على حد سواء . وكقوله :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى ممرات الحى ناقف حنظل

فهو يقول إنه وقف متخفياً وراء شجر السمر ، يرقب محبوبته وهي تهباً للرحيل مع قومها ، لحف حلقه لمرارة الفراق كما يحف حلق من ينقف الحنظل وينقبه ، ليستخرج ما فيه من حب . . . !

ووراء هذه الصورة صورة أخرى تستشف منها ، وهي أن الحنظل إذ يكظم الأنفاس بمرارته ، فإنه يسيل الدمع أيضاً . . وإذن فلكى تكتمل الصورة التشبيهية ينبغي أن ننظر في المشبه إزاء المشبه به ، فمرى امرئ القيس وقد انهملت عيناه بالدموع ، من غير تشنج أو تحيب . . . إنه بكاء مرصامت !!

ومن التشبيهات الجميلة الرائعة التي وردت في هذه المعلقة تلك الأبيات التي وصف فيها الشاعر ظاهرة المطر في الصحراء الجديب ، وما يحدثه في الكائنات هناك : من جماد وحيوان ، وإنسان . . من حيوية دافقة ، وفرحة مسعدة .

إنها مظاهرة رائعة تحتشد لها وجوه الحياة كلها في فرحة غامرة ، ونشوة
متدفقة ، يقول امرؤ القيس في وصف هذا المشهد :

أصاح ترى رفا أريك وميضه كلع اليدنين في حبي مسكل (١)
فعدت له وصبحتي بين ضارج وبين العذيب بُعداً مامتاً مل (٢)
فأضحى يسح المساء حول كُتَيْفَةٍ
يكب على الأذقان دوح الكنهبيل (٣)
ومر على القنان من نفيانه فأزول منه العضم من كل منزل
وتباء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما إلا مشيداً بجندل
كأن ثبيراً في عرائن وبله كبير أناس في بجاد مزمل (٤)
كأن ذرا رأس المجير غدوة من السيل والغشاء فأسكة مغزل
وألقى بصحراء الغبيط بعاهه زول الغمانى ذى العياب المحمل
كأن مكاً كى الجواء غدبة صبحن ملاقاً من رحيق مفلقل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنايش عنصمل

وعلى ما فى الآيات من كلمات غريبة لبعدها عهدنا بأغة العرب الجاهلين ،
فإن ما يتسرب من خلال هذه الكلمات من مشاعر وأحاسيس ، وما ينبض
فى كيانها من أنغام وألحان ليجهلنا بمشهد من هذا المنظر العجيب الرائع ، كأنما
تعيد الطبيعة مرصه من جديد !

هذا ، وليس الشعر وحده هو الذى حمل « جرثومة » القصة العربية ،
واشتمل على خائرها ، بل كان هناك إلى جانب الشعر « الأمثال » التى

(١) الحى : السحاب المترام .
(٢) ضارج والعذيب : موضعان .
(٣) دوح الكنهبيل : الشجر العظيم .
(٤) ثبير : جبل .

يقوم وراءه ، أو أمام كل مثل منها قصة واقعية أو خرافية ، وإياه ليس نعمة شك في أن الأمثال العربية هي أبرز وجه يمكن أن نرى عليه ملامح القصة العربية ، حيث يضم المثل في كلمات قليلة ، قصة كاملة ، بأشخاصها وأحداثها ، فإذا ذكر المثل استدعى ذكره حضور القصة كلها ، التي كان المثل المضروب عنوانا عليها . . كما كان إلى جانب هذا أيضا ما يدور على ألسنة الناس في أسفارهم من أحاديث تتخللها أو تغلب عليها النوادر والأخبار المثيرة عن الحروب وما يقع فيها ، والأسفار وما يطلع عن الناس منها . . كل هذا وأشباهه كان يلبس لباس القصة ، ويتمجل ميلادها ، ثم لا تزال بها الأيام تغذيها وتنميها حتى تكون ملحمة شعبية ، كقصة سيف ذي يزن ، وقصة عنبرة وأبي زيد الهلالي ، وغيرها . . فهذه القصص وإن تكن الحياة الجديدة التي عاشتها الأمة العربية بعد الإسلام قد أنضجتها وبلغت بها مبلغ القصص إلا أن أصولها الأولى عربية محض ، تكن فيها خمار القصة ، وموحياتها التي تستجيب للخيال ، وتنطلق معه في كل اتجاه .

بعد هذا نستطيع أن نقول إن القصص القرآني الذي سنلتقي به — بعد قليل — لا بد أن يكون على نمط هذا القصص العربي الذي عرفه العرب في جاهليتهم ، والذي هو في طبيعته صور منتزعة من الواقع ، بعيدة عن الخيال ، مقتصدة في التحويل والمبالغة إلى أبعد حدود الاقتصاد كما رأينا في هاتين الصورتين ، اللتين صورهما كل من عنبرة وعمر بن كلثوم في معلقتهما ، وكما رأينا في المثلين اللذين عرضنا قصتهما آنفا . .

والقصص القرآني — من قبل أن نلقاه — قصص واقعي ، مصنئ من كل شائبة من شائبات الخيال . . فكان مجيئه على تلك الصورة — ولا سبيل إلى مجيئه على غيرها — كان مجيئه على تلك الصورة — ملائما للبيئة التي نزل فيها ، إذ جاء مسامتا لما اعتادته الأمة العربية في حياتها من تسجيل الأحداث ، وتصوير الوقائع في هذا اللون الملزم للواقع ، الواقف عند

حدوده . . ثم كان ملاءماً أيضاً للحياة كلها في أزمنتها وأماكنها ، إذ كانت
موارده كلها من عيون الحقيقة ، ومن ينابيعها الصافية التي لا تتغير على الزمن
ولا تنزل عن مكانها من العقول على اختلاف منازلها وتفاوت حظوظها
من العلم والمعرفة .

وذلك ما ستره واضحا في لقائنا مع القصص القرآني ، الذي قد آذن
لنا الآن أن نسمى إليه ، وأن نهياً لاستقباله .

الباب الأول

القصة ومفهومها في القرآن

الحدث التاريخي والقصة :

القصص القرآني كله عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن . . فهو - والأمر كذلك - وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق ، فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث ، وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة . . ونحن في دراستنا هنا للقصة القرآنية لانقف كثيراً عند هذه الحقيقة - أعني واقعية القصص القرآني . . من حيث أنها ذات قيمة كبيرة في الدراسات التاريخية ، وإنما الذي يعنيننا منها أولاً وبالذات ذلك الأثر الذي لها في الجو الفنى للقصة ، بمعنى أن القصة الأدبية في القديم وفي الحديث لم تقف عند الحقيقة التاريخية وحدها ، بل كانت تعتمد على كثير أو قليل من عنصر الخيال ، الذي من شأنه أن يلون الأحداث بألوان غير ألوانها ، وأن يبدل ويغير في صورها وأشكالها ، وذلك لكي تبدو الأحداث مختلفة في وجوها عما ألف الناس أن يروها عليه ، وهذا هو - في الغالب - اللون الذي تعتمد عليه القصة في الإثارة والتشويق ١١ فهل إذا اعتمدت القصة اعتماداً كلياً على الحقيقة المطلقة - كما هو الشأن في القصص القرآني - يمكن أن تكون قصة بالمعنى المفهوم للقصة ؟ وهل يمكن أن تماسك أحداثها ، وأن يتلاحم نسجها من غير أن يتخلل نسيجها قليل أو كثير من خيوط الخيال ؟ وهل تكون القصة المنسوجة من خيوط الحقيقة والواقع ، قادرة في صورتها تلك على أن تشوق وتثير ؟ ثم هل هي قادرة بعد هذا على أن تمتلك الشعوب ، وتستولى على الوجدان ، وتقود إلى مآشير إليه من منازع وغايات ؟ وهذه الأسئلة ليس هنا جوابها ، حيث أن لها مكاناً خاصاً في هذا

البحث .. ولكن الذى نريد أن نقرره الآن هو أن القصة القرآنية بنيت بناءً محكما من لبنات الحقيقة المطلقة ، التى لا يطفو بحماها طائف من خيال ، ولا يطررها طارق منه .. ثم هى مع هذا « قصة » حيث سعى القرآن كل مجاء على هذا النحو قصصا ، فقال تعالى مخاطباً النبى الكريم : « نحن نقص عليك أحسن القصص » .. وقال جل وعلا « إن هذا لهو القصص الحق » !

هكذا أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدث به من أخبار القرون الأولى : فى مجال الرسالات السماوية ، وما كان يقع فى محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال ، وبين مواكب النور وجحافل الظلام .

الشخصية والحادثة :

يقوم العمل القصصى على محورين : إما الشخصية ، وإما الحدث .. بمعنى أن تكون الشخصية هى الفلك الذى تدور حوله الأحداث ، أو أن تكون الأحداث هى المركز الذى تدور فى دائرته الشخصيات ! وقد تتوازن فى العمل القصصى الشخصية والحدث ، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع ، مرة بعد مرة .. !

ويلاحظ فى القصص التاريخى غلبة الشخصية على الحدث .. فيكون الشخص هو محور الحركة فى القصة ، وهو متعلق بالأحداث الجارية فيها .. ويصدق هذا أيضاً على القصص المتخيل ، إذ كان الناس دائماً يحبون أن يروا أنفسهم فى غيرهم ، وأن يشهدوا الإنسان وكيف يواجه الأحداث التى يواجهونها ، وكيف يكون موقفه حيالها .. ذلك أن الناس لا يعينهم الحدث من حيث هو ، وإنما يعينهم إذا كان مما يقع فى حياتهم ، ويتصل بوجودهم ، إذ هو لا يقوم فى هذا الوضع إلا بإنسان أو فى إنسان .

ومن هنا كان أبطال القصص التاريخى أو الخيالى - أشخاصا لا أحداثا ، وقل أن يكون بطل القصة ظاهرة من ظاهرات الطبيعة ، أو كائنا من

الكائنات غير الإنسان .. فإن كان شيئاً من ذلك كان منظوراً إليه دائماً من خلال الإنسان ، مؤثراً أو متأثراً بهذه الظاهرة أو هذا الكائن إحتى القصص الحيوانى هو حيوانات تنطق بلسان إنسان، أو أناس تلبس جلود حيوانات !

وفى القصص القرآنى نرى تدييراً عجبياً معجزاً ، فى توزيع المشاهد القصصية توزيعاً محكماً متوازناً ، وبين الحدث والشخصية .. فلا تجد موقفاً من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها ، أو الحادثة وحدها .. وإنما تلتقى الشخصية الحادثة ، أو الحادثة مع الشخصية فيتخلق من اجتماعهما مضمون ، هو الذى يصبح بطل الموقف ، فتسكون شخصيته أبرز شخوص القصة ، ويسكون صوته أندى الأصوات فيها ، وأقواها سلطاناً على المشاهدين أو المستمعين !

فالأشخاص فى القصص القرآنى - أياً كانوا - ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم ، وكشف أحوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم .. وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية فى مجال الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفى صراعها مع الخير والشر ، وفى تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار ..

إن الشخصية فى القصة القرآنية ، إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذى تؤدي فيه دورها كشاهد من شواهد الإنسانية ، فى قوتها أو ضعفها ، وفى استقامتها أو انحرافها ، وفى هداها أو ضلالها ، وفى رشدتها أو غيها ، وفى حكمها أو سفاهتها ... إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الإنسانية ، وتتشعب فيه مذاهب سعيها ومسلكها فى مضطرب الحياة !

وكذلك الشأن فى الأحداث التى يعرضها القرآن فى قصصه .. إنها ليست إلا محاكاة اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الإحسان والسوء منهم .. !

لماذا التكرار في القصص القرآني ؟

من أجل هذا ، كان ذلك الذي نشهده في القصص القرآني ، من عرض الشخصية في معارض كثيرة ، حيث تستدعيها الأحداث والمواقف . . فنجد كثيراً من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة في القرآن الكريم ، وذلك في أزمنة متباعدة ، في عرض القرآن لها ، حسب زوله . . ولو أن الشخصية كانت مقصودة قصداً أصلياً لذكرت أحداثها ومواقفها في معرض واحد . . فكننا نجد قصة موسى مثلاً في سورة واحدة ، وكذلك قصة إبراهيم وعيسى ونوح وغيرهم . . ولكن الذي كان هو أننا نرى الشخصية مع حدث من الأحداث تتفاعل معه ، ونحس به إلى غايته في موقفه منها أو موقعها منه . . . ثم ينتهي المشهد ، ويطوى الموقف . حتى إذا مضى زمن — طال أو قصر — طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر ، يأخذ دوره معه ، ثم يمضي . . وهكذا .

وعلى هذا ، فإن التكرار الذي يقال عنه في القصص القرآني ليس تكراراً لحدث ، ولا إعادة للواقعة بصورتها التي عرضت بها أولاً ، بل إن أكثر القصص القرآني تتكرر فيه الشخصية ، ولا تتكرر فيه الحادثة . وإنما الذي دعا إلى القول بالتكرار في القصص القرآني ، هو ظهور الشخصية في مواقف متعددة ، فوقق للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل والتكرار الممل ، الذي لا تدعو إليه داعية ، من حال أو مقام : — هكذا يقول الذين أعماهم الجهل من أن يروا الحقيقة الواضحة من هذا التكرار .

إن الشخصية في القصص القرآني ليست مقصودة لذاتها ، ولا كان ذكر الأشخاص منظوراً إليه نظرة القصص التاريخي إلى شخصياته ، وعرضهم في معارض البطولة . . في أي مجال من مجالاتها .

وإنما الأحداث والوقائع . . أولاً ، ثم الشخصيات التي تلبست بها أو

لا يستهيا الأحداث .. ثانياً .. لأن مناط العبرة والعظة إنما هو في الحدث ، وفي موقف الناس منه ، وتلقيهم له ، من بين محسن ومسيء ، ومقبل ومعرض ، ومستقيم ومنحرف .. ومن خلال هذه المواقف التي يقفها المحسنون أو المسيئون من الأحداث تنكشف وجوه العبرة والعظة منها .. وهذا ما جاء القصص القرآني من أجله .

لا نكرر في القصص القرآني :

الحادثة - كما قلنا - هي مركز الدائرة في القصص القرآني ، والشخصية أو الشخصيات هي التي تحرك هذا المركز غالباً . لتلأ به الفراغات كلها من المركز إلى المحيط .

والذي يتتبع القصص القرآني يجد أن أحداثه كلها تقريباً تدور في محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيها من العبودية للغير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الإله الواحد ، الخالق ، رب العالمين .. ولذلك كانت دعوات الأنبياء هي الشخصية الغالبة في القصص القرآني ، بحيث ساغ أن يسمى القصص باسم صاحب الدعوة فيقال : قصة يوسف ، وقصة موسى ، وقصة يونس ، وقصة هود ، ونوح ، وصالح ، وآدم .. وهكذا .. والملاحظ الذي نود أن نشير إليه هنا مرة أخرى ، هو أنه لو كانت الشخصية - لا الحادثة - هي مناط القصة ودافعها الأصلي لجاءت قصة كل نبي ، أو كل شخصية غير نبي في موضع واحد من القرآن ، في سورة أو بعض سورة . ولما كان هناك داعية لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة في مواضع متباعدة في القرآن .. واسكن إذا نحن اعتبرنا الحادثة - لا الشخصية - هي محور القصة - لم نجد هذا التمزق في الشخصيات ، وإنما نجد في كل حادثة أو موقف قصة كاملة ، وإن كان هذا لا يمنع من أن نلتقي بالشخصية الواحدة في أكثر من حدث ، وفي أكثر من موقف ، مع

تباعد الزمان والمكان . كما أن هذا لا يمنع من أن نفترق الأحداث المتماثلة ويجتمع بعضها إلى بعض في مساق واحد ، وفي عرض متصل ، في سورة أو بعض سورة !

وهذا ما نجده فعلاً في القصص القرآني !

في أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت أحداث كثيرة لعدد من الأنبياء ، حيث تتماثل الأحداث ، وتتشاكل الوقائع ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة^(١) ، وفي هذا الجمع بين دعوات الرسل ، وفي تشابه أقوامهم في الكفر والعناد ما يعطى دلالة واضحة مؤكدة لما في الإنسان من عناد وكنود ، وأن الإنسان هو الإنسان حيث اختلف زمانه ، ومكانه .

مفهوم القصة في القرآن :

وهنا يلقانا هذا السؤال : إذا كان القرآن قد سمى الأحداث والوقائع قصصاً ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحي ، ومع المحتوى الفني للقصة ، كما تعرف في الآداب الإنسانية قديماً وحديثاً ؟

ونحن حين ننظر في المعنى اللغوي للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني . . فالقصة مشتقة من القص وهو تتبع الأثر ، قال تعالى . « وقالت لأخته قصيه »^(٢) أي : تتبعي آثاره .. على ما انتهى إليه أمره .

ومن هذا قولهم : قص الأثر أي نظر فيه ، واقتنى آثاره وشراذه .. يقال قصصت أثره واقتصصته وتقصصته ، وخرجت في أثر فلان قصصاً ،

(١) انظر في هذا مثلاً سورة يونس ، وهود ، والشعراء ، والنمل ، والقصص .

(٢) سورة القصص : ١١ .

وفي القرآن . « فارتدا على آثارها قصصا » .. وقص عليه الرؤيا والحديث .
وفي القرآن الكريم « لا تقصص رؤياك على إخوتك » .

فالقص للأثر أشبه بما يعرف في عصرنا هذا بتصوير « البصمات »
أو رفع الآثار وتصويرها ، ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت ،
وليمسك بما يقدر على إمساكه منها .

والقصة في القرآن إنما تتبع أحداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى
عرضه ، ومن هناك تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن قصصا ، مما يدخل
في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ .. وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ
. بمعنى التحدث عن الماضي ، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعملا
فيه ، جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز .. فاستعمل النبأ
والأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة ، زمانا أو مكانا ، وفيها في
أطوائه .. على حين أنه استعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الوقائع
القريبة العهد بالوقوع ، أو التي لا تزال مشاهدتها قائمة ماثلة للعيان ..

ففي النبأ والأنباء يقول الله تعالى ، في أصحاب الكهف : « نحن نقص
عليك نبأهم بالحق ^(١) » .. ويقول سبحانه في شأن الأمم الماضية وما وقع
فيها من مثلات . « ذلك من أنباء القرى .. نقضه عليك .. منها قائم
وحصيد ^(٢) » .. ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين :
« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من
قبل هذا ^(٣) » .. وفي الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين
« ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ^(٤) » ..

(١) الكهف : ١٣ .

(٢) هود : ١٠٠ .

(٣) هود : ٤٩ .

(٤) مد : ٣١ .

ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة ، « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ^(١) » . والتحديث بالأخبار إنما يكون في هذا الوقت الذي تقوم فيه الساعة .

وانظر في قوله تعالى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » نجد أن القصص القرآني إنما هو من قبيل الأنباء .. أي الأخبار التي بعد الزمن بها ، واندثرت أو كادت تندثر ؛ ولهذا سماها القرآن : من أنباء الغيب .

وحين ننظر في القصص القرآني نجد أنه يجيء : دثته كلها من الماضي البعيد ، دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو متوقعات المستقبل .

قصص الأحداث الجارية والمستقبلية :

ولعل سائلا يسأل : لماذا لا يكون من تدبير القرآن أن يجيء بقصص يصور الأحداث الواقعة الدائرة في محيط الدعوة الإسلامية ، أو بأحداث مستقبلية ، تنبأ لسير هذه الدعوة عبر المستقبل ، كما نرى ذلك في كثير من القصص الأدبية التي يكشف بها أصحابها عن رؤى جديدة في ضباب الأحداث المطلقة على الحياة ، أو في المستقبل الذي ينتظر الحياة ؟ .. لماذا لم يكن من تدبير القصص القرآني مثل هذا القصص الأدبي ؟

والجواب على هذا من وجوه :

أولا : قد جاء القرآن الكريم بصور كثيرة من أحداث الوقائع الدائرة في محيط الدعوة الإسلامية في أوقات نزوله ، فكشف ضبابها ، وأبان عن وجه الحق فيها ، كما نرى ذلك في حديث الإفك ، وفي وقعة بدر وأحد ، وحنين ، وفي بيعة الرضوان ، وصلاح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء به القرآن في

أحوال وشئون ملازمة لنزوله . كذلك جاء القرآن مخبراً عن أحداث ووقائع مستقبلية . فأخبر سبحانه وتعالى عن الصراع الذى كان دُراً بين الفرس والروم ، وأن معركة ستدور بعد بضع سنين ، وسيكتب النصر فيها للروم على الفرس : « ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ^(١) . » كما أخبر سبحانه عن فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا فى قوله : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ^(٢) . » كما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . ^(٣) وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : كنت أقرأ هذه الآية وأسأل: أى جمع هذا الذى سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . فرأيت الجمع المهزوم !

فهذه أحداث تحدث عنها القرآن ، وكشف عن وجهها من قبل أن تقع ، فجاءت على الوجه الذى صورها به ، دون أن تقتلحة واحدة من ملاحظها ، وكان الذين استمعوا إلى تلك الآيات وأمثالها حين نزولها ثم شاهدوا أحداثها حين وقعت — كانوا كأنما ينظرون إلى شخوص ماثلة فى جانب ، وإلى صورها الواقعة فى المرأة فى جانب آخر !

وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصاً ، لأن القصص — كما قلنا — تتبع للآثار الماضية ، والتفات إلى وراء ، لا نظر إلى قدام !

ثانياً : ليس القصص مجرد أحداث تروى ، وإنما هو أحداث تتفاعل وتتحرك ، وتلد عظمات وعبراً . . وليس كذلك الشأن فى الأحداث القائمة

(١) سورة الروم : ١ - ٣

(٢) سورة النصر

(٣) سورة الفجر : ٤٥

أو المستقبلية التي يكشف القرآن عن وجهها ، إذ أن أهم ما فيها هو هذا الكشف ، الذي يتم بمجرد زول الآية أو الآيات المتعلقة بها هذه الأحداث .
ثالثاً : الاشتقاق اللغوي للقصة أو القصص كما رأينا ، هو كشف عن
 آثار ، وتنقيب عن أحداث ، نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد ، لتذكير الناس بها ، وإلفاتهم إليها ، ليكون لهم منها عبرة وموعظة . ، هكذا كان القصص القرآني ، ولهذا جاء ...
 قال تعالى : لقد « كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء » ، وهدي ورحمة لقوم يؤمنون ^(١) .

رابعاً : في القصص الأدبي الذي يعالج الحياة الواقعة أو المتوقعة يختلط
 فيه الخيال بالحقيقة ، وتكثر فيه الشحطات والرؤى والأحلام ، ولا يجد الناس غرابة في هذا ، فهم إنما يأخذونه على هذا الوجه ، وينظرون فيه على تلك الصفة . . وليس كذلك ما كان من القرآن من حديث عن الواقع أو المستقبل ، إنه ليس رجماً بالغيب ، ولا خيالاً من الخيالات ، ولا حلماً من الأحلام ، ولكنه الصدق المصفي ، والحق المبين . . ومن هنا لم يكن لهذه الأخبار التي جاء بها القرآن مدخل إلى القصص ، الذي لا بد فيه من عناصر الغرابة أو المفارقة أو الاستحالة ، التي تنير الدهش والاستغراب . والتي يلعب فيها الخيال في عقول الناس دوراً كبيراً . . فصان الله سبحانه أخبار الغيب التي نطق بها القرآن من أن تقع في نفوس الناس هذا الموقع ، وأن يتدسس إلى مشاعرهم منها هذا الإحساس .
 القصة والحكاية .

ومع هذا فإنه يلقانا سؤال آخر ، هو :
 لماذا لم يطلق على القصص القرآني اسم الحكاية بدلاً من القصص ؟ .

والحكاية كما نرى هي أقرب شيء إلى موضوع هذا القصص ، إذ كان إعادة للماضى ، وتشخيصاً ، ومحاكاة له ، لا سيما أن لفظ « القصص » يوحي بأن جانباً من الخيال قد اختلط به ، على خلاف الحكاية التى تدل على محاكاة مماثلة للحدث أو الأحداث ، دون تزييد عليها .

والجواب على هذا — والله أعلم — هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ، ولا تمثيلاً لشخصها ومشاهدتها ، وإنما هو بمثابة لها ، وإعادة لوجودها ، فى النظم المعجز الذى ينقل إلينا الماضى أو ينقلنا إليه ، فنطالع هناك وجوه الحياة ، فى زمانها ومكانها ، حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله ، كما سدرى ذلك عند النظر فى بعض الصور من هذا القصص . . . فكان لفظ القصص ، أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التى عرضها القرآن ، إذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتبعية ، ثم الوقوف عليه بذاته ، لا على صورته أو ما يشبه صورته .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص القرآنى هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تتلبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع ، ومع هذا فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من قصص ، من الإثارة والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة ، الأمر الذى لا يصلح عليه القصص الأدبى بحال أبداً .

اعتراضات وقمويهاات :

وهناك اعتراضات كثيرة يلقيها بعض الدارسين والباحثين فى وجه القول بأن القصص القرآنى تسجيل لأحداث واقعة ، وأنه جاء بهذه الأحداث كما وقعت ، دون أن يدخل عليها شيء من التحوير أو التبديل ، أو الزيادة والحذف ، بحيث يغير من وجوها ، أو يخالف بين واقعها وما يقصه منها . وتتخلص هذه الاعتراضات فى .

أولاً : استحالة نقل أى حدث من الأحداث مع جميع ملبساته ،
فهناك كثير من الأمور التى تصحب وقوع الحادثة ، ثم لا يكون لها ذكر ،
إذ لا حاجة إليها فى عرض المحتوى للشخص للحادثة ، وإبراز الملامح ذات
الدلالة القوية عليها . . ولو أن نقل الحادثة كان يعنى الإمساك بكل جزئية
من جزئياتها لكان ذلك — على استحالاته — ضرباً ، بل ضرباً من العبث
الذى يدعو إلى الملل والسآمة ، ويذهب بكل ما فى النفس من طاقات الصبر
على احتمال هذا اللغو والسخف ١ .

تصور — مثلاً — حادثة عابرة من الحوادث الكثيرة التى تقع وتكرر
كل يوم ، بل كل ساعة ، على مرأى ومشهد من الناس ، ولتكن سيارة ،
صدمت شخصاً . طفلاً أو رجلاً أو امرأة ، فى أحد شوارع القاهرة ، وفى
وقت من أوقات ازدحامها . . . وانظر . . أتستطيع قوة بشرية أن ترصد
مجريات هذه الحادثة وأن تمسك بكل قريب وبعيد منها ؟ .. السيارة .. لونها
شكلها ، رقمها . . سائقها هيئته . . طوله . . عمره . . ثم الشخص الذى صدم
أوصافه الجسدية . . وكيف صدم ، وأين كانت الصدمة ، ومدى آثارها . .
ثم اجتماع الناس ، والتفافهم حول الحادثة ، ثم بعض ما كان من تعليقات
عليها . . ثم عملية رجال الشرطة والإسعاف . . ثم انجلاء الموقف . . وعودة
الحياة إلى سيرتها فى هذا المكان . . ذلك أقصى ما يمكن أن يمسك به إنسان
من شهود هذه الحادثة . . من صورها وما دار فى محيطها . .

وإن ذلك لقليل إلى كثير جداً مما وقع هناك ، ولم يلتفت إليه أحد ،
ولم يكن فى حساب أحد . .

فكم من الناس شهدوا هذا الحادث مثلاً ؟ وكم الذكور وكم الإناث
منهم وكم الصغار وكم الكبار ؟ وما أسماؤهم ! وماذا يلبس كل واحد ؟ . .
ثم ما شأن كل إنسان من شهود هذه الحادثة ؟ . . إلى أين كانت وجهته ؟
وماذا تركت الحادثة فى نفسه ؟ وهل انطلق بعدها إلى غايته ، أم انصرف إلى

وجهة أخرى ؟ .. إن لكل إنسان من هؤلاء قصة طويلة .. لانكاد ننتهى .

وهل ينتهى الأمر عند هذا ؟ كلا ، فإن هناك مئات بل ألوف من الأمور الصغيرة أو الكبيرة التى تتصل بهذه الحادثة . . يمكن أن يجمع منها كتاب ضخم لو تتبعها متتبع ! ثم يبقى بعد ذلك كثير من مجريات الأمور قد أفلت منه ، ولم يقدر على الإمساك به ، ولو استعان بمئات من الأشخاص والأدوات المسجلة والمصورة .

وهذا يكشف لنا عن أمرين .

أولهما : استحالة نقل الحديث مهما صغر ، نقلاً كاملاً ، بملابساته جميعها ، بما حواه زمانه ، واشتمل عليه مكانه .

وثانيهما : أن نقل جميع الملابسات التى تتلبس بالحادث — على فرض إمكانها — لا داعية إليها فى التعرف على وجه الحادثة ، والاستدلال على مشخصاتها ، والوقوف على ما يحتاج إليه منها . إذ يكفى من هذه الشخصيات ما يصور الملامح الواضحة للحادث ، ويشخصه .

وبدهى أن القصص القرآنى إذ نقل صوراً من أحداث الماضى لم ينقل كل ما تلبس بها من قريب وبعيد ، وإنما أخذ منها ما كان ذا دلالة واضحة عليها ، وأهمل ما لاندعو الحاجة إليه . . فى تصويرها وتشخيصها !

وإذ كان ذلك كذلك فى القصص القرآنى .. فإنه يعنى أن هذا القصص لم يحمىء بالواقع كله ، بل أخذ بعضاً وأعرض عن بعض . ويعنى أيضاً أن هناك تفاوتاً واختلافاً كثيراً أو قليلاً بين هذا القصص وبين الواقع . . وهذا يعنى — مرة ثالثة — أن القصص القرآنى مغاير للواقع على نحو ما . . وهذا يعنى — مرة رابعة — أن هذا القصص قد تصرف فى الأحداث كما ينصرف الكاتب القصصى فى الأحداث الواقعة ، حين يؤلف منها قصة من القصص ، أو رواية

من الروايات وهذا يعنى أخيراً أن أنباء القصص القرآنى ليست الواقع كما وقع ، إذ أنها ليست الصدق كل الصدق ١١ .

هذا مدخل من المداخل التى رآها بعض الباحثين آذنة لهم بالقول بأن للقصص القرآنى شأنه شأن القصص الأدبى . . لم يقف عند حدود الأحداث الواقعة ، بل تصرف فيها على الوجه الذى يقيم منها قصصاً فنياً ، الأمر الذى جملة يغير من وجوه الواقع ، ويخرج به على غير مألوف الحياة ، حتى نجد النفس إقبالاً عليه . لما فيه من جدة وغرابة ، ولما فى هذه الجدة والغرابة من إثارة ١ .

وثانياً : يقدم أصحاب هذا الرأى أدلة على قولهم هذا من القرآن الكريم نفسه . . حيث أن القرآن قد جاء بصور متعددة مختلفة للحادثة الواحدة ، وتحدث عنها حين عرضها بأساليب مختلفة . . تتفاير بها صور الحوادث وألوانها .

فتلا :

فى قصة موسى :

يذكر القرآن الكريم ابتداء رسالة موسى ، وتكليم الله سبحانه وتعالى له وذلك فى أكثر من موضع من القرآن الكريم .

فى سورة طه ، يقول الله تعالى : « وهل أتتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنستُ ناراً لعلى آتاكم منها بقبس أو أُرجد على النار هدى ، فلما آتاها نوردى ياموسى إني أنا ربك فاخضعْ لعليك إنك بالواد المقدس طوى . . وأنا اخترتك . فاستمع لما يوحى : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى . . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . . وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أنوكأُ عليها وأهشُّ بها على غنمى ، ولى فيها مآربُ أخرى . .

قال : ألقِها يا موسى ، فألقاها فإذا هي حية تسمى ، قال خذها ولا تخف سعيدها سيرتها الأولى ، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أخرى ، لنُريكَ من آياتنا الكُبرى ، ^(١) .

وفي سورة النمل نجى القصة هكذا : « وإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ .. » إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بعذاب قيس لمosكم تصطلون ، فلما جاءها نودي أن يدرك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين .. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم .. وألقي عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبر أو لم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء ، فإني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين » ^(٢) .

وفي سورة القصص نجى هذه الأحداث .. يقول الله تعالى : « فلما قضى موسى الأجل ، وسار بأهله ، آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله ، امكثوا إني آنست ناراً على آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، وأن ألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبر ، ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين ، اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضمم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين » ^(٣) .

هذا ، ويلاحظ أن السور الثلاث التي وردت فيها هذه القصة هي سور

(١) سورة طه : الآية ٩ - ٢٣

(٢) سورة النمل : الآية ٦ وما بعدها .

(٣) سورة القصص : ٢٩ - ٣٢

« مكية » .. ومعنى هذا أن الداعى الذى جاءت له هذه القصة هو هو ، لم يتغير ، حيث كانت الدعوة الإسلامية فى مواجهة قريش ، ولم ينجى بعد الدور الذى واجهت فيه اليهود مواجهة مباشرة بعد الهجرة ! .

وإذن فهذا التكرار ، وهذا الاختلاف فى وجوه العرض لم يكن عن مقتضى دواع جديدة دعت إليه ، فيتغير الأسلوب بتغير الموقف ومن يقفون فيه . فمن أى داع إذن كان هذا التكرار ! .

وندع الإجابة على هذا السؤال هنا حيث أن للإجابة عليه مبحثاً خاصاً فى هذا الكتاب ، نتحدث فيه عن التكرار القصصى فى القرآن ودواعيه .

أما الآن فإننا نود أن نكشف عن وجوه الاتفاق أو الاختلاف فى هذه المواقف التى عرضتها هذه الآيات القرآنية فى السور الثلاث ، لهذا الجانب الذى عرضته من قصة موسى عليه السلام ، وذلك لترى وجه هذا التكرار .. وهل كان لمجرد التأكيد والتقرير بعرض الوقائع فى هذا اللون من التكرار .. أم أن ذلك كان لإضافات جديدة تزداد على كل عرض منها ، لتستكمل من ذلك كله الصورة التى يراد تقريرها . والتى تمثل فى مجموعها الواقع كما وقع !! أم أن ذلك كان عن سهو أو نسيان كما ذكر من قبل ! أم أنه عن قصور وعجز .

وننظر فى هذا فنرى أن الحادثة التاريخية تتضمن العناصر الآتية :

١ — موسى فى طريق عودته إلى مصر من أرض مدين ، وقد بلغ الطور ، ومعه أهله ، وهناك رأى ناراً موقدة .

٢ — عندئذ طلب إلى أهله أن يمشكثوا حيث هم ، وأن يذهب هو إلى حيث رأى النار .

٣ — غابته من هذا الذهاب ، أنه يريد بهذا أن يحصل على شعلة من النار ليقود منها ناراً يصطفى بها هو وأهله .. أو لعله يجد هناك عند موقد النار من يؤنس وحشته فى هذه المتاهة الموحشة ..

٤ — وهناك قرب النار سمع موسى نداء الله سبحانه وتعالى يخبره فيه أن هذا الذي رآه ليس ناراً ، وإنما هو نور الحق .. وأن المتكلم هو الله سبحانه .. وأنه — سبحانه — قد اختار موسى ليكون رسوله إلى فرعون وإلى بني إسرائيل ..

٥ — وإذ كلف موسى بهذه الرسالة فقد وضع الله سبحانه وتعالى بين يديه معجزات يحتاج بها فرعون ، وأن هذه المعجزات .. هي عصاه التي يلقيها من يده فتتقلب حية عظيمة تسمى .. وبده التي يدخلها ، في جيبه ^(١) ثم يخرجها فإذا هي بيضاء مشرقة وضيفة من غير سوء !

هذه هي أهم عناصر هذه الواقعة التاريخية التي عرضها القرآن الكريم في ثلاثة معارض من النظم القرآني .. في سورة : طه ، والقصص ، والغزل . ولكي يبدو لنا وجه الشبه أو المخالفة بين هذه المعارض .. نجعل بعضها إزاء بعض على هذا النحو :

سورة طه

١ — وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً .

٢ — فقال لأهله .. اسكنوا .. إني آنست ناراً .

٣ — لعلى آتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى .

٤ — فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إني أنا ربك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى .. إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري ...

٥ — وما تلك يمينك يا موسى .. قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش

(١) والجيب هو الفتحة التي يلبس منها الثوب .

بها على غنى ، ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها يا موسى فآلقها فإذا هي حية تسمى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى .

٦ — واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى .
لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى .

سورة النمل

- ١ — وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم .
٢ — إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون .
٣ — فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم .
٣ — وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ، ولم يعقب ،
يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ، وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع ^(١) آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما فاسقين .

سورة القصص

- ١ — فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا .
٢ — قال لأهله امسكنوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخير ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .
٣ — فلما آتاها نودي من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين .

(١) الآيات التسع هي : العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والظوفان والدم ، والحجر ، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أسوأهم .

٤ - وأن ألقى عصاك.. فلما رآها تهتز كأنها جان وليّ مدبراً ولم يعقب..
ياموسى أقبل ولا تخف .. إنك من الأمنين .

٥ - أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك
جناحك من الرهب . فذا نك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم
كانوا قوماً فاسقين .

فهذه خمسة مشاهد أو مواقف فى هذه القصة :

وبلاحظ :

أولاً : لم يجر ذكر المشهد الأول وهو رؤية موسى للنار فى سورة النمل
على حين قد جرى ذكره فى السورتين الآخرين . طه ، والقصص .

وهذا المشهد هو مدخل إلى القصة ، لا يتعلق به غرض أصيل فيها ،
بل هو أشبه بالدقات التقليدية على خشبة المسرح ، التى تسبق رفع الستار
فى الرواية المسرحية . ومع هذا فإن فى كل حال من هذه الأحوال الثلاثة
نفياً خاصاً يهدف به للجو الذى تعرض فيه القصة .. ففى سورة « طه » كانت
القصة امتداداً لتعداد ما حوى القرآن الذى نزل على النبى الكريم من
آيات ، وعبر وعظات ، منها القصص ، وفيه قصة موسى هذه .. وكذلك
الشأن فى سورة النمل حيث تحمىء القصة منبئة عن حكمة الحكيم العالم .
« وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم .. إذ قال موسى لأهله امكثوا إني
آنست نارا .. » .. أما فى سورة القصص فإن هذا المقطع هو امتداد لقصة
موسى كلها متى بدأت من أولها فى هذه السورة ، وشملت قصة حياته من
مولده ، وإلقائه فى البم ، ونجائه ، ونبوته ، ولقائه فرعون ، وخروجه ببني
إسرائيل من مصر ..

ثانياً : حين يرفع الستار عن أول مشهد من صميم القصة نرى صورة

واحدة للمشهد في المعارض الثلاثة في السور الثلاث كما ترى ، .. ففي السور الثلاث جاءت الآية التي تصدر هذا المشهد هكذا . « قال لأهله امكثوا إنى آتست نارا » .. مع تغيير لا يسكاد يحس به ، حيث يزيد في إحداها حرف العطف « الفاء » : « فقال » .. وفي الأخرى تقدمها الظرف « إذ » .. « إذ قال » وذلك مما يطلبه سياق النظم ولا يستدعيه المعنى الذي جاءت الآية لأدائه .

ثاناً : وفي الموقف الثالث ، من القصة نجد اختلافا في مقول القول لموسى .. وإن كان هذا الاختلاف اللفظي لا يغير شيئاً من المعنى ..

ولكن ونحن بصدد البحث في التزام القرآن بمحاكاة الواقع ، ونقل الأحداث على الصورة التي وقعت — فإن هذا الاختلاف يثير كثيراً من التساؤل :

ففي سورة طه يجيء مقول موسى . « لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » على حين يكون مقوله في سورة القصص « لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » ثم يجيء مقوله في سورة النمل هكذا . « سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » . فهناك أمران اقتضاهما هذا الموقف الذي وقفه موسى من أهله حين رأى ناراً فدعاهم إلى الانتظار حيث هم في مكانهم لا يرحونه ، ولا يتحولون عنه بحال .

أما هو فمتنطلق إلى حيث رأى النار ليحقق هذين الأمرين .

وأولهما : هو أن يأتى بجذوة من النار .

وثانيهما : أن يجد عند البار من يؤنس وحشهم ، في هذا المكان القفر الموحش .

وقد رأينا صوراً للتغير عن هذين الأمرين تختلف في كل آية من الآيات
الثلاث في السور الثلاث .

فتارة يقدم أحد المطلوبين على الآخر ، وتارة يؤخر . . . « لعل آتياكم
منها بقبس أو أجد على النار هدى » . . « سآتياكم بخبر ، أو آتياكم بشهاب
قبس لعلكم تصطلون » « لعل آتياكم منها بخبر أو جذوة من النار
لعلكم تصطلون » .

ومرة يكون الحديث عن النار المستجلبة بأنها جذوة ، ومرة بأنها شهاب
قبس ، ومرة ثالثة بأنها شهاب ، وحسب .

وفي آية يكون أحد المطلوبين « خبراً » يلتبس عند النار ، وفي آية
أخرى يكون هذا المطلوب « هدى » يلتبس عند النار أيضاً .

وفي سورتين يصدر المطلوب كله بحرف الترجيى « لعل » على حين
يذكر المطلوب في السورة الثالثة غير مصدر بحرف الرجاء هذا .

هذه الوجوه الكثيرة من المغايرة تدعو إلى التساؤل حقاً . . فهو موقف
واحد لاشك فيه ، وهو قول واحد قيل في هذا الموقف ، فكيف يتفق
هذا مع هذه المقولات الثلاث وما بينها من اختلاف ؟

إن هذا الاختلاف لو كان في القرآن لما كان له هذا الشأن الذى نجده
له هنا في القرآن الكريم ، حيث أن للقرآن مقامه من الصدق في نقل الأخبار
والمشاهد والأحداث ، وحيث أن لكل حرف أو حركة فيه وزنها الذى
يروجع وزن السموات والأرض ! وهذه الصور المختلفة من الأداء في الإخبار
عن الواقع تقبلها من غير القرآن ، لأن المعزل عليه في نقل الأخبار هو المعنى
وهى بجميع صورها هنا تعبر عن المعنى المقصود ، فى جملة ، وإن اختلفت
صور الأداء .

أما القرآن هو الذى يحدث بهذا الحديث ، فهو الصدق المطابق فى جميع

صوره وأشكاله . . وكل صورة من صورته هي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والحق وجه واحد ، لا يدخل عليه شيء مطلقا من تبديل أو تحوير .

وكيف يكون هذا ، وقد جاء الحق في هذه المعارض الثلاثة على ما بينها من خلاف .

أتريد الجواب ؟

إذن ، فلا تمجل ، ولا تضجر . . وخذ نفسك باليقظة وبالصبر معا ، فإننا بين يدي أسرار محجبة ، وكنوز مصونة في روائع الكلم ، لاتأذن بشيء مما عندها ، إلا لمن يقف بين يديها متلطفا ، متأنيا ، متخاشعا !! ودع ما يذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه المقولات الثلاث كانت من موسى في مرقفه مع أهله ، حيث كان ذلك على سبيل التوكيد ، للتسرية عنهم ، والطمانينة لهم ، وإشاعة الغيبة فيهم ، بعد أن ظهرت لهم أمارات الرجاء في ضوء هذه النار .

فهذا الرأي على وجاهته لا نراه يغطي هذا الموقف ، ويقيم له الدليل المقنع . والذي نراه ، ونرجو أن يكون مما أرانا الله ، هو :

أولا : أن مقول موسى لأهله هو قوله : « امكثوا إني آنست نارا » . ولهذا جاء في السور الثلاث على صورة واحدة ، لم يقع فيها خلاف ، أو اختلال في حرف واحد . . « امكثوا إني آنست نارا » . . إذ لم يكن له إلا قول واحد ينطلق منه هذا القول ، وهو أن يثبت أهله في مكانهم ، وألا يأخذوا معه الوجه الذي يريد أن يأخذه ، وهو وجه مجهول لا يدري على وجه التحديد ماذا يطلع عليه منه — وهو ضنين بأهله أن يخوضوا هذه المغامرة معه — فإن كان هناك خير جاءهم به ، وإن كان هناك شر تلقاه دونهم !! ولهذا جاء القول مكررا ثلاث مرات : « امكثوا إني آنست نارا » ليسكون ذلك أمرا ملازما لأهله ألا يبرحوا مكانهم بحال أبدا . .

ثانياً : أن بقية مقول القول لا يعدو أن يكون أحد الصور الثلاث :
« لعلّ آتاكم منها قبس أو أجد على النار هدى » أو « سآتاكم منها بخبر
أو آتاكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » أو : « لعلّ آتاكم منها بخبر أو
جذوة من النار لعلكم تصطلون » وليس في مقدورنا أن نقطع بأيّ منها هو
الذي كان القول الذي أسمعه موسى أهله !

أما المقولان الآخران فهما — في رأينا — بما كان يدور في خلد موسى ،
ويخطر في خاطره ، وهو يحدث أهله بما سيكون من شأنه مع تلك النار
التي رآها ..

فهو بين يأس ورجاء مما سيجد عند النار . فقد يكون موقد النار كب
تجار ، أو قطاع طريق . . . ولهذا فإنه إن صرح بأنه سيأتى بخبر راجع
نفسه ، فقدّر غير هذا التقدير . . ثم عاوده الأمل ، ثم طلع عليه الخوف ..
وهكذا .. ثم قال : لعل وعسى ! وهو موزع النفس بين الأمرين المتطلع
إليهما : الحصول على قبس من النار ، والعثور على الأتيس الذي يبدد مخاوف
هذا المكان المخيف ، ويذهب بوحشته . وهو حريص عليهما معاً ، طامع
فيهما جميعاً ، فهو وإن قدم أحدهما لفظاً فإنه قد يكون هو المقدم في خاطره ،
ثم يدفعه صاحبه ، ويتقدم عليه .. وهكذا .

والنار التي تـَمَوَّر أنه سيحصل عليها ليست في تصويره لها على حال
واحدة ، لأنه لا يدري ما هو الذي يمكن أن سيحصل عليه منها ، أهو
بعض شرارات من النار ، أو هو شعلة منها .

وهكذا تكون هذه الصور المتكررة هي من منطوق موسى عليه
السلام ، ومن الخواطر المتنبسة بهذا المنطوق أيضاً ..

وهذا التصوير الدقيق لأحوال النفس ، ومسارب الخاطر ، لا يمكن أن
يكون في غير القرآن .. ولا يمكن أن يحتمله نظم غير نظم القرآن .

ثم إنه لا يمكن أن يكون على صورة مقبولة مع هذا التكرار ، إلا إذا جاء موزعاً كما هو واقع في هذه المعارض الثلاثة ، وإلا تراكت ألوان الصورة وتنافعت ، ولطم بعضها وجه بعض !

هذا ، ويمكن أن تكون هذه المقولات الثلاث قد خرجت من همس الخاطر جميعها ، وتسربت إلى الخارج تحت ضغط الانفعال النفسى ، فكانت ألفاظاً مسموعة من موسى ، أسمعها أهله ، ليسكونوا على بينه مما وراء هذا الوجه الذى يتجه إليه ، ولا بدرى على وجه التحقيق ماذا هو ملاق عنده !

وفى المشهد الرابع .. وهو الذى يصور وصول موسى إلى النار ، ثم سماعه نداء الحق هناك ، وإبلاغه أن هذه النار التى رآها ليست على ماتصور وتخيّل ، وإنما هى نور الحق جل وعلا .. وأن على موسى — وقد عرف هذا — أن يأخذ لهذا الموقف ما ينبغى له من التوقير والاحترام ، وهنا يؤمّر بخلع ثيابه ، وأن يتهيأ لسماع ما يوحى إليه من الله تعالى .. فلقد اختارته العناية الإلهية ليكون رسولاً من رسل الله إلى عباده — فى هذا المشهد نجد أن الصور الثلاث صوّرت بها المشاهد الثلاثة إنمائها صورة واحدة قد توزعت توزيعاً دقيقاً محكماً ، بحيث أخذ كل مشهد بحظ منها ، يمكن أن يقوم بنفسه ، مستغنياً عن غيره ، فبرى فيه ملامح الصورة كلها مجتمعة ، ومتفرقة كما يمكن إذا انضم إلى المشاهد الآخرين أن يكون معها صورة مجسدة ، تبرز فيها الملامح ، وتظهر المضمّرات ، وما استتر وراء الكلمات !

فنحن نرى من مجموع الصور الثلاث التى تقع لنا من هذه المشاهد الثلاثة أن مكان هذا الحدث كان بالوادي المقدس طوى ، وأنه كان بالجانب الأيمن للبقعة المباركة من الشجرة ، وأن موسى سمع صوت الحق يناديه : « إني أنا ربك .. فأخلق عليك إنك بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله .. لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة

لذكرى ^(١) — « إنه أنا الله العزيز الحكيم ^(٢) » « إني أنا الله رب العالمين » ^(٣) .

وواضح من هذا أن هذه الكلمات التي تفرقت في السور الثلاث يمكن أن تظهر في مشهد واحد ، فيجتمع بعضها إلى بعض على هذا النحو ، دون أن يكون بينها تدافع أو تفكك ، بل إن بعضها ليصافح بعضا في تعاطف واشتياق .. فهي جميعها من قول الله سبحانه وتعالى لموسى في هذا الموقف ، قد حملت كل سورة بعضها منه ، وهذا البعض كاف بذاته لأداء المعنى المراد ، فإذا اجتمع بعضها إلى بعض اتسع إطار الصورة ، فازدادت وضوحا ، وإن لم تتغير محتوئى ومضمونا !

وواضح أيضا أن هذا التكرار في الحديث عن الله — إني أنا ربك . . . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى . . . إني أنا الله رب العالمين . . . إنه أنا الله العزيز الحكيم — هذا التكرار المتلاحق في سرعة وانطلاق إنما اقتضاه الموقف الذي اهتز له موسى من أقطاره ، فكان صوت الحق سبحانه بهذه النداءات المتكررة سكنا لقلب موسى ، وإمساكا لنفسه وقد كادت تذهب شعثا عا !

* * *

أما في المشهد الخامس ، وهو الذى يكشف عن المعجزات التي وضّمها الله سبحانه وتعالى في يد موسى ، وما كان من مرسى حين رأى هذه المعجزات تتفجر من بين يديه لأول مرة — في هذا المشهد نرى فيه ما رأينا في سابقه ، من أن الصورة الكبيرة الجامعة للشهد كله ، قد وزعت بين السور الثلاث ، بحيث يمكن أن يحتل كل مقطع منها في سورته بتأدية المعنى الذى تؤديه

الصورة مجتمعة في مقاطعها الثلاثة ، وبحيث إذا اجتمعت هذه المقاطع تشكلت منها صورة تكشف عن الأجزاء الدقيقة الخفية ، التي كانت تطل من وراء حجاب ، في مقطعها الذي شكلت فيه ١١

ففي أحد المقاطع نرى موسى يتحدث عن عصاه ، ويكشف عن وظيفتها الأصلية التي يعرفها لها ، والتي صاحبها عليها . . الأمر الذي لا نجده في المقطعين الآخرين : « وما تلك يمينك يا موسى . . قال هي عصاى ، أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » (طه : ١٨) .

ثم نرى العصا حين يؤمر موسى بالقائها من يده وهي تنقلب حية تسمى في أحد المقاطع ، ثم نراها تهتز كأنها جان في المقطعين الآخرين . . فتستكمل بذلك الصورة الحقيقة لما صارت إليه العصا . . فهي حية في ضخامتها ، جان في خفتها ونشاطها وحيويتها التي تضاعف من أفاعيلها ، وتضاعف من مشاعر الفزع والطلع منها . . وأنت ترى في تصويرها بالحية قد وصفت الحية بأنها « تسمى » ، ومن هذا الوصف نجد معنى الخفة والنشاط الذي كشف عنه ما وصفت به في المقطعين الآخرين من أنها « تهتز كأنها جان » . . كما نرى في تصويرها وهي « جان » بأنها تهتز - ما يشعر بضخامتها ، لأنها لو كانت دون ضخامة الحية لما كان منها اهتزاز ، بل انطلاق أشبه بانطلاق السهم ؟

فالحية التي تسمى ، والجان الذي يهتز . . كل منهما يعطى صورة واضحة لما انقلبت إليه العصا . ، فهي حية في جان ، أو جان في حية . . (والجان هو فرخ الحيات) وقد جاء في القرآن وصف آخر لما صارت إليه العصا . وهو (ثعبان مبین) . . وهذا الوصف يناظر تماماً الوصفين السابقين لها . فهي ثعبان في خفة الحركة ، ولسكنها ثعبان مبین في عظم الجسم وضخامته !

* * *

وهكذا نجد التكرار الذي يحدث في بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدي

وظيفة حيوية في إبراز جواب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير ، بل لابد أن تعاد العبارة مرة مرة ، لكي تحمل كل مرة بعضاً من مشخصات المشهد ، وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله . .

ولنا أن نشبه ذلك — على بعد ما بين المشبه والمشبّه به — بالتصوير « الفتوغرافي » ، والتصوير السينمائي ، أو التصوير التلفزيوني . . ففي التصوير « الفتوغرافي » . . اللقطة الواحدة تصور المشهد كله . . تصويراً كاملاً ، صامتاً . . فالصورة هنا وإن أعطت جميع ملامح المشهد فإنها تحتاج في قراءتها إلى مهارة وحذق ، لاكتشف عن مضمونها ، أو بعض مضمونها . . أما الصورة السينمائية فإنها تتشكل من مئات وآلاف « اللقطات » حتى تتجسم الأحداث ، وتحرك الشخصيات ، وتكشف كل خافية كانت مخبئة وراء الصورة الفتوغرافية . .

إن تكرار الأحداث القصصية في القرآن هو إعجاز من إعجاز القرآن ، تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لا يُرى لها وجه في أية لغة ، وفي أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه في جلاله ، وروعه ، وسطوته !

وهل شهدت الحياة الكلمة تؤدي ما يؤديه العمل السينمائي اليوم من نقل المشاهد بأبعادها الثلاثة — (طولها ، وعرضها ، وعمقها) — وبحركاتها وسكناتها ، ونطقها وصمتها ؟ وكم تسكف السينما لهذا العمل من لقطات ؟
مئات وألوف !

أما النظم القرآني فإنه ينقل المشاهد بأبعادها ، وأعماقها ، وبحركاتها ، وسكناتها ، ونطقها ، وصمتها ، وبوسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلقطة أو لقطتين أو ثلاثاً للمشهد الواحد كله !

ومن تديير القرآن في هذا أنه لم يجمع هذه اللقطات في معرض واحد ،
(٥ — الفصل القرآني)

حتى لا تتراكم وتتراكم ، بل جعلها موزعة في مواضع متباعدة في القرآن الكريم ، بحيث يمكن أن تستقل كل « لقطه » منها بذاتها ، مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال اللقطات الأخرى المماثلة أو المناظرة لها لوجد منها جميعاً صورة واحدة . . . كأنها اللحن الموسيقى يتألف من أنغام متجانسة . .



وإذن فالذين يقولون إن هذه الوجوه المختلفة في عرض القصة الواحدة لا يستقيم منها القول بأن القصص القرآني قصص واقعي بجميع عناصره ومقوماته — هذا القول إنما يستقيم في نظر من ينظر إلى القرآن على أنه مجرد كلام من الكلام ، يرسل على عواهنه ، ويلقى به بغير حساب ولا تقدير . . ولكنه لا يستقيم أبداً عند من ينظر في القرآن بعين بصيرته ، فيرى في كل كلمة من كلمات الله عالماً فسيحاً لا حدود له ، مشرقاً بأضواء الحق من أرضه وسمائه .



ثالثاً : وما يراه أصحاب هذا الرأي مؤيداً وجهة نظرهم فيه أيضاً أن القرآن جاء بلسان عربي مبين ، والشخصيات التي وردت في هذا القصص لم يكن لسانها عربياً ، كعوسى ، وفرعون ، ويوسف وإخوته ، والعزیز ، وامرأة العزيز ، وأصحاب الكهف ، وما كان بينهم من حديث ، ثم الأنبياء وأقوامهم . . إلى كثير من الشخصيات التي نطق عنها القرآن بلسان عربي . . .

ففرعون مثلاً نطق عنه القرآن بمقولات كثيرة ، كقوله : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ » . . وقوله : « يا هامان ابن لي صرحاً لعلني أبلغ الأساب ، أساب السموات فأطلع إلى إله موسى » . .

وإنه مما لا شك أن فرعون لم ينطق بهذه الكلمات في مقاطعها وحروفها، وإنما الذى نطق به هو ما حملت هذه الكلمات من معنى . . . فهى ترجمة أمينة صادقة لما قاله وكذلك كل ما ينطق به الأنبياء وأقوامهم . . .

وهذا النقل أياً كان من الدقة والإحكام فى نقل المعانى من لسان إلى لسان — فإنه على أى حال صورة مخالفة للواقع ، ولو فى الصورة والشكل ، وإن لم يكن فى المضمون والمحتوى .

وأى مخالفة أكبر من أن تتبدل ألسنة الناس ، فينطقوا بغير اللغة التى نطقوا بها أفقرعون — ولغته المصرية القديمة — ينطق بالعربية الفصحى ، وأصحاب الكهف — ولا تُعرف لغتهم على وجه التحديد — يتحاورون بلسان عربى مبين . . . وهكذا ؟

وأكثر من هذا .. الحيوانات والجماد ينطقها القرآن بهذا البيان المبين . . . « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين ^(١) » . . « قالت نملة يأيمها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ^(٢) » . . والهدد بنطق بين بدى سليمان قائلاً : « أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأً يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . . ^(٣) » .

فهذه المفارقات وأشباهاها قد جعل منها بعض الدارسين منفذاً آخر ينفذون به إلى القول بأن القصص القرآنى شأنه شأن القصص التاريخى ، الذى لا يكون قصصاً إلا إذا لونه القاص بألوان من خارج الواقع ، وجعل

(١) سورة فصلت : ١١

(٢) سورة النمل : ١٨

(٣) سورة النمل : ٢٢ — ٢٣

لنفسه سلطاناً على الأحداث ، فيغير ويبدل ، كما يقتضى الحال ، وتستدعى أجواء القصة .

دعاوى متهافة :

والحق أن هذه الاعتراضات كلها مباحكات ، وتلبises متهافة ، لاتقوم على أساس من الحجة الواضحة ، والمنطق المستقيم . .

فالقول بأن القصص القرآنى لم يحمل فى أطوائه الأحداث التى جاء بها متلبسة بكل ما صاحبها من صور وأشكال ، ساكنة ومتحركة ، فى مجال الزمان والمكان على سواء — هذا القول — مع تسليمنا به — لاتقوم منه حجة أبداً ، على أن القصص القرآنى قد بعد عن الواقع فى قليل أو كثير . .

ذلك أن الحياة كلها بأزمعتها وأمكنتها ، وأشخاصها وأحداثها ، حاضرة متيدة كلها بين يدى الحكيم الخبير ، الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ، ولا فى السماء ! .

وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تأريخاً للحياة كلها وأحداثها ، وإنما هو عرض لبعض المواقف ، وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن نحدث فى النفس أثراً ، وتقيم فى الضمير وازعاً ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة للعبرة والعظة .

فالقصص القرآنى لا يمسك بالأحداث الواقعة فى الحياة كلها ، وإنما يمسك من الأحداث والوقائع ، بما يراه مجلياً عن عبرة ، كاشفاً عن عظة ، لتنتفع بها الدعوة الإسلامية فى مقام الدعوة إلى الله ، والإنابة إليه . . ولا يعنى أن يكون الحدث مدوياً صارخاً ، أو مزلزلاً عاتياً بقدر ما تعنيه الدلالة التى يدل عليها ، والعظة التى ينطوى عليها . . ولا شك أن هذه الأحداث والوقائع التى يقطعها القصص القرآنى من « شريط » الحياة هى الصدق الخالص

والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... يقتطعها القرآن زمانا ومكانا وأشخاصا وملابسات ، ثم ينفخ فيها نفخة الحياة فتبعث من مرقدتها ، وقد تساقط منها ماجف من أوراقها وما ذبل من أغصانها . . وإذا هي ثمر طيب ، داني القطوف ، تأخذه العين وتشتهي النفس !

وإذن فليس تخلخيص القصص القرآني من الروائد والحواشي التي لا تغني شيئا في تصوير الحدث وعرضه في معرض الاعتبار والعظة — ليس هذا التخلخيص إلا عملية غريبة وتصفية ، غايتها تنقية الحدث من الشوائب ، وتخليصه من الغثاء والزيد ، ليصفو مورده ، ويسوغ مذاقه للواردين.. وليس ذلك عن عجز أو غفلة عن جميع الملابس التي اتصلت بالحدث من كل جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد .

وهذا التصرف الذي كان من صنيع القرآن في عرض الأحداث ، وفي تخير الجوانب التي تخدم بروز الأحداث ، وتجليتها — ليس مما يصح أن يقال معه : إن القرآن — وقد أباح التصرف في الأحداث على أي وجه من الوجوه — قد أدخل في القصص القرآني ما ليس من صميم الواقع ، أو أنه غير وبدل في معاملة .

فهذه مغالطة — كما قلنا — لأن ما جاء في القصص القرآني هو الصميم من الواقع ، واللباب من الحادث ، وإن يكن ترك ما ترك من حواش وأطراف وزوائد ، وقشور .

وأما القول بأن القرآن نفسه قد جاء بالحادثة الواحدة في صور مختلفة متغايرة ، فهذا أيضا خلط وتخبیط ، جاء عن نظر قاصر لا يرى إلا ظاهر الأشياء ، ولا ينفذ إلى شيء مما وراء هذا الظاهر .

وقد رأينا فيما ذكر القرآن من قصة موسى أن هذا الاختلاف : إما اختلاف غايته تصوير ما توارد على النفس من خواطر ، وما تردد عليها

من صور .. كقول موسى لأهله: « امكثوا إني آتست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .

ثم قوله: « امكثوا إني آتست نارا ، سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » .

وقوله: « امكثوا إني آتست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .

وأنت ترى أن الصورة ظلت واحدة في المقام الذي لم يكن بد من ثباتها فيه ، كقوله لأهله حين رأى النار : « امكثوا » إذ لم يكن ثم تفسير إلى تردد في هذا الأمر وهو أن يمكثوا حيث هم ، وكذلك الشأن في قوله : « إني آتست نارا » فهذا سبب ، لاسبب غيره في دعوته لأهله إلى المكث حيث هم ، وإلى حيث ينطلق هو وحده ليرى ماذا هناك .

ثم كان هذا التردد الذي تذهب النفس في شعابه مذاهب مختلفة ، حين أراد أن يكشف لأهله عما يبغى من وراء ذهابه إلى النار .. إن الأمر هنا مختلف ، فهو لا يدري ماذا يكون هنالك عندها ، ومن يكون موقدها . وأخيراً يصيب عندها أم شرأ ؟ .

ولهذا كثرت وساوسه ، وتعددت خواطره ، فكانت هذه المقولات أصدق تصوير لحاله تلك في ظاهر أمره وباطنه جميعاً فهو يقول : لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى (سورة طه) إنه ينشد قبساً من نار أولاً ، وهو عند النار سيجد إنساناً ماء ، يكشف له معالم الطريق .. ثم يبدو له أن الحاجة إلى الإنسان أشد من حاجته إلى النار .. فيقول لنفسه أو لأهله : « سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » (سورة النمل) هكذا يجيئ بالخبير على سبيل القطع والجزم ، ثم يبدو لها أن هذا مطلب هزئ في

هذا المكان الموحش ، وفي هذا الليل الضارب بجرانه الثقيل المظلم على كل شيء .. إن ذلك الذي بدا له من ضوء النار ربما يكون من خداع الخواص ، ولهذا نراه يعدل عن هذا الخبر المرسل بدون قيد ، فيقيده بهذا الرجاء إذ يقول : « لعل آتيكم منها بنجر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .
(سورة القصص) .

وقد يكون الاختلاف في اللفظ عن الاختلاف في الأحوال والمواقف كقوله تعالى في وصف عصا موسى وما تصير إليه بعد أن يلقيا من يده . فهي مرة « حية تسمى » وهي مرة أخرى « ثعبان مبین » وهي مرة ثالثة « تهز كأنها جان » . فهي صور من أحوال العصا يكلل بعضها بعضاً . . فهي حية في ضخامتها ، وهي ثعبان في خفتها ونشاطها ، وهي جان فيما تثير من رعب وفرع . . ولقد رآها موسى على تلك الصفات كلها ، وصحبها على هذه الوجوه التي تكشفت له منها .

وهذه الصور المتعددة للعصا ، وفيما يتشكل منها حين يلقيا موسى من يده — هذه الصور قد تظهر في مشاهد متعددة ، فتظهر مرة ثعباناً مبيناً ، ومرة حية تسمى ، ومرة كأنها جان . . كما أن هذه الصور جميعها قد تظهر في مشهد واحد ، ولكن يختلف موقعها من العين ، فتختلف صورتها في المنظر ، فتكون وهي قريبة من العين حية تسمى ، ثم إذا بعدت عنها بدت ثعباناً مبيناً ، ثم إذا بعدت أكثر خيل أنها جان ينطلق كالسهم . . وهذا شبه بالطائرة وتصعيدها في السماء . . تصغر شيئاً فشيئاً كلما بعدت عن العين ، وهي تشق طريقها إلى أعنان السماء . . وهذا ما يشير إليه شوقي في وصف طائرانا تصعد محلقة في الجو :

وتسامت فكات أعقبا فنسورا فصقورا فحماما

* * *

وأما أن القرآن قد تحدث بلسان العربي عن السنة غير عربية ، أو نطق

عن دلالة الحال ، كما في تحديده عن الجهاد والحيوان ، فهذا لا يمكن أن يجيء .
منه الادعاء بأن القرآن قد تقول على من نطق عنه ، وإنما هذا الذي نطق به
القرآن مترجماً به عما نطق به الناطقون ، أو نطقت به دلائل الأحوال — إنما
هو المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين لما نطقت به الألسنة ، أو
أشارت إليه دلالات الأحوال ١ .

وماذا كان يمكن أن يكون غير هذا في مثل هذه الأحوال إذا أريد
نقلها وعرضها في الحياة ؟ .

أكان من التدبير الحكيم هنا أن يجيء القرآن بالأشخاص والأحداث
فبيدها من مرقدها ، ويحركها على منبر الحياة من جديد لتنطق هي بما نطقت
به ، أو لتشير إلى ما كانت تشير إليه ؟ .

إن قدرة الله سبحانه وتعالى لا يعجزها شيء .. ولكن هل تحمل الحياة
هذا لو أنه حدث ؟ وهل يلقاه الناس فلا يفتنون به ، ولا يخرجون عن عقولهم
في تحبط مجنون ؟ « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا
عليهم من السماء ملكاً رسولاً » ، ثم هل لو استمع العرب إلى هذه المقولات
التي نطق بها أصحابها ، كما نطقوها بألسنتهم ، أو بأصواتهم — هل يفهمون
شيئاً ، أو ينتفعون مما استمعوا بشيء ؟ .

إن القصص القرآني لكي يكون قصصاً مشعراً نافعاً ، فقد جاء على وفق
الحياة التي يحياها الناس ، ولم يخرج على ما لو فها .. ! ولو جاء على غير هذا
لما كان للناس التفات إليه ، ولو أنهم التفتوا إليه لما وقع لهم منه إلا البلبلة
والاضطراب ١ .

فالناس يتداولون الأنباء ، ويروون الأخبار ويتناقلونها ، على تعدد
الأشخاص ، واختلاف الألسنة .. ثم لا يكون شيء من ذلك حائلاً بينهم
وبين أن يفيدوا منها ، وينتفعوا بها ، ويخلصوا إلى مضامينها .. .

وغاية ما يمكن أن ينظر إليه في هذه الأحوال ، هو الصدق في الرواية والأمانة في النقل ، والدقة في التصوير والتعبير .

وإذا كان هناك ملتبسٌ تلمس فيه هذه الغاية على أتمّ تمامها ، وأكمل كمالها ، فلن يكون ذلك على هذا الوجه إلا في القرآن ، وفيما نطق عنه القرآن . إن القصص القرآني وإن يكن سماوي المطلع فهو بشري الصورة ، إنساني المنازع والمواطف ، يتحدث عن الناس إلى الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة .. يقرؤه الناس ويسمعونه فكأنما يقرءون أطواء أنفسهم ، ويسمعون همس ضمائرهم ، ووسوسة خواطرهم .. ومن هنا فهم يعيشون فيه ، ويحيون معه ، وينتفعون به انتفاع الأرض يصوبها الغيث .. فيقع منها مواقع مختلفة ، بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهوب ١ .

* * *

المؤثرات المباشرة وغير المباشرة في القصص القرآني :

وهنا سؤال يلقانا بعد هذه المقولات التي قلناها في القصص القرآني ، من أنه أحداث واقعية مقتطعة من التاريخ ، وأن القرآن قد تأخير من هذه الأحداث ما يخدم الدعوة ، ويفتح للناس طرقا للعبرة والعظة منها ، كما أنه تأخير من هذه الأحداث ما رآه من المواقف والمشاهد صالحا لبناء الدورة المحققة لهذه الغاية .

نقول : إن سؤالا يلقانا بعد هذه المقولات . . وهو : إذا كان ما في القصص القرآني هو مجرد أحداث تاريخية . فكيف تمسب هذه الأحداث في عداد القصص ؟ ومن أي باب تدخل إليه ؟ وهي ليست إلا تاريخاً ، أو بمعنى أدق حقائق تاريخية .

وفي القرآن الكريم كثير من الحقائق التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ،

والعلمية ، ومع هذا فلم تدخل في القصص القرآني المعروف ، فلم اختصت هذه الحقائق التاريخية دون غيرها باسم القصص .

والجواب على هذا من وجهين :

أولاً : الأسلوب الذي جاء عليه القرآن الكريم من هذا النظم الرائع المعجب المعجز هو في ذاته آية الآيات في فن الكلام .. ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم كلها فناً عالياً لا يطاول .. من فنون القول ، وكان أي لون من ألوان الحقائق معجباً مثيراً إذا حملته ألفاظ القرآن ، وجلته في هذا النظم المعجب المعجز .

وإذن فكل آيات القرآن تحقق لقارئها أو سامعها أصدق وأقوى ما تحقق أروع آيات الفن القولي ، في مجال النثر أو الشعر ، وفي مجال الخطابة ، أو القصة .

فالآية — أو الآيات من الكتاب الكريم — لك أن تطلق عليها الوصف الذي يروعك ويروك من فنون القول . فتقول عنها إنها قصيدة أو خطبة ، أو قصة .. لا تعني بذلك الأسلوب الذي نظمت به وجاءت عليه ، وإنما تعني ما دخل عليك منها من آثار فنية ، منك على عقلك وقلبك .. وهذا ما كان من قريش وهي تستمع إلى القرآن فتأخذها من جلاله وروعة ، وتغشاها من تلقائه سطوة .. ثم لا تدرى ماذا تقول فيه .. فتقول مرة : إنه شعر ، ومرة أخرى هو سحر ، ومرة ثالثة أساطير الأولين ، أو هو قول كاهن ، أو قول شاعر .. وهكذا تمضي في تنقلها من قول إلى قول فيه ، لأنها تجد منه أحوالاً أشبه بهذه الأحوال التي تجدها للشعر ، وللشعر ، وللأخبار العربية التي يحدث بها السكهان وأصحاب الأساطير .. وإن كان ما يلقاها من القرآن أصفى صفاء ، وأبلغ أثراً ، وأصدق خبراً ..

ومن أجل هذا أراد بعضهم أن يسيكروا للنبي ، وهو يدعو قريشا إلى

الإسلام ، فجلب قينات بزمفن ويفنين ، ليجذب قريشا إليه ، وليلام أسماعهم بتلك الألحان والأغاني ، التي استجلبها ، وهو يحسب أن ذلك سيصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن ، والخشوع له ، فسا التفت أحد إلى هذا العبث إزاء ما كان يعلّبه القرآن الأذان والقلوب من آياته البينات المعجزة . كما فعل ذلك . وفي هذا يقول القرآن الكريم : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ^(١) » وحين لم ينفع هذا شيئا من النفع فيما أريد له ، جعلوا يشوشون على القرآن حين يتلى ، فيتصايحون حول قارئه ، ويتعابثون حتى لا يخلص منه إلى الأذان ما ينفذ منه إلى القلوب من جلال ورهبة ، وقد فضح القرآن الكريم هذا الكيد الصبياني ، فقال تعالى « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ^(٢) » فذلك هو غاية كيدهم الذي يريدون أن يكيدوا به للقرآن . وذلك بأن يفروا من بين يدي سلطانه بهذا العبث الصبياني ، كما يفتر الأعشى من ضوء الشمس بإلقاء حجاب كثيف أسود على عينيه ، على حين أن الضوء مشتمل بسلطانه كله عليه . .

فالقرآن كله يدخل على العقول والقلوب مدخل الروعة والدهش والإثارة ، بما لا تستطيع أروع آيات الفن الكلامي أن تبلغ أقل القليل منه . . متفرقة ومجمعة !

وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الأحداث التاريخية في النظم القرآني لها من الإثارة الفنية مالا يحده أروع الملاحم ، وأكثرها إغرابا في الخيال . . حتى لو كانت هذه الأحداث التي يعرضها القرآن تساق مساق الخبر ، مجردة من كل صور الصراع ، والاحتسك بغيرها من الأحداث ، كما يرى ذلك

(١) سورة لقمان : ٦

(٢) سورة فصلت : ٢٦

في القصص الذي لا يخلو من مواقف الصراع . بين الناس والناس . أو بين الناس والأحداث .

ثانيا : إذا كان ذلك هو شأن القرآن كله من حيث نظمه وما لهذا النظم من روعة آسرة وسلطان قاهر متحكم في العقول والقلوب . فإن إطلاق اسم القصص على بعض الأحداث التاريخية التي جاء بها لاثاباء هذه الأحداث ، بل إنها في هذا النظم المعجز ليست مجرد سرد للأخبار ، ولا عرض للأحداث ، وإنما هي - كما قلنا - بعث جديد لها ، كما تبعث الحياة في الأرض الموات ! .

وإذن ، فليست الأحداث التي جاء بها القصص القرآني محتاجة إلى شيء جديد من مواد الإثارة والتشويق ، تضاف إليها ، لكي تكتسب ألواناً من الإثارة والتأثير . . . إذ أنها في هذا النظم القرآني غنية عن كل زخرف ، مستغنية عن كل طلاء ، بما أفاض الله عليها من آيات الحسن ، والجمال ، والجلال . . . فشكل حسن إلى حسنها باهت ، وكل جمال إلى جلالها ماحل ، وكل جلال إلى جلالها ظل زائل !

وفيما سيلقانا من مباحث هذا الكتاب شواهد كثيرة لما نقول . . .
الأمثال في القرآن :

هذا ، وهناك أمثال ضربها القرآن الكريم ، لأحوال وأحداث ، وهي على امتداد القصص ، من حيث أنها للعبرة والعظة ، كما يقول الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون » . . . ومع هذا فلم يدخلها القرآن في القصص ولم يعدها منه .

وماذا في هذه التفرقة ؟

ولنا أن نقول : إن القرآن ينظر إلى القصة نظرة أكبر من مجرد أنها أحداث وحقائق تاريخية ، إذ أن في كيانها من العناصر المعروفة في القصص

ماليس في غيرها من الحقائق التي تصور لمجرد الكشف عن ذاتها .
ونعم . . فإن الذي يتأمل القصص القرآني ، وينظر في الأحداث والمواقف
التي أطلق عليها القصص - يجد أن الحادثة القصصية في القرآن حادثة متميزة
بطابع خاص ، لا نجد في تلك الأحداث التي تحدث عن أمثال واقعة أو مفترضة
أن تقع ..

ففي أحداث القصص القرآني صور من الصراع بين قوى الخير والشر ،
وبين النور والظلام ، والإيمان والترك . . والهدى والضلال كأن فيها صوراً
من الحوار والجدل الذي تنشأ عنه « أزمة » الحدث أو عقده ، وأخيراً
تتمخض هذه الأزمة أو تلك العقدة عن موقف تنفرج فيه الأزمة ، أو
تحل العقدة . .

ثم إن هذه القصص أيضاً لا تعدم مشاهدة وجه المرأة كما تعرفها الحياة -
في عقلها وطيشها ، وفي حبها وبغضاها ، وفي قوتها وضعفها . .

والمرأة كما نعرف عنصر أصيل من عناصر القصص ، كما أن الحوار
المنتج للأزمات ، والمولد لحلها عنصر قوي فيها أيضاً .

وبهذين العنصرين - الحوار المنتج ، والمرأة بكل أنوثتها - يهذين
العنصرين القويين دخلت الحادثة القرآنية تحت هذا الاسم . « القصة » !
وهذا وذاك : المثل والقصص دون أن يأخذ المثل هذا الوصف من واقع
الحياة ومن صميمها . . لم تشبه شائبة توليد ، أو تخيل . . كما سنعرض
لذلك بعد قليل .

الكتاب الثاني

عناصر القصة في القرآن

القالب والمضمون .

الحادثة التاريخية تتأثر تأثيراً كبيراً باليد التي تكشف عن وجهها ، وبالعين التي تنظر في هذا الوجه . . فهي أحياناً تكون مجرد أنقاض متداعية قد عبت بها يد الزمن ، أو جثثاً مخنطة قد أزيح عنها التراب . . ثم هي تارات أخرى كائنات حية متدفقة الحياة ، فصيحة اللسان ، واضحة البيان . . وذلك كله رهن بالشخصية التي تهتف بالحادثة ، وتدعوها إليها . . فإذا كانت تلك الشخصية ذات قوة روحية قادرة على أن تحيل الموات حياة ، جاءت إليها الأحداث - حين تهتف بها - تسعى بكل ما كان بين يديها وما خلقها من مفارقات وملابسات . . أما إذا كان الذي يستدعي الأحداث التاريخية عن ليست فيهم تلك القوى الروحية الخلاقة ، فإن أكثر ما يأتيه من الأحداث هو أشباحها ، وخيالاتها ، محملة بأثرية الحياة وغبار الزمن ١١

وهذا وذلك ، نراه في أعمال ككتاب القصص ، وخاصة القصص التاريخية ... إذ يبلغ أحدهم إلى الحد الذي يجعلنا نمرأى ومشهد من أحداث قصته ، نعيشها ونشارك في صفوها وكدرها ، ونطعم من حلوها ومرها . على حين لا نرى شيئاً من هذا ولا نحسه ، ولا ندوقه حين يكون عرض هذه الأحداث من عمل كاتب ليس عنده الاستعداد الذاتي للخلق ، والإبداع ١

* * *

ولقد ذكر القرآن الكريم صوراً معجزة من الاستدعاء الذي يبعث النبض والحياة في الهامدات ، فيما ذكر عن عيسى عليه السلام : «أنى قد جئتكم

بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبصره الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » (٤٩: آل عمران) . وكذلك فيما ذكر عن إبراهيم عليه السلام ودعوته لجماعة الطير بعد أن مزقها مزقاً ، وجعل على كل جبل منهن جزءاً

« وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير ، فصهرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا . » (٢٦٠: البقرة).

فهذه الصور من صور الخلق — وإن تكن مما فضل الله به على عبديه الصالحين : إبراهيم وعيسى حين وضع على لسانيهما كلمات التي يحى بها الموتى — تشير إلى أن في الإنسان طاقات روحية — وهى مما فضل الله به على كثير من عباده أيضاً — منها تهب ريح الحياة على ما تناوله أبديهم ، وما تعمل فيه جوارحهم !!

وفى آثار العبارة من أرباب الفنون مثل واضحة ، وشواهد قائمة .

فانظر كيف يسكون الحال حين تحيى كلمات الله فى النظم القرآنى إلى الأحداث التاريخية ، قتمسك بهامن أعماق الزمن، وتجمعها من وجوه الأرض، لتعرضها على الحياة من جديد ، فى مقام العظة والعبرة ! إنه — كما قلنا من قبل — هو البعث الذى يعيد إلى الأحداث وجودها الذى كان لها فى الحياة قبل أن يطويها الزمن ، ويضمها التاريخ . . . تماماً كما يبعث الموتى من القبور أو كما يبعث الطير التى أماتها إبراهيم ، ثم رد إلى الحياة بقدرة الخلاق العظيم

فالقصص التاريخية فى القرآن حياة مجددة للأحداث التى يعرضها القرآن ، يحيى بها إلينا ، أو يحيى بنا إليها ، لم يغير الزمن شيئاً من سماتها ومشخصاتها ..

ولكن كيف يحسك القرآن بهذه الأحداث ؟ وبأى أسلوب يعالجها حتى يلبسها الحياة من جديد ؟ هذا ما نريد أن نكشف في البحث التالى من الكتاب .

أسلوب العرض القصصى فى القرآن :

ليس هناك أسلوب خاص يلتزمه كتاب القصة فى عرض الأحداث ، وتحريك الأشخاص وإنطاقها .. فهناك أكثر من أسلوب .. فقد يفرض الكاتب نفسه على أشخاص قصته فينتطق عنهم ، ويتحدث بلسانهم ، ويروى أخبارهم .. وفى هذا الأسلوب يأخذ الكاتب موقفاً يحسك هو فيه بالأحداث ، ويحرك الأشخاص ، ويأخذ ما على ألسنتهم من كلام ، فينقله عنهم مسبقاً بقوله : قال فلان .. أو قالت فلانة .. وقد يجعل الكاتب أشخاصه فى مقام « الحضور » فيدعهم يعرضون وجودهم ، ويتحدثون بألسنتهم .. وهنا تختفى شخصية الكاتب ، فلا يرى له ظل ، ولا يحسب له حساب ، فى سير الأحداث أو فى تحريك الشخصيات . وفى هذا الأسلوب تختفى من مواقف الحوار كلمة « قال » التى تنبه إلى شخصية الكاتب ، وتحدث عن وجوده .

هاتان هما أغلر طريقتين للأسلوب القصصى ..

والذى نلحظه فى القصص القرآنى أنه ألزم الطريقة الأولى . طريقة الرواية التى تؤذذك دائماً بأنك إنما تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها فى التاريخ ، وانتهى دورهم فى الحياة .. وأنها فى هذا العرض إنما هى فى بعث جديد قد جاءت تسمى إليك ، أو أنك فى رحلة زمنية عبر القرون الماضية إليها .. فهى غائبة حاضرة معاً ، تحدثك بلسانها ، وتسمعك قولها .

وهذه أول أمارة من أمارات الصدق الذى لا يتلبس به تمويه ، أو يدخل عليه لون من ألوان الخداع والتخييل ، وهذا ما يليق بمقام القرآن ، وبجلاله

حيث يرتفع مقامه وجلاله عن أية شائبة تمس الحق الذى نزل به ، أو تعلق به ..
« وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » ١ .

فالقصاص القرآنى هو بعث لآثار مضت ، وقص لأخبار ذهبت ، فإذا عرضها ، عرضها بهذا الأسلوب الغيبى الذى لا يملك فيه من شارك فى هذه الأحداث ، - من أشخاص وأشياء - أن يظهر عياناً ، أو يتحدث فى «حضور» إلا أن يكون ذلك عن طريق التخيل والتمثيل ١

وهنا يبدو لنا سر من أسرار هذا التدبير الحكيم ، فى التزام هذا الصدق وتصفية المواقف التاريخية من كل ما يشوبها ، ويعرض وقائعها للشك والارتياب .

ذلك أن أسلوب « الرواية » الذى ألزمه القصص القرآنى يقيم مشاعر الإنسان وأحاسيسه مع الأحداث التى تروى . على مقام واحد منها ، وهو أنه إنما يسمع أخباراً ، وأن هذه الأخبار تنجى من جهة عالية عالمة ، وسع علمها ما تحوى الأزمنة والأمكنة . أما أسلوب « الحضور » فإنه يقيم النفس من أول الأمر على شعور غير هذا الشعور ، وهو أن الإنسان إنما يشهد ويسمع أشباحاً تلبس الأشخاص والأحداث ، وتحدث بأسمائها وتنطق بلسانها ، ويمثل على الحياة دورها . وإذا كان الناس متهمين بالخداع والكذب - من حيث هم ناس - فكيف بهذه الأشباح التى يخلقها السكاتب القصصى لها ، فينطقها باسمها ، ويمثل بها دورها الذى كان لها فى الأحداث التى يعرضها ؟ .

نعم أمر آخر ، وهو أنه إذا جاز أن يكون أشخاص الحدث التاريخى أمناء فضلاء فى أنفسهم . . فهل يكون لهم ذلك ، وقد بدل السكاتب خلقهم ، وجاء بأبدال لهم ، تتحرك فى الحياة باسمهم وتنطق بلسانهم ؟ وإذا كان قد جاز للسكاتب أن يعمل هذا فى أشخاص الأحداث التاريخية ، أفلا يجوز له أن (٦ - القصص القرآنى)

يعمل أكثر من هذا في أبدالها التي جاء بها ، فيحرك ألسنتها بما لم يحرك
على لسان الشخصيات التاريخية ذأها ؟

كل هذا ممكن أن يقع في نفس من يقرأ أو يشهد القصة التي تقوم على
هذا الأسلوب « الحضورى » . . أما الأسلوب « الغيبي » وهو أسلوب الخبر
والرواية ، فلا يدخل على النفس منه إلا شيء واحد ، وهو الشك والارتياب
في مضمون الخبر ، وذلك لا يكون إلا عن شك في أمانة ناقل الخبر وراويه . .
وهذا ما لا يمكن أن يجيىء من جهة القرآن وأخباره التي يتحدث بها . . كما
أشرنا إلى ذلك من قبل : لأن هذه الأخبار من عند الله الذي تنزهت أخباره
سبحانه — عن أية شائبة تشوب الصدق . . فإذا لم يكن الذين يستمعون
إلى القرآن الكريم وإلى قصصه وأخباره — إذا لم يكن هؤلاء مؤمنين
بالله ، فإن في آيات القرآن الكريم برهانا ذاتيا يقوم منها شاهداً على أن
هذا القرآن هو كلام الله ، وأنه ليس لبشر أن يقول شيئاً مثله . . فإن نزع
به نفسه إلى الشك والارتياب في أن هذا كلام الله ، وأنه فوق حدود البشر ،
فليجرب ، ولير نتيجة تجربته !!

الزمان ومكانه في القصص القرآنى :

والزمن له مكانه الملحوظ دائماً في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها
وإنضاجها . . وخروج الحدث القصصى عن حدود الزمن وقبوده يجعله في
عزلة عن الحياة ، وفي انقطاع عن الروافد التي يتغذى منها . . أشبه بالشجرة
تنفصل عن مغارسها في الأرض . . حيث لا ينتظر أحد منها بعد هذا
ظلاً ، ولا ثمراً !!

ولهذا تقوم القصة الناجحة على ملاحظة العنصر الزمني ملاحظة دقيقة
واعية ، حيث تمسك الخيوط الزمنية بكل جزئياتها ، وتحركها بميمات
معلوم ، فتطلع بها في الوقت الذي تستدعيه الأحوال ، كما تبعدها

عن مجال الرؤية في الوقت المناسب ، الذي يستدعي اختفاءها مؤقتاً
أو مؤبداً . . .

هذا ، وليس لاستخدام العنصر الزمني ، والانتفاع به في العمل القصصى ،
قاعدة محددة ، أو أسلوب مرسوم . . وإنما هو أداة طيعة في يد الفنان . .
أشبه باللون الذي يستعمله المصور ، ويجريه على اللوح الذي بين يديه . .
ووضع اللون في المكان المناسب ، وبالقدر المناسب إنما هو رهنٌ بما عليه
إحساسات الفنان ، وتستدعيه مشاعره . . كذلك العنصر الزمني مع
الكاتب القصصى . . يأخذ منه القدر المناسب للحال المناسب ، حسب
ما يعتمل منه في ركيانه من مشاعر وأحاسيس .

والقصص القرآنى ينظر إلى الزمن على أنه اليد الحاملة للأحداث ،
والحركة لها . . وبغيره تهوى الأحداث وتتساقط ميتة بلا حراك . .

ولعلنا قد لاحظنا في الذى كان من حديثنا عن استخدام القرآن للأسلوب
الغيبى في الأخبار التى يقصها - أن أحداث قصصه كلها تطلع من آفاق
القرون الماضية ، والأزمان الخالية . . وهذا ما يعطى مستمع القرآن
أو قارئه إحساساً خاصاً بالزمن على صورة عامة . . هى صورة الماضى
البعيد .

وليس هذا كل ما للزمن في القصص القرآنى . . بل إن لسكل قصة فيه
زمنها الخاص بها ، بل وأجزاء هذا الزمن الذى يطلع جزءاً جزءاً ، أو يختفى
شيئاً شيئاً . . ولا نريد هنا أن نعرض الأمثلة والشواهد لهذا . . فإننا سنرى
ذلك بوضوح عند نظرنا في القصص القرآنى نظراً مباشراً ، فيما بعد .

غير أنه لا بد هنا من لفتة إلى شاهد من تلك الشواهد . . لئرى فيه
ما يحقق هذا الرأى الذى نراه .

ولا تتخير قصة ما بالذات .. فإن القصص القرآني كله يتضح فيه هذا المعنى الذي أشرنا إليه ، على أتم ما يكون وأظهره .

فإذا أخذنا قصة يوسف — مثلاً — كشاهد لهذا ، فإننا نجد العنصر الزمني ممسكاً بها من كل جوانبها ..

فهي — كما يبدو في نظم القرآن ، وفي دلالة ألفاظه — أحداث من الزمن الماضي .. قد اقتطعت منه ، وجاءت في هذا العرض القرآني لها .

ثم نجد أجزاء هذا الزمن تظهر حيث يستدعيها الموقف ، وتقتضيها داعية الحال .

فهؤلاء إخوة يوسف وقد فعلوا فعلاتهم به ، وألقوه في غيايات الحب — لم يستطيعوا أن يواجهوا أباهم بهذا الكذب الصراح ، وبأن الذئب قد أكله .. لم يستطيعوا مواجهة أبيهم بهذا في وضوح النهار حيث ينكشف على ضوءه ما ينعكس على عيونهم من استخزاء وانكسار ، وما يظال وجوههم من كسوف الكذب وخسوفه .. لهذا فقد ضبط القرآن الزمن الذي جاءوا إلى أبيهم فيه ، يخبرونه هذا الخبر المشؤوم المكذوب .. فيقول الله سبحانه وتعالى : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون » .. فهذه الجزئية من جزئيات الزمن ، قد حرص القرآن على الإشارة إليها ، لأن لها مكاناً في سير أحداث القصة . ذلك أن ظلام الليل الذي أظل هذا الكذب ولقفه هو نفسه الذي نم على الكذب ، وألقى في روع الأب أن أبناءه لو كانوا صادقين لأسرعوا إليه مخبرين بالحدث في وقته ، لأن مثل هذا الحدث لا يسكت عليه لحظة . وإذن فإن هذا الحدث لم يقع على صورته التي صورده بها هؤلاء الأبناء .. ولهذا امتلأ قلب الأب بالشك في هذا الخبر ، فقال : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً .. فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .. لقد كان « ظرف »

الليل دثاراً كثيفاً احتسب فيه هؤلاء الأبناء، وداروا فيه ما كان يفضضه النهار منهم .. من وجل وخجل .

ثم نجد في القصة من جزئيات الزمن .. أن يوسف قد « لبث في السجن بضع سنين » .. وأن هذه المحنة مع امتدادها لم تنل من إيمان هذا النبي الكريم ، ولم تزعزع من ثقته بربه ، ورضاه بحكمه .. فلقد كان في هذا السجن داعية إلى الله بين أصحابه في السجن .. يكشف لهم الطريق إلى الخالق جل وعلا ، ويحلى عن قلوبهم ظلام الضلال والزيغ والكفر .. « يا صاحبي السجن ! أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ما زل الله بها من سلطان .. إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

فهذه الجزئية من الزمن — بضع سنين — لها دلالتها العظيمة في الكشف عن معدن هذا النبي العظيم ، وما في نفسه من قوى الإيمان بالله ! ولو افتقدناها في القصة لافتقدنا هذا الإحساس ، وتلك المشاعر ، وهذا التعاطف الذي يصل بيننا وبين هذا النبي الكريم ، وما في نفسه من رصيد من الصبر والإيمان ! (١)

هذا • وليست دلالات الزمن متنتية عند اللفظ الصريح بها ، كيوم وليلة ، وساعة وشهر ، وسنة ، وبضع سنين ، ونحو هذا ، بل إن الزمن دلالات كثيرة لا تحصى ، تطل من ملاح الحديث ذاته ، وتبدو على سماته .. كأن يكون صغيراً فنراه كبيراً .. أو يكون في مكان فنراه في آخر .. أو يكون ابناً فنراه أباً ، أو طفلة فنجدها أمّاً .. ففي كل هذا وأمثلة عناصر زمنية متجددة ، متحركة بالأحداث ، سائرة بها إلى مراحل وغايات .. ١

(١) انظر دراسة خاصة لسورة يوسف في آخر الكتاب ، كتطبيق للدراسة القصصية القرآنية ، على ضوء هذا البحث .

ومرة أخرى نلفت النظر إلى أن استخدام العنصر الزمني في القصة ، —
تصريحا ، أو تلميحاً ، وعلى وجه الاستقلال ، أو التضمن — هذا الاستخدام
لا يحقق الغاية المرجوة منه إلا إذا وقع ليد حكيمة قادرة على الإمساك به ،
وإطلاقه ، أو إمساكه بحساب ، وتقدير ، بحيث لا يطنى على الأحداث ذاتها ،
ولا يبتلعها ويطبق عليها فكيه الواسعتين المخيفتين !

* * *

وللحركة الزمنية اتجاه تتحرك فيه .. وهذا الاتجاه هو إلى الأمام دائماً ..
إذ ليس من طبيعة الزمن أن يتحرك إلى الوراء ، وأن يعود القهقري .

ولهذا ، فإنه من غير الطبيعي أن يخرج الزمن عن طبيعته تلك في العمل
القصصى .. حتى في القصص التاريخي الذي يعود بنا إلى الوراء ، ويجدد على
الزمن وجوده الذي ذهب .. ففي هذا القصص تبدأ الحادثة التاريخية من
نقطة انطلاق محددة من الزمن ، ثم تمضي متحركة إلى الأمام .. كما كان شأن
ذلك الزمن في سيره !

هذا ، وقد أباح الخيال القصصى لكتاب القصة أن يخرجوا بالزمن عن
طبيعته — في كثير أو قليل — كما أباح لهم ذلك الخيال أن يخرجوا على طبائع
الأشياء فيلونوها بألوان وأصباغ غير ألوانها وأصباغها .

وفي هذا المجال تعددت صور هذا الخروج واختلفت أوضاعه .. فرى
بعض الكتاب يبدأ الحدث القصصى من نهايته ، ويعرضه في الشكل الذي
انتهى إليه ، ثم يعود فيطلع به من جديد من أول خطواته ! وغاية هذا
التدبير هي إثارة شوق القارئ واستحضار انتباهه كله من أول الطريق مع
القصة ، حيث تتجسم له المشكلة التي يحويها الحدث ، وتبرز له كاملة .. في
لحظة خاطفة . فإذا ثارت رغبته وتحركت أشواقه إلى معرفة مجرى الأحداث

التي انتهت إلى هذه النهاية - طوى الكاتب هذه الجزئية المتقدمة من الزمن، وبدأ القصة من أولها .. وهذا يضمن الكاتب مشاركة القارئ له في سيره مع الأحداث ، وفي خطوه معها ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ١ .

وهذا اللون من ألوان التوزيع الزمني في القصص ، وتحريك أجزائه في اتجاهات غير اتجاهاته الطبيعية - لم يتجه إليه القصص القرائي ، ولم يأخذ به ، بل أقام الزمن في قصصه على الوجه الطبيعي له ، حيث يتحرك إلى الأمام دائماً ١ .

ولم يخرج القرآن في قصصه عن هذا الأسلوب حتى في الحدث الكبير الذي يمكن أن تعرض أجزاؤه مستقلاً بعضها عن بعض ، وحتى يمكن أن يقدم فيه جزء على جزء مستصحباً معه زمنه في أي وضع يأخذه ، من غير نظر إلى الترتيب الطبيعي لتتابع هذه الأجزاء .

ففي سورة آل عمران تذكر قصة مريم ، وقد جمعت أكثر من حدث ، في سلسلة من الحلقات ، متدرجة مع الزمن سيراً إلى الأمام .. وذلك على الوجه الآتي :

١ - آل عمران وقد اصطفاكم الله سبحانه فيمن اصطفى من عباده : « إن الله اصطفى آدم ، ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين .. »

٢ - امرأة عمران ، (أم مريم) وقد نذرت لله ما في بطنها ليكون في خدمة بيت الله : « إذا قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم .. فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم .. »

٣ - ثم هاهي « ذى مريم » تدرج في مدارج الكمال ، وتنشأ على البر والتقوى « فتقبلها ربّها بقبول حسن ، وأنبأها نبأنا حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما

دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم .. أننى لك هذا ،
قالت هو من عند الله .. إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

٤ — ثم هذا فضل الله بطرق مريم ، فيجئها البشير السماوى بأنها
ستحمل غلاما زكيا اسمه المسيح عيسى بن مريم : « وإذ قالت الملائكة
يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم .. »

٥ — ثم ها هو ذا المسيح يطلع على الدنيا حاملا هذا النور فى قلبه ، وفى
فه ، وعلى لسانه ، وبين يديه ، ومن خلفه : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى
قد جئكم بآية من ربكم ... »

وهكذا نرى التسلسل الزمنى يجرى مع الأحداث ، أو بمعنى أدق يدفع
هذه الأحداث الكبار على ترتيب تصاعدى .. الأجداد ، فالآباء ، فالأبناء ..
وهذا ماجرى عليه القصص القرآنى كله .

مرة واحدة سلك فيها القرآن غير هذا الطريق .. هى قصة بنى إسرائيل
مع البقرة التى أمرهم الله بذبحها .

فى هذه القصة تسمى الأحداث على غير الترتيب الطبيعى لها فى زمنها ..
فلقد قتل فيهم قتيل ، ثم اختلفوا فيمن قتله .. وكادت تكون فتنة
فيهم وفساد كبير .. فطلبوا إلى موسى أن يأتيهم بمعجزة تكشف عن هذا
الأمر ، وتبلى وجهه .

وجاءهم النبى بمعجزة قاهرة فى صورة فاضحة من السخرية بهم ،
والاستخفاف يعقوهم ، وبما يحيل إليهم الغرور به من أنهم على شئ من
العلم والحكمة .

لقد دعاهم إلى أن يذبحوا بقرة ، ويضربوا القتل ببعض لحمها فيصحو ،
وينطق باسم قاتله ؟

وعجبوا لهذا الأمر ، وكادوا ينصرفون عنه ؟ فما شأن البقرة وهذا القتل ؟ وعموا عن أن الأمر أمر قدرة الله التي تعد الأنبياء بالمعجزات .. وأن هذه القدرة لا تتعلق بذوات الأشياء وأشكالها .. وأنها تظهر في القدرة كما في الجبل العظيم . وفي الحجر الأصم ، وفي الإنسان الخى الناطق .

وإذن فليس الأمر متعلقاً بالبقرة أو غيرها ، وإنما البقرة وغيرها مجلى لقدرة الله ومظهر لجلاله وعظمته .. ؟

وهل عصا موسى التي رأوا ما رأوا من معجزاتها إلا قطعة من الخشب ، شأنها شأن أى عصا ، أو خشبة ؟ ولكننا إذ أمدتها القدرة الإلهية بأمدادها صارت إلى ما صارت إليه من آيات ومعجزات .

وإذا كان في البقرة واختيارها بالذات ، وجه من العجب والاستغراب- فهو الامتحان لعقولهم ، والجذع لأنوفهم ، وسوقهم سوق الأنعام .

ثم لقد استبد بهم الضلال ، وخيم عليهم العمى فأبوا أن يروا البقرة التي أمروا بذبحها إلا أن تكون على حال وأوصاف على غير تلك الأحوال والأوصاف المعهودة في عالم البقر ، وإلا فلن يصح أن تحمل أى بقرة معجزة أو تتحملها ..

وكانوا كلما فتحوا باباً دفع بهم موسى إليه ، وسار معهم فيه ، إمعاناً في الهزء بهم ، ومضاعفة لإعنائهم والمشقة عليهم ، إذ أبوا إلا ركوب اللجاج والعناد !

وفي هذه القصة يقول الله تعالى : « وإذا قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. قالوا أتأخذنا هزواً ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون .. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لوئها ؟ قال إنه

يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ، قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ، تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون .. وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون ، ^(١) .

انظر .. كيف كان القوم على هذا القدر الكبير من الجهل الغليظ ، والعناد الأحمق .. إنهم مازالوا في شك مما جاءهم به موسى ، وبما أراهم من آيات الله ، كما يقول الله سبحانه وتعالى فيهم وفي موقعهم من أحد أنبيائهم ، وهو يوسف عليه السلام : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات .. فآزأتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا ^(٢) » فهم لهذا يأبون أن يقولوا : « ادع لنا ربنا » .. لأنهم مازالوا في مرية منه ، وما زالوا يبحثون عن أرباب .. فما أشد ظلام هذه العقول ، وما أفسد طبيعة هذه الطباع . ثم انظر كيف ختمت القصة بما كان في واقع الأمر بدءاً لها .

وذلك لأن طبيعة الأمور في القصة قد انقلبت وكان أبرز وأكرم عنصر فيها وهو الإنسان قد صار في هؤلاء القوم مسخاً ، فناسب ذلك أن ينقلب وجه الزمن لهم ، وأن يدفع بهم إلى الحياة على أدبارهم !

« وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون .. فقلنا اضربوه ببعضها .. كذلك يحيى الله الموتى ، ويرىكم آياته لعلكم تعقلون » ..

(١) سورة البقرة : ٦٧ - ٧٣

(٢) سورة غافر : ٣٤ .

هذا هو ختام القصة ، وكان من حقه أن يكون بدءاً ، لو أن القوم كانوا من الناس ، وعلى طبيعة الناس . .

° ° °

هذا ، ويلاحظ أن الزمن الذي نتحدث عنه في القرآن زمن مطلق من كل قيد إلا قيد الماضي . . فليست لهذا الزمن ولا الجزئياته حدود تحده بالنسبة للزمن الذي يطلنا ، بحيث يمكن أن نعرف كم بيننا من السنين أو القرون وبين هذا الحدث القصصى أو ذاك من أحداث القصص القرآنى . . فذلك أمر لم يكن له أثر في الحدث القصصى القرآنى . . إذ أن قرب هذا الحدث أو بعده منا في أى زمن من الأزمان لا يؤثر فيما يحمل الحدث من مواقع العظة والاعتبار ، إذ هو قائم على طريق الإنسانية ، موصول بما في الإنسان من نوازع الخير والشر التى لا تتغير في أجيال الناس ، والتى لا تختلف في زمن عن زمن .

المكان ومكانه في النص القرآنى :

وكما أن للزمان حساباً وتقديراً في بناء القصة ، وفى ضبط حركات الأحداث وانتظام خطواتها . . فكذلك الشأن في المكان ، حيث يكون هو للأحداث أشبه بالوء الحامل لها ، على حين يكون الزمن هو اليد الحاملة لهذا الوعاء .

على أن المكان وإن كان قوة عاملة في تشكيل الأحداث ، وإبراز معالمها فإنه ينجى في المنة بعد الزمن بمراحل بعيدة . . ذلك أن الزمن يؤثر في الحدث تأثيراً مباشراً ، سواء أظهر الزمن ظهور عيان على مسرح الحدث الذى ترويه القصة ، أم لم يجر له ذكر فيه . . فإنه دائماً منظور إليه في كل تطور ، وفى كل انتقال بالحدث من حال إلى حال . . لأن أياً من ذلك لا يتم إلا في زمن . .

أما المكان فليس له هذا الأثر البعيد في صنع الحدث ، وفي تطوره ..
فقد يعيش الحدث ويتطور ، وينمو في مكان لا يتحول عنه . وقد لا يكون
في استصحاب المكان في رواية الأحداث أى أثر إلا إذا كان لهذا المكان
طبيعة خاصة يتأثر بها الحدث ، ولا يقع له هذا التأثير في مكان آخر ..

والقرآن الكريم ينظر إلى المكان في قصصه على هذا الاعتبار أو قريب
منه .. فهو لا يلتفت إلى المكان ، ولا يجرى له ذكر .. إلا إذا كان
للمكان وضع خاص يؤثر في سير الحدث ، أو يبرز ملامحه ، أو يقيم
شواهد العبرة والعظة منه .

وأوضح شاهد يظهر فيه لتحديد المكان قيمة نفسية وروحية تفتقد لها
الحادثة إذا هي لم تجسء في صحبة هذا المكان ، ولم تتلبس به - ما جاء في
حديث الإسراء ، حيث جاء ذكر الإسراء مقترنا بالمكان الذي بدأ منه والذي
انتهى إليه ، فقال تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى » .. فالمسجد الحرام في مكة ، والمسجد الأقصى في
بيت المقدس ، وبين هذين المسجدين ، أو البلدين الحرامين كان مسرى
الرسول .. ثم كان الليل - وهو الزمن الذي حدث فيه هذا الإسراء -
لونا مطلوباً ، وبهذا تتضح معالم الحدث كلها وتتحدد وجوهه . وليس يغنى
في هذا المقام أن يجهل المكان الذي كان منه الإسراء أو الذي انتهى إليه ،
إذ تفتقد الصورة هنا هذا اللون الذي يشيعه ذكر المسجدين الحرامين في
النفوس من مشاعر الجلال والإعظام . إلى ما يبعثه ذكر الليل من خشية
ورهة ، يمتزجان بمشاعر الجلال والإعظام فيتشكل منها جميعاً أحاسيس
تشيع في نفوس المؤمنين السعادة والرضا وتبعث في قلوب الكافرين والمنافقين
الحسرة والكمد .

أما إذا لم يكن للمكان هذه الخاصية التي تجعل له وضعاً متفرداً بين

الأمسكنة بحيث تهب منه على الحدث أنسام معطرة أو أنفاس محترقة ، فإن القرآن لا يلتفت إليه ولا يجعل له ذكراً .

فى قصة أصحاب الكهف مثلاً .. لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن المكان الذى جرت أحداث القصة على مسرحه فلم يشر إلى البلد أو الإقليم الذى ينتهى إليه هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف .. ومع هذا فإن ظلال المكان تلمح هنا وهناك فى ثنايا القصة القرآنية لهذا الحدث .. فهؤلاء الفتية قد أجمعوا أمرهم على أن يعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله ، وأن يلتجئوا إلى كهف بعيداً .. ثم ترى الفتية وقد حوهم الكهف .. بعيداً عن المدينة وأهلها .. ثم هؤلاء هم يستيقظون بعد هذه النومة الطويلة ، ثم يبعثون أحدهم إلى المدينة ليمتار لهم طعاماً .. وهكذا نرى المكان يشارك فى تحديد أبعاد الأحداث مشاركة تعين على تنمية الحدث وفى تحريكه ، ولكن فى تناقل وتباطؤ .

ذلك على حين نرى الزمن فى هذه القصة يروح ويغدو بالأحداث ..

فن الماضى البعيد تسلسل خيوط أشبه بخيوط الفجر ، نتقدم موكب الصباح .. ثم لا تلبث هذه الخيوط أن تتجمع فتتشخص منها شخص شخص القصة .. فمرى بضعة فتيان ظهروا وسط ظلام الإلحاد والكفر ، وقد عرفوا ربهم وآمنوا به .. ثم إنهم لا يصبرون على هذا المنكر الذى عليه قومهم ، ويخشون أن ينفضح أمرهم فيفتنوا فى دينهم .. وهنا يزمعون مفارقة الأهل والبلد .. وهناك عند كهف على مراحل من المدينة يلقون بأنفسهم فى أطوائه فيلقاهم الكهف ، ويقيم عليهم سترآ .. ثم يغشاهم النعاس فينامون ، ويطول نومهم أكثر من ثلاث مئة سنة .. وهم فى خلال تلك المدة يحيون مع الزمن .. فالشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات الحيين ، وإذا غربت تقرضهم

ذات الشمال... وهم يتقبلون ذات اليمين وذات الشمال كما يتقلب النيام فى نومهم

* * *

هذا ، وبلاحظ أن المكان الذى نعينه فى القصص القرآنى مكان - مجرد مكان - بلا حدود ولا قيود .. وذلك فى الأعم الأغلب من الأمكنة التى ذكرها القرآن فى قصصه .

وقد يذكر القرآن المكان ذكراً محدداً ، كـ مصر ، ومدين ، والطور ، والأحقاف .. وهنا سيكون لهذا الذكر داعية فى تلوين الحدث القصصى بلون خاص ينتفض عليه من هذا المكان ، فتبرز فيه من ملامح وآثار ، تقوى من دواعى العبرة والعظة التى يحملها .

ونذكر لهذا مثلاً :

فى قصة يوسف تحدد المكان الذى تحمل إليه « يوسف » وأنه مصر .. وفى هذا ما يشير إلى تلك الغربة الزائفة التى فصلت بين يوسف وأهله .. فأين أرض كنعان بالشام ، حيث أبوه وأهله ، من أرض مصر التى استقر فيها ؟

ثم إنه كان لابد من أن يذكر ذلك المكان (مصر) الذى استقر فيه يوسف والذى سيكون مسرحاً لأحداث كثيرة ستقع فى هذه القصة ، وأهم هذه الأحداث حلم « فرعون » وتأويل يوسف له ، ثم قيام يوسف على تدبير شئون الحياة فى مصر خلال تلك الأزمة العصبية ، ثم محبى يعقوب وبنيه آخر الأمر إلى مصر ، واستقرارهم بها وتكوين النواة التى اجتمع عليها بنو إسرائيل فى مصر ، والتى انتهى أمرهم فيها إلى يد فرعون ، الذى أخذهم بالبأساء والضراء ، حتى بعث الله موسى عليه السلام لاستنقاذهم من يده .. وفى هذا ما فيه من تذكير لأولئك اليهود الذين كانوا يقيمون بالمدينة ، والذين استقبلوا الدعوة الإسلامية باللجاج والعناد ، وأن الحال يقتضيه أن يذكرها

فضل الله عليهم فيما امتن به على آبائهم ، بما بعث فيهم من رسول نجاهم من العذاب المهين ، وهذا رسول كريم هو محمد عليه السلام ، قد جاء ليخلص الناس من العمى ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، فإن لم يستجيبوا له ، فإنهم لا بد مغرقون في هذا الضلال الذي يطبق عليهم من كل مكان .

وإذن فالزمان ، أولا ، والمكان ثانياً ، عنصران عاملان في بناء القصة ، وفي تحريك أحداثها ، وفي إلباسها أنواراً من الواقع الذي يشد الناس إليها ، ويدنيههم منها ..

أما القدر الذي تشتمل عليه القصة منهما فهو رهن بالأحداث ذاتها ، وبقدرة الكاتب على تلوين قصته بهما ، ووضع القدر المناسب في الحال المناسب .

وسنرى عند عرض ما نعرض من القصص القرآني كيف كان الإعجاز القرآني في بعث العناصر التي شاركت في الحدث القصصي ، بعثاً أمسك بكل القوى العاملة في حياة هذا الحدث ، ووضع كلا منها بالموضع المناسب ، وبالقدر المناسب .. ومن ذلك عنصر الزمان والمكان ، اللذان احتفظ لهما القرآن في قصصه بأعدل مكان وأنسبه .

الأسماء والمسميات :

ومن العناصر البارزة في مادة القصة ، وفي مسها بلبسات الحياة - ذكر أسماء الأشخاص ؛ ومالمهم من صفات جسدية ؛ أو نفسية ؛ أو عقلية ؛ فذلك من شأنه أن يرفع لعيني القارئ أو السامع للقصة ، صوراً حية ، لها وجود حقيقي ، أو ما يشبه أن يكون حقيقياً ، وليس أدل على ذلك من أن هؤلاء الأشخاص الذين تعرضهم القصة يحملون هذه الأسماء التي كانوا يعيشون بها في الناس ، وفي الحياة ، معروفين بها ، مميزين عن غيرهم ، بما تميز به الأعلام أصحابها ..

وفي أحيان كثيرة تغنى الصفة عن « الاسم » فيسكتنى بأن يقال :
طبيب ، أو مهندس ، أو سائق ، أو عامل ، بدلا من أن يقال محمد الطبيب ،
أو أحمد المهندس ، أو إبراهيم العامل .. وهكذا .

وفي أحيان أخرى ، الأمر إلى ذكر الاسم ، والصفة ، ويسكتنى بأن يقال
إنسان من الناس ، أو أحد المسافرين .. مثلا ..

وهذا كله يرجع فيه إلى مكان « الشخصية » من القصة ، فإن كانت من
الشخصيات التى تدور حولها أحداث القصة ، كان لابد من الكشف عنها ،
بأن يذكر اسم صاحبها ، والوصف الذى له فى المجتمع .. وإن كان ذاموقف
لا يتجاوز حواشى القصة ولا يبرح أطرافها ! فليس من الضروري أن يذكر
شئ عنه ، إذ يكفى أن يقال عنه إنه واحد من آحاد الناس ، يؤدى الدور
الذى وكل إليه القيام به فى العمل القصصى .

هذا فى القصص الأدبى الذى يصطنعه الكتاب من معطيات الخيال ، أو
يصنعه من أحداث التاريخ .. فى هذا القصص تكون الشخصيات التى
تظهر على مسرح الأحداث أو أكثرها من خلق الكاتب ، ومن مواليد
خياله ، ومن هنا لا يكون للكشف عن أسمائها أثر فى وجودها الذى أقامها
الكاتب عليه لأنه معلوم — مسبقاً — أن هذه الأسماء مستعارة ، تلبس
أجساداً مستعارة أيضاً ، وهذا من شأنه أن يضعف الإحساس بوجود
الشخصية ، فى الدور الذى تمثله .. ولهذا ، فإن الصفات ، لا الأسماء ، هى
التي تحدد معالم الشخص هنا ، وتكشف ظله ، وتحدث عن ذات قد يكون
لها وجود ، ولها مفهوم !

أما فى القصص القرآنى ، فالأمر مختلف ! حيث أن كل مواده من أناس
وأشياء ، وزمان ، ومكان .. كلها من بين يدى الواقع المصنئ ، الذى لا تشوبه
شائبة من خداع أو وهم ، أو نسيان !

ولهذا ، فشكل شيء في الحدث القصصى القرآنى ، له وجود ذاتى ، وله تاريخ ، وله صفات قام عليها ، وإسم عرف به !
ولهذا أيضاً ، فإنه إذا ذكر القرآن في قصصه أسماء الأشخاص ، فإنما يذكر شخصية تاريخية معروفة ، قد ذكرتها الكتب المقدسة من قبل ، أو حفظها تاريخ الجماعة التى عاشت فيها تلك الشخصية ؛ أو أنها ضاعت من حافظة التاريخ ، وبقي علمها عند العليم الخبير ..

فقد ذكر القرآن الكريم أسماء كثير من الأنبياء الذين ذكرتهم الكتب السماوية ، كما ذكر بعض الأسماء لشخصيات تحدثت دعوة السماء ، وحادثت الله ورسله ، ككفرعون ، وهامان ، والسايرى ، وجالوت .. وهو إذ يذكر مثل هذه الأسماء فإن الوجود كله شاهد على وجودها ، فإن أنكرها أو جهلها بعض المعاندين والمكابرين ، فإن الواقع يحتفظ بها ليوم يؤمن فيه المنكرون ، ويعلم فيه الجاهلون .

ومن هنا فلا يكون هناك من ينازع فيها ، أو يقول مثل هذه القولة الضالة : « إن هذا إلا أساطير الأولين » .. فإن وجد في الناس من يستبد به العناد والضلال فينكر الشمس في كبد السماء ، ويقول عن هذا القصص : « إن هذا إلا أساطير الأولين - إن وجد ذلك الشخص ، فإن قولاته تلك لا تتجاوز موقع قدميه ، بل تسقط على الأرض خجلاً ، وخزياً ، مما تنادى به شواهد التاريخ على كذب تلك القولة وضلالها .

ولهذا التأكيد البالغ لوجود الشخصيات التى ذكرها القصص القرآنى بأسمائها أثر بعيد في الأحداث التى تشارك فيها ، وفي الأعمال التى تضاف إليها ، حيث يرى المرء وحده الحركة بين الشخصيات والأعمال التى تصدر عنها ، وحيث لا تلوح لمعين الناظر شخصيات مهزوزة متعددة تحاول كل منها أن تمسك بالحدث ، بعد أن يبرز ويأخذ مكانه في الوجود . . .

ولنضرب لذلك مثلاً . . .

يوسف عليه السلام ، وقصته مع امرأة العزيز ..

إنها قصة ذات فصول متعددة ١٠٠

فهو ينشأ في بيت «العزيز» غلاماً ، حتى يبلغ أشده ، ويمجاوز مرحلة الصبا ..
ثم تبدأ «الأزمة» في القصة ، حين ترى امرأة العزيز في يوسف شباباً
ناضراً ، وجمالاً مشرقاً رائعاً ، وأدباً رفيعاً عالياً .. فتدعوها نفسها إليه ،
وترأوده عن نفسه .. وبلّتي يوسف هذه الدعوة بالإباء والتعفف ، إنه يخاف الله
ويتقيه في دينه ، وفي مروءته التي تأبى عليه أن يلقي إحسان «العزيز» بهذه
الحياة ، إنه ظلم أفدح الظلم أن يجازى الإحسان بغير الإحسان !

ثم تنعقد سحب الضعف البشري فتلف في ضبابها المرأة وربيبها ..
ويستشعر يوسف مقادير العزيز فيعازل أن يخرج من هذا الضباب .. ويهم
مسرعاً نحو الباب ، وتلحق به امرأة العزيز فتتعلق بقميصه ، ويتمزق منه
ما علقت يدها به .

وهنا يكون «العزيز» قد وصل إلى الباب ، فيرى هذا المشهد فيلقاه
في دهش وذهول !

وهنا تبادر امرأة العزيز فتدفع النهمة عن نفسها ، وترمى بها على يوسف
في جراءة .. ثم لا تنتظر رأى العزيز في صحة هذا الاتهام ، فتغريه به ، وتعمل
على توكيده في نفسه بأن تطلب إليه رأيه في الجزاء الذي تجزي به هذا المتهم
البريء ! «واستبقا الباب» وقد تقيصه من دبر ، وألقيا سيدها لدى الباب ..
قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم .

وهكذا تعضى الأحداث فيُدفع بيوسف إلى السجن ، ثم يخرج من السجن
ليتولى تدبير خزان فرعون ، ويدير شئون الملك !

ونعود إلى ما قصدنا إليه من سوق هذا المقطع من هذه القصة .. وهو
الترابط الوثيق بين «الشخص» والحدث أو الأحداث في القصص القرآني ..

حيث تظل شخصية يوسف هي هي ، على الوجه الذي تطالعنا به من أول القصة إلى آخرها ، وحيث نلقاها بعد ذلك مرات ومرات ، دون أن تتغير ملامحها ، أو تبهرت مشخصاتها . . . ولو أن يوسف شخصية روائية لكان له في كل خطوة معنا في هذه القصة وجه ، ولكان له في كل مرة نلقاه فيها شخصية غير الشخصية الأولى ، ذلك أننا لا نلتزم كثيراً احترام الوضع الذي رسمه المؤلف لشخصيته ، بل نعمل دائماً - وبغير قصد - على أن نشاركه في خلق شخصياته ، وفي التصرف فيها حسب ما نرى ، وبما يتلبس بنا من ظروف وأحوال !

ومثل هذا أو قريب منه ، الشخصية التاريخية ، حيث أن القارئ أو السامع للقصة التاريخية يصحبه شعور بأن أحداث هذا القصة وأشخاصه قد لوها المؤلف بخياله ، وأجرى عليها كثيراً أو قليلاً من التحوير والتبديل ، وهذا الشعور وحده كاف لأن يجعلنا في حلٍّ من أن نصنع صنيع المؤلف ، فنلون الأحداث والأشخاص ، ونغير وبندل ، كما لون هو وغير وبندل . . . وهذا من شأنه ألا يقيم الأحداث والشخصيات على وجه واحد أبداً . . بل تظل تهتز وتتغير وجوهها وشخصياتها من أول الطريق إلى آخره .

وهناك شخصيات لم يذكر القرآن اسمها ، ولم يكشف عن وظائفها الاجتماعية في الحياة ، بل اكتفى بذكر بعض مآلها من صفات نفسية أو روحية ، مثل قوله تعالى في صاحب موسى ، وهو الخضر عليه السلام ، « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا ، وعملناه من لدنا علماً »^(١) . وقوله سبحانه في ذلك الرجل المؤمن من قوم فرعون ، والذي كان لساناً من ألسنة الحق في نصرة موسى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتمُ إيمانه . . . أنقلبوا رجلاً أن يقول ربِّي الله »^(٢) . وكقوله سبحانه في صاحب سليمان الذي جاءه

بمرض ملسكة ضبا : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن
يرتد إليك طرفك (١) » .. وهذا إنما كان حيث لم يتعلق غرض بذات الشخص ،
وبالوظيفة الاجتماعية التى له ، وإنما الشأن كله فيما يشتمل عليه كيانها من قوى ،
وما لهذه القوى من أثر فى مجرى الحدث الذى تمرضه القصة ! .

وقد يمرض القرآن بعض الشخصيات مجردة من أى مشخص أو مخصص
لها مثل « رجل » .. هكذا ، بلا أى وصف له .. حيث يصدق على كل رجل
يكون قادراً على ملء هذا الفراغ الذى يملؤه رجل القصة هذا .

ويكثر هذا اللون فى الأمثال التى يضربها القرآن لشرح حقيقة ، أو
توضيح قضية .. مثل قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً .. رجلاً فيه شركاء
متشاكسون ، ورجلاً مسلماً لرجل .. هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم
لا يعلمون » (٢) ومثل قوله سبحانه : « وضرب الله مثلاً رجلين .. أحدهما أبكم
لا يقدر على شئ ، وهو كليل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير . هل
يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (٣) .

ومثل قوله جل شأنه : « وضرب الله مثلاً .. قرية آمنة مطمئنة
يأتونها بزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع
والخوف بما كانوا يصنمون » (٤) .

فهذه الشخصيات النسكوات لانهن ضرورة إلى تمرينها ، لأنها لا تؤدى
دورها فى الحدث القصصى هنا باعتبارات خاصة مميزة لها ، وإنما هى مثل طام
لجنسها كله ، فى صلاحيته للقيام بهذا الدور .. ومن هنا تكون صوموية المثل ،
وصلاحيته الشاملة لجميع أفراد الجنس فيما ضرب له ، وسبق من أجله .

فالقرية الآمنة مطمئنة التى يسوق الله إليها الرزق من كل مكان ..

(٢) الزمر : ٢٩

(٤) النحل : ١١٢

(١) النمل : ٤٠

(٣) النحل : ٢٦

ثم تبطر وتكفر بأنعم الله ، فيذيقها الله لباس الجوع والخوف .. هذه القرية ،
هى مثل لجميع القرى ، ولجميع الأفراد ، والجحاطات والأمم . كما يشير إلى ذلك
قوله تعالى عن تلك القرى التى أهلكها : « وتلك القرى أهلكنام لما ظلموا ،
وجعلنا لهم لسكنى موعدا » (١) .

وهذان رجلان : رجل سَلِمَ لرجل ، ملك خالص له ، والآخر فى ملك
جماعة مختلفة متشاكسة ، هذا يذهب به يمينا ، والآخر يريد أن يذهب به
شمالاً ، والثالث ، والرابع ، لكل منهما مذهب فيه .. فهل يستوى موقف
الرجلين فى المشاعر ، والمواقف والمدركات ؟ وشتان بين الرجلين .

وهذان رجلان أيضاً ، أحدهما أبكم ، مغلق المشاعر والمواقف والمدارك ،
لا يفتح فيه بخير ، إنه مثل لكل إنسان منطوي على نفسه ، لا يحس بالحياة من
حوله ، ولا يشعر الناس ولا الحياة بوجوده .

وأما الآخر ، فهو إنسان يشعر بالناس من حوله ، ويقيم بينه وبينهم
موازين الحق والعدل - إنه مثل لكل إنسان حى عامل فى الحياة ، سالك
مسالك الشرف والاستقامة .

فهل يستوى الرجلان مكانةً على موازين الرجال ؟ ذلك مالا يكون .

• • •

ولعمومية الشخصية التى تكون مضرِب المثل فقد سوغ ذلك لبعض
الباحثين أن ينظروا إلى تلك الشخصية نظرة لاتقييمها فى واقع الحياة ،
ولا تعطيلها الوجود التاريخي ، فهى عندم شخصية قامت فى ظل القرض
والتوم . !

ولاشك أن لهذه النظرة ما يؤيدها فيما نضرب نحن من أمثال ، أو ما نحكي منها . . فنحن حين نقول : لو فرضنا أن رجلاً عمل كهذا ، وكذا . . فإننا لا نقصد رجلاً بعينه ، ولا تقع في تفكيرنا صورة محققة له . . ومثل ذلك تماماً . . قولنا : مثلاً لو أن رجلاً عمل كهذا أو قال كذا .

ولأن شخصية المثل فرضية متوهمة ، غير محققة ، فقد رأى بعض الباحثين أن ذلك قد يصدق على الأمثال التي جاءت في القرآن الكريم التي أشرنا إلى بعضها . . ومن هؤلاء المرحوم الشيخ محمود شلتوت ، إذ أن لفضيلته هنا رأياً يفرق فيه بين أحداث القصص القرآني وشخصياته ، وبين أحداث الأمثال وشخصياتها ، حيث يرى أن الأولى من صميم الواقع الذي لا شك فيه ، على حين أن الأخرى قد تكون من الواقع أو مما لم يقع . .

وفي هذا يقول الشيخ شلتوت : « إن هناك farkاً بين ما سافه القرآن حكايةً عن الأمم والرسل والأشخاص ، وما سافه على أنه مثل ضربه للناس ، تقريباً لهم . فإن قصص الرسل وما التحق بها ، إنما هي حقائق ثابتة ، ووقائع حاصلة ، والقرآن مخبر بها ، لا مبتدع لها ، كل ما في الأمر أنه يقف عند مواطن العبرة فيها ، فيجلبها ، ويلفت إليها .

ثم يقول : « أما الأمثال فقد تكون حوادثها مبتدعة ، وأشخاصها مخترعة ، وقد تكون في نفس الأمر مصورة لماض وقع ، وتاريخ سلف » .
ويزيد الأمر وضوحاً فيقول : « وعلى هذا ينبغي أن تكون نظرتنا إلى قصص القرآن وما ضرب من أمثال على هذا النحو :

١ - كل جاء حديثاً عن الأمم وأنبيائهم ورسولهم ، وما أنبأ الله به عن أشخاص عيנם بما يفيد أنهم كانوا ، وكان منهم - يجب الإيمان به كما ورد في القرآن . فن نفي شيئاً منه أو لم يلتزم مقتضاه فهو متبع غير سبيل المؤمنين . فالؤمنون مصدقون بما قصه الله عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب

ويوسف وبولس وموسى وعيسى ، وجميع الأنبياء والرسل ، ومصطفون
بما قصه الله عن عاد وثمود ومدین وأصحاب الأیسة وغيرهم من الأقوام
والبلاد ، وتصديقهم بهذا شامل للتصديق بوجود الأشخاص والأقوام
والبلاد ، وبالحوادث التي أسندت في القرآن إليهم .

٢ - أما ما جاء ظاهراً في أنه مثل ضرب ، من مثل قوله تعالى : « ضرب
الله مثلاً عبداً مملوكاً » أو « ضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم » أو « ضرب
الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة » فيجوز للؤمن أن يعتقد أنه تقرب من الله
وتمثيل . وهو بخلاف ما ذكر فيه لفظ المثل وأسند إلى أشخاص معينين مثل
قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط »
و « ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون .. » فإنه ليس من قبيل التمثيل
المبتدع ، وإنما هو تمثيل بناحية حقيقية ، وجدت في شخص واقعي براديه
لفت النظر إلى هذه الناحية والاعتبار بها ^(١) .

فالشيخ شلتون يفرق بين القصص والأمثال من جهة ، ثم يفرق بين
الأمثال المضروبة لمجرد التمثيل من غير تحديد أشخاص وأماكن ، والأمثال
المضروبة وفيها أشخاص أو أماكن مذكورة بأعيانها وأوصافها .

ويرى الشيخ شلتون أن الأمثال المضروبة لمجرد التمثيل المطلق يجوز
للؤمن أن يعتقد أنها تقرب من الله وتمثيل ، ومعنى هذا أن أحداثها لم تقع ،
مثل قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها
رغداً من كل مكان فسكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف
بما كانوا يصنعون .. » فهذه القرية — على هذا الرأي — يمكن ألا يكون
لها وجود في الحياة ، كما أن الأحداث الجارية عاينها لم توجد كذلك ، وإنما كل

(١) عن مجلة رسالة الإسلام التي تصدرها دار التقريب بالقاهرة .
(العدد الثالث من السنة السابعة ص ٢٤٣)

هذا من قبيل التمثيل، الذي يراد به توضيح الحقائق، وكشفها، بهذا التصوير المجسد لها .

ونحن نخالف «الشيخ» في هذا الذي ذهب إليه في شأن الأمثال المضروبة على هذا النحو، ونرى أن كل مثل ضربه القرآن، سواء جاء مطلقاً غير مقيد بأشخاص ولا أمكنة، أو كان مقيداً بهما — هو من عين الواقع فعلاً، وليس هو من قبيل الفرض الذي قد يقع أو لا يقع . . لأن الإحالة على المتوهم والمتخيل، والتعليق على الفرضي والتمثيلي إنما يكون عند العجز عن الوقوع على الواقع المحقق، وذلك مني عن الله سبحانه وتعالى، وعن قدرته التي لا يعجزها شيء . . تعالى الله سبحانه، وتعالى قدرته عن ذلك علواً كبيراً .

هذا، وليس لكلمة «مثل» التي يقيّد بها الحدث المضروب في مساق المثل — ليس لها تسلط على هذا الحدث، حتى تنقله من الحقيقة إلى الخيال، ومن الواقع إلى الوهم كما يكون ذلك للأمثال التي نضربها، ونفترض وقوع أحداثها، وإن لم تقع أو لن تقع، فذلك أمر أقنأ عليه حقيقة أمثالنا التي نضربها، وأخرجناها من أول أمرها على هذا الوجه المتخيل المفترض، وليس كذلك ما كان من عند الله، فإن الأمثال التي يضربها الحق سبحانه وتعالى لا تنجي إلا من موارد الحق، ولا تخرج إلا من صميم الواقع، سواء عرفنا هذا الواقع أم جهلناه .

وعلى هذا، فإن كلمة «رجل» أو رجلين، أو قرية ونحو هذا مما جاء في أمثال القرآن — إنما تدل على ذات أو ذوات معينة مشخصة، عاشت في هذه الدنيا، وكان لها دورها المقدور في حدود زمانها ومكانها . . هذا ما ينبغي أن نؤمن به في شأن تلك الشخصيات أو الأماكن المجهلة، وهو أنها قد وجدت فعلاً، وأنها كانت على الوصف الذي وصفها القرآن الكريم به . . أما الذي لا يحسب من الإيمان ولا يضاف إليه، فهو ما أطلته المنسرون على هذه الذوات المجهلة من أسماء، فيقال: إن الرجل هو فلان، أو فلان، وأن

القرية اسمها كذا أو كذا .. فهذا ما سكّ القرآن عنه، وأنه لأحرى بنا أن نحترم صمت القرآن ، وألا ندخل عليه هذه المقولات التي لا تستند إلى علم ، والتي لا نعدو أن تكون من قبيل الأوهام والظنون .

المرأة في القصص القرآني

للمرأة مكانها في الحياة مع الرجل ، ونشاطها الوظيفي لا يختلف عن نشاطه إلا بالقدر الذي يختلف فيه تكوينهما العضوي ، وما ينشأ عن هذا الاختلاف من وجود استعدادات خاصة في كل منهما ، تجعله أقدر على بعض الوظائف ، وأكثر استعداداً لها من صاحبه .

فالمرأة والرجل هما الإنسان . كل منهما ذهب بأحد شطريه .. فهما متماثلان ومتغايران في وقت معاً ، أشبه باليدين أحدهما يمين ، والأخرى شمال !

وبهذه النظرة ينظر القرآن الكريم إلى المرأة في أحكامه وتشريعاته ، وفي أوامره وزواجره ، وفي تعاليمه ووصاياه .. فهو يسوى بينها وبين الرجل حين يكون الحكم متعلقاً بشأن إنساني ، يقوم على أصل الفطرة المركوزة في الإنسان .. ثم هو يفرق بينهما حين يكون الأمر شيئاً خاصاً بالرجل ، أو أمراً منوطاً بالمرأة . فقد ألقى الإسلام المرأة من الصلاة إذا كانت حائضاً ، أو نفساً .. لأن ذلك أمر من طبيعة المرأة وحدها .

كذلك فرض الإسلام القتال على الرجال ، ولم يفرض على النساء ، لأن القتال لا يلائم طبيعة المرأة ، التي تلد الحياة ، فيكون من التناقض في الطبيعة أن تقتل ما تلد !

وفي القصص القرآني يبرز وجه المرأة كمناصر أصيل من عناصر هذا القصص ، حيث تأخذ المرأة مكانها فيه كإنسان ، وكامرأة معاً . . ولهذا فإننا نشهدها في كل نشاط إنساني تحتمله إنسانيتها وأنوثتها ؛ في مجال الحدث القصصي .

فهى إنسان عاقل رشيد ، يزن الأمور بعقله ، ويتعرف مواقع الخير
ببصيرته ، ثم إلى جانب هذا العقل وهذه البصيرة إرادة قاطعة ، ورأى جميع
يقهر الحدود ، ويحطم القيود ، ليعبر عن مشيئته وإرادته على الوجه الذى
شاء وأراد .. وهى لهذا مناط للتكليف ، وأهل للنواب والعقاب .. شأنها
شأن الرجل سواء بسواء .. والمثل المائل هنا امرأة فرعون .. لم يضلها
زوره وبهتانها ، ولم يُخَفِّها بطشه وسلطانها ، فاستبان لها الهدى من دعوة
موسى ، وما أن اطمان قلبها إلى ما يدعو إليه حتى خرجت عن سلطان
فرعون ، وتحررت من دائرة فلكه الذى كانت تدور فيه الدولة كلها معه ،
وهذا استحققت أن تكون مثلاً مضروباً للعقل الحري والإرادة المنجزة ،
وكان لها هذا الذكر الكريم الذى ذكرها الله سبحانه وتعالى به فى القرآن
الكريم ، حيث يقول جل وعلا : « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأةً
فرعون . إذ قالت ربِّ ابنِ رِلىِّ عندك بيتا فى الجنة ، ونجِّنِ من فرعون وعمله ،
ونجِّنِ من القوم الظالمين » (١)

إنها امرأة فرعون .. لم يذكر القرآن الكريم اسمها .. لتكون هكذا
علم جنس للمرأة ، من حيث هى ذات مؤهلة بكل ما هو مؤهل به الرجل من
قوى عاقلة مريدة ، إن شئت أن تهتدى كانت من المهتدين ، وإن شئت أن
تضل كانت من الضالين .

إنها هنا فى كمالها ورشدها تناظر الرجل العاقل الرشيد من آل فرعون ،
حيث خرج على سلطان فرعون ، ودخل فى دين الله ، كما يقول سبحانه وتعالى :
« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » (٢)

وكما فى الرجال غواية وضلال ، يعمون عن الحق ، ويلجئون فى الضلال

(١) التحريم : ١١

(٢) غافر : ٢٨

والغى وإن كانوا في وجه صبح مشرق ، وبين يدي نور مبین - كذلك في النساء من تكابر الحق ، وتتأبى على الهداية ، وتجمع جاح الأتان الوحشى ، ولقد تبلغ المرأة في هذا اللجاج والجحاح مدى لا يكاد يبلغه الرجال .. وليس هذا بالبعيد عن طبيعة المرأة .. فهى - على أى حال - أضعف من الرجل ، وليس كالضعيف إذا ركب رأسه ، وجن جنونه .. إنه إذا انحرف لا يستقيم أبداً !

يقول تعالى في شأن امرأتين كانتا زوجين لنبيين كريمين :

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَفَا نَهَايَاهُمَا قُلْمٌ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ » (٢)

وانظر .. إنهما امرأتان في بيت النبوة .. كل واحدة منهما امرأة نبي تملأ بيته أنوار السماء ، وتغدوا وتروح عليه ملائكة الرحمن ، وهى تشهد كل هذا وتحضره ، ثم هى مع ذلك تأبى أن تفتح عينها لتستقبل هذا النور. وتعيش فيه ، بل تذهب مذهب الخلاف والعناد ، وتحول عن زوجها بكل كيائها إلى الجهة المعادية له ، المتربصة به .. !

وهذا موقف تبدو فيه المرأة وكأنها خارجة عن طبيعتها ، منحرفة عما ينبغى أن يكون منها من القيام وراء رجلها .. تشدأزره ، وتأخذ بناصره ، وخاصة إذا كان بالمسكان الذى يدعو فيه إلى الخير ، ويبشر فيه بالرحمة والمودة ، ثم لا يجد من الناس إلا نقورا منه ، واستخفافا به ، وعدوانا عليه ! إنها إن لم تنتصر له فى شخصه ، فلتنتصر له فى شخص رجلها وأبى أبنائها ، ولكنها مع هذا إنسان له عقل ، وله إرادة ، وله متجه يأخذه بما يراه عقله ، وتدفعه إليه إرادته .

وعلى أىّ فهذا مثل المرأة المنحرفة ، ترى شواهدا قائمة فى كل مجتمع بشرى ، فإذا كان فى النساء - وهذا فى الكثیر الغالب - من يكن مع رجالهن أينما كانوا ، فإن فيهن أيضا هذا الصنف المشاكس المخالف الذى لا يرضى أن يعيش فى غير الخلاف والمشاكسة ، حتى فى مواقع الرحمة والرضوان ..

* * *

ثم إننا نرى - فى القصص القرآنى - المرأة « الأنثى » تستجيب لطبيعتها فى طلب الزوج ، وفتح منافذ وصوله إليها ، فى تلفظ ، ومداراة ، من غير أن يُخذش حياؤها ، أو يُجرح كبرياؤها ..

هذا ما يذكره القرآن الكريم فى ابنة النبی الكريم شعيب مع موسى عليهما السلام .. « فجاءته إحداها تمشى على استحياء .. قالت : إن أبى يدعوك ليجزبك أجرا ما سقيت لنا » (١) .. « فهى إذ تمشى إلى موسى على خفر واستحياء ، إنما تجيء إليه فى صورة أنثى تهتف بالرجل : أنها المرأة الصالحة له ، إن كان له فى الزواج أرب !

وانظر فى قوله تعالى : « تمشى على استحياء » .. يا لله ، وبالرعة كلامه المعجز المبين .. « تمشى على استحياء » ! لقد تجسد الحياء فصار بساطا ممدودا تمشى عليه .. إنها لا تمشى على أرض ، واسكنها تمشى على « حياء » تتمتع فيه قدمائها ، وتقصّر به خطاها ، ويضطرب له كيائها ! فإذا انتهت به إلى أبيها لم تشأ أن تترك الأمور تجري فى مجاريها ، بل تأخذ مكانها فى هذا الموقف ، وتدلّ برأيها ، وتفتح لأبيها مداخل الحديث إلى ما يوثق الصلة بين موسى وبين أبيها ، ويقيم قريبا منها .. لعل وعسى !

«... فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .
قالت إحداهما : يا أبت استأجره .. إن خير من استأجرت القوي
الأمين » (١) .

إنها هي تلسم التي مشت إلى موسى على استحياء ، ودخلت به بيت أبيها ،
وقد أغرت أباهما بالاستمساك به ، والحرس عليه .. « يا أبت استأجره » .
وهي تكشف لأبيها عن صفتين في موسى يزيدان الرغبة فيه ، وتؤكدان
الحرس عليه .. « إن خير من استأجرت القوي الأمين » ، ويشعر هذا
التدبير اللطيف الحكيم ثمرته ، ويؤتي أكله ، ويستجيب الشيخ في الحال
لمقتراح ابنته ، وقد أحس بما يدور في كيائها : « قال : إني أريد أن أنسلك
إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ،
وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين » (٢) .

ويقبل موسى هذا العرض الكريم ، فيقول : « قال ذلك بيني وبينك
أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ » ، والله على ما نقول وكيل » (٣) .

وما كان أبرع شعيب وأحكمه وأعدلها فيما بينه وبين موسى من جهة ،
ثم فيما بينه وبين ابنتيه من جهة أخرى ..

إنه لم يشأ أن يفرض على موسى واحدة بعينها من ابنتيه .. فلموسى أن
يختار من يشاء منهما .. فلقد رآهما من قبل ، وليس من الحكمة ولا المصلحة
أن تفرض عليه واحدة منهما حتى ولو كان لموسى رغبة فيها ، وكان لها رغبة
فيه ، إذ أن هذا الفرض من شأنه أن يزعج موسى وأن يصدم إرادته ،
ويصادر رأيه .. ثم إن موسى سيعيش في بيت شعيب ، فإذا لم يكن قد
اختار من وقعت في نفسه من ابنتي شعيب كان في ذلك تنغيص له ، واضطراب
لحياته الزوجية ، ومعادلة وموازنة دائمة بين الأختين في كل وقت .

ثم إنه بهذا التدبير الحكيم قد سوى في القسمة بين ابنتيه في هذا الخير الذي ساقه الله إليهما .. فالآب لا يؤثر بهذا الخير واحدة على الأخرى حتى ولو كانت الكبرى ، ولو أنه فعل لكان في نفس الأخرى مرارة ، وليس الشأن كذلك إذا كان الخيار لموسى ، أو بالتراضي بين الأخنتين !

وواضح من قول شعيب « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين » أنه لم يفسح صمن له الخيار فيهما . أهو موسى أم شعيب .. وذلك أمر إن قام على هذا الوجه في هذا الموقف وفي مواجهة البنيتين ، فإنه قد ترك البت فيه لمجلس خاص بين موسى وشعيب ، فإذا انكشف الأمر بعد ذلك صمن وقع عليها الاختيار كان القطع بأن ذلك الاختيار كان عن موسى ، أو عن شعيب ، أو عنهما معاً — أمراً بعيداً ، وهكذا تتوزع الصدمة التي ربما تصيب التي لم يقع عليها الاختيار — بين هذه الاحتمالات .. فتخف وتهون ! *

ثم إننا نرى المرأة أيضاً أنى يستبد بها الحب ويغلبها الهوى فتنبع داعيه ، وتميل معه ، وهي في هذه السبيل تندفع بكل عاطفتها ، وتستخدم كل ما أوتيت من دهاء ومكر !

وامرأة العزيز مع يوسف ترينا المرأة في هذا الموقف الذي كثيراً ما تشهده الحياة .. من الضعف البشري في المرأة والرجل على السواء .. وسنمرض لهذه القصة في موضعها من هذا البحث إن شاء الله .

ثم إننا نرى المرأة حين تعطفها عاطفة الأمومة على الطفولة فيخفق لها قلبها وتستجيش لها مشاعرها .. وهذا ما نراه في امرأة فرعون وقد فزعت أشد الفزع حين رأت الطفل الرضيع موسى ، وقد هم به جند فرعون أن يقتلوه امثالاً لأمره ، فصرخت فيهم : « لا تقتلوه » ! وهي تقدم لهذه الصرخة بتلك المقدمة الرائعة المؤثرة في مثل هذا الموقف : « قرة عين لي ولك » ..

ثم تُنهى هذه الصرخة بمثل ما ابتدأتها به : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » ١
فهي كذا جاءت الآية الكريمة مصورة لهذا الهياج النفسى ، وهذا النزاع
الرهيّب : « وقالت امرأة فرعون : قرتُ عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا
أو نتخذه ولداً » ١ . (١)

ونرى المرأة فى القرآن ، مملكة ، ذات دولة وذات سلطان ، ولها فى قومها
المكان الذى اكتسبته بعقلها وحكمتها وتديرها ، قبل أن تسكتسبه بملكها
وسلطانها .. يتمثل ذلك فى مملكة سبأ ، وما كان بينها وبين سليمان
عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وتُمرض هذه القصة فى القرآن عرضاً مشيراً ، لما فيها من غرابة هذا الطائر
الصغير ، ذلك الهدهد الذى يكشف مملكة غاب عن سليمان مكانها .. وهو
الذى سُخرت له الريح ، وسُخر له الشياطين ١ .

ولقد كان فى هذه الحادثة ومجبتها على هذا الوجه ماداً لبعض المتشككين
إلى القول بأن القرآن يقيم قصصه على غير الواقع ، وأن هذه الحادثة شاعداً
يشهد لهذا ، إذ كيف يخفى على سليمان مثل هذه المملكة العظيمة ، مع
ما يقال عن هذا الملك العريض الذى كان له ، وما سُخر لخدمته من قوى
خفية وظاهرة ؟

والجواب على هذا فى إيجاز ، هو أن سليمان - مع ما سُخر الله من قوى -
كان أمره فى هذا مقصوراً على حدود مملكة لم يجاوزها ، ولم يلتفت إلى
ما وراءها ، وإلا لكان قد ملك الدنيا .. وذلك أمر لم يشهد به التاريخ ،
ولم يكن مما تصلح عليه الحياة ١١

أما سليمان يعلم لغة الطير - كما علمه الله - ، فليس فى الأمر غرابة أن يتلقى
من « الهدهد » هذا الخبر .. كما أنه ليس من الغرابة فى شيء أن يكون
« الهدهد » - وهو على فطرته - منسكراً لما عليه القوم من ضلال وكفرا

ونعرد إلى موضوعنا لنقول : إن مملكة سبأ تمثل المرأة في مكان الحكم والقيادة .. وأنها لم تغلبها عواطف الضعف ، التي تسلط على كثير من النساء في مثل تلك الأزمة ، التي أحاطت بها وهددت ملكها ، بل استقبلت الأزمة بجنان ثابت ، وعقل يقظ ، جمعت إليها ذوى الرأي والنصح في مملكتهما ، ففكرهم في هذا الأمر ، وتلزم بالرأى الذى ينجلى عنه الموقف .

« قالت يا أيها الملاء أفئتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك ، فانظري ماذا تأمرين .. » قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزاً أهلها أذلّة .. وكذلك يفعلون .. وإني مرسلّة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » (١) .

وبنتهى الأمر إلى أن تحبس المملكة إلى سليمان معلنة ولاءها له ، ولسكنه ولاء العقل ، للحجة الواضحة ، والمنطق السليم .
وسنعرض هذه القصة فيما نختار هرضه من قصص القرآن .. في آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وهكذا نرى المرأة في القصص القرآنى في كل مجال يمكن أن تكون فيه .. من أعلى مستوى تصل إليه ، إلى أسفل درك تتردى فيه .
وليس لهذا كان حديثنا عن المرأة هنا ، وإنما كان حديثنا لا لكشف عن الأثر الذى لها ، والدور الذى تؤديه في القصة .. إذ المرأة - كما نعرف - هى ركن قوى في بناء القصة أو المسرحية أو الرواية في العمل الفنى للبشر .. وبعبارة أخرى يخلو عمل من هذه الأعمال من المرأة ، كمنصر فعال في جذب القارئ أو المشاهد ، وذلك بما تستدعى الحال من عواطف الرجل نحو المرأة ، والمرأة نجاة الرجل .. والقصة أو الرواية أو المسرحية التى تخلو من المرأة - وهيات - تبدو موحشة ، جافة ، مملة ، لا يصبر الناس طويلاً معها ولا يفتقون كثيراً عندها .

والقصة القرآنية ، لا تتخير مادتها عما من شأنه أن يثير العواطف ، ويهيج الحراطر ، أو يلفت العقول .. لجمالها وروعته ، أو لقوته وبأسه ، أو لغرابته وندرته .. إنما يفعل ذلك من يتخير لنفسه بضاعة يروج لها عند الناس بالخداع والتخويه !

ولهذا لم يكن مكان المرأة في القصص القرآني مستجلباً للأنثارة والتشويق وإنما كانت المرأة حيث كان لها مكان في هذه القصص .

فإذا صح أن يستجلب أصحاب القصص لقصصهم ألواناً غريبة للأنثارة والتشويق ، فإن ذلك شأن غير شأن القرآن ، الذي تقوم رسالته على التربية والتهديب ، وأنه لما ينافي تلك الرسالة أن يتلبس بها خداع ، أو يغشاها تمويه ، أو يختلط بها زيف أو تضليل ، لإلهاب العواطف ، وإهاجة المشاعر !

والقصص القرآني أخذَ نهجَ القرآن الكريم كله ، في أنه الحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه كما يقول الله سبحانه وتعالى فيه : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الحوادث التي يشتمل عليها القصص القرآني إنما هي قطع من أحداث الحياة ، جاء بها القرآن ، وبعضها من الماضي البعيد أو القريب ، كما هي ، دون أن يدخل عليها شيئاً بغير حقيقة من حقائقها ..

نقول هذا لنقرر أن المرأة وهي - كما قلنا - عنصر أصيل من عناصر العمل القصصي لم يكن القرآن لينظر إليها في قصصه هذه النظرة ، ولم يكن يصطنعها لأداء هذا الدور العاطفي الذي يكمس القصص لونا زاهياً معجباً .. وإنما يذكرها القرآن - حين يذكرها - لأنها تمثل واقعاً من الحياة ، وتشغل جانباً كبيراً من جوانبها .. فإذا استدعى القرآن حدثاً من الأحداث ، ليسوقه

مساق القصة ، للعبرة والعظة ، وكان للمرأة مكان في هذا الحدث ، جاء بها لتأخذ مكانها في تلك الحادثة ، على نحو ما وقعت عليه . .

أما إذا لم يكن لها دور ، ودور يستدعيه الموقف ، فلا يُجرى لها ذكر ، ولا يُفسح لها مكان في القصص القرآني .

فالمرأة في القصة القرآنية ليست مقصودة لذاتها ، بحيث تكون محورا تدور حولها أحداث القصة ، أو تستجلب استجلابا لتؤدي دور التشويق والاستنارة ثم تمضي وإنما هي في مكانها الحقيقي في الحدث - إن كان لها مكان - وإلا فلا يرى لها وجه ، شأنها شأن أي شيء غريب عن الحادثة ، من أشخاص وأشياء . . ولهذا خلا كثير من القصص القرآني من المرأة . . كقصة أصحاب الكهف ، وقصة العبد الصالح وموسى ، وقصة ذى القرنين . . ومع هذا فقد كانت هذه القصص الثلاث ، وهي في سورة واحدة - سورة الكهف - في المستوى الذي جاءت عليه قصة يوسف - إثارة وتشويقا ، وروعة ، وسطوة . وذلك شأن القرآن كله ، قصصه ، وغير قصصه ، ترغيبه ، وترهييه ، وأمره وزواجره . . إنه يفيض عن الحق ، وينطق بالحق . . والحق إذا خلاص من الشوائب ، وصفا من الأدران كان مستغنيا بذاته عن ألوان الجلال ، ورحلى الجلال ، فهو الجلال كله ، والجلال كله . . وما الحق الحق إلا القرآن ، وإلا كلمات القرآن .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن وجود المرأة في بعض القصص القرآني إنما هو ما استدعاه الحدث القصصي الذي كان للمرأة مكان حقيقي فيه ، غير منظور إليها نظراً خاصاً ، ككون من الألوان المشعة أو المضئية في القصة .

ولعل المرأة في قصة يوسف تبدو - في ظاهرها - أنها تؤدي في القصة دور المرأة المستجلبة لإضفاء لون زاه على ألوانها ، وكأنها إنما قصد إليها لتخفف تلك الألوان الحزينة التي بدئت بها القصة . . من إلقاء يوسف في الحب ،

والحزن القى ملاً قلب يعقوب وبينته عليه ، إلى المحنة التي وقع فيها يوسف ، والمكر الذي مكر له به ، حتى أُلقي في السجن بضع سنين ، ثم ما كان من الابتلاء الجديد ، الذي ابتلى به يعقوب وأبناء يعقوب ، حين دبر يوسف لأخوته هذا التدبير الذي أخذ به أخاه وردمهم إلى أبيهم من غير أن يصحبوه معهم . لعل هذا الذي يبدو في ظاهر القصة من أحزان وآلام ، قد استدعى وجه المرأة الذي خفف كثيراً من الألوان المعتمة التي تسبغ على وجه الصورة ، وأنها كانت تظهر في الوقت المناسب ، حين يكفر الجو ويعتم ، ولكنها مع ذلك لم تكن باللون الغريب على الصورة ، المستجلب لهذه المهمة ، وإنما كانت في جميع مواقعها في القصة ، المرأة التي تدعو إليها دواعي الحال ، ويقتضيها المقام . . ولهذا فإنها كما كانت لوناً زاهياً في القصة ، كانت كذلك لوناً من ألوانها القاتمة في أكثر من موقف . . حين أُلقت في وجه العزيز باتهام يوسف ورمته بمحاولة العدوان عليها . . ثم بمطاردته وملاحقته بالوعيد والتهديد . . ثم بإلقائه أخيراً في السجن .

ومالنا ولهذا كله . . والقرآن إنما ينقل أحداثاً واقعة ، ويبعد وقائع عرقها الحياة ، وسجلها التاريخ . . فلا مجال إذن لإمكان القول بأن هذا الحدث مفتعل ، أو أن هذه الشخصية أو تلك مستجلبة أو متخيلة .

ولكن الذي أردنا أن نوضحه هنا هو أن القرآن لم يمكسك من أحداث الماضي في قصصه بهذا اللون الذي تقوم فيه المرأة بدور الاستنارة والتشويق أو الترفيه ، وإنما جاءت المرأة حيث كان لها في الحدث الذي تخبر القرآن عرضه — دور ومكان ، أيا كان هذا الدور وهذا المكان ، بارزاً أو باهتاً . : عاطفياً أو غير عاطفي ، منحرفاً أو مستقيماً . . إنها إنسان من الناس ، وامرأة من النساء ، يلقاها الحدث القصصي في الموضع الذي كانت فيه ، بلا تعديل ولا تبديل . إنها إنسان لها وجودها الإنساني ، وما يخضع له هذا الوجود من ضرورات الحياة ، وما يتسلط عليه من مؤثرات الخير والشر . . ثم

إنها امرأة لها وجودها الأنثوي ، وما يخضع له هذا الوجود بحكم عواطفها ،
وميولها ، وما يشيع فيها من غرائز ، وما يحكمها من عواطف .

* * *

هذا وليس إغفال القرآن لذكر اسم المرأة في تلك المواضع التي كان للمرأة فيها شأن أو موقف — ليس هذا الإغفال عن استجابة للعادة التي يقال إنها كانت متحركة في العرب من تكريمهم لذكر أمماء نساءهم ، كما يقول بذلك بعض الباحثين .. إن ذلك القول بجانب للصواب ، في أكثر من وجه .

فأولاً : لم يغفل القرآن ذكر المرأة باسمها إلا حين لم يكن للاسم غرض خاص يتعلق به ، من حيث هو في ذاته تلك .. وذكر المرأة — من حيث هي امرأة — دون تعيينها بالاسم إنما يراد به حيث ذكرت ، التعميم ، بحيث تكون هذه المرأة دالة على جنسها كله في حين الحكم الذي أناطه القرآن بها ، أو الوضع الذي وضعها فيه .. ولو ذكرت المرأة هنا معينة باسمها لأنهم ذلك أن الحكم أو الوضع إنما هو لها بذاتها لخصيصتها فيها ، ليست في جنسها أو في الأعم الغالب من جنسها ، وهذا من شأنه أن يفهم غير المراد ، وأن يدخل الخلل والفساد على المعنى المقصود ..

فامرأة فرعون ، وامرأة نوح ، وامرأة لوط ، وامرأة أبي لهب ، وملكة سبأ .. كلهن نساء في تلك المواقف التي عرضهن القرآن فيها ، يمثلن جنسهن جميعاً ، حيث فيهن الكثيرات اللاتي قد يكن هذه المرأة أو تلك .. في رشدنا أو ضلالها .

أما حيث تكون المرأة على صفة خاصة تستقل بها دون النساء جميعاً ، فإن ذكرها باسمها يكون حينئذ أمراً لا مندوحة منه ولا معدى عنه ، فلا يكفي في مريم ابنة عمران أن يقال عنها : « امرأة أحصنت فرجها . فنفخنا فيه من روحنا » أو يقال عنها « واذكر في الكتاب بنت عمران »

إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرأ سوياً .. إنها امرأة واحدة بين نساء العالمين جميعاً ، تلك التي كان لها هذا الشأن ، ولو أغفل ذكر اسمها هنا لأفهم ذلك أن هذا لها من حيث امرأة ، وكفى .. وكلا فإنها امرأة أراد الله سبحانه وتعالى أن يختصها بهذا الفضل العظيم ، وأن يجعلها وابناً آية للعالمين . فكان ذكرها باسمها هكذا « مريم » أمراً يقتضيه مقتضى الحال ! !

وليس هذا وذاك في شأن المرأة وحدها ، بل إن القرآن قد جرى عليه في شأن الرجال أيضاً .. فالرجال الذين لهم خصصة ذاتية ليست لغيرهم أو لأكثر جنسهم قد ذكرهم الله تعالى بأسمائهم .. كآ نبياء الله صلوات الله عليهم ، أما الذين هم رجال مجرد رجال تتمثل فيهم خصائص الجنس فقد أغفل القرآن ذكر أسمائهم ، دلالة على أن هؤلاء الرجال يعيشون في الإنسانية ، ويوجدون في كل أمة ، وفي كل جيل !

وانظر كيف ذكر القرآن الكريم « زيد » الذي كان متبنياً للنبي صلى الله عليه وسلم فلما أراد الله تعالى إبطال التبنى ، بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل زواجه صلى الله عليه وسلم من مطلقة زيد متبناه ، قطعاً لتلك الأبوة التي كانت تقضى بما يقضى به حكم الابن الحقيقي من حرمة زواج مطلقة .. وفي هذا يقول الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » (١) .

ثم يقول سبحانه بعد ذلك : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله .. وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي

لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً (١).

وثانياً : لم يكن العرب - وخاصة في الجاهلية - يتكروهون ذكر المرأة باسمها ، زوجاً كانت أو بنتاً أو أختاً .. بل إن أسماء نساءهم كانت تحرى على ألسنتهم في مجالسهم وأسماءهم ، كما كانت تذكر في أشعارهم وأخبارهم .. وقد سُمّي كثير من الفرسان ، والمشهورين ، بل والملوك بأسماء أمهاتهم ، كما سميت كثير من القبائل باسم الأم دون الأب .

يقول الشاعر الجاهلي مفتخراً بنسبه إلى أمه :

أبا ابن دارة معروفاً بها نسي وهل بدارة يالللناس من عار !

ويقول القتال الكلابي يفخر بأمه :

أما ابن أسماء أعمامى لها وأبى إذا ترامى بنوا إيموان بالعار (٢)

وقد احتفظ العرب بأَنساب نساءهم كما احتفظوا بأَنساب رجالهم .. فكانوا يحفظون اسم المرأة واسم أمها وجدتها .. إلى أجيال كثيرة .. كما كان بعض المحبين يضاف إلى محبوبته ، فيقال : جميل بثينة ، وكثير عزة ، وقيس لبنى .

فالعرب لم يكونوا يتحرجون في ذكر نساءهم بأسمائهن ، زوجات أو أمهات ، أو بنات ! وما فعله القرآن في الذكر أو الحذف كان لمقتضى الحال .

(١) الأحزاب ٣٧

(٢) الإيموان بكسر الهمزة جمع أمة .. مثل أخ ولأخوان

الباب الثالث

الحركة والحوار

الحركة . . ثم تلوينها وتنويعها هي الروح الذي يسرى في كيان العمل القصصى، ويبعث فيه الحياة ، ويجعل بينه وبين الناس تجاذباً وتجاوياً .. وإنه بغير الحركة ، والحركة المتنوعة الملونة يفقد العمل القصصى حيويته ، ثم حياته ويتحول إلى كتلة جامدة باردة من السكيات .

والحوار هو وحده من بين أساليب القول ، هو الذي يعتمد عليه فن القصص ، في خلق الحركة وتلوينها وتنويعها .

فبالحوار تتبادل الشخصيات مواقفها ، وتزابل أماكنها ، وتبدل أحوالها وأشكالها ، على مسرحى من الأمثلة والنماذج التي نعرضها من القصص القرآنى .

الحركة في القصة :

والحركة هنا أعم من أن تكون حركة مادية ، ينتقل بها أشخاص القصة من مكان إلى مكان ، أو أن تحتفى شخصية لتحل مكانها أخرى .. وإنما الحركة هنا تشمل هذا الانتقال المادى في تحركات الأحداث ، والأمكنة والأزمنة ، كما تشمل تحركات الخواطر والأفكار ، والمواقف ، وغيرها ، مما يتصل بالحياة الإنسانية ، في مادياتها ومعنوياتها جميعاً .

فأنت ترى أن هناك خيوطاً كثيرة تتطلب مهارة فائقة ، وحذقاً وبراعة حتى يمكن أن يلتحم منها نسيج الحركة في القصة ، فلا تكون نسجاً مهلهلاً ، أو خيوطاً معقدة ، لا يعرف لها رأس من ذنب .

إن الحركات التي يبني عليها العمل القصصى أشبه بمجموعة من آلات الموسيقى، تنبعث منها أصوات مختلفة .. كل صوت له نغمته ، ودرجته ، وقراره

والمؤلف هنا هو ضابط الإيقاع ، الذى يمسك بهذه الأصوات الموسيقية فيسوى منها نغماً متسقاً متجانساً .. هذا إذا كان على علم بالفن ، وعلى بصير بالموسيقى ، أما إذا أعوزه العلم بالفن ، والبصير بالموسيقى فلن يخرج من هذه الأصوات إلا لفظاً ولغوياً ، لا مفهوماً له ولا تأثير .

وبالحركة يستطيع المؤلف البارع أن يقيم من قصته عالماً حياً ، تتفاعل كائناته وتتصارع ، وتتجاذب ، دون أن تنقسم عرا التلاحم بينها ، أو أن تنقطع أسباب الصراع ودواعيه بين شخصوها .. وبهذا يظل العمل القصصى وحدة واحدة ، ينمو نمواً طبيعياً ، متجانساً فى جميع أجزائه ، كما ينمو الجسد الحى ، للكان الحى .

وليس للعمل الحركى فى القصة خط مرسوم يلتزمه الكاتب ، ويأخذ نفسه به ، وإنما هو أمر متروك له ، يذهب به المذهب الذى يمليه عليه شعوره ، وإحساسه ، فى مواجهة الأحداث ، وفى تقديره لها ، وحسابه معها ، حسب النظرة التى ينظر بها إليها .

إن شعور الكاتب هو القوة التى يحرك بها أحداث قصته .. وهذا الشعور ليس على درجة واحدة فى جميع الأحوال .. بل هو دائماً فى تحول وتبدل .. ثم إن هذا الشعور لا يستطيع الكاتب أن يجده فى كيانه ، وأن يتعرف عليه إلا بعد أن يولد الحدث ، ويأخذ مكانه فى مجريات الأحداث التى تسير فيها القصة ، ومن هنا كان من المتعذر جداً على الكاتب أن يحدد موقفه من الحدث ، وبالتالى يسكون من غير الممكن أن يتقدر الانجاء الذى يدفع بالحدث إليه ، وأن يحدد الدفعة التى يقف بها عنده .

وقد أشرنا من قبل إلى اختلاف الحركة وتلونها وتنوعها ، ونعيد القول هنا مرة أخرى لنؤكد هذا المعنى ونوضحه ... !

فالحركة ليست مقصورة على الحركة المسادية ، التى تنتقل بها شخص القصة من مكان إلى مكان ، أو تتحول بها من حال إلى حال .. وإنما هناك

حركات داخلية لا تكاد تحس ، وهي في الواقع أكثر فاعلية ، وأقوى تأثيراً في تفاعل الأحداث وفي إنضاجها .

فهناك حركات ذهنية ، تتصارع فيها الخواطر والأفكار ، في حركات سريعة مطلقة من قيود الزمان والمكان ، وهناك كذلك حركات نفسية تغل في العواطف وتغور ، دون أن تصطدم بحاجز من حواجز الأمكنة والأزمنة . وقد تبرز هذه الحركات جميعها فتكون حركة واحدة ، تضبط موقف الحدث من القصة ، وتحدد وجهة سيره فيها .

الحركة في القصة القرآنية :

والقصص القرآني يستخدم الحركة استخداماً لم تستطع اللغة - أي لغة - أن تبلغ شيئاً مما بلغه القرآن في هذا المجال ..

فحين يدعو القرآن حدثاً من الأحداث إلى انجاء من الاتجاهات التي يريد لها ، فإنما يحركه من أصفاءه ، فيتجه إلى غايته انجاء السهم إلى الرمية دون أن يتوقف ، أو ينحرف .. ذلك أن القرآن يمسك به من جميع أطرافه ، ويستولى على كيانه كله ، فلا يكون هناك خلخلة أو انقسام بين ظاهر الشخصية وباطنها .

ومفهوم هذا أن القرآن حين ينطق بشخصية من الشخصيات فإنما يحمل على لسانها ما يدور في خاطرها ، وإن كانت من الشخصيات التي تلزم الصدق .. أما إن كانت من تلك الشخصيات التي تراوغ وتخادع وتناق ، فإنه لا يدعها تنطق بما نطقت به دون أن يفضحها ويكشف أمرها ويعلن عما أخفته ، وأضرته .

ففي قصة يوسف مثلاً ، نجد هذا الكيد الذي بيته أبناء يعقوب لأخيه يوسف ، قد فضحته تلك الكلمات المموهة المزوقة التي تقدموا بها إلى أبيهم ليأذن لهم في أن يصحبوا يوسف معهم .. « مالك لا تأمننا على يوسف ، وإنا

له لناصحون ؟ » ، وما لهم لا يأمنهم أبوم على أخيهيم ؟ ومتى كان الأخ غير مؤتمن على أخيه ؟ . إن هذا الادعاء الذى يدعونه على أبيهم ، وهذا الدفع الذى يدفعون به ما تخيلوه من اتهام أبيهم لهم بالتهاون والتفريط فى شأن أخيهيم - لهو الدليل الصارخ على الشر الذى يبيتون ، وعلى العدوان الذى يضمرون ! « وإنا له لناصحون » .. وهذا التوكيد القاطع الجازم إنما يدفعون به اتهاماً خفياً يتخيلونه فى صدر أبيهم منذ عقدوا العزم على هذه القفلة الشنيعة ، فلقد داوروا الأمور فى بينهم زمناً قبل أن يطلبوا إلى أبيهم هذا الطلب .. « إذ قالوا لـ يوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ، ونحن عصابة إن أبانا لى ضلال مبين .. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين .. قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » .. وحين استقر بهم رأى على هذا التدبير تقدموا إلى أبيهم فى هذا الأسلوب المفضوح : « يا أبانا .. مالك لا تأمننا على يوسف ، وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » .

ولم كان « غد » هو الميقات الذى جعلوه موعداً لأخذ يوسف معهم ؟ إما أن يكون ذلك لأن حديثهم مع أبيهم كان فى المساء بعد انتهاء يومهم فى المرعى ؛ وبعد أن اجتمع شملهم فى العشاء أو السمر ! إذن فهم قد اختاروا هذا الوقت ليخفوا فى ظلمة الليل ما قد يبدو على وجوههم من انفعالات تكشف عما يبتوه ودبروه !

وإما أن يسكون ذلك فى مطلع صبح يوم جديد ، حين هموا بالتأرجح إلى المرعى .

وإذن فهم فى استخزاء من أن يطلبوا هذا الأمر منجزاً .. إنهم فى ضعف ظاهر ، تنوء قواهم بهذا الحمل الذى حملاه بين أضلعهم ، وأجروا أمرهم عليه ! لقد أثبت علم النفس الحديث أن المجرم يحوم حول مسرح جريمته بعد

أن يرتكبها ، وهاهو ذا القرآن يسبق إلى ذلك ، ويتجاوزه ، فيكشف عن حقيقة أخرى ، وهي أن المجرم بحوم حول مسرح الجريمة قبل أن تقع ، وذلك بما يطلع عليه منها من خواطر وتصورات !!

فانظر إلى هذه الحركات النفسية كيف ضبطها القرآن ضبطاً محكماً ، وكيف أحالها إلى كلمات تنطق بهذا المسكنون في الصدور وتكشف عنه ! وسنرى كيف كان الحوار قوة دافعة للحركات بصورها وأشكالها ، وأنواعها في القصص القرآني كله .

ففي هذا الحوار أخرج القرآن خبايا النفوس ، وكشف عن طوايا الصدور ثم أخذ الأحداث بها وأجراها على حسابها ، فكان هذا التلاحم بين المواقف والأحداث ، حتى في مجال التضاد والعناد !

الحوار في القصص القرآني :

الحوار - كما قلنا - هو الروح الذي يسرى في كيان العمل القصصي ، وبغير الحوار يتحول هذا العمل إلى كتلة باردة متحجرة من الكلمات ! وقلنا كذلك إن التلوين والتنويع هو الذي يعطي الحركة التي يخلقها الحوار جمالاً ، ورشاقة ، وحسناً مجدداً لا يملّه النظر ، ولا تزهّد فيه النفس .

والحوار في القصص القرآني يقعر دونه الوصف ، ولا يبدل عليه إلا بالحضور والمشاهدة . . غير أننا نشير إلى ملحظ يتصل بأسلوب الحوار ، وهو أنه يعتمد غالباً على الحكاية . . حكاية مقولات القائلين ، ونقلها على ألسنتهم .

وأسلوب الحكاية في فن القصص على يسره وسهولته من أعقد الأساليب وأشقها في إقامة بناء فني متماسك ، لا يملو وجهه السأم والملاة .

ذلك أن القصص الذي يقف عند مجرد الحكاية لمقولات القائلين ونقلها عنهم ، إنما هو آلة ناطقة تحكي ما وقع عليها من أصوات ، دون أن تحمل شيئاً من ملاسات الموقف ، وما يدور فيه من إشارات وحركات ، وخلجات

نفوس ، وخفقات قلوب .. إلى غير ذلك مما ينقدح من الاحتكاك الحوارى من شرارات هى التى تبعث الأضواء فى كيان العمل القصصى ، وتشيع الحرارة والحياة فى أوصاله . فالحوار الذى يعتمد على الحكاية إن لم يقع ليد صانع خبير حاذق كان مزلقا يسقط به العمل القصصى ؛ ويثقل ويبرد ! .

وحين نقف بين يدي موقف من تلك المواقف التى أدار فيها القرآن الحوارين شخصيات الحدث القصصى ؛ نجد المشهد كله حاضراً مشخّصاً بملأ الأسماع والأبصار ، بكل خلجة أو خاطرة وقعت فيه .

وفضل القرآن هنا إنما يظهر أكثر ما يظهر فى ملء تلك الفراغات التى تقع بين ثنايا الحوار ، وذلك على الوجه الذى يجعل للقارى منافذ ينفذ منها إلى القصة ، ليملا الفراغات التى تركت عن حكمة وتدبير ، ليتحرك فيها بعقله ، وبخياله ، وليكون له فى القصة موقف ما ، يصله بها ويشده إليها .

وللقرآن فى هذا المجال المثل الأعلى فى الإمساك بزمام الموقف الحوارى وإدارته على الوجه الذى يقيم منه معجزة قاهرة تخضع لها الأعناق ! .

ولم يلزم القرآن نهجاً واحداً فى إقامة البناء الحوارى ؛ لأن ذلك معناه الخضوع للآلية الحتمية ، التى من شأنها أن تقضى على الحرية المطلقة ، التى ينبغى أن يولد العمل الفنى فى جوها ، وأن يتنم أنسامها ؛ وإلا اختنق ومات ، أو ولد ميتاً ! .

لهذا نجد القرآن يذهب بالأسلوب الحوارى كل مذهب ، ويلونه ألواناً مختلفة ، حسب مقتضى الحال ، وداعية المقام .

فهو حيناً يختصر الأحداث ، ويعرضها عرضاً سريعاً ، تطفو فيه التفاصيل ، وتعنى فيه الإشارة اللاحقة ، والامحة الدالة عن العبارات المبسطة ، والأساليب الكاشفة ..

وأحياناً يفصل الأمر تفصيلاً ، حيث لا يكون غير الكلمة ما يغني غناه
ويستدسدها ..

وفيما بين الأمرين درجات متفاوتة .. في الإيجاز والتفصيل .
ونود أن ننبه إلى أننا لا نقف عند الحوار هنا من حيث امتداده أو
قصره . وإنما نقف منه من حيث تصوير الموقف .. تصويراً تاماً يتناول جميع
أجزائه ، أو تصوير جانب منه ويترك الجانب أو الجوانب الأخرى ، لدلالة
الحال عليها ، وعدم اقتضاء الموقف لها .. فقد تكون الصورة صغيرة
ولكنها تشتمل على كل أجزاء الموقف ، وقد تكون كبيرة ولكنها لا تظهر
إلا جانباً منه .

هذا ما قصدنا إليه في القول بالاختصار والتفصيل ..
وعلى هذا فقد نشهد مشهداً قصيراً ، ولكنه يجمع أجزاء الحدث كلها ،
بحيث يرى المشاهد جميع الوقائع التي شاركت في بناء الحدث ، وعملت على
إنجائه واكتماله ..

وقد نقف بين يدي مشهد طويل ، ولكن نرى فيه لحظات كثيرة ،
وخلجات هنا وهناك ، يحاول الإنسان ملئها بما بين يديه في مسافات القصة
من دلالات وأمارات .

فن المشاهد القصيرة التي يظهر فيها الحوار مفصلاً غير مجمل ، هذا المشهد
الذي كان بين موسى وبين ابنتي شعيب ..

— « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون .. ووجد من
دونهما امرأتين تزدودان .

» قال :

— ما خطبكما ؟

» قالتا :

— لانسق .. حتى يصدر الرّءاء وأبونا شيخ كبير ! »

فهذا التفصيل في جوابهما على سؤال موسى كان أمراً لا بد منه .
إذ لا يستطيع موسى أن يكشف عن تلك الحال التي وقفت بهما بعيداً عن
مورد الماء ليسقيا حين يصدر الرعاة - لا يستطيع موسى أن يكشف عن تلك
الحال على هذا الوجه الذي استبان له من قولها .. فقد كان يمكن أن يكون
تأخرهما حياءً وابتعاداً عن موطن الاحتكاك والتزاحم والتدافع مع الرجال .
وقد يكون لداعية غير هذا . فلما صرحتا له بحالهما ، وأنها ضعيفتان ، وألا
رجل لهما يرفع الماء من البئر ، وأن أباهما شيخ كبير - عرف حقيقة الموقف ،
ومالجه على الوجه الذي ينبغي ، مما تقتضيه المروءة والرحمة معاً .

وانظر إلى هذا الخلق المندس في قوم شعيب ، وإلى ماضيت عليه قلوبهم
من غلظة وقسوة ، وإلى ما انطوت عليه نفوسهم من أنانية وأثرة . لا يلتفتون
لغثة إلى هاتين البنيتين الضعيفتين ، ولا يسقون لهما ، ولا يخلطون لهما في هذا
الموقف ، بل يدعونهما وشأنهما ، ولو ماتت ماشيتهما عطشا ، وأسلمهما
الظلام للوحوش واللصوص .

ومثل هذا الموقف ، ما كان بين موسى وشعيب حين التقيا ، وحين
لفتته إحدى ابنتيه إلى الاحتفاظ به عندهم :

« قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين .
» قال :

« إني أريد أن أنسكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى
حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن
شاء الله من الصالحين .

» قال :

« ذلك بيني وبينك ، أيما الأجلين فضيت فلا عدوان عليّ ، والله على
ما نقول وكيل . »

فأبنة شعيب لم تقف عند حد دعوة أبيها إلى استئجار موسى ، بل أغرتة

بذلك ، محرّضته عليه ، حين كشفت عن الصفات الطيبة التى يشتمل عليها ،
والتي هى مطلوب كل من يريد عاملاً يعمل له ، ويتولى شأنًا من شئونه ..
ولم تقل : « إنه قوى أمين » ، بل إنها جعلت ذلك قضية من القضايا المسلم بها .
« إن خير من استأجرت القوى الأمين » !!

وشعيب حين يدخل فى صنفه مع موسى يقدم له شروطاً واضحة مفصلة
لا تحتاج إلى تخريج وتأويل ؛ فكل كلمة أخذت مكانها من المحتوى الذى يقوم
عليه هذا العرض المعروض .

ويتلقى موسى هذا العرض الواضح المفصل بإجابة واضحة مفصلة ، لا لبس
فيها ولا غموض .

وهكذا شأن العقود المبرمة بين الناس ، ينبغى أن ترتفع منها الجهالة ،
وأن تقع واضحة كل الوضوح .. فى كل طرف من أطرافها .. !

ومن المشاهد الطويلة التى لم يتقصّ فيها القصص القرآنى كل جزئيات
الأحداث ، ولم يتتبع كل خطوات تحركاتها ما كان فى قصة يوسف ، حيث
ترك القرآن كثيراً من المواقف والحركات والأحداث ، وطوى كثيراً من
الأيام والشهور والأعوام ، التى تحتاج إليها الأحداث لنضجها واستوائها .
ومن ذلك :

١ — ما كان بين النقاط يوسف من الجلب ، ووصوله أرض مصر ، ودخوله
فى بيت العزيز .. فإنه لم يجر لسكل هذا ذكر فى القصة ..

« وسَرَّوْهُ بِنْتِمْنَ نَحْسٍ دِرَافِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ » وقال
الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مشواه .. هكذا تطوى هذه المسافات
البعيدة الطويلة فى الأمكنة والأزمنة .. إذ لا متعلق لها فى مضمون القصة
وحتواها .. ثم هى أيضاً معلومة بداهة ، يتصورها القارىء على أى وجه شاء ،

ويسلك بها أى طريق أراد .. مادام سينتهى آخر الأمر إلى مصر، وإلى بيت العزيز، وفى هذا المجال يتحرك ذهن السامع أو القارئ، ويتجدد نشاطه، وتستيقظ ملكاته.

٢ — فى الموقف الذى يبين يوسف وامرأة العزيز .. نجد القصة تضمنا وجهاً لوجه أمام الأزمات التى بلغت الأحداث، ودون أن نشير إلى شئ من هذه الأحداث، ودون أن تكشف عن قليل أو كثير منها. « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب، وقالت هيت لك قال: معاذ الله .. إنه ربى أحسن مثواى، إنه لا يفلح الظالمون .. ولقد همت به، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف هذه السوء والفحشاء .. إنه من عبادنا المخلصين » ..

إنه لا شك بأن هذا ليس أول موقف لامرأة العزيز من يوسف .. إذ لابد من مقدمات كثيرة ومحاولات، ومراودات، استمرت زمناً، ربما كان ذلك من بفاعه يوسف إلى أن بلغ أشده واستوى .. وأن هذا الموقف الذى شهدته العزيز لم يكن إلا بعد أن تضجعت الأحداث واستوت، فدفعتهابوبه إلى هذا الموقف المتأزم.

٣ — وفى الموقف الذى كان من أحد صاحبي السجن، وذهابه إلى يوسف، ليقيم عليه رؤيا الملك، وليعرف تأويله له .. نجد الرجل ينتقل فى لحظة خاطفة من بيت الملك إلى يوسف فى السجن ..

« وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .. يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان بأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات » ..

وفى هذه الحركة المنطلقة انطلاق السهم ما ينبىء عن الלהفة اللاهفة إلى تجلية هذه الحيرة، وكشف هذا اللبالبال الذى وقع فى محيط الملك، وعصف بكل شئ حوله .. إن القارئ نفسه ليستمتع هذا الرسول وينقله على أجنحة الخيال، ليعود بالغبر اليقين، قبل ارتداد الطرف، ولو أن الرسول تباطأ أو استأنى

بحيث يمرّج على شيء هنا أو هناك دون أن ينطلق هذه الانطلاقة المجنونة الصارخة - لرمته فوارص الكلام من كل مشاهد أو سامع أو قارئ، ولما سلم من ركلة رجل ، أو ضربة يد ، ولو في الوهم والخيال ١١

٤ - وفي الرحلات التي قام بها أبناء يعقوب من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى الشام ، ثم من الشام إلى مصر ، وفي رحلة يعقوب أخيراً من الشام إلى مصر . في هذه الرحلات جميعها كانت تطوى المسافات المسكنية والزمانية ، وينتقل المشهد في لقطة « سينمائية » وكأنها عين تفتتح على مشهد ثم تغلق لتفتتح على مشهد آخر يمثل نقلة بعيدة في مجرى الأحداث ، دون أن يجد المشاهد خلجة ، أو يحس انقطاعاً في تدفق هذه الأحداث .

* * *

وللجوار في القصص القرآني ممة خاصة ، لانجد لها أثرافي القصص الأدبي على الإطلاق ، وهي تلك الذاتية التي يحتفظ بها هذا الحوار لشخصيات المتحاورين . . ذلك أننا في القصص القرآني لانجد فرصة أبداً نتغلت فيها من هذا الشعور الذي يستولى علينا من أننا إزاء شخصيات واقعية ، لها وجودها الذاتي ، ولها منطقها وتفكيرها ، ولها منزلها وإرادتها في الموقف الذي تقفه في الحدث ، وفي الأسلوب الذي تعبر به عن موقفها ، دون أن نستشعر بأن ملقنا من ورائها يلقنها الكلمات التي تلقها في المشهد ، أو يحركها الحركة التي تؤديها فيه . . على حين أننا نجد ذلك الشعور غامراً فياضاً في أكثر موافق القصص الأدبي ، حيث نرى الأشخاص يتحدثون ويتحركون بما يضعه المؤلف على ألسنتهم من كلام ، وما يشير إليهم به من حركة . .

ولعل أوضح مثال لهذا .. الحديث الذي حكاه القرآن على لسان المدهد في موقفه مع سليمان ، حيث لا يشعر القارئ أو السامع أنه في مواجهة حيوان أعجم ، وأن هذه الكلمات التي نقلت عنه ليست إلتأخيلاً أو تعبيراً عن واقع الحال ، وإنما نشعر شعوراً صادقاً بأن هذا الحيوان قد نطق فعلاً (٩ - القصص القرآني)

بهذه الكلمات، وأن ما نطق به إنما كان تعبيراً صادقاً وتصويراً صحيحاً لمشاعره ومدركانه، وأن كل كلمة قالها إنما هي منه عن علم وفهم ووعي: «قال أحطت بما لم تحط به وجنتك من سبأ نبأ يقين» إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدم عن السبيل فهم لا يهتدون» .

من أجل هذا كان الحوار القصصى القرآنى ذا أثر بعيد في إحياء المشاهد التي ضمَّ عليها الحدث القصصى، وفي إقدارها على التأثير بالكلمة تأثيراً لا يبلغه التأثير بالصورة أو الحركة في العمل السينمائي أو المسرحي ..

إننا في هذا الحوار نتلقى الكلمات من فم أصحابها، حية، نابضة بالشاعر والأحاسيس، فلا نسمع الكلمات حتى نجد صاحبها معها، ينطق بها محملة بخلجاته، ونبرات صوته، وما انطبع على وجهه من آثار .

استمع إلى قوله تعالى فيما كان بين موسى وفرعون في موقف من تلك المواقف التي كانت بينهما :

« وإذ نادى ربك موسى أن ائتِ القوم الظالمين، قوم فرعون ألا يتقون؟ قال رب : إني أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هرون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال : كلا فاذهبا بآياتنا إننا معكم مستمعون ، فأتيا فرعون .. فقولا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل .. قال : ألم نوبك فينا وليدأ ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » (١) .

ولابد من وقفة هنا مع هذا الإعجاز المبين الذي يتحدى قدر البشر في كل ما أوتوا من وسائل الإبانة والتصوير .

فهذه المناجاة التي كانت بين الله - سبحانه - وعبيده موسى، وما حملت

هذه المناجاة من كلمات الله سبحانه - إلى موسى وأخيه هارون : « فأتيا فرعون
فقلولا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل » .

هذا الأمر الذي تلقاه موسى من ربه نراه يصل إلى مسمع فرعون فوراً
بالتقى موسى له ، ونجد فرعون يلقاه بالجواب ، دون أن يجري ذكر للقاء
موسى بفرعون ، ودون أن يحكى القرآن كيف كان هذا اللقاء ، ولما افتتح
به الحديث بينهما ، فكل هذا وكثير غيره مما اشتمل عليه الموقف ، وما قدم
له به - لم يجز له ذكر ، بل نجد أنفسنا وقد انتقلنا من مشهد المناجاة بين
موسى وربه في طور سيناء إلى مجلس فرعون في مصر وهو يلتقى موسى
بهذا الجواب .

— قال :

« ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك
التي فعلت وأنت من الكافرين » .

— قال :

« فعلتما إذن وأنا من الضالين . فقررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي
حكما وجعلني من المرسلين ، وذلك نعمة منها علي أن عبدت بني إسرائيل ؟

« قال فرعون :

— وما رب العالمين ؟

— قال :

« رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .

قال لمن حوله - ألا تسمعون ؟

قال : ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » .

قال : وب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » .

— قال :

لئن اتخذت إلهاً غَيْرِي لأجعلنك من المسجونين !

— قال :

أولو حُتُّكَ بشيء مبين ؟

— قال :

فأتريه .. إن كنت من الصادقين .

— فألقى عصاه .. فإذا هي ثعبان مبين .

ونزع يده . فإذا هي بيضاء للناظرين .

— قال للملأ حوله :

إن هذا الساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم .. يحجره . فإذا تأمروا ؟

— قالوا :

« أرجه وأخاه وابعت في المدائن حاشرين ، يأثوك بكل سخار عليم » ^(١) .

هذا هو المشهد الأول من الموقف ..

وأنت ترى أثر هذا « الحضور » الفوري المفاجيء ، الذي يتفكك من موقف إلى موقف في لحظة خاطفة ، وتطوى فيها أبعاد الزمان والمكان دون أن يفقد المرء مكانهما ، أو أن يخلى شعوره منهما .. إن الحضور يدلف بك من غير أن تشعر إلى مسرح الحادثة ، وإذا أنت ترى وتسمع كل ما وقع وما جرى في هذا الموقف ، وكأنك واحد ممن حضروه أو شاركوا فيه . ثم انظر كيف أراد فرعون أن يقبض موسى بهذه القفلة التي كانت منه يوم قتل المصري ، وذلك ليدخل في روعه أنه سيؤخذ بهذه القفلة ، وأنها لم تنس ، ولم تذهب معالمها . وبهذا يشغل موسى عما جاء له بهذا الهم الجديد الثقيل ، الذي ألقى به عليه .. « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » .

ثم انظر كيف كان جواب موسى.؟. إنه لم ينكر التهمة ، ولكنه أنكر دوافعها ، فهو لم يكن كافراً ولا جاحداً أفضل مصر والمصريين عليه، وأنه ما قتل المصري إلا عن جهل وغفلة كانت منه ! « فعلتها إذن وأنا من الضالين » .

ثم انظر كيف تنطلق الكلمات في هذا الحوار متلاحقة متدفقة ، كأنها السهام يتراسقها المتحاربون في ميدان القتال ..

ولعلك تلاحظ أن الحوار يبدأ مناوشة وتحرشاً ، فتجد في كلماته تشاقلاً وبطشاً . كما تجد في أسلوبه امتداداً وطولاً ..

— « ألم نربك فينا وليدا . ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ؟

— « قال .. فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنّتها علىّ أن عبّدت بني إسرائيل » .

إنك لو ذهبت تسرع في القراءة بهذه الآيات لما استجاب لك إيمانك ، ولما استطعت أن تمضي بها في غير الوقت المقدور لها، دون أن يضطرب ويتعثر! ثم بعد أن يحمي الصراع ويشقد .. تجيء كلمات الحوار قوية متقطعة ، تجري في خفة واندفاع وتراشق ، أشبه بالرماية بالسهام .

— قال فرعون :

ومارب العالمين ؟

— قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ؟

— قال لمن حوله .. ألا تستمعون ؟

— قال : ربكم ورب آبائكم الأولين !

— قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون .

— قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

- قال : لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين !

- قال : أولو جئتكم بشيء مبين ..

- قال : فأنت به إن كنت من الصادقين .

- فألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين .

ونزع يده .. فإذا هي بيضاء للناظرين ..

إنها كلمات .. بل هي سهام تنطلق من أقواسها .. بلا توقف أو انحراف !
فهذا المرض السريع الذى تنتهى به الحركة البطيئة التى بدأت بها القصة ،
أو بدأ بها المرقف هو تصوير صادق دقيق لسير الانفعالات المتولدة فى الحوار ،
ونموها ، حتى إذا بلغت غايتها وامتلات بها الصدور ، انطلقت فى قوة واندفاع ،
كما يندفع الماء من وراء السد .. حين علاه وجاوز مداه .

هذا ويبدو أن هذه اللقمة كانت هى أول لقاء بين موسى وفرعون ..
إذ فى هذا اللقاء يجابه فرعون موسى بما كان منه من قتل المصرى ، وهو الأمر
الذى من أجله فرّ من مصر إلى مدين .. ثم كان بعد هذا لقاء آخر بينهما ،
بعد أن توعد فرعون بأنه سيأتى سحره بسحر مثله : « قال للملا حوله :
إن هذا الساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فإذا تأمرون ؟
قالوا : أرجه وأخاه ، وأبعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم »
ثم إنه بعد أن استنق فرعون مما جمع ، دعا موسى إليه ليختبر ما عنده مرة
أخرى ، مقدراً أن موسى ربما يكون قد تخاذل أو رجع عن موقفه ، بعد أن
علم ما أعد له فرعون ، وما جمع من كيد وسحر !

وفى هذا اللقاء يحدث الصراع ، وتشد وقدة التحدى ، وتنطلق الكلمات
فى قوة واندفاع أشبه برميات الرصاص .

وما إن يلتقى موسى بفرعون حتى يفجأه فرعون بهذا السؤال :

- قال : فمن ربكما يا موسى ؟

- قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ، تم هدى !

- قال : فما بال القرون الأولى ؟

- قال : علمها عند ربى ، فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا . وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى .. منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

- قال : أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسجرك ياموسى ، فلنأتيناك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى .

- قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشركم الناس ضحى .

- فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى .

- قال لهم موسى : ويلكم لا تقفروا على الله كذباً ، فيسحقكم بعذاب ، وقد خاب من افترى .

- فتنازعوا أمرهم بينهم ، وأسروا النجوى .. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبان بطريقكم المثلى .. فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صففاً ، وقد أفلح اليوم من استعلى ..

- قالوا ياموسى : إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى !

- قال : « بل ألقوا ..

» فإذا جبالهم وعبهيم يحيل إليهم من سحرهم أنها تسعى .. فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا : لا تخف إنا أنزلناك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى .

فألقي السحرة سجداً .

- قالوا آمنا برب هرون وموسى .

- قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم .. إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ،

فلا تقطن أيديكم ، وأرجلكم من خلاف ، ولا صلبنكم في جذوع النخل ،
ولتعلمن أننا أشدّ عذاباً وأبقى .

- قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت
قاض ، إنما نقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ،
وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ^(١) .

والآيات في غير حاجة إلى شرح أو تعليق ، ففى من الوضوح بحيث تكاد
تكون شخصاً ماثلة ؛ تغدو وتروح ، وتجادل وتجادور .

ولسكن مع هذا لا بد من الإشارة إلى تلك العناصر التى دخلت على الحوار
وقطعت ما بين المتجادرين ، وأخذت الموقف منهم لتبدل برأيها فيما يتجادرون
فيه ، أو لتقيم لأحد الطرفين حجته ، أو تقوّم منطقاً .

وهذا عمل لا يكون فى غير القرآن ، ولا يقع فى قصص غير قصصه ، حيث
تقوم قدرة الله : وعلمه وتديره على كل شيء ، وحيث لاتقع حركة ، أو
تكون همسة فى مواقف القصة إلا على هذا التقدير . . . ومن هنا كان تغليب
الأمور فيها على هذا الوجه أمراً متوقعاً ، غير منكر ولا مستغرب ، على حين
أن ذلك فى العمل الأدبى الذى يخفى فيه السكاب مكانه للمتجادرين يعد تطفلاً
وتعسكاً ، لاتدعو إليه ضرورة ، ولا يحتمله الوقف ، أو يتقبله واقع الحال .

فانظر فى جواب موسى عن سؤال فرعون : « فإيا بال القرون الأولى ؟ »
تجد أن موسى لا يكاد يعطى الجواب الذى رآه فى قوله : « علمها عند ربى فى
كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » - لا يكاد ينطق بهذا حتى ينطق الحق بما ينطق
به الوجود كله ؛ مكلاً هذا الجواب . . . « الذى جعل لكم الأرض مهدياً ،
وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات
شتى ، كلوا وأرعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم ،

وفيهما نعيدكم ، ومنها تخرجكم تارة أخرى .. ولقد أريناه آياتنا كلها ، فكذب وبأنى .

فهذا قول الحق ، نطقت به الحال ، وشهد له كل موجود .
وانظر إلى قوله تعالى : « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » وكيف جعل إنزال الماء مضافا إلى الله وحده ، على حين أن إخراج النبات من الأرض قد جعله إلى ضمير المتكلمين ، أو المتكلم المعظم نفسه .
وفي هذا مافيه من إفساح المجال لإدخال العنصر الإنسانى مع قدرة الله فى إخراج النبات من جبهة ، ولنفرد الله وحده — على الحقيقة — فى إخراج هذا النبات .

فسبحان من هذا كلامه !

ثم انظر إلى موقف موسى حين ألقى السحرة بسحرهم : « فأوجس فى نفسه خيفة موسى » ، وكيف كانت نجدة السماء فى هذا الموقف الحرج .. « قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى » (١)

فلن هذا الكلام ومن أين جاء ؟

إنه من عند الله ، وقد سمعه موسى بأذنه ، أو بقلبه .. فواجه الموقف ثابتاً ، بعد أن رد إليه هذا الحديث ماغرب عن عزمه وفوته .

أفيكون فى القصص غير القرآنى مكان لمثل هذا الأسلوب من القول ؟
إنه بعد شيئا غريبا ، أو خطأ قد وقع !

وهكذا تتوزع فى مشاهد القصة ألوان كثيرة تجمىء من عل ، وتمسك عيزان الحوار ، وتقيم وجهه على الحق والعدل .

* * *

ومثل آخر للحوار المنطلق السريع الذى يناسب الموقف المتأزم ، الذى يكظم النفوس ويخرج الصدور . موسى وهرون :

كان موسى على موعد مع ربه ، ليتلقى الألواح ، وما فيها من أحكام وعظات .

وعاش بنو إسرائيل تلك المدة التى بُعد فيها موسى عنهم - عاشوها فى محاحكات ، ومجادلات ، وسفسطات .. وانتهى بهم هذا الموقف إلى ما ينتهى إليه كل موقف تلتوى فيه الطبائع ، وتماكر العقول .. فاحرقوا عن عبادة الله الذى فعل بهم ما فعل من خير وبر ، واتخذوا العجل إلهاً .

ورجع موسى ليجد هذه المأساة تقع فى قومه ، وتعصف بهم .
استمع إلى ما يقص القرآن عن هذا الموقف :

- « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أظال عليكم العهد ، أم أردتم أن يخل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ »

- قالوا : ما أخلفنا موعدك بئس كناً ، ولكننا حملنا أوزاراً من ربنة القوم فقدفناها ، فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى . ففسى ، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً . »

وكان هرون هو خليفة أخيه على بنى إسرائيل ، فوقف فى هذا الأمر موقف المرشد الناصح .

- « ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم : إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعونى . أطيعوا أمرى ، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . »

وما كان لهرون أن يفعل أكثر من هذا ، فقد أدى النصيحة لقومه : سكن القوم فى لجأج وعناد ! ولا يجد موسى إلا أخاد يصب عليه وقدة غضبه ويفرغ فيه شحنة ثورته !

— قال : ياهرون : مامنعك إذ رأيتم ضلوا ؟ ألا تَتَّبِعْنِي ؟ أفصيت
أمرى ؟

أرأيت إلى هذه الكلمات المختنقة ، المتفجرة .. ألا تتبعني ؟ أفصيت
أمرى ؟

إن موسى يقول هذه الكلمات مصحوبة بما تنطق به من صراع مادي
تنطلق في مجاله ، فأخذ برأس أخيه ، وبلحيته في عنف وتمنيف ١ ولا يجد
هرون إلا هذه الكلمات اللينة الهينة ، يستعطف بها أخاه ، ويدعوه إلى الرفق
به والرحمة له .. قال :

— « يَا بَنِيَّ أُمُّ .. لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي .. إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ
بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ، وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٢ » .

ويترك موسى أخاه .. ابن أمه ، أصل الحنان والرحمة .. ويلتفت إلى
السامري ، صاحب هذا التدبير ، وسبب هذه الفتنة ..
— قال : فما خطبك ياسامري ؟

— قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ،
وكذلك سولت لي نفسي !

— قال : فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعداً
لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً ، لنحرقنه ، ثم لننفسنه
في اليم نسفاً . (١)

وبك لترى في هذا التفاوت في مراحل الحركة الحوارية وتقلبها بين

الإبطاء والإسراع ، واللين والشدة ، والضعف والقوة - ترى في هذا التفاوت صورة صوتية مسجلة لهذا الموقف كله ، لم تدع منه خلية من خلجات النفوس ، ولا نفثة من نفثات الصدور إلا أمسكت بها ، وجاءت بكل جزئية من جزئياتها .

وواضح أن أية صورة من صور البيان لا يمكن أن تقف إزاء هذا البيان السماوي ، دون أن تذل وتستخزي !

* * *

وطبعي ألا يسجل القرآن الكريم كل مراحل الحوار تسجيلًا كاملاً كما تسجله أدوات التسجيل ، فذلك مما لا تقبله بلاغة القرآن ، ولا يحتمله إيجازه وإعجازه ، وإنما يسلك القرآن من الموقف الحوارى بالعناصر الحية منه ، وبالمشاهد البارزة فيه ، مما من شأنه أن يجلى الموقف ويحدد معالمه ، ويكشف حقيقته ، ثم يكون للنظار بعد ذلك أن يملأ الفراغات ويلونها ، بما يسعفه به إدراكه ، ويمده به خياله .

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة للحوار المركز المضغوط الذى يحمل فى كلمات قليلة عناصر قصة كاملة ، يمكن أن يذهب بها الخيال مذاهب شتى ، ولكن - مع ذلك - فإنه مهما جناح الخيال ومهما بعد بصاحبه عن الحقيقة سيجد نفسه دائماً مشدوداً إلى نقطة الانطلاق التى بدأ منها ، وأنه بطوف ما يطوف ثم يجىء آخر الأمر ليصف جناحى خياله أمام كلمات القرآن ، حيث لا يجد السكن والطمأنينة والروح إلا فى ظلالها .

فهذه مريم ، وقد جاءها من ربها من يبشرها بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، فتتلقى هذه البشرى فى جزع ، وفى استنكار . . إذ من أين لها بالولد ، ولم يتسبها بشر أولاً لا يجيبها البشير بأكثر من أن ذلك هو ما قاله الله وأنه هين عليه . . سبحانه . . ثم يذهب الموقف عندهذا ، ولكن تتصل به نتائجها اتصالاً فورياً مباشراً . . فهأى ذى مريم تحمل ، ثم تضع وليدها ، وكأنها حملت به ووضعت في نفس الموقف الأمر الذى حمل بعض المفسرين على القول بأن الحمل والولادة كانا فى يوم واحد !

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فانخذت
من دونهم حجاباً ، فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً ..
— قالت :

إني أعوذ بالرحمن منك ، إن كنت تقيا .

— قال :

إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ..

— قالت :

أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولمأك بغيا .. ؟

— قال :

كذلك ، قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ،
وكان أمراً مقضياً . فحملته ، فانبتت به مكاناً قصياً ، فأجاءها المخاض
إلى جذع النخلة . قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً .

* * *

إن حبكة الحوار ، واختيار الكلمات المناسبة لكل حال يتلبس
بها المتحاورين هو الذى يبعث الحياة والحركة فى القصة ، وهو الذى يجعل
للكلمات دلالة ذاتية تستغنى بها عن التشخيص والتمثيل ، وعن تهيئة الجو
المناسب للحركة المسرحية التى تنقل الأحداث وتجسمها .

وليس فى القصص الأدبية قصة تقوم فيها الكلمات مستغنية عن
التشخيص والتمثيل ، إذا أريد لها أن تدل على وجودها ، وأن تفصح عن
مضمونها .

ولكن القصص القرآنى يؤدى بكلماته مالا يؤديه التشخيص والتجسيم
والتمثيل .

ولهذا ، فإن تمثيل القصص القرآنى — إن أريد تمثله — يذهب
بكثير من القوى الكامنة فى كلماته ، وأن مقاييس الحركات المسرحية
لا تستطيع أن تنضبط على ما توحيه الكلمات بذاتها من حركات !

* * *

الباب الرابع

القوى الغيبية فى القصص القرآنى

القصص القرآنى وحتمية التاريخ :

القصة القرآنية وإن تكن سماوية المنزل فإنها تمثل على أرض البشر ،
ليعيش فيها الناس ، ويسكنوا إليها ويتجاوبوا معها ، وينفعلوا بها ، ويتلقوا
العبرة والعظة منها .

من أجل هذا كانت القصة القرآنية منتزعة من الواقع الوجودى للناس .
فى أحداثها وأشخاصها ، وأمكنةها ، وأزمنتها . لا ينكر الناس منها شيئاً ،
ولا يبعد عليهم منها شئ . . . فهى وإن تكن قد ذهب أشخاصها ، وبعد
زمانها . واندثر مكانها ، إلا دائماً بمشهد من الناس ومحضر ، حيث يرون أشباهها
فى كل زمان ومكان ! .

إن حتمية التاريخ أمر يشهد له القرآن أبلغ شهادة فى هذا القصص
الذى ما جاء به إلا ليكون عبرة وعظة ، يمجدها أولو الألباب ، ويتلقاها
ذوو النهى ، حين يقايس الحاضر بالماضى ، وحين ينظر فيما سيكون على
ضوء ما كان . . . فإن التاريخ - كما يقولون - يعيد نفسه . .

ألا إنما الأيام أبناء علة وهذى اللىالى كلها أخوات

وما جاء القصص القرآنى إلا ليرفع لأبصار الناس وبصائرهم شواهد من
تاريخ الإنسانية ، تماثل فيه مواقفها ، وتشابه طوائفها ، فالناس هم الناس ،
تحكمهم نوازع ، وتتحكم فيهم طبائع ، وينتظمهم وجود تجري عليه سنن الخالق
مبجانه وتعالى . . « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله

تبديلاً^(١) . . «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا
تحويلاً^(٢) . .

ما في القصص القرآني من خوارق :

ومع أن القصص القرآني ينقل الواقع نقلاً يحفظ عليه كل موجوداته ،
لا يغفل منها شيء ، فإن هذا الواقع يشتمل على عنصرين بارزين لهما أثرهما
الواضح في منح القصة القرآنية قوة وحياة وتأثيراً ليس لغيرها من القصص
أن يملك وسائله ، أو يجرد عن تلك الوسائل عوضاً ، في تشخيص الأحداث ،
وتمثيلها على المسرح أو السينما ، وإلقاء الأنوار والظلال عليها . . ! فإن ذلك
كله لا يبلغ شيئاً مما تبلغه القصة القرآنية وهي في إطار الحروف والكلمات !
هذان العنصران هما :

أولاً : المعجزات والخوارق :

ففي القصص القرآني كثير من المعجزات والخوارق التي تطلع بين أحداث
القصة فتحدث دويماً هائلاً ، وتثير زلزلة عاتية ، ينقلب بها وجه الأحداث ،
ويتحول سيرها ، أو يتوقف !

ومعلوم — مقدماً — أن هذه المعجزة ، أو هذا الخارق الذي دخل على
أحداث القصة ، ليس من تدبير الإنسان ، ولا من عمل الطبيعة ، وإنما هو من
تدبير الله سبحانه وتعالى ، ومن تقديره . . !

ولهذا فإن هذا العنصر يدخل دخولاً مفاجئاً مباغتاً ، لا يتوقعه أحد
ممن يشترك في الصراع المحتدم على مسرح الأحداث ، أو الذين يشهدون هذا
الصراع ! .

فتلاً . . في الموقف الذي كان بين موسى وفرعون . حينما خرج موسى

(١) سورة الأحزاب : ٦٢

(٢) سورة الإسراء : ٧٧

بقومه هرباً من فرعون وملئه ، ثم كان أن اتبعهم فرعون وجنوده ، حتى لحقوا بهم وقد بلغوا ساحل البحر . . . وهنا لا يكون للأحداث طريق تنجيه إليه إلا أحد طريقين : إما أن تستسلم الجماعة الضعيفة للقوة الغالبة الباطشة ، وإما أن تشترك في معركة يستأصل فيها فرعون من بقي من بني إسرائيل . . . ويقص القرآن هذا الحدث في أكثر من موضع . . .

ففي سورة الدخان : يقول الله تعالى : « فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . . . فأسر عبادي ليلاً إنكم متبعون ، واركب البحر ركهاً إليهم جند مغرقون ^(١) » . وفي سورة الشعراء يقول الله تعالى : « فأتبعوهم مشرفين ، فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال : كلا ، إن معي ربي سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلقناهم الآخرين ، وأنجينا موسى ، ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ^(٢) » .

وفي سورة طه نجى الحادثة هكذا : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ، لا تخاف دركاً ولا تخشى ، فأتبعهم فرعون بمجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى ^(٣) » . وكما هي عادة القرآن في تصوير الأحداث ، وعرضها من وجوهها المختلفة - جاءت هذه الحادثة مصورة هذا التصوير الدقيق ، في هذا الإطار المحكم الموجز . وإنك لتستطيع أن تضم هذه « اللقطات » الثلاث للحادثة بعضها إلى بعض ، فتجد فيها الحادثة كلها . . . بأبعادها وأعماقها .

فهذا موسى يدعو ربه ليكشف هذا البلاء المحدث به من فوعون وقومه :

(١) الدخان : ٢٢ - ٢٤

(٢) الشعراء : ٥٩ - ٦٦

(٣) طه : ٢٦ - ٢٧

« فدعاه ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ». ويجئ إليه صوت الحق مؤذناً
بكشف هذا البلاء : « فأمرى بمبادئ ليلاً إنكم متبعون ، وأترك البحر
رهوراً إنهم جند مفروقون ^(١) » ، ويستجيب موسى لأمر ربه ، ويسرى بقومه
مزوداً بهذا الوهد الصادق الذي لا يخلف .. يسرى موسى بقومه ليلاً متجهاً
إلى سيناء . وترسم لعينيه صورة البحر معترضاً طريقهم ، وتجاوز الحواطر
في صدره . فيجيشه وحى السماء يحثه أن يعضى في طريقه على العزم الذى اعزمه ..
« أن أمر بمبادئ فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً ، لا تخاف دركاً
ولا تخشى ^(٢) » فلقد وضحت الصورة لعينى موسى ، وتحقق من المصير الذى
هو صائر إليه ، ولكن قومه لا يعلمون عن هذا المصير شيئاً ، حتى إذا بلغوا
البحر ؛ « قال أصحاب موسى : إنا لمدركون .. قال كلا ، إن معى ربي
سهيدين » ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق ، فكان كل
فرق كالطود العظيم ، وأزلفناهم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ،
ثم أغرقنا الآخرين ^(٣) .

فانظر إلى هذه القوة الغيبية الخارقة .. إنها تجئ على غير أى تقدير
يقدره الناس ، وعلى خلاف أى حساب يحسبونه .. فنتحكم في الموقف وتصرفه
على الوجه الذى نريد ، دون أن يملك أحد لها دفعا ، أو يعرف له معسا
حساباً .. إنها هى التى تلى إرادتها دون توقف على قبول أو رفض من أحد .

وتأخذ هذه المفاجأة العجيبة المذهلة بعقل فرعون ، وتذهب بحجروته
وكبريائه ، فيذل ويخضع فى غير خجل أو حياء وينطق بتلك الكلمة التى أبأها
من قبل وأخذ موسى بالتهديد والوعيد من أجلها ، من بعد ما جاهد بالبينات
من ربه ..

(١) سورة الدخان ٢٣ — ٢٤

(٢) سورة طه ٧٧

(٣) سورة الشعراء ٦٠ — ٦٦

«وجاوزنا بيني إسرائيل البحر ، فأَتَّبَعَهُمُ فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الفرق قال آمَنتُ أنه لا إله إلا الذي آمَنتُ به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين^(١) . فهذه هي « اللقطة » الأخيرة من هذه الحادثة ، وهي المشهد الختامي لها ، حيث تنتهي بها الأزيمة إلى هذه النهاية التي يختم بها هذا الصراع بين الحق والباطل ، فيحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين . ومع هذا ، فإنه سرعان ما نسي بنو إسرائيل هذا الفضل السماوي ، وسرعان ما تنكروا له ، فاتخذوا العجل إلهاً معبوداً من دون الله ، فسكان جزائهم أن غرقوا في رمال الصحراء أربعين سنة يتيهون في الأرض ، تتقاذفهم الأمواج وترى بهم في كل اتجاه .. ثم لا تزال هذه اللعنة قائمة عليهم أبد الدهر ؛ لا يجتمع لهم شمل بملها أبداً .

* * *

وفي مثل مضروب للرجل صاحب الجنتين وصاحبه الذي يحاوره . شيء كهذا الذي في قصة موسى وفرعون هذه .

ففي هذا المثل يقول الله تعالى : « واضرب لهم مثلاً رجلين ؛ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ؛ وحففناهما بنخل ؛ وجعلنا بينهما زرعاً .. كلنا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ؛ وخجرتا خلالهما نهرآ ، وكان له نمر .. فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً .. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبدي هذه أبداً ؛ وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره : أ كفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؛ لـكـنـتـا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ؛ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إن ترني أنا أقل منك مالا وولداً ، فمسي ربي أني يؤتي

خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حساباً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ؛ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً (١) .

هذا هو الموقف في هذا المثل .. تسير فيه الأحداث سيراً طبيعياً .. إنسانان من الناس يتجادلان في أمر تختلف فيه مذاهب الناس ومنازعهم في الحياة .. الاستكثار من المال والزهو به ، واتخاذ وسيلة للفخر والمباهاة أكثر منه سبيلاً إلى الحياة الطيبة السعيدة .. فالناس يختلفون في هذا أشد الاختلاف . منهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق للغيرات . وقد أمسك القرآن الكريم بالصورة البارزة من صور هذا الخلاف .

فهذا رجل آتاه الله نعماً سابعة فأثر وبطر ، وجعل وجوده كله لعبادة هذه النعم واستعراضها في مجالات التباهي والتعالى على الناس ؛ ورجل آخر يواجه هذا التحدى بالمال وكثرته غير مكترث به ، فهو يدعو صاحبه في وداعة ولطف أن يترفق بنفسه ، وأن يتخفف من هذا الغرور الذي يملأ كيانه ، وأن يعود إلى ربه بعد أن أضله المال وأغواه ، والرجل سادر في غيه لا يسمع لقول ؛ ولا يستجيب لناصح ، ويتأزم الأمر بين الرجلين ويصل إلى مرحلة التحدى ١ .

فصاحب الجنتين يتحدى بهما القدر ، فهما باقيةتان أبد الدهر .

وصاحبه يفرغ إلى قدرة الله أن تبطل هذا التحدى . ويفترق الرجلان دون أن ينتهى الخلاف بينهما . كل على رأيه . ويظل حل الخلاف معلقاً . لا يدري أحد متى يحل ، وعلى أى وجه يكون حله !

ويجىء يوم ! فإذا صبحه ينكشف عن حدث مروع ؛ تهتز له أفاق الجهة التي يعيش فيها هذان الرجلان .. لقد أصبحت الجنة أثراً بعد عين .. فلقد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ؛

والقصة لم تشر إلى الزمن الذى مضى بين هذا الموقف الذى كان من الرجلين ، وبين التدمير الذى أصاب الجنتين .

فنحن لانحصر فى القصة بأن فاصلا زمنياً قد حدث ، وإنما ننتقل من الحوار لجأه إلى مشهد نطلع منه على الجنتين وقد ذهبتا ليد الهلاك والتدمير وعلى حطام هاتين الجنتين يقف صاحبهما ينتحب ، ويلطم !!

فى هذا يقول الله سبحانه : « وأحيط بنمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أُنْفِقَ فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول ياليتنى لم أشرك برى أحداً .. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً » .

وليس من شك فى أن هذا الحدث المفاجئ لم يكن متوقفاً أن يحىء على تلك الصورة التى تذهب بالجنتين جملة ، وفى لحظة خاطفة !

وغاية ما كان متوقفاً هو أن يذهب الزمن بالجنتين أو بصاحبهما ؛ بعد أن يستوفى كل منهما عمره .. أو أن يكون ذهاب الجنتين شيئاً فشيئاً ، وزمناً بعد زمن ؛ على نحو ما يصيب كل مغمور ، وينزل بكل موحود .

* * *

نقول إن هذه القوى الغيبية التى نجىء فى القصص القرآنى هى عنصر من العناصر الفعالة فى هذا القصص ، لما تثير من تلك الانفعالات القوية الحادة التى تملك على الإنسان أحاسيسه ووجدانه .. الأمر الذى لا يمكن أن نجده فى غير القصص القرآنى ، فإن وجدناه فإنما نكون نظرتنا إليه نظرة شك وارتباب . لأن هذه القوى الخارقة التى ترى فى مشاهد القصص غير القرآنى ليست إلا خيالاً فى خيال ، لا يقيم لها الناس مكاناً فى الواقع .

هذا ويلاحظ على هذه القوى الغيبية التى تصعب القصص القرآنى أنها ليست إنسانية الصنع ؛ ولا هى مما يقع فى قدرة الإنسان .. الأمر الذى لو كان لكان من شأنه أن يحدث فرقة كبيرة فى مجال الحديث القصصى ، كما أنه

يحدث انفصالاً في الشعور تنقطع به سلسلة التفكير ، وتمزق معه وحدة الإحساس بالعمل الفنى .

ذلك أنه إذا كان للمفارقات التى تصحب سير الحدث القصصى آثارها وفاعليتها فى الإثارة والتشويق ، وتلوين العواطف بمختلف الانفعالات ، وتحريك الإحساس فى كل اتجاه ، إلا أن هذه المفارقات إذا بعدت عن المجال الذى تتحرك فيه الطاقة الإنسانية أحدثت آثاراً سيئة يترتب عليها تمزيق فى وحدة الشعور ، وشروء فى التفكير يبعد عن مسرح الحدث القصصى !

ولكن هذا التقدير يقع على غيوجه فى القصص القرآنى .. فإنه على الرغم من تلك المفارقات البعيدة بعداً يجاوز كل مدى - فإن هذه المفارقات حين تظهر على مسرح الأحداث ، وحين تطلع هذا الطلوع المفاجئ المباغت ، فإنها تلتقط مشاعر الإنسان من كل اتجاه ، وتجيء بها من كل ناحية كانت قد ذهبت إليها مع مطالع الأحداث ، وإذا الإنسان كله بجوارحه ومشاعره ووجداناته ، وأفكاره ، بين يدي هذا الطارق المعجز الخارق .. لا تنفلت منه خاطرة أو خالجة .. إنه ينسى كل شيء سبق هذه المعجزة ، بل إن هذه الأحداث التى تقدمت ظهور المعجزة هى التى تفر من بين يدي المعجزة ؛ وتخلى لها المكان كما تخلى خيوط الفجر مكانها لأشعة الشمس !

إن صدق الحدث الذى تحمله المعجزة معها ، وواقعيته هى التى تجمع الناس عليه ، وتمسك بهم ليشهدوه .. وما كانت غرابة الحدث ، وروعته بالتي تصرف الناس عنه ، أو تنفرهم منه ، بل إن ذلك مما يشوق الناس دائماً أن يشهدوه ، وأن يشغلوا به عن كل شأن دونه .. متى كان هذا الحدث واقعاً تحت حواسهم موقع العيان والمشاهدة .

ولكن الذى ينفر الناس من الحدث الغريب فى القصص ، ويدعو إلى انخلاع إحساسهم عنه ، هو استبعاد وقوعه .. هذا الاستبعاد الذى يلقي على شعورهم أنه مجرد خيال ملفق ، أو وهم خادع . فيرجونه بهذه القولة التى

تطلق من أفواههم من غير شعور : « شئ غير معقول » أو « مش معقول » كما يقولون !

إن المعجزة التي صحبت الحدث في القصص القرآني أمر قد وقع ، وشهده الناس ، وسجله التاريخ .. وإذن فإن ظهور هذه المعجزة بعد ذلك ، وإعادة عرضها على مسرح الحياة من جديد بهذا الأسلوب المعجز - إنما هو ظهور خارقة من خوارق الحياة ، يعيش فيها الناس بكل وجودهم ، كلما طلعت عليهم في أية صورة ، وعلى أي حال ، في هذا العرض الرائع المعجز الذي يعرضها القرآن فيه .

ثانياً : النظم القرآني :

وإذا كان للمعجزات والحوارق التي صحبت القصص القرآني هذا الأثر العميق في « حبكة » القصة ، وإمدادها بهذا المدد الغزير من عناصر التشويق والإثارة - فإن النظم القرآني ذاته قوة غيبية ، أشبه بتلك القوى الحسية التي نشهدها في الحدث الإعجازي .

ذلك أن نظم القرآن قد جاء على صورة معجزة متحدية .. في مجال الكلمة ، وفي مقام البلاغة والبيان .. بالأسلوب الكلامي .

فكل معنى انتظمه النظم القرآني وحملته ألفاظه هو معجزة تنصدي القدر البشرية وتستعمل عليها جميعاً ..

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن القصة القرآنية - وإن تسكن أحداثها بما يفيض به واقع الحياة ، وبما يعيش فيه الناس - فإنها تشتمل دائماً على قدر من الإعجاز ، إن لم يكن في الحدث ذاته ، فإنه في النظم القرآني ، من حيث هو إعجاز بما اشتمل عليه أسلوبه من قوى مدركة وغير مدركة ، يعجز الناس جميعاً عن الجرى معها ، أو التعلق بأذيالها .

فلحدث أيأ كان ، هو في معرض النظم القرآني معجزة فاهرة ، تمنو لها الوجوه ، وتخضع أمام جلالها الرقاب .

وإذن فالمقاييس التي يخضع لها فن القصص الأدبي لا ينظر فيها إلى هذين العنصرين الذين اشتمل عليهما القصص القرآني ، إذ هما إما انفرد به القصص وحده ، وهما : المعجزات والحوار الغيبية التي تتدخل في سير الحدث القصصي ، ثم النظم القرآني الذي هو في ذاته معجزات وحوار غيبية تطلع من كلمات القرآن وآياته ، فتبهر ، وتعجز .

وهنا نسأل ، أو نتساءل :

هل يتأثر الحدث الذي تعرضه القصة القرآنية بأسلوب العرض الذي يجيء في هذا النظم المعجز ، أو بمعنى آخر .. هل تتغير ألوان الأحداث وطموحها وأشكالها حين يحملها هذا النظم المعجز ، محمولة في هذا الأسلوب الإعجازي .

إننا نشهد الحدث الواحد تختلف صورته ، وتتغير وجوهه حسب الأسلوب الذي يعرض به ، والشخصية التي تعرضه وتصوره .. وإنه مهما بلغت دقة العارضين وقدرتهم على التزام الأمانة في النقل ، والخبرة في حكاية الواقعة — فلن نجيء صور العرض على وجه سواء .. بل إننا نجد كل عارض قد نظر إلى الحدث بعينه هو ، ومن الزاوية التي وقف عندها منه ، وأن تفاعلا قد وقع بينه وبين عناصر الحديث ، وأن صورة خاصة لهذا الحدث قد مثلت في خاطره .. فإذا راح ينقل هذا الحدث بقله أو بلسانه فإنه لن ينقل إلا هذه الصورة التي تتخيل له ، وتمشي على مسرح تفكيره .. ومن هنا نشهد الحدث التاريخي يقع لأيدي القصصيين فيخرج في صور وأشكال شتى تتمدد بتعدد المتناولين له ، وإن بلغوا ما بلغوا من عدد .

وسؤالنا الذي سألناه آنفاً يقع في دائرة هذا المعنى .. فهل يكون جوابه في هذا المضمون . ؟ بمعنى أن الأحداث التاريخية التي يعرضها القرآن في أسلوبه الإعجازي تأخذ لونها من هذا الأسلوب ؟ وإذا كان كذلك ، فكيف يتفق هذا مع ماهو معروف مقرر من أمر القرآن ، وما جاء به من الصدق الذي لا تعلق به شائبة ريب .. « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

« وإنه لكتاب عزيز .. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » !

كيف يكون هذا وذاك ؟ وكيف يجتمعان ؟

لقد مرضنا في مبحث سابق لشبهة قريبة من هذه الشبهة ، وهي ما يحدث به القرآن على السنة غير عربية ؛ وأنه ينقل إلى العربية مقولات لأقوام وجماعات وأفراد ، جرت بغير اللسان العربي . وعرضنا لما يقال من أن هذا النقل من لسان إلى لسان فيه مغايرة واضحة بين منطوق اللسانين ، وإن يكن المعنى هنا وهناك مسامتا أو مقاربا .. ولكن مع ذلك .. فإن الخلاف بين الواقع وصورته واضح ، ولو في الشكل لا في المضمون .. وهذا أقل ما يقال فيه : إن القرآن لم ينقل الواقع كما هو !! .

فلنا هذا من قبل ، وقد ردّدنا هناك على هذا الاعتراض بما يدحضه ، فلا ضرورة لإعادته هنا ، ولكن مع هذا يبقى سؤالنا الذي سألناه آنفاً بغير جواب .. فإن جوابنا هنا عن سؤال غير هذا السؤال ، وإن كان من واديه ، وعلى امتداده .

وإذن فهناك جوابنا على هذا السؤال :

إن أسلوب القرآن — هذا الأسلوب المميز — ليس إعجازه في عرض الحقائق والأحداث على وجه متكامل فيه هذه الحقائق ، وتتوازن الأحداث إلى غاية يعجز البشر عن تسويتها على هذه الأوضاع ، أو إخراجها على هذا الوجه من السكال والتمام .

ليس إعجاز القرآن في أنه يضي على الحقيقة التي ينقلها إضافات جديدة تكمل ناقصها ، وتمدل مموجها ، أو بعكس هذا .. فتتقص الكمال ، وتعودج المعتدل .

ليس هذا من الإعجاز القرآني في شيء ، وإن كان مثل هذه التصرفات أموراً لازمة في الأعمال الفنية كلها ، وليس إعجاز القرآن في شيء من هذا .

وإنما إعجاز القرآن الذي يظهر من خلال نقل الحقائق ، والوقائع والأحداث ، هو في الصدق الخالص .. الصدق المطلق .. المصني من كل تنميق أو تزويق .

إعجاز القرآن هنا هو في نقل ما ينقل من الواقع البعيد أو القريب .. نقلاً دقيقاً أميناً ، يمسك بالحياة كلها في محيط الحدث الذي ينقله ، فلا يفلت منه شيء . فترى في كلمات القرآن مشاهد الحياة التي كانت ملتبسة بالحدث .. من زمان ومكان ، وأشخاص وأشياء .. وإذا أنت تشهد ، وترى ، وتسمع ، وتشارك بماطة تلك ، وتفكر في هذا الصراع ، الذي كان يدور يوماً من الأيام على مسرح معركة من معارك الحياة .

الحقيقة المكشوفة ، والحقيقة المكسوفة :

على أن هناك خلافاً بين أرباب الفنون ، في طبيعة العمل الفني ، والوجه الذي يجب أن يخرج إلى الحياة به .

أبكون العمل الفني مجرد محاكاة للطبيعة ، ونقل للواقع كما هو ، دون الخروج عليه ، ومجاوزه حدوده !

أم أن العمل الفني هو تلوين للطبيعة ، وتحوير في صورها وأشكالها ، وخلق تركيب جديدة ، وصور جديدة .

والرأي الأول مذهب المدرسة الواقعية ، التي سادت التفكير الإنساني في هذا العصر ، بمد هذه الكشوف العظيمة التي انتهى إليها العقل من اتصاله المباشر بالطبيعة ، وتحديد نظره في الواقع المحسوس وحده ، دون التفات إلى ما وراء الطبيعة .

وهذا المذهب الواقعى وإن يكن قد أثمر هذا الطيب الوفير فى مجال العلم ، فإن تطبيقه فى دائرة الفن لم يسلم من بعض الآثار السيئة التى تركها فى الفن .. إلى جانب الآثار الطيبة التى تركها فيه كذلك !!

فإنه مما لاشك فيه أن الفنون عامة قد كسبت الشيء الكثير من هذه الفتوحات الواسعة فى ميادين العلوم المختلفة ، إذ أن هذه العلوم هى «خزائر» الفنون وبذورها ، كما أن الفنون هى مذاقات هذه العلوم وطعومها .. فالفن فى حقيقته إلا الثمرة الناضجة فى شجرة العلم ، وإلا الروح السارية فيه ، والنظام الممسك به .. وإنه على قدر ما فى العلم من أمارات الصحة ، ودلائل السلامة ، ومخايل الحق ، يكون حظ الفن المتولد عنه من السلامة والصحة والإشراق .

ذلك أمر لاشك فيه ، ولا ارتياب ! .

ولسكن الذى ينبغى أن يلتفت إليه هنا هو أن الفن شيء ، والعلم شيء ، وإن جمعهما أصل واحد .. فهما ابنا الطبيعة .. هما أخوان ، وإن لم يسكونا توأمين !!

العلم يكشف أسرار الطبيعة ، ويفك طلاسمها .. والفن يكشف عن جمالها ويبرز مفاتها .. العلم وليد الطبيعة ، والفن وليد هذا الوليد .. فلحمة النسب بين العلم والفن دانية ، وشائج القربنى متلاصقة !

وعلى هذا ، فإن ضبط الفن وقياسه بالمقاييس العلمية فيه اعتداء على ذاتية الفن ، وفيه تضيق لشخصيته .

فلماذا أخذ الفن ما يأخذ من العلم ، ولسكن على شرط أن تنضج هذه المادة العلمية فى بوتقة الفن ، وتتشكل فى قوالبه !

وينبئ على هذا أن واقعية الفن التى تقول بها المدرسة الواقعية — هى وجه من وجوه العمل الفنى ، بل هى الوجه الذى إن فات الفن لم يكن له وجه تتملاه العيون ، وتمسقه القلوب ، وتمسك به العقول .

ثم إن الفن بما له من قدرات خاصة هو الذى يجلب هذا الوجه فى معارض مختلفة .. لا تحصى ولا تضبط !

* * *

أما المذهب الآخر فيذهب إلى أن الفن ليس هو المحاكاة المطلقة للطبيعة، ونقلها كما هى فى إطار العمل الفنى ، ولو كان الأمر كذلك لما كان للفن وظيفة فى الحياة ، ولما كان للناس داعية إليه .. لأن الطبيعة أكثر صدقا ، وأوضح بياناً من الصورة الفوتوغرافية المنقولة عنها فى الإطار الفنى .. وكان الاتصال المباشر بالطبيعة حينئذ أولى وأجدى من النظر فى الأعمال الفنية التى لا تعدو — فى أحسن أحوالها وأصدق صورها فى هذا الفهم — أن تكون فرعاً لأصل ، وظلاً لشخص ، وصورة فى صفحة مرآة !

إن العمل الفنى لا يستحق أن يوصف بهذا الوصف إلا إذا خلع على الواقع الذى يعمل فيه لونا جديداً يراه الناس عليه ، فيجربون ويدهشون ، لما طلع عليهم من تلك الأشياء التى رأوها من قبل ولم يلقفهم منها ما لففهم إليها وهى تعرض فى هذا القالب الفنى الذى ظهرت فيه .

ويجب أن نعلم أن عمل الفن هنا لم يكن إلا غوصاً فى أعماق الواقع ، وإلا تهدياً إلى بعض ما فى هذه الأعماق من حقائق ، ثم تجليتها وعرضها بحيث يرى الناس على السطح ما كان يراه الفنان فى الأعماق !

فالفنان فى عمله ، رائد يكشف للناس من مشاهد الواقع ما يمكن فى الأعماق ، وهو فى عمله هذا لا يعدو أن يلتقى مزيداً من الأضواء على المناطق المظلمة من هذا الواقع ، وبهذا يقع فى مجال الرؤية لهم ما كان محجوباً عن أبصارهم ، ملففاً فى ضباب الحياة وغيوماً .

إن الفن يفتح بأرواحه العطرة وأندائه الندية أكام الأشياء التى يلتقى بها ، كما تفتح أنسام الربيع وأنداؤه زهر الرياض ، فتظهر فتنها ، وينطلق عبيرها .. وما أضاف هذا أو ذاك — الفن والربيع — شيئاً إلى الواقع ، أو

أخذ منه ، وإنما هيأ للواقع الوضع أو الأوضاع التي تنطلق منها قواه ، وتطل منها وجوهه !

والحق أن المذهب الذي يدعو إلى الواقعية في الفن لا يمكن أن تتحقق دعوته في أى عمل فنى .. إذ من المستحيل استحالة مادبة أن تنقل الحقائق ، ثم يكون هذا المنقول هو الحقيقة ذاتها ، أو الشيء نفسه !

إن أى عمل فنى هو فى مقابل الواقع الذى يمثل — شئ آخر غير هذا الواقع ، وإن تكن فيه مشابهة منه ، ودلالات عليه !

فالصورة المنقولة نقلاً دقيقاً لأى شئ من أشياء الحياة .. هى شئ آخر غير هذا الشئ ! وإنه مهما تبلغ الدقة فى التزام وجوه التشابه فى المساحة واللون والملامح والسمات ، وغير ذلك من مقومات هذا الشئ — فإنه يبقى بعد ذلك شئ لا يمكن أن يخضع أو يستجيب لعمل الفنان هنا ، وهو تجسيد الصورة .. فإذا أمكن تجسيدها فى فن النحت فإنه لا يمكن منحها الحياة إن كان الشئ ذا حياة ، أو إعطاؤها الطعم والريح إن كان الشئ ذا طعم وريح . وهكذا .

وفن القول تظهر فيه هذه الظاهرة أكثر من غيره من الفنون .. فإنه ليس بين الصورة المرتبسة من الكلام وبين الشئ الدالة عليه هذه الصورة . شئ من التشابه الذى يقع تحت الحواس ، وشتان — فى ظاهر الأمر — بين كلمات مكتوبة أو منطوقة ، وبين شئ يتحدث عنه هذه الكلمات كشجرة ، أو نهر ، أو إنسان ، ونحو هذا ..

وعلى هذا فالواقعية على إطلاقها هذا لا تتحقق فى الفن أبداً ، ولا ننظر أن أصحاب هذه الدعوة يريدونها على هذا الوجه ، وإنما هم يقصدون بالواقعية — فى فن القول مثلاً — الوقوف عند مدلول الكلمات ، ونقل الشئ المراد نقله بها فى محمول لا يتجاوز المدلول اللغوى الذى تستدعيه حقيقة هذا الشئ ، دون تزييد أو إضافة أو حذف ، ودون استخدام المجاز وألوان الخيال :

وحق لو استطاع الفنان أن يلتزم حدود الواقع في عمله الفني ، وأن ينقل بوسائل الأشياء كما هي - وهيئات - فإن هذا العمل - وإن كان واقعياً بهذا المفهوم الذي أشرنا إليه .. فهو - على ما به - يؤدي وظيفة حيوية في الحياة لا يمكن أن تكون الأشياء في ذاتها بديلاً عنه .

فنحن في فن القول مثلاً ، نستحضر الغائب البعيد ، ونستدعي الضال والشارد من أشياء الحياة وأحداثها في كلمات معدودة ، ونستعرض ألواناً من الوجود في كتاب ، أو صفحات من كتاب .. وهذا عمل لا يمكن أن نحصله أو نشهده إلا في حضور الكلمة ، وبما تحدث به .

وتصور معركة حربية استمرت أياماً أو شهوراً أو سنين ، وتنقلت في أيادين مختلفة ، وجمعت جيوشاً جارية تملأ السهل والوعر ، وحملت معدات وأدوات لا تحصر ولا تعد .

هذه الأحداث التي تملأ حيزاً كبيراً من الزمان والمكان .. أيمن أن نظل هكذا فائمة على وجه الطبيعة ، يراها الناس ويشهدونها على حالها هذا في زمانها ومكانها ، وإذا كان ذلك ممكناً - وهو مستحيل - فهل كان في استطاع كل إنسان أن يشهدها ، ويستصحب أحداثها .. ذلك ما لا يقع في تصور أبداً .

ولكن الفن - وفن القول بخاصة - يستطيع أن يحتفظ بهذه الأحداث جميعها في صور من الكلمات ، تنطلق منها الأحداث ، وتنحرك المواقف ، كلما نظرنا في وجه العمل الفني ، وتابعنا السير معه .

ونخلص من هذا كله إلى أن الحقيقة تظهر في العمل الفني ، إما واقعاً مجرداً لا يتصل به شيء من الظلال والألوان - وهذا بعيد - وإما أن يتلبس هذا الواقع بشيء من عاطفة الفنان وروحه ، فيجيب الواقع فيه ملونا بألوان وأطياف ، وهذا يتلاءم مع الفن ، ويجري مع طبيعته .

وهنا نعود لنسأل عن شأن القرآن في نقل الواقع - من أشياء وأحداث - في نظمه الذي جاء عليه .

أهذا النقل هو نقل الواقع عينه ، وإحضاره بذاته ؟
ذلك مستحيل .. في ناموس الوجود الذي أقامه الله على هذا النظام ..
ولو كان ذلك ممكناً للزم وقوف الزمن فلا يتحرك .. وتجميد الأشياء
فلا تتحول ، ولا تبرج مكانها !

أم أن هذا النقل تصوير لهذا الواقع ومحاكاة لما كان ؟
ونعم .. هو تصوير للواقع ومحاكاة له .. ولكن هذه المحاكاة ماهي ؟
أهي محاكاة مغلفة .. صامتة .. جامدة .. تضع الواقع كما هو في إطار
من الكلمات أشبه بمحتوى الزمان والمكان للشيء الواقع بهما ؟ أم هي محاكاة
تنطق بالصامت ، وتحرك الجامد ، وتندسس إلى أعماق الأشياء فتخرج
مكونها وتستخرج مضمونها !

والذي ينظر في كلمات القرآن ببصيرة نافذة ، وقلب جميع ، يرى أن هذه
الكلمات لها دلالات ظاهرة هي التصوير الصامت للأشياء .. ثم يجد وراء
هذه الدلالات دلالات أخرى ، بعضها وراء بعض .. كل دلالة منها تطلع
من أفق .. وهي في جميع آفاقها تحدث عن حقيقة الشيء ، وتكشف عن
مضامينه وخفاياه !

والمثل الذي تقدمه من قصة داود لا يحوجنا إلى مثل غيره في هذا المقام .
انظر إلى قوله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب .. »
إذ دخلوا على داود ففزع منهم .. قالوا لا تخف .. » — انظر كيف كان
إعجاز القرآن في هذه الكلمات الممدودة ؟ وكيف أقام منها عالماً فسيحاً ،
ننتقل فيه من معنى إلى معنى ، ونستقبل منه أمواجاً متتابعة من المشاعر
الإنسانية المتضاربة المتناقضة ؟ ؟ ؟

والقصة قد جاء بها القرآن في آيات معدودات .. يقول تعالى : « وهل
أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا

لأتخف ، خصمان بنى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطيظ ،
واهدنا إلى سواء الصراط . . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى
نعجة واحدة ، فقال أ كفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال
نعمتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلفاء لينبئ بعضهم على بعض ،
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مأم . . وظن داود أنما افتنه ، فاستغفر
ربه ، وخرّ راكعاً وأتاب . . فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لولي وحسن
مآب . . يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق .
ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله « (١) » .

والآيات تشير من طرف خفي إلى أن شيئاً ما قد كان من داود ، وأن هذا
الشيء مما لا ينبغي أن يكون من نبى ، وإن جاز أن يقع من غير الأنبياء !

ولم تسكشف الآيات عن الأمر الذى حدث من داود ، إذ لا يتعلق به
من حيث ذاته غرض . وإنما المتعلق في صفة هذا الأمر . وأنه بصفته الكريمة
تلك لا يصح أن يكون من نبى ، كما أن في الإضراب عن ذكره رعاية لمقام
هذا النبى الكريم ، وحماية لمشاعره من أن تؤذى أو تجرح ، أو تخدش . .
هكذا أولياء الله . . عند الله .

والسكلمات في ظاهرها تنقل الواقع كما هو ، وكما تراه كل عين : خصمان
يقترعان على داود مجلسه ويدخلان عليه من السور ، لا من الباب . . فيفزع
لهذا الحدث المفاجئ الذى يجيىء على غير المعتاد ، وفي غير استئذان ! ..
والخصمان يبادران إلى اطمئنان داود ، وإذهاب الفزع الذى هز كيانه ..
« لا تخف » .. ويكشفان له عن حقيقتيهما ، ليزداد اطمئنانا ، وليذهب
ما به من روع .. « لا تخف .. خصمان بنى بعضنا على بعض » ١١ .

هذه هي الحقيقة في ظاهرها .. لم يغب منها شيء ! كما وقعت وكما صورتها كلمات القرآن . ولكن هناك صور غيبية تطلع من وراء هذه الصورة الظاهرة ، وتترامى في أضواء الكلمات القرآنية ، وتتهامس في ظلالها كلما فتحت لها قلبا ، وجددت إليها نظراً .. وإنك لترى في الآية السابقة كيف أتت كلمة « تسوروا المحراب » قد دلت على أكثر من معنى يقوم وراء المعنى الظاهر « للتسور » .. فإن هذا التسور يدل على أن اختلالاً دخل مملكة داود ، وأن هذا الاختلال كان من جهته هو ، ولهذا فقد أخذ نصيبه من نتائجها ، وهام أولاه رعبته لا يدخلون عليه المحراب من أبوابه . فلقد انقلبت الأوضاع ، واختلت أسس النظام .. ثم إنك لتجد في كلمة « ففزع منهم » أن الفزع هنا ينبغي — فوق حقيقته اللغوية — عن معنى آخر ، وهو انقلاب الأوضاع أيضاً ، حيث يفزع القاضي من المتقاضين ، وكان الأمر على عكس هذا ؛ لو أن الأمور كانت تسير سيرها الطبيعي .. وإنك لترى شيئاً مثل هذا في قوله تعالى : « فاحكم بينهم بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط » فما رأى الناس الخصوم يدعون القضاء إلى أن يحكموا بالعدل ، إذا ما قام القضاء في مجلس القضاء إلا لهذه الغاية ، ولكن في هذا الكلام غمراً لداود ، وتلميحاً ، وأن ميزان العدالة قد اهتز من قبل هذا الموقف هزة شاع أمرها في الناس وذاع ، حتى عرفه هذا الحصان اللذان لم يعرف داود لهما وجهاً من قبل .

وهكذا نجد الآيات القرآنية لم تقف عند دلالتها اللفظية ، بل أدت هذه الدلالة ، ثم تجاوزتها إلى دلالات أخرى ، تسكثرت وتقل حسب العين الناضرة إليها ، والقلب المتجه نحوها .

ولعل هناك من يعيد هذا السؤال : أليس القرآن بدلالة خارجية عن المدلول اللفظي لم يلتزم الواقع ولم ينقل الحقائق كما هي ، ولم يصور الأشياء كما تقوم عليه في مرأى العين ، وإذن فقد وقع خلل في عرضها الحقائق على وجهها الذي قامت عليه .. فكيف هذا !

وقد أجبنا على مثل هذا الاعتراض ، وقلنا إن الدلالات اللغوية لألفاظ القرآن هي معرض الحقائق كما تبدو في ظاهرها . ثم إن للقرآن - شأن القنون الرفيعة - نفوذاً إلى أعماق الأشياء ، وتصويرها من الداخل كما صورها من الخارج ؛ وليس في هذا بعد عن الحقيقة ، بل هو في الصميم منها .

وهل في مدلولات الآية السابقة في قصة داود شيء لم تكن دلالة الحال تنطق به ؟ وهل شيء من هذه الخلجات ، وتلك الخواطر التي كشفت عنها الآية لم يكن من مقتضيات الأمر الواقع في مجرى الأحداث ولوازمه .

تمقيب القرآن على الأحداث :

وللقرآن الكريم منهج خاص في إخراج الحدث ، وتصوير الواقعة .. فهو فوق ما تضمنت كلماته ، وما تحمل آياته من حقائق وصور يلتقطها من داخل الأشياء وأعماقها - هو فوق هذا يجيء في أعقاب الحدث أو الواقعة أو الحكم بصورة مستقلة ، تكون أشبه بالتعليق عليها أو التلخيص لها .. وأكثر ما يرى ذلك في فواصل الآي ، التي هي أشبه ما يكون بلسان الحال الذي ينطق بالمسكوت عنه في أعقاب الأحداث والوقائع .. كما أن كثيراً من الآيات تقع موقع الفاصلة في الأحداث الكبيرة .

وفي قصة داود التي أشرنا إليها من قبل ؛ كان ختام هذه القصة هو قوله تعالى : « وإن كثيراً من المخطئين ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مأم » .. وهذا القول يمكن أن يكون صادراً عن داود نفسه ؛ أو أنه مقول للسان الحال التي نطقت بما يشهد له الواقع . أو أنه مما وقع في نفس الخصمين حين استبان الحق لهما .. أو أنه لهؤلاء جميعاً ، وقد نطقوا - في علانية أو في سر - بهذا القول .

وفي هذه القصة أيضاً جاء ختام آخر لها هو قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك » (١١ - القصص القرآن)

عن سبيل الله ، إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسُوا يوم الحساب ، وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلا .. ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا ووصلوا الصالحات كالفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ^(١) .

فهذا كله تعقيب على القصة . أو قل هي الحقائق المضرة في ثنايا القصة ، والتي تنكشف لبعض الناس ولا تنكشف لكثير منهم .. فكان إبرازها على تلك الصورة في أعقاب القصة مما اقتضته حكمة الحكيم العليم .. حرصاً على تمام الإفادة بما في القصة من عبر وعظات ، ورحمة بمن قصرت أفهامهم عن أن تدرك شيئاً وراء ظاهر القصة ، أو أدركت شيئاً وغابت عنها أشياء .

إن هذا الأسلوب من البيان ينظم القرآن الكريم كله ، حيث نخم آياته كلها - إلا ما ندر - بالفاصلة ، التي هي - كما قلنا - تعقيب على ما تحمل الآية في كيانه من حقائق ، وأحداث ومواقف .

والقصص القرآني يجتمع له مع هذا الأسلوب أسلوب آخر .. فهو يشارك القرآن كله في أن الآيات التي تشتمل عليها القصة تختتم بالفواصل على نحو غيرها من الآيات .. ثم إن القصة تنتهي بآيات خارج إطارها تكون أشبه بالفاصلة ، وفيها التعقيب السكلي على القصة ، وما فيها من عظات وعبر .

وواضح من هذا أن ما يحىء من آيات خارج إطار القصة لتلخيصها ؛ أو لإبراز مضمونها ، وكشف مواقع العبرة منها - هذه الآيات ليست من أحداث القصة ، أو بمعنى أوضح ليست من الواقع الذي ننقله إلينا القصة ، وإنما هي إضافات جاء بها القرآن بعد أن أنهى القصة ، وأوقف سير الأحداث عند الغاية التي أجراها فيها .. وهذا ما جعلنا نحسب هذه الإضافات بحساب القوى الغيبية التي يدخل بها القرآن على أحداث القصص ، إذ كلاهما قوى غير منظورة

وإن كانت القوى الغيبية غير متوقعة أو متوهمة ، على حين أن ماتحمسه
الإضافات من معان كان في مجال التوهم أو الظن أو اليقين ، عند من شهدوا
القصة أو شاركوا في أحداثها ، على حسب درجاتهم من الإدراك ، ومنازلم
من الفهم .

قيمة هذه العناصر في العمل القصصى :

هذه العناصر التى عرضناها في هذا الفصل .. ما أثرها في القصة القرآنية ؟
وهل إذا خلا القصص القرآنى منها فقد شيئاً من معطياته التى يجدها
الناس منه ؟

فإذا لو أن المعجزات والحوار التى دخلت في القصص القرآنى قد
أُخِلت مكانها الذى تأخذه في القصة .

وماذا لو جُدت ألفاظ القرآن على المعنى الذى يحمله منطوقها دون أن
ينكشف منها شيء وراء هذا المنطوق .

ثم ماذا لو حذفت هذه الفواصل وتلك الإضافات التى ينكشف بها ما توارى
في ثنايا الأحداث ، وما استتر في أطواء النظم .

ونقول : إن سلب القصص القرآنى هذه العناصر التى شاركت في بناءه ،
والتي لها آثارها البارزة في وجوه الإعجاز التى تطلع من القرآن الكريم فتخضع
له الأبصار ، وتخضع الرقاب ! . إن سلب هذه العناصر معناه انتزاع أعصاب
الكائن الحى من جسمه بحساب أنها شيء زائد عن حقيقة وجوده .. فهذه
القوى التى يضم عليها نظم القرآن واحتواها قصصه ، هى من صميم هذا النظم
لا تقوم حقيقته إلا بها مجتمعة ومتفرقة .

ونسأل : لماذا تجلى هذه القوى الغيبية من الحوار والمعجزات - لماذا
تجلى عن مكانها من القصص القرآنى . أليست واقعا مشهوداً كان له دوره في
الحدث القصصى . وكيف لو نقل الحدث بغير هذه الحوار والمعجزات التى

صحته ؟ أليكون ذلك النقل صادقا أميناً ، يناسب مع ما ينبغي لمقام القرآن
ولأخباره من أمانة وصدق ؟

ونسأل أيضا : كيف يطلب إلى القرآن أن يتخلى عن خصائص اللغة في
جانبها الفني . وبأى لغة يتحدث القرآن إذن . إن اللغة العربية - وكل لغة -
لها خصائص تظهر في أعمالها الأدبية من منشور ، ومنظوم .

فالقول بأن القرآن - لكي يجيء بالصدق الخالص في تصوير الأحداث -
يجب أن يجرد اللغة من خصائصها الفنية ، وألا يتناولها إلا بحجفة ، لا ورق
فيها ، ولا زهر ، ولا ثمر ولا حياة . بل هكذا أعزادا من الخطب ، يجمعها
كما تجمع حزم الخطب .

هذا القول فيه جور صارخ واعتداء أثيم على الحق ، بل هو في صورته
تلك قتل لسكان حتى لا ذنب له ، إلا أنه حوى الجمال كله ، واشتمل على
الحسن جميعه !

إن الإيحاءات التي تتبعها الكلمات القرآنية في مجرى الأحداث ليست
غريبة عن هذه الأحداث ، بل هي من صميمها ، بل إنها القوة المحركة لها ،
والحياة المتدفقة في كيانها ، وإن كان لا يرى لها وجه في الظاهر .

انظر - مثلا - المحتوى التصويري لقصة داود في إطارها اللفظي ، والتي
تمحدثنا عنها أحاديث مختلفة فيما سبق .. ثم عد وانظر فيما يشيع حول هذا
المحتوى من ظلال وألوان .. فإليك لتجد نفسك أمام حشد كثير من الصور
التي يكمل بعضها بعضا ، حتى يتشكل منها آخر الأمر « ملحمة » تقور فيها
الأحداث فوران القدور ، ترمي بزبدتها ، حتى ينكشف صريحها .

فهناك الصورة الفتوغرافية التي سجلتها الألفاظ لأبعاد القصة ، في حدود
المساحة المسكينة والزمانية التي تتحرك فيها الكلمات .

وهناك القوة الغيبية الخارقة التي مكنت الخصمين من أن يخترقا الحجب
والأسوار وأن يصلوا إلى « داود » ويفجآه في مكانه الأمين .

ثم هناك الإشعاعات والإيماءات المنطلقة من كلمات : « فزع منهم » و « لانخف » و « احكم بيننا بالحق ولا تشطط » .. وهكذا من الكلمات التي أوحى إلينا بمدلولات كثيرة أشرنا إلى بعضها فيما مضى لنا من حديث معها ، والذي نريد أن نقرره هنا هو أن هذه العناصر جميعها — ما ظهر منها وما استتر — لم يدخل هليها غريب ، ولم يختلط بها شيء من غير الواقع الذي كان ، والذي لا يمكن لغير النظم القرآني أن ينقله على هذا الوجه من الصدق والدقة والوضوح !

° * °

هذا ، وهناك قوة غيبية يؤمن بها المؤمنون بالله وحدهم لا يشاركون فيها غيرهم ممن ينكرون الله — هذه القوة هي « القدر » الذي يتحكم في مصائر الأمور ، ويقيمها على الوجه الذي يريد ، دون أن يملك الناس لها دفعا ، ولا يستطيعوا عنها حولا .

هذه القوة الغيبية التي يؤمن بها المؤمنون لها دورها في القصص القرآني إذ كان منظورا إلى أحداثه ومواقفه من خلالها ، حيث كانت تلك القوة هي المسكة بكل الخيوط التي تتحرك الأحداث والوقائع والأشخاص في مجالها .

ومن أجل هذا ، كان لابد من أن يحسب حساب هذه القوة في دراسة القصص القرآني ، وأن يبحث عن آثارها الفنية فيه ، وهل كانت قيدياً يمسك شخصيات القصة وشخصها ، ويحول بينها وبين الانطلاق إلى الغايات التي تريدها ، أم أنه كان مجرد متفرج يرسل القوى المتصارعة من بين يديه ، ثم يدعها تتصارع وتتقاتل بما فيها من قوى وما معها من أسلحة !

إن مفهوم « القدر » عند كثير من الناس — حتى المؤمنين — أنه معمل آلي ؛ تخرج منه الأحداث مصبوبة في قوالب معسدة من قبل ؛ على وجه لا يملككون معه فيها شيئا ، فليست الحياة — على هذا المفهوم — إلا رواية

سينمائية قد مثلت، وصورت في « استديو » خاص، ثم أعدت للعرض؛ وهما
فى يد القدر تدير آلة العرض منذ الأزل فتتحرك عجلة « الفيلم » وتقع
الأحداث المضجرة فيه على « الشاشة »؛ فإذا الحياة كلها فى مشاهد متصلة
متباعدة !

فهل « القدر » على هذا المفهوم ؟

أو بمعنى آخر : هل جاء القمص القرآنى على هذا المفهوم للقدر ؟

ذلك ما نريد أن نكشف عنه فى الباب التالى الذى جعلناه باباً مستقلاً فى

هذا البحث .

الباب الخامس

القدر وحسابه في القصص القرآني

القصص القرآني جزء من الرسالة الإسلامية التي حملها القرآن الكريم ، ويحمل هذا الجزء عبء الجانب التربوي عن طريق العبرة والعظة .. ولهذا كان القصص محكوما بالإطار العام للدعوة الإسلامية ، ملتزما الأصول التي قامت عليها .

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل . .

قلنا في أكثر من موضع : إن القصص القرآني ينقل الحدث التاريخي بأشخاصه ومشخصاته نقلا تعجز أدوات التسجيل والمحاكاة كلها عن تحقيق بعضه ، بله كله .

وقلنا كذلك إن القرآن في قصصه يحكي مقولات المتحاورين والمجادلين والناطقين في الحدث الذي يقصه — يحكيها كما هي في مضمونها ومفهومها ، وإن جاءت بلسان غير لسانهم ، وبلغه غير لغتهم .

ومعنى هذا أن ينقل القرآن ما جرى على تلك الألسنة من حق أو باطل ؛ ومن هدى أو ضلال ، ومن إيمان وكفر ، ومن تقديس أو تجديف . وهذا ما يقتضيه الصدق الذي جاء عليه ، والحق الذي نزل به .

وطبيعي ألا يترك القرآن هذه المقولات المنحرفة الضالة ، وهذه المواقف المعوجة العملية ، دون أن يعلق عليها ، وأن يكشف عن رأيها فيها ، وعن موقفه منها .. ولوتركها تمضي هكذا لفررت بكثير من الناس وللاصق زورها وهبتها بكثير من العقول .. فكان من التدمير الحكيم ، ومن التربية القويمة المسكينة عرض هذا الضلال ثم التأنيم له ، والرواية عليه ، والتشنيع به ، حتى يقع في النفوس موقع الازدراء والمقت ، ثم القلي والتجنب .

ولقد حكى القرآن مقولات الكفار في الله سبحانه وتعالى ، وفي النبي الأمين ، وفي القرآن الكريم ، ثم سفها ، وسفه القائلين بها ، ورمام منها بسهام قاتلة ، فلم تقم لهم بعدها قاتعة .

فهو مثلاً يحكى قول الكفار من قريش ، وينقل مقولاتهم في القرآن ، وضلالاتهم فيه ، إذ يقول :

« وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأطاعه عليه قوم آخرون »
 ثم يضرب وجوههم بهذا الرد المفصم الدامغ : « فقد جاءوا ظلماتاً وزوراً »^(١) .
 وهو ينقل مقولة أهل الكتاب الذين يمجّلون الله سبحانه ولداً ، فيقول :
 « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً .. ما لهم به من علم ولا آباء لهم » .
 ثم يرجهم بهذا الشهاب الملتهب : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً »^(٢) .

وهو يعرض زعمة من زعمات الملحدين من العرب عن ملائكة الرحمن ، وأنهم أناس .. فيقول :

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » .

ثم يسوقهم هذا السوق العنيف إلى ساحة الاتهام ، ليقيموا برهاناً على هذا البهتان « أشهدوا خلقهم » ، ستكتب شهادتهم ويسألون »^(٣) .

وفي القصص القرآني يجري القرآن على هذا الأسلوب نفسه ، فينقل ما ينقل على ألسنة الضالين والمنحرفين .. ثم يرد هذا الضلال ، ويسفه هذا الانحراف ، إما على لسان الشخصية التي تقف في الطرف الآخر المواجه للمنحرفين والضالين ، وإما بأن يدخل القرآن — في الوقت المناسب — فيمتلئ هو الرد ، وكأنه لسان الحال ، وصوت الوجود يدخل في الدعوى من

(١) سورة الفرقان : ٤ (٢) سورة الكهف : ٤

(٣) سورة الزخرف : ١٩

كل جهة ، فيستولى على زمام الموقف كله .. حيث يكون لهذه المفاجأة وقمها المزئيل في نفوس المعاندين المكابرين .
ونستطيع أن نقدم مثلاً لذلك من موقف إبراهيم من قومه ، إذ يحاجونه ويمجادونه في الله .

ففي هذا الموقف بقول الحق جل وعلا في سورة الأنبياء

« إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه :

— « ماهذه التماثيل التي أنتم لها ما كفون ؟

— « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين !

« قال :

— « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين .

« قالوا :

— « أجبثنا بالحق أم أنت من اللاحين ؟

« قال :

— « بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين » .

ويضمر إبراهيم في نفسه أمراً ، تتخلق صورته في كيانه ، وتتحرك كلماته من وراء شفتيه ، دون أن يسمعه أحد من شهود هذا الموقف .. ولكن القرآن يصرح به ، بعد أن أصبح الحديث تاريخاً .. فيقول الله سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم :

« وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

ثم يصور القرآن ما كان من إبراهيم لتحقيق هذا القول الذي أضمره :

« فجعلهم جذاً للإكبراء لهم لعلمهم إليه يرجعون » .

ويتجدد المشهد مرة أخرى .. ويقف إبراهيم وقومه وجهاً لوجه .

« قالوا :

— « من فعل هذا بالهتنا ، إنه لمن الظالمين ؟

« قالوا :

— « سمعنا ففى يذكرهم يقال له إبراهيم !

« قالوا :

— « فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

« قالوا :

— « أ أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ؟

قال :

« بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟

وبلاوى ولا تفكير ؛ ينزلق القوم فى هذا المزلق الذى دفعهم إليه إبراهيم .. فيرجع بعضهم على بعض باللائمة أن تسروا فى اتهام إبراهيم وحملوه ما وقع لأصنامهم من تحطيم وتكسير : « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون » .. ثم تصدمهم الحقيقة الفاضحة المخزية حين يلتقون بأصنامهم فيستخزون أن يسألوهم هذا السؤال الذى لفتهم إليه إبراهيم : « ثم نكسوا على رؤوسهم .

— « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون !

قال :

— « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم .. أف لكم ولما تعبدون من دون الله .. أفلا تعقلون ؟

« قالوا :

— « حرِّقوه وانصروا آلهمكم إن كنتم فاعلين .

وهذا تحبىء نجدة السماء ..

« قلنا :

« يا نازكوني برداً وسلاماً على إبراهيم !
« وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ^(١) » .

إن القرآن يفصح هذه الانحرافات العقلية ، والنفسية ، والخلقية ، التي تجري في أحداث قصصه ، فيردها على أصحابها ، أو يقيمها على الوجه الذي يقتضيه الحق والعدل اللذين قام عليهما دين الله ، وجاءت بهما شرائعه .

* * *

ولعل أبرز صورة يلتزم فيها القصص القرآني رطابة الأصول التي قامت عليها الشريعة الإسلامية هي الصورة التي تحتكم إلى القَدَر عن الوجه الذي صورته الشريعة الإسلامية له ، وأقامت مفهومه عليه .

فالأحداث التي عرضها القصص القرآني تخضع في أشخاصها وأشياءها للقَدَر على هذا المفهوم الذي حدده الإسلام .

والقَدَر - كما يراه الإسلام - ليس شجراً قائماً وراء الأشخاص والأشياء يشارك في صنع الأحداث مشاركة مباشرة ، يراها الناس رأي العين ، أو يرقبون خط سيره الذي يسير فيه إلى غايته .. وإنما القدرة قوة خفية مضمرة في كيان الوجود ، لا يعرف الناس من أمرها شيئاً ، إلا بعد أن تقع الأحداث ، وتظهر نتائجها ، حيث تجري على خلاف ما حسبوا وقدروا .. فيقولون : « قَدَرُ جرى » .. إن كانوا مؤمنين بالقدر ، أو يقولون : « طبيعة تقذف بموايدها » ، إن كانوا لا يؤمنون به ، أو يصمتون لابقولون شيئاً .. إن كانوا في غفلة عن هذا وذاك .

فالناس ، والأشياء ، والحياة كلها تبدو في ظاهرها مطلقة لاسلطان لشيء عليها إلا هذه القوانين الطبيعية التي تربط بها ، من أسباب ومسببات ، وعمل

ومعلومات .. ولكن هناك أمور تقع على غير ما عرف الناس من علل وأسباب ، إذ أن عللها وأسبابها بعيدة عن مناطق الرؤية التي استطاعت الإنسانية أن تصل إليها وتقع على روابط العلية والسببية بين الأشياء فيها .

ولو أن الناس استطاعوا أن يجدوا لكل حدث علة وسبباً يدخلانه بهما في منطقة المعقول ، لما كان هناك قدر بالمعنى المفهوم عند من يؤمنون به .

وأما والناس مهما بلغوا من علم ومعرفة - فإنهم لن يصلوا أبداً إلى تلك الغاية التي يجدون عندها السبب لكل حدث ، والعلّة لكل واقعة - فإن القدر سيظل واقعا في حسابهم ، يطلع عليهم من وراء المجهول من حيث لا يحتسبون .

فقد يدرك الناس - عن طريق الطب مثلاً - أن هذا الجنين قد ولد ميتا قبل تمام حمله ، لسبب كذا ، أو كذا ، أو أن ذاك الطفل قد مات بعد ولادته بسنة أو سنتين ، لعلّة كذا أو كذا .. قد يدركون هذا وذاك ، ولكن تبقى بعد ذلك الذي عرفوه من أسباب وعلل وتبقى أسباب وعلل لا يقعون عليها ، ولا يجدون إلى إدراكها سبيلا .

لماذا يموت هذا الجنين ! ولماذا لم يستوف حظه من الحياة ، ويأخذ مكانه في الناس . وماذا كانت الغاية من حمله تلك المدة التي قاست فيها أمه ألم الحمل ، ثم الولادة العسيرة .. ثم لماذا ولد هذا الطفل .. ثم باكرته المنية في طفولته ولم ولم إلى كثير من الأسئلة التي لاحصر لها ، والتي لا يجد الناس لها جواباً ، ولا يعرفون لألغازها حلاً .. ذلك أن الذي يريد أن يصل إلى مفهوم لمثل هذه الأحداث ينبغي أن يكون قائماً على هذا الوجود كله . بأزمته وأمكنته ، ليصل الشيء بجميع أسبابه القريبة والبعيدة التي قد تمتد فتتناول أزماناً متباعدة تتجاوز مئات القرون عدداً .. ماضية ومستقبلية ، وقد تتوزع في أجيال متعددة .. غابرة وآتية .. وهذا في الحدث الواحد ،

على صفوه وضآلته ، فكيف بالأحداث وقد تداخلت وتشابكت على تطاول الأزمان ، وامتداد الأمكنة ؟ إن ذلك لن يكون في مستطاع الناس أبداً ، ولو اجتمعوا له ، ورصدوا وجودهم كله للعمل من أجله .

وإذن فالقدر غيب محجوب عن الناس .. أو بمعنى أدق هو تلك المنطقة التي لا تنكشف للناس منها مصائر الأمور ، فلا تقع في دائرة المعقول أو المحسوس لهم قبل أن تقع ، وتصبح أمراً نافذاً لا مرد له .

وبهذا المفهوم نستطيع أن نقرر أن منطقة القدر تتسع وتضيق ، حسب ما عند الناس من علم ومعرفة ، وأنه كلما ازداد علم الإنسان واتسعت معارفه ضاقت دائرة القدر بالنسبة له ، إذ يستطيع أن يرجع كثيراً من الأحداث والوقائع إلى علل وأسباب .. ولهذا كان الإنسان الأول يكاد يكون محكوماً حكماً مطلقاً بالقدر ، حيث لا يكاد يعرف لأى شيء علة أو سبباً .

ثم كان الإنسان كلما اتسعت معارفه بالكون خفت وطأة القدر عليه ، وانكشف ظل سلطانه في عينيه ، ومع ذلك فإنه - كما قلنا - ستظل هناك منطقة فسيحة رحبة للقدر ، لا يستطيع الإنسان أن يرى فيها رؤية كاشفة مهما بلغ من معرفة ، أو أوتي من علم .

ونقيم لهذا شاهداً من كتاب الله الكريم .

ففي قصة موسى ، والعبد الصالح ، نجد الأحداث تجري في اتجاهين متخالفين : اتجاه يسير فيه الظاهر على مستوى الحياة التي يحكمها منطق الناس وتحتمله مدركاتهم ، وتناله عقولهم .. واتجاه آخر على مستوى عال بعيد عن مأنوف الحياة ، وخارج عن نطاق الإدراك الذي يتعاملون بمقتضاه .. إنه على أحمق بعيدة لم تصل إليها رؤية الناس بعد .. وهيئات أن تبلغها يوماً !

فهذه سفينة يعمل عليها جماعة من السكادحين في سبيل العيش ، هي كل ما يملكون .. يركبها موسى والعبد الصالح وكأنهما بعض المتعاملين معها ..

للانتقال من جهة إلى أخرى ، لقاء أجر معلوم .. وإذا بالعبد « الصالح » يتدسس إلى السفينة فيحدث فيها خرقاً .. ويسبب لها عطباً .. ويرى موسى هذا المشهد فلا يملك أن ينكر على صاحبه فعلته تلك .. وحق له أن ينكره ، ويألم له .. ويصرح موسى بهذا الإنكار ، ويكاد يصرخ به في وجه صاحبه ، ويدينه به أمام أصحاب السفينة ، وعلى أعين الناس ، ولكنه يذكّر العهد الذي أخذه عليه صاحبه .

« إن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » ..
ومع هذا فإنه لا يحتمل هذا التمزق في وحدة تفكيره ، فيهمس في أذن صاحبه منكرآ هذه الفعلة :

« أخرقها لتفرق أهلها ؟ .. لقد جئت شيئاً إمرأ » !!

وهذا أقل ما يقال في مثل هذا المجال !

وينبه العبد الصالح موسى إلى ما اشترط عليه في صحبته له ، فيقول :
« ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً » ؟ ويمتدّر موسى لصاحبه : « قال لا تراخذي بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً » .. إن الأمر الذي وقع أمر شنيع لا يمكن السكوت عليه .. فرفقأ بي !!

وبصحب موسى صاحبه على مضض ، لعله يكشف من أمره جديداً .
ومضيان .. فيلتقيان بغلام .. ثم لا يلبث العبد « الصالح » أن يجد فرصة مواتية له ، فيقتل هذا الغلام ! بلا ذنب فعله ، ولا جريمة أتاها - بالنسبة لموسى وصاحبه على الأقل - فهو لم يمرض لهما بشيء ، ولم يلحقهما بسوء من قول أو عمل ، بل إنه لم يمرض لأحد من الناس بسوء !

ويفرغ موسى ، وبكرب لهذا الاعتداء الصارخ ، على هذا الطفل البريء ، وهذا الاسترخاض المهيّن لأدمية الإنسان ولحرمة دمه .. ! ولولا بقية صبر عند موسى لفتك بصاحبه ليقتل منه لهذا الغلام المقتول ، الذي يشعر موسى

في قرارة نفسه أنه شريك في دمه .. ولكن موسى يؤثر الصبر هذه المرة أيضاً ، ليرى من صاحبه جديداً ، لعله يلتقي أضواء على فعلاته تلك .. ولولا هذا لآثر التحلل من الشرط الذي كان بينه وبين صاحبه .

وينطلق موسى مع صاحبه بعد أن يقف موقفاً لا ثمناً مكرراً : « أقتلت نفساً زكية بغير نفس .. لقد جئت شيئاً نكرأ ! » ويلقاه صاحبه بهذا الجواب : « ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ » .

ويحسم موسى هذا الموقف المتأرجح بينهما بقوله : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ! قد بلغت من لدني عذراً » .. لقد فاض الإباء وطفح السكيل ! :

وينطلق موسى وصاحبه حتى يصلوا إلى قرية من تلك القرى القائمة على طريقهما ، ويستطمان أهلها ، فلا يحصلان على شيء ، ولا يجدان يداً تتخذ إليهما بخير ، ويلحان بين بيوت القرية يتناحرا متداعياً تكاد جدره أن تنهار وتتساقط ، ويمد العبد الصالح يده إلى هذا البناء المتداعي قيقمه ، بلا دعوة من أحد ، ولا أجر يأخذه على هذا العمل الذي بذل له ما بذل من جهد ! .

ويضيئ صدر موسى لهذا الموقف المتناقض أشد التناقض .. أناس يلقونهم هذا اللقاء الجاني البعيد عن المروءة والخير ، ثم يكون من هذا العبد الصالح أن يعمل على إصلاح أحد هذه البيوت التي تضم بين جدرانها أولئك القوم .. من ذوى المروءات الساقطة ، والنفوس السكدة التي استبد بها الشح وملكها الآثرة ؟ !

ويطفح السكيل بموسى ، فيلقى إلى صاحبه بتلك الفاصلة التي تقطع ما بينهما من صحبة : « لو شئت لاتخذت عليه أجراً » ! .

ويتنفس موسى الصعداء ، ويخرج من هذه الدوامة التي كادت تضطرب في كيائها ، وتكاد تفسد عليه عقله ورأيه وتدبيره .. ! فلقد أجهد أهما إيجاباً

هذا القوط الذى قطعه مع صاحبه .. إنه كان معه كمن يمشى على رأسه، فيرى الأشياء على غير وضعها الذى اعتاد أن يراها عليه ، ويأخذها به ! ويفترقان إلى غير لقاء .. ولكن بعد أن يكشف العبد الصالح لموسى الغطاء عن هذا الغيب المستور !

ونستمع إلى القصة من آيات الكتاب الكريم، حيث يقول الله سبحانه: « فوجد عبداً من عبادنا » إلى قوله تعالى « ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً^(١) » .. فوجد موسى يدور فى فلك ، وصاحبه يدور فى فلك آخر ، كل منهما يريد أن يجذب صاحبه إليه ، دون جدوى .. موسى يدور فى فلك الواقع الذى يعرفه الناس، والعبد الصالح يدور فى فلك علوى تدور فيه أفلاك العوالم كلها فى الأرض ، وفى السماء ..

وانظر كيف رضى موسى كل الرضا عن فعل صاحبه الذى أنكره من قبل أشد الإنكار ، وذلك حين كشف له عن وجه الحقيقة المطوية فى عالم الغيب ، وأن السفينة التى خرقها العبد الصالح ، لو علم موسى ما يعلم العبد الصالح بشأنها ، وما يحيط بها وبأصحابها - لو علم موسى هذا لخرقها بيده، قبل أن يخرقها صاحبه . وكذلك لو علم من أمر الغلام ما يعلم العبد الصالح لقتله، ولو علم من أمر الجدار الذى يريد أن ينقض ما يعلم العبد الصالح لأقامه بيده ..

* * *

ففى هذا المثل الذى بين موسى وصاحبه يتضح لنا القدر ، وينكشف لنا مفهومه فى صورة واقعة .. فموسى يمثل الإنسان من حيث هو كائن محدود القدرة ، لا يرى من الأشياء إلا ما على السطح ، أو ما وراء السطح بقليل .. أما أعماق الأشياء، وأما صميمها فليس له إليه سبيل مهما ببلغ علمه، ومهما تكن

معارفه .. إن له حدوداً لا يتجاوزها ، وله مجالات لا يخرج عليها ، وهو في هذه الحدود يعمل ، وفي هذه المجالات يتحرك ، حسب تقديره ، وتفكيره .. ثم مع هذا فإن الأشياء تتحرك حركتها الطبيعية المقدرة لها .. وهى حركات قد تتفق بعضها مع حركات الإنسان ، وقد لا تتفق أو ما أكثر ما لا يتفق ، وما أقل ما يتفق .

وهنا نستطيع أن نحدد مكان الإنسان من القدر .. ونتعرف إلى المجال الذى يعمل فيه كل منهما .. الإنسان والقدر ..

فالقدر هو « دولاب » تتحرك كل أجزائه حسب القوى التى أودعها الخالق جل وعلا في كل موجود . وكل موجود يتحرك حركته في الاتجاه ، وفي المدى المقدور له .. تماماً كما يرى ذلك في « دولاب » بخارى أو كهربائى يدور بجميع قطعه وأجزائه . ثم إن جميع هذه الأجزاء ونظك القطع مع اختلاف حركاتها تحقق آخر الأمر غاية واحدة وتعمل جميعها لهدف واحد ، وقد اتسقت أجزاؤها ، وتجاوبت اتجاهاتها . فلا يرى الرأى منها إلا حركة واحدة ، وإلا اتجاهها واحداً .. هكذا يرى المهندس الميكانيكى ، أو الكهربائى حركات الجهاز الذى يقوم عليه ، ويديره ، إنه يعرف وضع كل قطعة منه ، كما يعرف وظيفتها ودورها الذى تؤديه .. أما من ينظر إلى مثل هذا الجهاز بغير علم فلا يرى فيه إلا عوالم صاخبة مضطربة يضرب بعضها وجه بعض ، وذلك هو الوجود كما ننظر نحن إليه ، فلا نرى فيه — لعلنا القاصر ، أو لجهلنا المطبق — إلا فوضى ، وإلا اضطراباً ، وإلا تخالفاً وعناداً بين كل موجود وموجود ، بل في كل موجود .. أما الصانع القدير ، فقد أخرج هذا الوجود على هذا التصميم المحكم الذى يمسك النظام والاعتدال ، والتناسق ، والتناغم ، والتجاوب بكل ذرة من ذراته .. « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت .. فارجع البصر هل ترى من فطور .. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »

هذا ، والملاحظ - فيما نعلم - أن جميع المخلوقات التي تساكنتنا في هذا السكوكب الأرضي مستسلمة لقدرها استسلام الآلة السليمة ليد صانعها الماهر الحكيم ، أشبه بالأعضاء في الجسد الصحيح المعافى ، تؤدي وظيفتها في انسجام مع بقية الأعضاء دون إرادة أو شعور .

ذلك شأن الكائنات التي تساكنتنا على هذه الأرض ، متحركها وساكنها ، أحيائها وجماداتها .

أما الإنسان فشأنه غير هذا الشأن . فهو وحده - من بين هذه الموجودات - هو الذي يتحرك ويعمل ، وقد صحبه في هذا العمل وتلك الحركة ، شعور وإرادة ، حتى لسكان أعماله وحركاته ولبيده شعوره وإرادته . وعن هذا الشعور وتلك الإرادة يبدو الإنسان وكأنه عالم وحده ، منفصل عن هذا العالم ، مستقل بوجوده ، وبحركاته وأعماله . . ولوفقد الإنسان هذا الشعور لسكان شأنه شأن سائر الموجودات في الخضوع الآلى ، والاستسلام المطلق ، والاندماج الظاهر والباطن في الحركة العامة للوجود .

ونحن ، وإن كنا قد جعلنا الإنسان وحده بين الكائنات في العالم الأرضي هو الذي له فلك خاص ، أو دولا ب خاص بدوره إزاء الدورة العامة للقدر . فذلك لأننا لا نعرف - في مدى علمنا - غير الإنسان كائنا آخر له إرادة ومشئته يملك بهما أن يتحرك كيف يشاء ، دون أن تخرج به مشيئته تلك عن الاتجاه العام الذي تأخذه حركة القدر . فالإنسان في ظاهره متحرك بإرادته ومشئته ، ولكنه في واقع الأمر متحرك بمقتضى النظام العام الذي يتحرك به دولا ب الوجود كله .

انظر ..

لقد كان موسى يسير في اتجاهه الإنساني ..

وكان العبد الصالح يسير في اتجاه الدولا ب القدرى .

وكل ما في الأمر أن الحركة القدرية . في هذه المرحلة القصيرة التي صحب

فيها صاحبه - قد وجدت في العبد الصالح مفسراً يفسرها لموسى ، ويكشف له عن حكمة هذه القعلات التي بدت متناقضة لعينيه ، ولولا هذا لظلت في عيني موسى ، وفي تفكيره قدراً لا يدري له متأولاً .. تماماً كما يقع لعيني الواحد منا كل يوم مئات من الأحداث ، في نفسه وفي غيره ، دون أن يعرف وجه الحكمة فيها ، ولو أننا وجدنا مثل هذا العبد الصالح ليكشف لنا ما وراء هذه الأحداث لما أصابنا هم ولا بقنا على قلق لما وقع أو يتوقع من سوء ، ولبدت لنا هذه الأحداث آخذة أتم وضع وأصلحه لها ، ولنا ، ولنظام الوجود كله .

وإذن فالعلماء الماديون الذين ينكرون القدر ، هم محقون ومبطلون في آن.

هم محقون لأن كل ما يمكن أن ينسب إلى القدر ويضاف إليه ليس شيئاً خارجاً على سنن الكون ، ولا مطلقاً من العلل والأسباب التي تحكم الوجود وتمسك بكل موجود .. وغاية ما في الأمر أن هذه العلل ، وتلك الأسباب مطوية عنا ، بعيدة عن واقع علمنا .. وأنها لو انكشفت لنا لما كان فيها إلا ما رآه في كل أمر نعلمه ، ونعلم العلل والأسباب المتحركة فيه .

وهم مبطلون لأن العلم الذي في أيديهم ، والذي يستطيعون به النظر في الوجود علم محدود لا يحمل من الطاقات الضوئية إلا شعاعات باهتة متكررة لا تنفذ إلى أعماق الوجود ، ولا تكشف إلا بعض ما يظهر على حافته وحواشيه وعلى هذا ، فإنه ستظل موجودات الوجود كلها - فيما عدا هذه القشور منها - بعيدة عن متناول العلم ، مجهولة الأسباب والعلل .. وهي التي تطلع علينا حين تطلع قدراً مقدوراً ، لانعرف لها تأويلاً ولا ندري لها تفسيراً .

* * *

والقصص القرآني يقف من القدر موقفاً محايداً .. فيدع الأمور تجري على طبيعتها التي اعتاد الناس أن يروها عليها .. إلا أن تكون الحياة في مواجهة معجزة من المعجزات التي يجريها الله سبحانه وتعالى على يد رسله .. أما في غير هذا الموقف فكل شيء يسير على ما ألوف الحياة التي يحياها الناس بخيرها وشرها .

ففي قصة موسى مثلاً : نرى هذا الصراع الإنساني يسير في اتجاه الحياة ، وحسب تقدير الأشخاص بينما يسير القدر في طريقه ، بالغاً غايته ، دون أن ينصرف يمنة أو يسرة بتلك الحركات التي تدب على الأرض .. تماماً كما تتحرك الأرض وتدور حول نفسها من المشرق إلى المغرب من غير أن يتأثر دورانها بحركات الكائنات التي عليها ، سواء ما كان منها يتحرك حركة موافقة لحركتها أو مخالفة لها .

فإخوة يوسف يدبرون أمراً ، ويحكون له الأحداث على ما دبروا وقدروا .. ولكن القدر يعضى في حركته .. وإذا يوسف المقدور له - في تقديرهم - بل وفي تقديره هو ، وتقدير من شاهدوا الأحداث المسككة به أن يهلك في الجب ، أو يموت في السجن ، أو يفرق في الإغراء ، أو يضل في متاهات الحياة - إذا به يصبح صاحب أمر ونهى ، وذا دولة وسلطان .. ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يصير الأمر بإخوته إلى أن يلقوا بين يديه ، باسطين وجه الضراعة والرجاء والمغفرة !.

وموسى .. تلقى به أمه في اليم ، وولق به اليم بين يدي عدوه الذي كان يطلب دمه ، والذي ألقى به في اليم فراراً من هذا البلاء الواقع ، إلى هذا البلاء المتوقع - موسى هذا يستقبل البلاء كما يستقبله الناس ، ويعيش فيه هو ومن حوله أياماً وسنين .. ثم إذا هو الذي يذل فرعون ، ثم يسوقه إلى الموت غرقاً !..

إن القدر في القصص القرآني - كما هو في مفهوم الشريعة الإسلامية - ليس له دور ظاهر في مسرح الأحداث .. سواء في ذلك عند المؤمنين به والمنكرين له .

فالأحداث التي يضمها القصص القرآني تجري في محيط الأسباب والمسببات على نحو ما يألّف الناس ، وما يقدرّون .. دون أن تخرج الأشياء عن هذا المدار الذي يربط بين أسبابها ومسبباتها ، اللهم إلا أن يكون الناس في مواجهة معجزة متحدية - كما أضربنا إلى ذلك من قبل - فإنهم إذ ذاك

يكونون قد هبوا أنفسهم لتلقى انقلاب عظيم ، لا يجحدون له تأويل ولا تعليلاً بما بين أيديهم من علم يكشف لهم ما يعرفون من علل ومعلولات وأسباب ومسببات وبهذا يخضمون ويستسلمون استسلام قهر واستخزاء ، لا تسليم إدراك واقتناع .. وفي هذا يقول الله تعالى : « إن نشأ نزل عليهم من السماء آية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

ولكن شتان بين إيمان المؤمنين بالقدر ، ونكران المنكرين له ، بعد أن تنجلي الأحداث عن نتائجها المقدورة لها .

إن المؤمنين بالقدر يستقبلون نتائج الأحداث أياً كانت ، في رضى واطمئنان .. إذ هم مؤمنون بأن ما وقع إنما هو بقضاء الله وقدره ، وأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . فإن كان خيراً حمدوا الله وشكروا له ، وإن كان شراً صبروا لحكم الله ، ورضوا بقضائه .

ونجد أمثلة هذا كثيرة مشبوبة في القصص القرآني ، في كل موقف ينجلي عن نعمة أو نقمة ، وينكشف عن خير أو شر .

ففي قصة يوسف مثلاً .. يذكر يوسف لصاحبي السجن ما أنعم الله به عليه من الإيمان والعلم والنبوة المتوارثة في بيته فيقول : « وانبئت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

ويعقوب حين يحبيته أبنأؤه بهذا الخبر المزيج عن يوسف ، وأنه قد أكله الذئب .. فيقول : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل .. » . وحين يحبيته أبنأؤه بعد هذا بفقد أخيهما لأبيهم عند ملك مصر .. بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً .. إن النعمة والنصر ، والخير .. لا يدخل منها على قلب المؤمن بالقدر زهو ولا خيلاء .. لأنها من عند الله .

وإن البلاء ، والشدة ، والضرر .. لا ينال منها من قلب المؤمن بالقدر

يأس ولا قنوط من روح الله: « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ». ..
الكافرون بالله ، وبما قدر الله .

والقدر - بهذا المفهوم - لا يخلى المؤمن به من مسؤولياته إزاء الحياة .
وإزاء التكاليف المنوطة به فيها .. فهو مطالب بأن يجهد جهده ، وأن يبلى
بلاؤه في كل أمر يعرض له ، وأن يلقيه بكل حوله وحيلته ، وأن يحمى إليه
بعله وأسبابه التي يراها ويقدرها .. فإن هو فرط أن قصر ، كان ملوماً ،
وكان أهلاً للجزاء الذي يناسب تعريضه وتقصيره ..

فليس إيمان المؤمن بأنه سائر آخر الأمر إلى المصير الذي تؤدي به إليه
الحركة العامة للوجود ، دون ، أن يؤثر تقديره وتديره وعمله أى تأثير في
هذا المصير - ليس هذا الإيمان بالذي يخلى المؤمن من المسؤوليات المنوطة
به .. فهو مطالب بأن يقدر ، ويفكر ، ويدبر ، ويعمل بالقدر الذي يسعفه
به تفكيره ، ويحتمله جهده .. وهذا - على الأقل - هو الذي يعفيه من
المسئولية إزاء عقله وضميره ..

ولقد ذهب الإسلام في هذا المجال - إلى أكثر من هذا المدى في أخذ
الإنسان بعلى الأمور وأسبابها ، وفي احتمال تبعاتها .. حتى مع رسله الذين
تظاهروا بالمعجزات ، وتقوم إلى جانبهم قوى غيبية تدمم بما وعدوا من المعصية
والنصر .

فلقد كان أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس عملاً في هذه
الحياة ، وأكثرهم حملاً لأعبائها ، وتلقياً لمساءاتها ، واحتمالاً لشدائدها . فلقد
كان الواحد منهم يقوم وحيداً في وجه الحياة وقد طمست معالمها الضلالات
والسفاهات ، وملك زمامها الضلال والسفهاء ، فيؤذن في هذا الركب المنحدر
في قوة إلى مهاوى الهلاك : أن قفوا .. وأن عودوا أدر اجمكم إلى ما أدلكم عليه
من مواطن الحق والخير .. فلا يسمع إلا تحميقه ، وتطاولوا عليه ، ولا يستقبل
منهم إلا الكيد والإضر والأذى ، في ألوان متعددة ، وصور شتى .

ومع كل هذا فقد كان رسل الله دائماً في الميدان .. ميدان المعركة ،

يعملون بكل قوة ، ويحاربون بكل سلاح من أسلحة الحق ، آخذين بكل سبب من أسباب النجاح والفقر .. لا يلقام أبداً على طريق الجهاد والكفاح هذا الصوت المنكر الذي يلبس الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .. ذلك الصوت الذي يهتف بالضعفاء : أن دعوا الأمور تجري في أعينها ، وأن أتركوا ما أنتم فيه من جهاد ومجاهدة ، فما وراء ذلك إلا ما قدر الله ، وما أراد الله !

ونعم .. وإنها لكلمة حق أريد باطل ! .

فما وراء ما نعمل ، وما نبذل من جهد ، وما نبلى من بلاء إلا ما قدر الله وما أراد الله .

ولسكن من لنا بعلم ما قدر الله وما أراد الله قبل أن يقع هذا الذي قدره الله وأراده ؟ .

أنقف هكذا بلا حراك .. فلا تسكلم كلمة ، ولا نخطو خطوة ، ولا نتحقق فكرة .. انتظاراً لما قدر الله وأراد الله ؟ إن ذلك تعطيل للقوى التي أمدنا الله بها ، وإهدار للعقل الذي وهبنا الواهب إياه ، بل إن ذلك ليضع الإنسان في مرتبة الجماد الذي لا يتحرك ، بل إن الجمادات نفسها تتصادم ، وتتحرك ، وتتغير أوضاعها ومعالمها .. ومن يدري ؟ فلعلها تحوى في كيانها إرادة ، وعقلاً ! .

أفيكون الإنسان ، وهو سيد هذا الكوكب الأرضي ، في مرتبة دون الجماد ؟ .

إن كل كائن حي .. يتحرك الحركة أو الحركات التي تبلغ به الغايات المقدورة له ..

فالبدرة في الأرض تنفعل بكل كيانها لتصدع وجه الأرض حتى ترى النور ، ثم تثبت جذورها وتمد أصولها وفروعها ، حتى تكون شجرة مزهرة مشمرة .

والحيوانات كلها تغدو وتروح ، وتعمل وتناضل ، وتدافع وتقاتل ، دون أن تسكن هذا السكون الهامد ، الذى تدمو إليه هذه الدعوة اللثيمة ، التى تتمسح بالقدر ، فراراً من مسئوليات الحياة ، وضعفاً وخوراً عن حمل أمانة الانسان ، كإنسان عاقل ، مرید ١ .

فإلى اليوم الذى يستطيع فيه الإنسان كشف كل ما فى هذا الوجود من علل وأسباب ، وربط هذه العلل والأسباب فى سلسلة الأحداث صغيرها وكبيرها ، فى ماضى الزمن ، وحاضره ، ومستقبله - إلى هذا اليوم - وهيهات أن يكون - ينبغى أن نعمل وأن نعمل ، فى كل مجال ، وفى كل اتجاه ، بما يتسع له علمنا وتقديرنا ، دون أن يكون فى ذلك مصادمة للقدر ، أو اعتراض عليه ، أو إنكاره .. فالقدر ماض فى طريقه ، ونحن ماضون فى طريقنا .. التى هى طريق القدر الذى لانراه ..

كان ابن الرومى الشاعر العباسى المعروف ١ من المتشائمين الذى لا يتوقعون من الحياة خيراً .. وكانت تتمثل له مصارعة فى كل يوم مرات .. فى عصفة ريح ، أو نعبة غراب أو صياح ديك ، أو وجه إنسان .. ومع هذا فقد كان يلتق بدلوه فى الحياة ، بيد مرتعشة وقلب مضطرب منخوب الآن هذه الحركة على ما بها خير من السكون .. لأن السكون لا يجيئ بشئ .. ١

ولقد كانت فكرة القدر هذه تنازعه ، ولعله ركن إليها فترة من حياته ، ولسكنه وجدها ممثلة لوجوده ، قاضية عليه بالموت قبل أن يجيئه أجله .. فكان يضرب فى الحياة ضربات تدل على أنه حى فى الأحياء .. وهى ضربات لا يرجو من ورائها خيراً ، بل ربما كان يقدر فى أعقابها العطب والهلاك .. وهل يملك الإنسان الذى غرقت به السفينة فى وسط المحيط وهو مستيقن أنه هالك لا محالة - هل يملك إلا أن يضرب يديه ورجليه ، وأن يقاوم بكل كيانه حتى تحمد أنفاسه ؟ إنه ليس الإنسان وحده ، بل إن ذلك طبيعة قائمة فى كل حى ..

ولابأس من أن نمرض هنا صورة من هذه المشاعر المتوترة التي كان
يعانيها ابن الرومي في موقفه من الحياة ، وتردده بين الإقدام والإحجام ، في
خوض معاركها .. يقول ابن الرومي :

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى إلى وأغراني بترك المطالب
فقدمت رجلا رغبة في رغبة وأخرت أخرى رهبة للمطالب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايقي قبل مذهبي؟ ومن أين والغايات بعد المذاهب؟

وهذا البيت الأخير لابن الرومي هو الصرخة المنطلقة من صدر الانسانية
كلها ، في مواجهة الحياة والقدر معاً :

ألا من يريني غايقي قبل مذهبي؟ ومن أين والغايات بعد المذاهب؟
هذه هي المشكلة !!

فلو رأى الانسان الغايات قبل مذهبه إليها لما ذهب !
ولم يذهب ؟ وهي صائرة إليه إن لم يصر هو إليها !
أما والغايات إنما تجيء بعد المذاهب ، ووجود الأمور إنما تنكشف بعد
معالجتها ، فذلك هو الخيط الذي يشد الناس إلى غايتهم ، ويسوقهم إلى قدرهم
المقدور .

انظر !

في نظرة الاسلام إلى القدر تلك النظرة التي يبدو منها غائباً كحاضر ،
وحاضراً كغائب ، في هذه النظرة يقرم القدر في الناس سلطاناً رحيماً ، فيفيثون
إلى ظله الظليل إذا أضناهم السير ، ولفحمهم الهجير !

فالقدر في التفكير الإسلامي لا يلتقي به المسلم إلا عند آخر المطاف من
سعيه الذي يسعى ، وعمله الذي يعمل !

وفى هذا اللقاء يلتقى الإنسان بوجوده كله ، وبما أصاب أو أصيب به فى ساحة القدر ، فإن كان قد أصاب خيراً لم يقل قوله قارون من قبل . « إنما أوتيته على علم عندى » بل قال قول المؤمنين الشاكين . . كما قال يوسف لصاحبه سجنه : « لا يأتيك طعام ترزقانه إلا نبأناكماً بتأويله ، قبل أن يأتيكاً ذلك مما علمنى ربى ^(١) » وقوله لهما أيضاً : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس » .

وإن أصابته مصيبة قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . . أو قال : « صبر جميل » .

أما غير المؤمن فإنه لا يلتقى بهذا الوجه الكريم أبداً ، ولا يصفح هذه اليد الرحيمة فى سراء أو ضراء ، إن أصاب خيراً أثر وبطر ، وطنى وبغى : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا ، وقال : لأوتين مالا وولداً ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً » . . وإن أصابته مصيبة احترق فى نارها كذاً وحسرة ، دون أن يجد لمصيبته غزاء من إيمان ، أو مواساة من قدر .

فى غزوة « أحد » أصيب المسلمون بامتحان من الله ، فاستشهد منهم سبعون شهيداً . . وكان فى هذا مقولات للمنافقين - كعبد الله بن أبى بن سلول ، ومن انضوى تحت لوائه ، وكانوا قد خرجوا مع المسلمين ، ثم اتخذوا عنهم وفى هذه الواقعة يقول الله تعالى : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأنابكم غمماً بغم ، لسيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمناً ناعساً ، يغمى طائفة منهم » .

ثم يكشف الله سبحانه عن نفسية المنافقين : « وطائفة قد أهملهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية . . يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ »

قل : إن الأمر كله لله .. يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك .. يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا .

ويرد القرآن على هذا القول المنكر : « قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فهذا هو القدر بسلطانه ، قد ظهر مستعلنًا في هؤلاء القتلى الذين استشهدوا في تلك المعركة .. إنهم يساقون بسلطان القدر إلى قدرهم ، وإلى حيث لقوا مصارعهم .. « لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .. أى لو لم تكن حرب ، أو لو لم تدعوا إلى هذه الحرب ، ولم تخرجوا إليها لخرج إليها هؤلاء الذين كتب عليهم القتل ، ولا ضجعوا ضجعتهم تلك التى ترونهم عليها في ساحة المعركة .. إنه القدر الذى لا يغالب .

ثم يعزى الله المؤمنين بما أصابهم في شهدائهم هؤلاء : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا ، وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير (١) » .

و « لو » هذه ، هى التى تدعى قلوب الذين لا يعرفون القدر ولا يتعاملون معه في أعقاب الشدائد والملمات ، وهى التى تشكك جراحهم كلما صمات يد الزمن عن التثامها .

ومن هنا كانت كلمة « لو » من الكلمات التى أنكرها الإسلام على المؤمنين أن يذكروها في معرض الندم على ما فات ، أو الأمل في المرتقب ، فيقول النبي الكريم فيما رواه مسلم عن أبى هريرة : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير .. احرص على ما ينفعك ، واستمع بالله ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولسكن قل قدر الله وما شاء الله فعل ،

فإن لو تفتح عمل الشيطان .. وعمل الشيطان الذى تفتح « لو » هو السخط على الأقدار ، وعدم الرضا بما قدر الله ، واليأس من رحمته .

* * *

وهنا أمر يحسن أن نقف عنده ونلتفت إليه لفتة ، وهو أن الرضا الذى يستقبل به المؤمن ما يقع من مقدرات القدر — هذا الرضا ليس من قهر وإلزام ، وإنما هو من إرادة واعية مدبرة مقدره ، ذلك أنه ليس من الدين ، ولا فى الدين — أعنى الإسلام — ما يحول بين الإنسان وبين حقه الطبيعى فى معالجة الواقع ، وفى محاولة تغييره بكل ما يملك من وسائل كريمة سليمة .

وأحسب أن هذه المأثورة الإسلامية : « لو اطعتم الغيب لاخرتم الواقع » قد فهمت فى كثير من الأحيان فهماً غير سليم ، فهى ليست دعوة استسلام ذليل ، ولا صفة رضى مكبوح ، وإنما هى كلمة عزاء ، ولمسة تسرية وتطبيب ، تذكر حين تكون المصيبة ، وحين يقع الخطب ، فتذكر برحمة الله وبفضله ، وبحكمته وتقديره وقدره ، فتتقئ النفس إلى الوداعة والسكون ، ويسكن القلب إلى الطمأنينة والرضا ، وعندها يجد المرء عقله ، وعزمه ، ووجوده ، فيواجه المصيبة ، ويلقى الخطب بما فى وسعه من حول وحيلة .. ولربما وجد لهذا الضيق فرجاً ، ولهذا الهم مخرجاً .. وكان من الممكن لو لم يتلق هذا العزاء ، ولو لم يستقبل هذه اللمسة — أن تحطمه المصيبة ، وأن يدمره الخطب فلا تقوم له قائمة بعد يومه هذا .

نقول : إن الرضا بالواقع البغيض السكريه ليس فى الإسلام ، ولا من الإسلام .. لأن ذلك معناه إهدار لعقل الإنسان أن يفكر ، وتعطيل لإرادته أن تعمل ، ووقوف بالحياة أن تتحرك ، بل وتمسكين للشر أن يستشري ، واعتراف للباطل أن يقيم حيث يشاء آمناً مطمئناً ، لا يلقاه أحد بإنكار ، ولا يزججه منكر بسوء .

وكلا .. فإن هذا غير سبيل الأحياء فى الحياة ، كما هو غير سبيل الدين والمتدينين .

وفي القصص القرآني هدى راشد قويم في هذا الموقف الذي لبس فيه كثير من المتدينين مسوح الذلة والمهانة ، فذلوا وهانوا ، وبشروا في الناس بالذلة والهوان ، حين ألقوا إليهم بمثل هذه القولة : « لو اطلعتم الغيب لا اخترتم الواقع » كلما غلت في صدورهم مراحل الثورة على الظلم ، أوهمت في أنفسهم بوادر الثورة على الظالمين والمستبدين ١ .

وتاريخ الإسلام يحكي فصولا طويلة مثل فيها هذا الدور الغبي الدخيل على الإسلام ، فقتل في الناس العزمات الصادقة ، وأطلق من صدورهم التزامات المتوئبة لملافة البغي ، وردع الباغين .. وما استطل حكم أمراء السوء ، ولا امتد سلطان الملوك والسلاطين الباغين المفسدين ، إلا حين شغل الناس همهم بالالتفات إلى هذه المأثورة وأمثالها .. بعد عرضها هذا العرض المقلوب ؟

ولقد كاد ينسينا هذا الاستطراد أن نعد البصر إلى القصص القرآني ، فنأخذ منه الشاهد المبين ، لهذا الموقف ، الذي ينبغي للمسلم أن يقفه إزاء المقدور ، بعد أن يقع .. فنقول :

إن هذا القصص كله هو في الحقيقة ثورة على الواقع بعد أن وقع ١ .
فما جاءت دعوات الرسل إلا في أعقاب أوبئة عقلية ، ونفسية ، واجتماعية .. قد أصابت الناس في عقولهم فأظلمت ، واشتملت على أنفسهم ففسدت ، وسرت في مجتمعاتهم فاستوحشت .. فكان على رسل الله أن يعملوا جاهدين على تغيير هذه الأوضاع المستقرة ، وإخراج الناس من عقولهم تلك الظلمة ، ومن نفوسهم الفاسدة ، ومن طبائعهم المتوحشة ، وإلباسهم لباس الإنسانية العاقلة الرشيدة الكريمة .

إن مهمة الرسول — أي رسول من رسل الله — هي التغيير الذي يكاد يكون تاماً شاملاً لهذه المقدورات ، التي استسلم لها الناس ، وطاشوا فيها ، ولو كان من شأن الدين أن يدعو الناس إلى الاستسلام للحياة وأخذها كما هي ، أو كما يجدها الناس عليها — لما كان للرسل مقام بين الناس ، ولما

كانت لهم رسالة فيهم ، ولا دعوة يدعونهم إليها .. إذ الدين في صميمه هو دعوة جادة إلى تغيير وجه الحياة ، ذلك الوجه القبيح يواجهه الرسول ، ويمجد الناس عليه ..

ولا نريد هنا أن نذكر لهذا شواهد من القصص القرآني .. فالقصص القرآني كله - كما قلنا - شاهد له ، يحدث به .

وإنما الذي نريد أن ننبه إليه هنا هو أن هذا التغيير الذي كان يقوم له رسل الله ، ويدعون إليه ، ويقطعون حياتهم في جهاد ونضال من أجله - كثيراً ما يفوتهم إدراكه ، ولا يظفرون بما يريدون منه . ولكن هذا لا يمنع الرسل من أداء رسالتهم إلى أقوامهم . ودعوتهم إلى الله بكل ما استطاعوا من صبر واحتمال على هذا المكروه الذي يلقيه من أقوامهم .. وذلك لأمرين : أولهما إقامة الحجة على الناس ، وأخذ الظالمين منهم بالعذاب الأليم ، وثانيهما : إتاحة الفرصة للرسول ليجاهد هذا الجهاد العظيم في سبيل الله ، فيرفع الله بذلك درجته عنده .

فقوم نوح - مثلاً - جاءهم نوح يدعوم إلى أن يغيروا ما بأنفسهم من كفر وضلال ، وأن يخلصوا قلوبهم ووجوههم لله وحده .. وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يغدو عليهم ويروح بالآيات والعظات ، فما استجابوا له ، ولا استقاموا على الطريق الذي يدعوم إليه .. حتى لقد ضجر ومل ، وجأر إلى ربه طالباً العون والنجدة .

« قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا

كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، والله أبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ، قال نوح رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا : لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً ، ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً . مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً (١) .

حتى إذا بلغ الكتاب أجله هؤلاء المناكيد ، أنام الله من حيث لا يحتسبون : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك ، وكلها مر عليه ملائمة من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا مني ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل علينا عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل » (٢) .

وهكذا أخذهم الطوفان ، وهم ظالمون .. « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخلاء أليم شديد » (٣) .

(١) سورة نوح : ٥ - ٢٥ .

(٢) سورة هود : ٣٦ - ٤٠ .

(٣) سورة هود : ١٠٢ .

الباب السارس

الصراع فى القصص القرآنى

الصراع وواقع الحياة :

الحركة هى مبعث القوة فى الوجود ، وهى « المولد الديناميكي » لسكل الطاقات العاملة فى مسرح الحياة .. وهى سر هذا التفاعل المتصل بين الكائنات جميعها .. من الذرة إلى الجبل ، ومن قطرة الماء إلى المحيط العظيم ..

فهذه الجدة التى تلبس الوجود كله حللا مختلفة الأشكال والأصباغ كل آن ، إنما هى من نسيج الحركة ومن صنع يديها .. وأنه لولا هذه الحركة الدائبة الشاملة ، لجمد الوجود ، وأكله الصدا والعفن ، كما يأكل الصدا الحديد ، وكما يتهرأ الجسد ويتحلل ، حين تزايه الحياة ، فيبرد ويسكن .

والحركة فى مظهرها صراع عنيف بين الموجودات .. كل موجود يريد أن يحقق ذاته على نحو ما .. فبعض الموجودات يكون تحقيق ذاتها بإفناء غيرها فيها ، على حين بعضها الآخر يكون تحقيق ذاتها بالقضاء فى غيرها .. وعلى حين يكون تحقيق الذات لبعض ثالث بالاجتماع مع أشباهها .. وهكذا تتعدد صور الصراع إلى أعداد لا حصر لها ، فيتولد منها هذا العدد الذى لا يحصى ولا يحصر من الموجودات على اختلاف أنماطها ، وأجناسها ، والتى هى كل هذه الموجودات التى يعمر بها الوجود ، وتزخر بها الحياة .. إذ ليس هناك موجود إلا وهو نتاج صراع . على نحو ما من أنحاء الصراع .

الصراع في القصص القرآني :

والقصص القرآني وإن يكن عرضاً لأحداث مضت . إلا أنه لا يعرض هذه الأحداث بمجرد عرض تاريخي لإفادة العلم بها ، أو لإظهار أن أخباره التي يحكيها منزلة من جهة طاملة بكل شيء ، محيطة بكل شيء ، وإنما يعني هذا القصص أولاً وبالذات بما في هذه الأحداث من عظات وعبر ، فيها تذكرة وموعظة لمن يقف عندها ويستمتع إليها .

ولهذا فإن الأحداث التي يقوم عليها بناء القصة في القرآن أحداث تتصارع فيها قوى متعادبة متعاندّة ، يحاول كل منها أن يقضى على خصمه ، ليخلى له وجه الحياة .

وهذا الصراع الذي يحدث في أحداث القصة القرآنية إنما يأخذ وجهاً واحداً ، فهو الصراع بين الخير والشر باعتبارها ظاهرتين متحكمتين في الحياة ، وفيهما يتقلب الناس ، وبهما يتعاملون . ومن هذا الصراع يحدث بين الخير والشر تتمثل العبر والعظات ، لمن نظر بعين بصيرة ، وقلب سليم .

والإسلام في نظريته للخير والشر لا ينكر واقع الحياة ، ولا يجاوز الحدود التي تجري عليها سننها ، فهو يعترف بما فيها من خير وشر ، كما يعترف بأن الإنسان في معرض الخير والشر .. وأن في كيانه من القوى العاقلة ما يفرق به بينهما ، ويميز به الخبيث من الطيب .

وفي مشاهد الصراع التي يعرضها القصص القرآني تبدو الحياة كلها بخيرها وشرها ، ويتمثل فيها الناس جميعاً بأخيارهم وأشرارهم ، على اختلاف ما ركب فيهم من طباع ، وما أشربوا في قلوبهم وعقولهم من نزعات وأهواء .

والخير في نظر الإسلام حق ، والشر باطل .. أو بمعنى آخر .. أن الخير يقوم على دعائم من الحق ويستند على أسس وطيدة منه ، وأن الشر ينبت من حبات الباطل ، ويعتدي مما تمتصه من زور وبهتان ..

ولهذا ، فإن العاقبة دائماً للخير والحق ، وأن الخزي والخسران للشر وللباطل .. « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .. وقال موسى ماجئتم به السحر ، إن الله سيظهره ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين . « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً »
ويلاحظ هنا أمور :

أولاً : أن الدور الذي كان يؤديه أنصار الحق - قبل الرسالة الإسلامية والبعثة المحمدية - كان دوراً محدوداً لا يتجاوز جهد الرسول وحده .. ذلك الجهد الذي كان يمد دائماً بقوى سماوية منظورة ، يراها الناس رأى العين ، فيما يقع من معجزات ؛ يحجى بها الرسل ابتداء ، أو يقترحها أقوامهم عليهم .

ثانياً : في الرسالة الإسلامية حدث تغير كبير في هذا الصراع وفي القوى المشتبكة فيه .. فكان دور النبي دوراً بارزاً فيه ، لم تظهر فيه قوة مادية ظاهرة تظاهره ، وترد بأس للبطلين عنه . ثم كان دور أتباعه ؛ وحملهم الجهاد في سبيل الله لنصرة الحق ، وإعلاء كلمته ، دوراً إيجابياً واضحاً ، بذلوا له دماءهم وأموالهم ؛ بعد أن أودوا في أهلبيهم وأنفسهم ، وأخرجوا من ديارهم .

ولاشك أن هذا إيدان بيده مرحلة جديدة في حياة الانسانية ، كان على الإنسان فيها أن يحمل عبء الدفاع عن الحق ، وأن يبذل في سبيله من ذات نفسه ما يستطيع .. من مال ، ودم . إذ كان الإنسان قد بلغ في هذه المرحلة من حياته ما يؤهله لأن يكون صاحب رسالة ، يدعو لها ويبشر بها ، ويحتمل الأذى في سبيلها ، ولو لم يسكن ذلك عن دعوة من السماء أو رسالة من رسالاتها .

ولهذا ، فإننا نجد في قصص الأنبياء - بلا استثناء - من نوح إلى عيسى عليهم السلام حيدة مطلقة من أتباعهم في هذا الصراع الذي كان بين الأنبياء وبين أقوامهم ؛ وكان حسب المؤمنين من أتباع الرسل أن يخلصوا بأنفسهم

ولبس عليهم إزاء المعاندين المكابرين من مشونة يحملونها ، فكان الرسول يعضى وحده حاملا رسالة الله بين يديه - وكان كأي صوت آخر ولو خافتا يقوم إلى جانبه ، ويدعو بمنزل دعوته ، كان هذا الصوت حدثاً فريداً يستحق التسجيل والتدوين .. كما ذكر القرآن ذلك عن هذا الرجل الصالح الرشيد حين آمن بدعوة الرسل الذين جاءوا إلى أصحاب القرية ، يدعونهم إلى الله ، فكذبوها وردوها ، فوقف هذا الرجل يدعو قومه ويهتف : أن أجبوا داعي الله : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ، إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزنا بثالث فقالوا : إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين ، قالوا إنا تطيرنا بكم لن منكم لم نجمنكم ولنجمنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم أنن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ، وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » .

هذا ، على حين نجد الجهاد في سبيل الله فريضة على كل مسلم ، كما صرح بذلك القرآن ، في أكثر من آية من آياته .. فيقول سبحانه : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال (١) » .

ويقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون (٢) » .

— نقول : بينما نجد هذا في الدعوة الإسلامية ، إذ لا نجد دعوة من دعوات الرسل السابقين جاءت إلى أتباعها بدعوة عامة شاملة إلى الجهاد الذاتي ، ومقاتلة البغاة والجاحدين ، سواء أكان ذلك تحت قيادة رسلهم ، وفي حال وجودهم ، أم أن ذلك بعد حياة الرسل وتحت قيادة قائد رشيد من القوم .. وحتى في أواخر الدعوات السماوية ، كدعوة موسى .. دعا موسى قومه إلى

أن يدخلوا الأرض المقدسة بعد أن نجاهم الله على يديه من فرعون وما كان يريد بهم ، فأبوا أن يستجيبوا لهذه الدعوة التي تنقذهم من التشريد والضياع في الصحراء .. إنها دعوة لاجهادون من أجلها في سبيل الله ، ولكن يحاربون من أجل أنفسهم ، ومن أجل أن يكون لهم مأوى يأوون إليه كسائر الناس .. فأبوا عليه ذلك ، واقتربوا أن يقوم هو بتحقيق هذه الدعوة التي دعاهم إليها . فإن لم يكن ذلك في مستطاعه فليستعن بربه .

وفي هذا يقول الله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه .. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون .. قال رجال من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى .. إنا لن ندخلها أبداً ما دأبوا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ^(١) . »

إلى هذا الحد كانوا من التخاذل والانحلال عن دعوة الرسول ، حتى ولو كانت لذات أنفسهم ، وخاصة أمرهم .. إنهم يأبون أن يدخلوا مجرد دخول على أعدائهم ، وأن يقفوا لحظة في مواجهة الخطر الذي سيعقبه النصر المحقق الذي وعدهم به موسى ، وهم يعلمون أنه وعد صادق صدق اليقين .

ومرة ثانية ، بعد أن شردوا ومزقوا في الأرض طلبوا إلى نبي لهم أن يختار لهم ملكاً ، يقاتلون تحت إمرته ، ليسترجعوا وجودهم الضائع .. ونبيهم يعرف ما ركب عليه طبيعتهم من التواء وعناد وتخاذل ، فراجعهم في الأمر وكشف لهم عن موقفهم الذي سيقفونه حين يصبح الأمر ملزماً لهم ، فأصروا وأجمعوا أنهم سيلبسون النداء إذا دعوا .

فإذا كان ؟ ...

استمع إلى قول الله تعالى : « ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبي لهم ابث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله .. قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين ^(١) » .

إنهم لا يريدون أن يقدموا أية تضحية من عند أنفسهم في ظل النبوة ، حتى ولو كانت هذه التضحية مطلوبة لنفعهم الذاتي ، وتحرير الشخصى . ولهذا فإنهم كانوا ينظرون إلى الإله المعبود أنه رب الجنود أى أنه الذى يحارب من أجلهم ، ويقتل الناس جميعاً في سبيل الإبقاء عليهم ! إن ربهم هو وحده الذى يلقي أهداهم ، دون أن يكون لهم دور في المعركة !!

وفي الدعوة المسيحية .. لم يكن من بين محاميل الدعوة إليهم أن يحملوا سلاحاً أبداً حتى في مقام الدفاع عن النفس .. إنهم لو دعوا إلى هذا لما استجابوا .. وإنهم لن يرضوا لأنفسهم أن تخرج أو يتحدث في سبيل العقيدة . ولهذا كانت دعوة المسيح إلى أتباعه : « أن من ضربك على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر » .. وبهذا يضمن أن ينجو بنفسه ، حين لا يواجه العدوان بالعدوان ، ولا يقف موقف صدام أبداً ^(٢) .

وهذا - كما قلنا - على خير ما جاءت عليه الدعوة الإسلامية ، التى جعلت الجهاد في سبيل العقيدة والتضحية بالنفس والأهل والولد ، والمال فرضاً على كل مسلم ، في مجال الصراع بين الخير والشر . والحق والباطل .

(١) الآية : ٢٤٦ .

(٢) ولا يرد على هذا بما كان من موقف المسيحية في وجه الاضطهادات الدينية التى صادفتها إبّان عا كم التفتيش وغيرها .. فقد تحولت المسيحية إذ ذاك من عبادة دينية إلى عصبية طائفية ، تتقاتل في سبيل الاحتفاظ بوجودها ، وبما بين يديها من جاه وسلطان .

ما مدلول هذا ؟

ومدلول هذا ، أن العقيدة الإسلامية قد عرضت حقائقها على العقل الإنساني عرضاً كاشفاً ، ودعته إلى استعمال حقه كاملاً في النظر فيها ، ومقابلتها بما في الفطرة الإنسانية من إقبال على المعروف ، وإعراض عن المنكر ، والاحتكام في هذا إلى سنن الحياة ، وما استقر عليه نظام المجتمع الإنساني ، وقامت عليه دعائم السلام والخير ، والأمن ، في الجماعات الإنسانية ، على امتداد الأزمان واختلاف الأمم .

لم يفرض الإسلام عقيدته على الناس عن طريق القهر الذي يجيء من انبهار العقل ودهشه أمام المعجزات المادية القاهرة .. وإنما جاء إلى الناس يحتسكهم إلى عقولهم ، وبأخذ من واقع حياتهم .. يفتنهم منها الطيب ، وينفي عنها الخبيث .

« يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم » .

والدين إذ يدخل في كيان الإنسان عن هذا المدخل اليقظ المدرك للحقيقة العقيدة التي دان بها - يصبح قوة ذات سلطان على الإنسان ، لا يستطيع التخفف منه أو الانخلاع عنه . إنه سلطان قائم على الحب ، والولاء ، والجلال ، والتقدير ، والتقدير .. إنه سلطان أقوى من سلطان الحب الذي يجده الإنسان لولده ، وزوجه ، وماله ، بل ونفسه .. ولهذا كانت دعوة الإسلام إلى أتباعه بالإيتار لهذا الدين على الآباء ، والأبناء ، والأموال ، والأهل ، والعشيرة - كانت هذه الدعوة آخذة الاتجاه الصحيح لتسكن في قلوب المؤمنين ، ولتجد لها قبولاً ، وبها رضى .. إنها تحدث عن دين تلقاه الإنسان باختياره ، واختبره بعقله ، وكون رأيه فيه غيره خاضع لمؤثرات القاهرة ، أو إحالة إلى ما وراء المجهول ..

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم

وأموال اقترفتوها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتي الله بأمره^(١) .
إن الذي يخالط الدين وجوده هذه المخالطة ، ليجد للدين موقفاً في قلبه ،
آثر عنده من ماله وولده ونفسه ! .

ونعود بعد هذا إلى حديثنا عن ذاتية الخير والشر في القصص القرآني ،
من حيث هما قوتان متقاتلتان في هذا القصص ، تتحرك أحداثه في مجالهما ،
وتتجمع وتفرق أشخاصه عليهما ، ومن أجلهما . . فنقول : إن الخير والشر
يعرضان في هذا القصص القرآني ، وفي كل مجال يعرضهما فيه القرآن على أنهما
أمران ذاتيان ، كل منهما له وجوده ، وله مشخصاته ، وله فاعليته في الحياة . .
فالخير له ضوابطه وموازينه ، والشر له ضوابطه وموازينه كذلك . .
ولم ينظر الإسلام إلى الخير والشر نظرة تجريدية فلسفية تخلط بينهما ، وترفع
السدود التي تفصل بين واقعيهما . . بل نظر إليهما الإسلام تلك النظرة التي
ينظر بها إليهما الإنسان ، باعتباره فرداً يعيش لذاته ، وباعتباره إنساناً يعيش
في مجتمع . . فالخير خير حين يعود على الإنسان بمحصل مافيه من نفع ، لذات
نفسه ، وللمجتمع الذي يعيش فيه . أو — على أقل تقدير — هو خير حين
لا يخلص من هذا الخير شيء غير . . والشر ما وقع غير هذا الموضع من ذات
الإنسان ، ومن المجتمع الذي ينضوي إليه .

وهذا التقدير يضع الإسلام كلاماً من الخير والشر بموضعه الذي يتعامل به
الناس ، ويتلاقون عليه في الحياة . . فالشر شر ، والخير خير ، وبينهما أمور
مشتبهة بين وجوه الشر والخير .

والذي يميننا هنا هو هذا الصراع الذي يدور بين الخير والشر في مجال
القصص القرآني :

ويتضح للناس في القصص القرآني من أول الأمر ، أن الصراع بين الخير والشر يدور في مجال واحد ، هو مجال الإيمان والكفر .. ففي هذا المجال تكاد تنحصر تحركات الأحداث في هذا القصص .. والأحداث القليلة التي تخرج من هذا المجال العام ، لا تلبث أن تنعطف عليه ، وتندمج فيه ، وتأخذ الاتجاه الذي يأخذه المجرى العام كله .

فالدعوة إلى التعرف على الله ، والإيمان به وحده ، وخلع المعبودات الزائفة المضلة .. من أشخاص ، وأوتان ، وأبداد وغيرها — هذه الدعوة هي مناط رسالات الرسل ، وهي مركز الثقل فيها .. وفي سبيل هذه الدعوة وقع ما وقع بين الأنبياء وأقوامهم من صراع عقلي ومادى معاً ! إنها الخير في مواجهة الشر .

قصة نوح مثلاً ، وهي أول القصص القرآني من حيث زمانها — يذكرها القرآن في مواضع كثيرة ، وهي في كل موضع تحمل الدعوة إلى عبادة الله وحده .. وفي كل موضع تقابل هذه الدعوة بالتكذيب ، والعناد ، والإصرار على التكذيب والعناد .. فمن ذلك قول الله تعالى في سورة سميت باسم هذا النبي الكريم ، نوح :

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم رسول أمين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون .. قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدني دعائى إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقتكم أطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل

انفسهم مراجا ، والله أبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم
إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ،
قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ،
ومكروا مكراً كباراً ، فانظر كيف جاء نوح إلى قومه من كل سبيل ،
وطلع عليهم من كل جهة يمكن أن يشهد الإنسان فيها وجه الحق ، ويتعرف
عليه ، وينتفع به . لقد دعاهم ليلاً ونهاراً ، سرا وإعلاناً . . يغاديبهم وبرأوحهم
بالدعوة إلى الله ، فلم يزددهم ذلك الحرص إلا فراراً منه ونفرة عنه . . وهو في
دعوته تلك يرفع لأبصارهم المشاهد الدالة على قدرة الله ، ويقم بين أيديهم
الأدلة الناطقة بجلال الله وعظمته ، فعموا عن ذلك « واستغشوا ثيابهم ،
وأصروا واستكبروا استكباراً » .

« وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذون ودا ، ولا سواعا ، ولا يعوف ،
ويعوق ونسرا . . » الأنبياء : ٢٢

ويظل هذا الصراع بين نوح وقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما
يذكر القرآن - هو يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم الإصرار على ما هم عليه من كفر
والحاد ، وهم يلقونه بالكذب والتهديد ، ويبلغ بهم الأمر إلى أن يندروه
ويتوعدهوه بالرجم . . . وقد ذكر القرآن وعيدهم هذا في قوله تعالى : « قالوا
لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » . وإذ بلغ الأمر إلى هذا
المدى ، ولم يكن في القوم خير يرجى ، فقد آذنه الله بالهلاك ، وآذن نوحاً
ومن معه بالنجاة بما يدبرون من كيد ، وما يبيتون من عدوان : « وأوحى
إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبش بما كانوا
يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم
مغرقون » . . . وبصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملائكة من قومه سخروا منه ، قال إن
تسخروا عنا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب
يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل

فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن . وما آمن معه إلا قليل .

وهكذا تنتهى المعركة ، ويسدل الستار على هذا الصراع الذى ينكشف من مصرع الشر وأهله ، وانتصار الخير وأنصاره .. وذلك هو النهاية التى ينتهى إليها كل صراع بين الخير والشر ، وإن طال بينهما أمد الصراع ، وإن كان للشر صولات وجولات . وفى هذا عزاء لأولئك الذين يقومون على دعوات الخير والإصلاح ، ويبشرون فى الناس بها ، فإن ما يصيبهم فى أنفسهم وفى أهلهم من ضرر وأذى فى سبيلها مهما يكن مرأ قاسياً - هو حين محتمل ، حين ينظر إلى العاقبة ، وإلى الثمرات الطيبة التى يجنيها أصحاب هذه الدعوات ، أو تجنيها الإنسانية من بعدهم .

هذا ، وليس فى هذا التدبير الذى جاء به القصص القرآنى من حصر مجال الصراع فيه على وجه واحد من وجوه الخير والشر ، وهو الصراع بين الإيمان والكفر - ليس فى هذا التدبير إغفال للوجوه الأخرى من وجوه الخير والشر ، ذلك أن الإيمان يجمع الخير كله ، كما أن الكفر .. يجمع الشر كله ، فإذا التقى الإيمان والكفر فى مجال الصراع فقد التقى الخير كله بالشر كله .

وإذن فتركيز الدعوة الإسلامية ، وإعمال جميع وسائلها وأساليبها فى تطهير القلوب من الإلحاد والزيف ، وفى تصفية النفوس من الضلال والشرك ، حتى تقوم مغارس الإيمان راسخة فى القلوب ، وضئمة مشرقة فى العقول - هذا التركيز فى الدفاع عن الإيمان ، هو لحساب الخير كله فى جميع أشكاله وألوانه .. فحيث كان الإيمان ، وحيث توثقت عراه ، وثبتت أركانه كان الخير فى كل شيء ، ومن كل شيء إذ كل قول يقوله الإنسان ، أو عمل يعمل به وهو فى صحبة الإيمان ، يكون قولاً مشمراً ، وعملًا مبروراً .. « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ^(١) » .. وليس كذلك الكفر ، فإنه

لا يلد إلا ثمرأ ، ولا يعقب إلا ندامة وحمرة .. « والذين كفروا بربههم
أعمالهم كدراب بقية بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد
الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب » (١) وقال تعالى : « مثل الذين
كفروا بربههم ، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم حاصف لا يقدرّون
مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » (٢) .

* * *

وهذا الصراع المحتدم بين الإيمان والكفر ، الذي تدور معاركه في قوة
وعنف ، والذي يصور القصص القرآني صوراً كثيرة منه ، تكاد تملأ وجه
الحياة ، وتنظم الحياة الإنسانية في أجيالها المتعاقبة — هذا الصراع وإن
ملأ وجه الدنيا غباراً ، وصبغ أديمها دماء ، فإنه لا يذهب بشيء من جمال
الحياة وبهجتها ، ولا ينتقص شيئاً من مجاني زهرها وعمرها .. بل هو في
الواقع مخض لربدها ، وتصفية لدخانها ، واقتلاع لأشواكها ، وغربة لغتها
وغثائها — وفي كل موقف يراد به تنقية الإنسانية من شوائبها ، وصوغها
صياغة جميلة جديدة ، لابد من هذه المعاناة ، التي تشبه معاناة المخاض ،
لاستقبال مولود جديد !!

* * *

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن نظرة الإسلام إلى الحياة نظرة متفائلة ،
تغلب جانب الخير دائماً ، وتجعل له العاقبة في كل حال ..

وهذه الحياة التي يضطرب فيها الناس ليست سجنًا يقضى فيه الإنسان
حياته شقياً معذباً ، ليكفر عن تلك الخطيئة التي وقع فيها الأب الكبير

(١) سورة النور : ٣٩ .

(٢) سورة الرعد : ١٨ .

« آدم » كما تصوّر ذلك بعض الديانات ، وليس الناس في هذه الحياة حشرات قدرة تأكل من الوحل والطين ، كما تذهب إلى هذا بعض المذاهب الفلسفية للشائعة ، وكما تبشر به بعض الدعوات المريضة ، التي تسوق الناس سوقاً إلى اليأس والانتحار !!

إن الحياة — مجرد الحياة — في نظر الإسلام ، نعمة من نعم الخالق العظيم ، وخير موفور من واسع فضله ..

ولهذا كان من حق هذه النعمة — نعمة الحياة — أن يلقاها الإنسان بالشكران لله ، والایمان به .. « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ؟ » (١) .

ولهذا ، كان على الإنسان أن يستقبل الحياة راضياً مستبشراً ، وأن يطلب منها وجه الخير التي تملأ هذا الوجود .. في أرضه وسماؤه ، في ليله ونهاره ، في خيره وشره ..

فليس الشر أبداً حين يستعلى الإنسان عليه ، ويلقاه بتلك الروح القوية المتفائلة ، التي تتفاعل مع الحياة ، ولا تقف منها موقف الحبيسة أو الانعزال .

ومن أجل هذا كانت مواقف القصص القرآني مواجهة لليأس ، متجدية له ، تلقاه بالعزيمة المشدودة إلى الإيمان والصبر ..

في قصة يوسف — مثلاً — نجد النبي الكريم يعقوب يفقد في أحوال غريبة ، وفي عاصفة هوجاء من عواصف الفتنة والحسد بين الأقربين — يفقد فلذة من أفلذات كبده ، بل أعز هذه الفلذات : « يوسف » ! فلا يغلبه هذا

الحزن الذى عصف بقلبه ، على هذا الصبر الذى يملأ كيانه .. فيلقى هذه للصيبة بقوله : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ١

ثم ترميه الأيام رمية ثانية فيفقد فلذة أخرى من أعر فلذات كبده بمد يوسف ، ويكون فقدوها على يد أبنائه الذين أصابوه فى يوسف من قبل ، ومع هذا ، فهو غير يائس من أن تنجلي غواشى هذا الحزن الذى خيم على بيته ، وجثم على صدره ، فيلقى هذا الخبر الحزن الذى جاء به أبنائه عن فقد الابن الآخر - يلقاه بهذا الايمان الوثيق : « فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيك بهم جميعاً » .. ثم لا تقتل الأيام هذا الأمل القائم فى صدره بفقد هذين الابنين ، فيهب بأبنائه ألا يستسلموا لليأس ، وألا يسلموا بفقد أخويهما .. « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله .. إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .. الكافرون بالله ، واليائسون من رحمته .. فما ييأس من روح الله ورحمته إلا من كفر به ، وبما اتصف به - سبحانه - من الرأفة والرحمة .. « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .. « إن الله كان بكم رحيماً » .

ولقد توعد الله الذين ييأسون من رحمته بالعذاب الأليم ، لأن هذا اليأس لا يكون إلا عن كفر ، وليس للكافرين إلا النار ! .

ونود أن ننبه إلى أن الطمع فى رحمة الله ينبغي أن يكون عن إيمان وثيق به ، وعن تسليم مطلق لما قضى به ، مما حسبناه ضراً ومكروهاً .. فقد يكون هذا الضر نفعاً ، ويكون هذا المكروه خيراً .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وعسى أن تسكروها شيئاً ، وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً ، وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون » (١) .

فهذه النظرة إلى قضاء الله فيما نحب أو نكره - تقيعنا دائماً على

حسرات مستقيم ، وتمسك بنا أن نميل إلى أحد جانبي الفرح المبطر ، أو اليأس القتال .. ذلك أننا بهذه النظرة نلقى ما نحب ، فلا نأثر به ولا نبطر .. فقد يكون وراءه ما نكره ، ونلقى ما نكره ، فلا يستبد بنا القلق ، ولا يقتلنا اليأس ؛ فقد يكون وراء هذا المكروه خيراً كثيراً ، والله سبحانه وتعالى يقول : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (١) .

وأمر آخر نود أن ننبه إليه أيضاً ، وهو أن ما يرجى من رحمة الله كما ينبغي ألا يقدر بتقديرنا وبحسابنا ينبغي أيضاً ألا يوقت بتوقيتنا ، فإن ذلك ينافي التسليم المطلق ، الذي هو أحد الركنتين اللذين يقوم عليهما الطمع الحق في رحمة الله ، بعد الإيمان به .

ومع هذا ، فإنه ليس مما يضعف من إيمان المؤمنين بالله ، ولا مما ينقض التسليم المطلق له - أن تحيك في صدور المؤمنين نزعات الضيق ، أو أن تنزع بهم دوافع العجلة ، لما ينتظرون من رحمة الله .. فالإنسان المؤمن هو إنسان أيضاً ، لا يخرج به إيمانه عن الفطرة التي فطره الله عليها .. وقد « خلق الإنسان من عجل » .. فلقد كانت تحيط يرسل الله وأنبيائه ظروف وأحوال تراكم فيها موجات الضيق ، وتتراكب سحب الظلام ، وتبلغ الأمور فوق ما يمكن أن يحتمل المؤمنون الصابرون ، وفي هذا يقول الحق جل وعلا :

« مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ » ، ويكون جواب الحق سبحانه : « ألا إن نصر الله قريب » (٢) .. إنه قريب في تقدير الله سبحانه - يحسب في الوقت الذي هو أنسب وقت له ، وأعدله ، وأكثره خيراً ، وأجدها شعاعاً ..

(١) سورة النساء ١٩

(٢) سورة البقرة : ١١٤

وهكذا تطلع رحمت الله في إبانها ، وتنزل في موافقتها ، لا على حسب ما نحسب ونقدر : « حتى إذا استأنس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » (١) .

• • •

ذلك هو مجال الصراع في القرآن ، وفي القصص القرآني بذوع خاص .
فأين مكان الإنسان من هذا الصراع ؟
وما متجهه فيه ؟

وما النهاية التي ينتهي بها المطاف معه ؟
ذلك ما نريد أن نعرض له فيما يلي :

الإنسان وهذا الصراع :

يمثل الإنسان الدور الأول في هذا الصراع الذي تشهده الحياة ، فهو مركز الدائرة التي تدور أحداث الحياة فيها ، أو قل هو « المولد » السكبري لطافات هذه الصراعات المختلفة ، في كل معترك .. فالإنسان في حقيقته هو الثمرة الناضجة من هذا الصراع القائم في الحياة ، بل إنه ماجاء إلى هذه الحياة إلا بعد أن قطع مرحلة طويلة من الصراع العنيف المرير ، حتى اكتسب هذه الصورة التي استأهل بها أن يكون سيد هذا الكوكب الأرضي ، وخليفة الله فيه .

ويمكن أن نشهد في قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » ملامح واضحة ، تنبئ عن مدى هذه المعاناة التي قاساها الإنسان ، وهذا الطريق الشاق العنيف ، الذي ركب ، حتى صار ذلك الكائن المعروف بالإنسان !

ولنا أن نفهم من هذا أن الجهد الذي يبذله الكائن ليكتسب كينونته - هذا الجهد هو الذي يحدد درجته ومنزلته بين الكائنات .

وأن قيمة الكائن وقدره بين الكائنات يتناسب تناسباً طردياً مع الجهد الذى تشكلت به صورته ، إذ كلما كثرت مجالات الصراع ، وتعددت صورته فى خلق الكائن كلما كان حظّه من الكمال أوفر ، وأوفى !

وفى علم الحياة مقررات تشهد لهذا القول شهادة قاطعة ، لا تقبل جدلاً ، لأنها قائمة على شهادة التجربة المحسوسة ، والواقع الملموس .

والإنسان حين يخرج إلى الحياة يبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع ، حيث يلقاها بهذا السكيان الذى استكمل وجوده قبل أن يلتقى بها .

وبهذا السكيان يشتبك الإنسان فى صراع متصل مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الطبيعة ! .

فهذه ثلاثة ميادين يعمل فيها الإنسان جميعاً على مدى العمر . . .

وهذه الميادين الثلاثة ، لا يكسب الإنسان فيها نصراً إلا إذا لقي محاربيه فيها ، مزوداً بالسلاح والعتاد ، المناسب لكل ميدان . .

وكما يستعد المحارب للحرب ، ويعرن على القتال ، ويدرب على الطعن والضرب ، والكر والفر - كذلك شأن الإنسان فى معاركه تلك .. مع نفسه ومع الناس ، ومع الطبيعة .

والعلم والتربية أقوى قوة عاملة ، فى إعداد الإنسان لهذا الصراع ، فى ميادينه الثلاثة جميعها .

فبالعلم والتربية يكتسب حصانة ضد نزعات نفسه ، ونزواتها ، فيملكها ولا تملكه ، ويقودها ولا تقوده . . وبهذا يستطيع أن يعقد صلحاً معها ، فيعيشاً معاً على وفاق ! .

وبالعلم والتربية تستقيم طريق الإنسان فى مجتمعه ، فلا يقع هذا الصدام المهلك المدمر بينه وبين الناس .

وبالعلم والتجربة المستندة إلى العلم - يروض الإنسان الطبيعة ، ويستأنس غرائبها ، ويلتقط أسرارها ، ويتحكم فى قواها .

القرآن وأثره في هذا الصراع :

والقرآن كتاب يهدي إلى النور .. وإلى الحق ، وبالنور يرى الإنسان الوجود على حقيقته ، يرى حقيقة نفسه ، وحقيقة المجتمع الإنساني، وحقيقة الطبيعة .. وبالحق يتعامل مع هؤلاء جميعاً ، في غير ظلم أو عدوان .
ولسنا هنا إزاء البحث عن مكانة القرآن وآثاره في المجتمعات الإنسانية كرسالة سماوية جاءت لهداية الناس ، وإنما نحن بصدد القصص القرآني ، وما فيه من معطيات الفن والعلم ، في مجال الدعوة التي حملها الرسول الكريم ، مصورة في القرآن الكريم ، لتسكون قوة وسنداً للإنسان في هذا الصراع المفروض عليه في هذه الحياة .

ونسأل هنا عن الوظيفة التي يتسكن أن تؤديها القصة القرآنية لمساندة الإنسان وشد أزره في هذا الصراع المشتبك فيه .. مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الطبيعة ؟

وننظر في القصص القرآني فنجد أنه عنى بالجانب الإنساني بشقيه ، من هذا الصراع .. الذاتي الخاص ، مع نفسه ، والعام الشامل للإنسان مع الناس . أما صراع الإنسان مع الطبيعة فلم يقف القصص القرآني عنده ، لمبا سنمرف سره ، بعد قليل ، وبعد أن نفرغ من وقفتنا مع الصراع الإنساني داخل الذات وخارجها ..

الصراع الإنساني داخل الذات :

القرآن الكريم كله دعوة للإنسان إلى تخليص نفسه ، من كل ما يعوق انطلاقه في الحياة ، فيحيا محوطة بأسباب السلامة والأمن .. حيث أنه بما في القرآن من هدى ونور يستطيع أن يرى وجوه الخير ، وأن يسلك مسالكها على بصيرة من أمره ، فلا يتعثر أو يضطرب !

والصراع الذاتي هو صراع داخلي ، يدور في كيان الإنسان ، حين يعرض (١٤ - القصص القرآني)

له أمر فيتنازعه عقله وهواه ، كل منهما يريد أن يستولى على إرادته ، يخضعهما لمحيثته ، حيال هذا الأمر الذى عرض .

وإذا كان الصراع هنا دائراً في هذا المجال ، فإننا لا ننظر أن نشهد في القرآن قصة كاملة تدور في هذا المدار ، إذ أن ذلك يجعلنا بمشهد من قصة تدور في فراغ ، وهذا من شأنه أن يبعث السأم والملالة ، حيث لا نكون هناك حركة بالمعنى المفهوم ، وإنما هناك احتراق داخلي لا يرى له أثر ظاهر .. وهيات أن يكون لمثل هذا الصراع وجود حقيقى .. إذ لا بد في كل صراع في داخل الإنسان من أن يجد له منطلقاً إلى الخارج ، ليحقق وجوده ، وليجعل لهذا الصراع فاعلية حين يشتبك مع الوجود الخارجى المحيط بالذات .

وإذن فلا يكون من اهتمامات القصص القرآنى عرض الصراع الذاتى للإنسان في هذا الحيز المحدود ، الذى لا يسمح للصراع أن يحكى عن نفسه ، ويكشف عن مضمونه ، وإنما الذى يمكن أن يشهد في هذا المجال هو مشاهد قصيرة ، ووقفات عابرة تعرض أثناء القصة .

وهنا تتجلى روعة القرآن ، وعظمته وتتكشف مطالع إعجازه عن آيات بينات ، تهر وتظهر ! .. فإنه في « لقطة » قصيرة خاطفة ، تجمع كلات القرآن فيما مساوب النفس ، وتستولى على أعماقها ، وتكشف خفاياها . فإذا هي وكأنها جارحة من الجوارح ، تختبر بالمحسوسات ، فلا يخفى ما فيها من عيب أو عطب !

لقطات لا تكشف عن الذات :

ولا بأس من أن نعرض هنا بعض هذه اللقطات الخاطفة ، لنرى منها بعض الشواهد لهذا الإعجاز ..

ففي قصة صاحب الجنتين ، الذى كان لنا من قصته شاهد فيما مضى .. في هذه القصة ، نرى الرجل يقف من جنبيه موقف الزهو والفرو ، والاعتزاز

ببهذا الوفر الكثير ، الذى بين يديه .. وهو فى هذا ظالم لنفسه ، إذ لم يكفكف من مجاحها ، ولم يعدل بها عن هذا المزلق ، الذى تنحدر إليه فى بطر وغرور . فهو حين يدخل جنتيه بهذه الأحاسيس التى تعيش معه ، وتلك عليه تفكيره . يقول مناجياً نفسه :

« ما أظن أن تبديد هذه أبداً .. »

« وما أظن الساعة تأتية .. »

« ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً .. »

انظر كيف يغريه الشر بالشر . ويدفعه الغرور إلى الكفر ، ثم يسلمه الكفر إلى الخفاقة ، والسخف !

وقبل هذه المقولات الضالة عرضه القرآن عرضاً قاضحاً حين قال عنه :

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال :

« ما أظن أن تبديد هذه أبداً » . !

فهذه أول رمية من رميات الطيش القاتلة !

أشئ . فيما رأت العين يخلد فى هذه الحياة ؟ ألا يرى هذا الأحمق المغرور كل يوم مصارع الأحياء ، وتبدل الأحوال ؟ ولكنه الغرور ، لا يسلم راكبه إلا إلى التيه والضلال !

وقد أصابت هذه الرمية الطائشة صاحبه قبل أن تصيب أى شئ . آخر .. بل لقد أصابته فى الصميم من بصيرته ، فعمى عمى مطبقاً .. فرى تلك الرمية الأخرى التى أصابت مقاتله :

« وما أظن الساعة تأتية » ! !

لأنه كان رجلاً يؤمن بالله ، واليوم الآخر .. ولكن حبه المال والجاه ، والثراء قد أذهله عن كل هذا ، فلم يعد يرى إلا جنتيه هاتين ، ولم يكن فى

أمانيه إلا أن تخلد هاتان الجنتان ، ويخلد هو مخلودهما ، ولذلك فهو يستبعد قيام الساعة ، ويدفع بكلماته يدیه كل تصور بطوف بخیاله عنها ! إنه یغنی النفس بالمخلود فی ظل هذا الظل الزائل .. وهیهات !

وإنه لا یکاد یستریح إلى هذا الخاطر حتى یطلع علیه خاطر مزعج : إن الناس يتحدثون عن القيامة ، وعن الانتقال من هذه الدنيا بسلا مال ولا حطام إلى العالم الآخر .. بل إن الأحداث التي تدور من حوله لا تترك له لحظة یهنأ فیها بهذا الأمل الخادع الکاذب .. ولا شک أن هذا خاطر مزعج له یفسد علیه تلك الصورة الجميلة المسعدة التي رسمها لنفسه ، وللحياة التي یحياها .. !

وأي بنیات الغرور وخداع الباطل ، ونفثات الضلال ؟ إنه ما زال فی کثانة الطیش عنده سهام وسهام .. فلیرم منها ما یصید له طائر شوم جدید ، فلا یلبث هذا السهم أن یجیئه بهذا الأمل الکاذب !

« ولئن رددت إلى ربی لأجدن خیراً منها منقلباً » !!

فهو یؤمن مستقبله إزاء هذا الخاطر ، الذي یرید أن ینتزعّه من هذا النعم .. فإذا فرض وكان بعث ، وكانت قیامة ، فهو واجد عند ربّه بدل جنتیه جنات !!

وإنه للبحاج فی الغرور إلى أبعد غایاته ، فهو لا یرضی بأن یعیش فی یومه ولا یرضی بما یرضی به أصحاب اللهو والهوى فیهقول بقولهم : «الیوم خمر وغداً أمر » .. بل إنه یأبى إلا أن یمسک بالحقیقة ، وأن یزیف الواقع . فلا یقول « الیوم خمر وغداً أمر » بل یقول : « الیوم خمر ، وغداً خمر وخمر » .

وكان یمکن أن ینتهی المشهد عند هذا ، حیث ینتصر الهوى ، ویغلب الباطل کل قوى الخیر السکامنة فی هذا الإنسان !

ولكن ما إن ينتهى هذا الصراع ، وما إن تبدأ سحب المعركة تأخذ في التفتت حتى تبدأ المعركة من جديد ..

فهذا صوت العقل ، أو صوت الحق يهتف وراء هذا المغرور ، الذى جمع ما جمع من أسلاب وغنائم يريد أن يضم عليها يده .. هاهو ذا صوت العقل أو الحق يهتف به : أن قف : من أين لك هذا ؟ .

« أ كفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟ .. لسكننا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحداً .. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .. إن ترى أنا أقل منك مالا وولداً .. فمضى ربى أن يؤتيني خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسباناً من السماء . فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ! » .

وإذ يسمع الرجل هذا الصوت الهادئ الرزين ، القوى ، ينتسكث غزله ، وتتخاذل آماله .. ويقف متردداً .. يقدر ويفكر .. ويحاول جهده أن يسد هذه الثغرات التى تنفذ إليه منها هذه الخواطر المزعجة ، حتى يستطيع أن يخلو لهذه الدنيا التى بين يديه ، ويسكن إليها !
وإذ هو فى هذا الحساب والتقدير ، وفى الكرواقر ، يطلع عليه حسابان من السماء ، فيذهب بكل ما جمع وأوعى :

« وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهى خاوية على عروشها ، ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً » .. وهكذا ينتهى هذا الصراع بهذا الانفجار المدوى الذى يحطم هذا الإنسان ، أو هذا السكيان البليد !

هذا لون من ألوان الصراع لندأتى بين عقل الإنسان وهواه ، بين دوافع الحق ونوازع الباطل .

ونلاحظ أمرين :

أولهما : انهزام هذا الإنسان وغلبة هواه على عقله ، ولسكن فى الوقت نفسه

انتصر الحق على الباطل ، وذهبت قوة الحق بالضلال وأهله ، وكان في ذلك عبرة لمن يعتبر ، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولإنه لا بأس من أن يذهب بعض الناس ضياعاً ، في الصراع المحتدم بين الخير والشر ، والحق والباطل .. وأنه لذا كان هذا الإنسان قد انهزم وخسر وجوده في هذه المعركة .. فإن كثيراً من الناس قد انتصروا في معارك بمائلة ، فسلموا وسلم وجودهم ، ثم إنه ، وكان في عطبه وثابة لمن ينظر في هذا الحطام المتداعى ، ويمر بتلك الأشلاء المعركة ! .

وثانيهما : أن في الإنسان شعلة متقدة من الحق والخير ، قد تعصف بها عواصف الشر السامكة في كيانه .. ولسكنها تظل - مع هذا - تومض ومضات من النور ، حتى وهي غارقة في سحب الظلام المتساقطة !

ومع أننا قد استبعدنا « الرزية » في القصص القرآني فإن هذا لا يمنع من أن تقوم الإشارات ، والمحات ، وراء الحقائق ..

وهنا في هذه الحادثة إذ نرى هائف الخير والهدى يهتف بالرجل ، وتمثله رجلاً آخر يحاوره ويمجادله — لا نجد في هذه الحقيقة القائمة في تلك الصورة ما يمنع من أن يكون هائف الخير هذا هو « عقل » الرجل صاحب الجنين نفسه . قد استيقظ من غفلته ، وصحا بعد نوم : « قال له صاحبه » .. فهو المصاحب القائم في كيان الإنسان !

ثم إنه من جانب آخر لا بأس من أن نرى ذلك الهائف بالحق يتمثل الإنسانية العاقلة في صراعها مع الإنسانية الغاوية الضالة ، فكما يقوم في الفرد عقل يدعو إلى الخير ، وينصح له أن يتبع سبيل المؤمنين ، كذلك يقوم في الإنسانية عقلاء راشدون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » .

• • •

ومن أمثلة الصراع الداني التي انتصر فيها الإنسان على هواه — هذا

الصراع الذى كان بين أنبياء الله صلوات الله عليهم ، وبين ما تدفع به الحياة إليهم من فتن ، وما تسوق من مغريات ، وما تدس عليهم من وساوس .
فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام ، بعد بعثته ، يجذب نفسه شيئاً من القلق والوسوسة ، التى تتجمع سحبا أحيانا فتكسر أضواء الإيمان المشرقة فى كيانه ، فيضيق لذلك صدره ، ويكثر همه ، ويخشى أن ترحف هذه السحب فتتكاثف شيئاً فشيئاً ، فتذهب بهذا النور الذى يرى الله من خلاله .

ويقوم الصراع فى كيان إبراهيم بين إيمانه بربه ، والخوف على هذا الإيمان من أن تنال منه تلك الخطرات وهذه الوسواس .. ثم لا يجد آخر الأمر مفرحاً يفرغ إليه إلا الله ، ليجلئ من نفسه هذه الغيوم ، ويدفع عن صدره هذه الوسواس .. فيقف بين يدي الله خاشعاً قاتئاً ، يطلب إلى الله فى حياته ، ورهبة :

« رب أرنى كيف تحيى الموتى ! »

فيكون جواب الحق سبحانه وتعالى :

« أو لم تؤمن ؟ »

وهذا السؤال يضع إبراهيم وجهاً لوجه على قمة الصراع الذى كان يغتلى فى نفسه .. وهذا سؤال طالما رده إبراهيم بينه وبين نفسه ، كلما طرقت الوسواس ، وهجمت فى صدره الخطرات : أأست مؤمناً بالله ؟ فلم إذن هذا القلق والأرق ، وهكذا الوسواس المزعج الأثيم ؟ .

وكان جواب إبراهيم حاضراً .. لأنه كان الجواب الذى يرد به على هذه الهواجس التى كانت تدعوه الى التثبيت والبحث ، ليصل إلى اليقين ، فيما بينه وبين ربه ..

« قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبى ! » .

إن الإيمان أمر مفروغ منه عند إبراهيم .. فهو مؤمن بإيمان تسليم واستسلام ، إيماناً غيبياً ، وهذا الإيمان لا يقيم اليقين والاطمئنان الذى يكون عن حضور وشهود ! .

وإنه لصراع قد أطلقاً الله ضرامه برحمته ، فسكن قلب إبراهيم واطمأن ..

وكم في المؤمنين وغير المؤمنين ممن يمانون من هذا الصراع المحتدم بين الإيمان والهدى ، أو بين الهدى والضلال ؟ كثير ، وكثير !

الصراع بين الإنسان والإنسان :

والصراع الذى بدور بين الإنسان والإنسان هو فى الواقع المعركة الدائمة الخالدة ، التى يتقلب فيها الإنسان بين النصر والهزيمة ، والتقى يلتقى فيها بوجود الحياة كلها ، من خير وشر ، ومن هدى وضلال ، ومن حق وباطل .

فحيث كان الإنسان فى الناس فهو معهم فى هذا الصراع ، الذى كلما انتهى فى جبهة قام فى جبهة أو جبهات !

وداعية هذا الصراع أو دواعيه فى الناس ، قائمة عتيدة ، فى كل زمان ، ومكان .. وحيث كان إنسان وإنسان .

ذلك أن الناس لم يخلقوا على طبيعة واحدة . ولم يخرجوا على نسق واحد فى النزعات والرغبات ، وفى التصورات والخطرات والأفكار .. فكان كل إنسان عالماً بذاته .. له منازعه ورغباته ، وتصوراته ، وخطراته وأفكاره .. ومن هنا اختلفت بالناس السبل ، وتخالفت مناهج السلوك والعمل .. وكان من هذا أن وقع بينهم الصدام ، والصراع على صورة حتمية لازمة .

والقرآن الكريم يعترف بهذا الصراع على أنه طبيعة متمكنة فى الناس ، قائمة فى وجودهم .. بل إنه ليحمد هذا الصراع فى بعض وجوهه ، إذ هو الذى ننقذ به شرارات العزم ، والأمل فى الإنسان ، والذى به تشتمل وقدة التنافس بين الناس ، فيتدافعون إلى العمل ، ويتسابقون إلى اقتطاف ثمرات الحياة ، ويعملون جاهدين فى التشجير والتعمير !

ولو أن الإنسان كان فرداً وحيداً فى هذه الحياة لما تحركت فى نفسه نزعة إلى العمل ، ولا قام فى كيانه دافع يدفعه إلى تحصيل شيء أكثر مما يحصل الحيوان لحفظ حياته !

ولكن حين ناظر الإنسان الإنسان ، والتقى به على طريق الحياة ، اتفقت

حميته ، وغلت مراجل نفسه بالاندفاع إلى استباق الغايات ، والاستحواذ على ما يقع في ظنه أن غيره سيسبقه إليه ، ولو لم يكن لذلك داعية عنده إلا داعية أن يملك مالا يملك غيره ! .

نقول : إن القرآن الكريم يعترف بهذه الطبيعة البشرية في الإنسان ، وإنه ليزكيها حين تكون متجهة إلى الخير ، قائمة على الحق والعدل .
أما حين يكون الصراع الإنساني متجهاً إلى البغي والعدوان ، قائماً على الجور والظلم فإن القرآن - وخاصة القصص القرآني - يعمل على أن يعدل من وجه هذا الصراع ، أو أن يخفف من حدته ، بما يكشف من آثاره السيئة ، وبما يحيل من عواقبه الوخيمة ! .

ولقد عرض القصص القرآني صوراً كثيرة من هذا الصراع ، وجلاه في أكثر من مظهر من مظاهر الحياة التي يتقابل فيها الناس ويتصارعون ! .. ونعرض هنا بعضاً مما جاء به القصص القرآني في هذا المجال .

بين ابني آدم :

يقص القرآن الكريم هنا ضرباً من ضروب الصراع الذي يقع في محيط الأسرة .. بين الأخ وأخيه ، وهو صراع ظالم من أكثر من وجه .. إذ فيه عدوان على ما ينبغي أن يكون بين الأخوين من رعاية ومودة خالصة لحمة هذه الرابطة - رابطة الدم - التي من شأنها أن تجعل من الأخوين كياناً واحداً .. روحاً وعقلاً ، وقلباً .. وإن فرق بينهما الجسد ! فهما نبتة بذرة واحدة ، نبتاً في موضع واحد ، وغذاً من غذاء واحد .. فساكن جذوراً بهما أن يكونا على هدى واحد ، وأن يسلكا في الحياة مسلكاً مقارباً مدانياً ، فلا تبعد بهما مسافات الخلف ، ولا تنقطع بينهما أسباب الأخوة ، وعلائق الرحم ! ثم إن في هذا الصراع عدواناً على الأخوة الإنسانية ، التي من حقها أن تجمع الإنسان إلى الإنسان ، وأن تعطفه عليه ، ليعملاً معاً على ما يوفر لها أسباب الطمأنينة والسكن في هذه الحياة .. ثم إن في هذا الصراع أيضاً عدواناً على الحق والعدل ، الذي ينبغي أن يقوم ميزانه مستقيماً بين الناس .. !

ومع هذا كله فقد وقع الصراع بين الأخوين ! وهو صراع لم تقم له داعية أكثر من داعية الطبيعة البشرية .. حيث كان هذان الأخوان والأرض كلها ملك ، يذهبان فيها كل مذهب ، ويأخذان منها ما يشاءان ، وأكثر مما يشاءان ، دون أن يقف دونهما حائل ، أو يردهما راد ! .

فلماذا يتحصنان ؟ وعلام يتصارعان ؟ وفيم ينبغي أحدهما على الآخر ؟ .
إنها الآترة وحب الذات ، وإشباع رغبة التسلط والمدوان ! .
ونستمع إلى القصة كما يقصها القرآن الكريم :

« واثل عليهم نبأ ابني آدَمَ بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ! .

« قال : لأقتلك ! .

« قال : إنما يتقبل الله من المتقين ! .. لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك .. إني أخاف الله رب العالمين .. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتسكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين .

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ! .

« فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه -

« قال : يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة

أخي فأصبح من النادمين » (١) .

في هذا الإطار المحدود عرض القرآن هذه المأساة الدامية بين الأخوين ..

ونظر في كلمات القرآن دون أن نضيف إلى مدلولها شيئا مما لا يكشف

عنه المدلول اللغوي ذاته .. فلا نذكر من هاتين المأسأتين هذان ، ولا فيم كان سبب

اختلافهما ، الذي من أجله قدما القربان إلى الله ، فذلك أمور ضرب القرآن

صفحة عنها ، إذ لا متعلق بها ولا غرض من وراء ذكرها -

فهذا أخوان - ابنا آدم - قدما قربانا إلى الله ، فتقبل الله قربان أحدهما ،

ولم يتقبل من الآخر ..

وهنا تتحرك نوازع الحسد ، وتثور تأثيرات الشر حين ترجع كفة أحدهما الآخر ، في منازل الرضا والقبول عند الله .. « فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر » . !

وانظر كيف يغتال الحسد والمقد دواعي الرأي والعقل ، ويذهب بمنطق السداد والحكمة في مثل هذا الموقف ، وما كان ينبغي أن يلقاه من فاته الخير ، أو أفلت من يده .. فلقد كان على الذي حرم الرضا والقبول أن يرجع إلى نفسه ، فيقيمها على الطريق الذي يمكن أن يبلغه رضا الله وقبوله .. ولكن الحقد والحسد رانا على قلبه ، وطمسا على بصيرته . فلم يجد غير أخيه ، هذا الذي أكرمه الله ، وفضل عليه بهذا الفضل - يصب عليه نار حقد ، ويحرقه بلبيب حسده ، وبغير هذا لن يهدأ باله ، ولن تستريح نفسه . ! !

وماذا يكسب من هذا ؟ وأي شيء يعود عليه في خاصة نفسه من قتل أخيه ؟ لا شيء . فإنه حين يزحزح أخيه عن مكانه من هذه الدنيا لن يأخذ هو هذا المكان .. بل سيظل محروما مطروداً من رحمة الله ، بل وإنه سيزداد بعداً وطرذاً .. !

ومع هذا ، فإنه يعضى في طريقه هذا ، غير عابئ بالمصير المشؤم الذي يصير إليه .. وبحسبه أن يشئ ما بصدره الذي لاشفاء له إلا قتل أخيه ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون .. !

فهذا هو وحده منطق الباغين انظمالمين ، في أجيال الإنسانية الذين نسلوا من سلالة هذا الباغى الظالم .. وبلسانه قال من قال :

اقتلوني وما لكما واقتلوا مالكما معي

« قال لأقتلك » !! قالها في إصرار عنيد وتوكيد جازم .. وكأنه يريد بهذا أن يقطع على نفسه طريق العودة إلى المسألة والمواذعة ، وأن يوثق نفسه بهذا الوثائق الذي لا فسكك له منه .. إنه اندفاع إلى الشر ، وإصرار عليه .

واشتهاء له ، وتجاوب معه ، هو ذلك الذى يخلط هذا الإنسان بالشر ويغويه بالعدوان .. هذا الإغراء الذى يقود النفس إليه ، وكأنه يشرف بها على خير تجتنيه ، أو نعيم تعيش فيه ، وتحيا فى ظلاله .. ١

وفى الجانب الآخر من هذه المأساة الإنسانية نجد الأخ يلقى أخاه هذا الغشوم المستبد — يلقاه رفيقاً به ، ناصحاً له ، مذكراً إياه بما ينبغى أن يطلبه ويسمى إليه .. فيقول له : « إنما يتقبل الله من المتقين » ! فإذا أردت أن تكون فى المقبولين عند الله ، وأن تنال ما نلت من رضا — فسكن من المتقين ، الذين يلزمون حدود الله ، ولا يتعدونها .. أما قتلك إياى فلن يهلكك هذه المنزلة التى بلغتها ، والى تحسدنى عليها ، وتزعم قتلى من أجلها !

ثم لا يقف هذا الأخ المواع المسالم عند هذا الحد ، فى التلطف بأخيه ، وفى دفع يده الظالمة بالى هى أحسن .. فيقول له : « لكن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بياسط يدى إليك لأقتلك .. إني أخاف الله رب العالمين » .

فهو مع قدرته على دفع هذا الشر الذى يراد به ، بل وعلى أن يقتل هذا الذى يريد قتله — لا يسلك هذا المسلك ، ولا يحدث نفسه به .. « ما أنا بياسط يدى إليك لأقتلك » .. فهذا الأسلوب القاطع الجازم هو الرد المقابل لقول أخيه : « لأقتلنك » وما فيه من قطع وجزم ! .. ثم إنه يقيم لهذا رأى القاطع الذى انتهى إليه ، حيثية قاطعة مانعة ! « إني أخاف الله رب العالمين » ! إنه يخاف الله ، الذى كان جديراً بهذا الذى عقد عزمه على هذه الفعلة الشكراء أن يتذكره هنا وأن يخافه ، بعد أن وجد المثل الحسى ماثلاً أمامه فى أخيه الذى يذكر الله ويخافه فى كل مقام !

ومع هذا فهو على العزم الذى عزمه ، وعلى النية التى عقدها عقداً لا يحل من أول الأمر بقوله : « لأقتلنك » .. لقد قاطها ، وليس له قول بعدها .. لا يردده عن ذلك هذه المودعة والملاطفة التى لقيه بها أخوه ، ولا يزرعها عن موقفه هذا ما ذكره به من خوف الله وخشيته . :

« إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » .

إن إرادة الأخ الظالم الباغي تقابلها إرادة الأخ المودع المسالم .. فكما يصير ذاك على القتل ، وارتكاب هذا الإثم الغليظ ، يصير هذا على موقفه ، فلا يمد يده بسوء ، بل ولا يدفع يد هذا الإثم ، فليفعل به ما يشاء ، « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك » .. فهذا الموقف يحتم فرضين : أحدهما — أن يدفع عن نفسه القتل ، فيقتل هذا الذي هم بقتله ، ويصر عليه إصراراً .. وثانيهما : أن يقف موقفاً سلبياً ، فيترك لأخيه ارتكاب هذا الإثم ، فيقتله !
إنه لا بد من قتل أحدهما .

وإذن فليكن هو المقتول ، لا القاتل ! .

وكان ذلك منه عن إرادة ، تبلغ مبلغ الاشتباه ، حتى لا يعدل عنها إلى الموقف الآخر المحتوم ، وهو قتل أخيه إن أراد دفع القتل عن نفسه ! .
وفي تحقيق هذه الصورة ووقوعها يرجع القاتل وقد صحبه إثمَان :
أولهما : إثم القتل الذي ارتكبه بقتل أخيه .

وثانيهما : إثم القتل الذي كان سيرتكبه أخوه لو أنه هم بقتله .
إن القاتل قد رجع ومعه إثم القتل الذي ارتكبه .. هذا أمر لا شك فيه .. ثم إن المقتول كان سيحمل هذا الإثم ذاته لو أنه سبق فقتل قاتله ! .. وهذا ما يفهم من الآية الكريمة .. فكأنه يقول لأخيه : « إني أريد أن تبوء بإثمي ، لو أنني قتلتك — ولن أقنتك — وإذن فأنت الذي تحمل هذا الإثم عني ، كما أنك ستبوء بإثمك لو أنك قتلتني ، وهأنت ذا فاعل ، فتبوء بالإثنين معاً ! .. إثمى وإثمك .. فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » .

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الظالمين » وأى خسران بعد هذا الخمران ؟ لقد قتل أخاه بغير ذنب فرط له منه ، وعدا عليه

بغير عدوان بدأه به .. بل إنه لم يلق هذا اللطف وتلك المودعة من أخيه إلا بالإصرار على الإنثم واللاجاج فيه .. ثم ماذا كسب بهذه القملة الأنثمة ؟ هل أخذ هذا الثواب الكريم الذي أضفاه الله على أخيه من الكرامة والقبول ؟ وكلا ، فإنه لم ينل من أخيه غير هذا الدم الذي صبغ ثيابه بهذا الصبغ الذي يملأ عليه وجوده ، صراخاً مزعجاً مقلقاً ، لا ينام ، ولا ينهم .

وظل جسد هذا القتيل المظلوم ملقى بالعراء ، وكأنه راية منصوبة تدعو الوجود كله ، ليشهد هذا العدوان الآثم ، وللمسك بتلابيب هذا القاتل الأثيم ! وتقبل مشاعر القاتل ، وتحور قواه ، وتنطفئ وقدة حسده وحنقه ، فيتحول إلى رماد ، حول هذا الجسد الساكن المضرع بالدم ! ويحاول أن ينطلق بعيداً عن مسرح الجريمة فتحذله قدماء ، وتطلع عليه رؤى مخيفة من هذا الجسد المسجي .. حتى ليخيل إليه أنه ربما انتصب قائماً وانتقم لنفسه من هذا الحائر المتخاذل !

« فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سواء أخيه ، قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سواء أخى .. فأصبح من النادمين » .

وكان لابد أن تنتهي هذه المأساة !

ونقف عند مدلول الالتقاط في هذه الآية ، فلا نفترض أن هذا الغراب قتل غراباً ، ثم حفر له حفرة فواراه فيها — كما تكاد تجمع على ذلك كل التفاسير — حتى يكون ذلك مثلاً ماثلاً يتأسى به القاتل ، فيواري جسد أخيه كما فعل الغراب .. لا نفترض هذا .

فال معروف عن الغراب أنها لا توارى قتلاها أو موتاها التراب .. وليس هناك من ضرورة نحوج إلى هذا الفرض ، بل يكفي أن يبحث الغراب الأرض برجليه ، وأن ينهش وجهها بأظفاره ليوارى شيئاً وقع في فيه ، كما هي تلك

عادته ، أو يحفر حفرة لنفسه يستريح فيها ، ويسكن إليها .. وتسكنى هذه الإشارة أن تفتح عينى هذا القاتل على قبر يوارى فيه الجسد ، ويفرغ منه !.

* * *

والصراع فى هذه المأساة صراع صريح بين الخير والشر .. أو بين الأخيار والأشرار من الناس .. حيث لا تصبح الحياة أو تمسى إلا ومسرحها بقص بألوان شتى ، وصور متعددة من هذا الصراع !.

وقد يبدو لنا من وجه هذه المأساة أنها دعوة إلى الاستسلام للظالمين ، ولقاء الشر والعدوان بالتسليم والقبول .. وهذا أسلوب إنصح فى حال ، فإنه لا يصح فى كل حال ، ولا يصلح عليه أمر الناس أبداً ..

فما تناول هذا الموقف الذى تشير إليه الآية : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بإسقط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ؟ » .

وهل القتل فى الدفاع عن النفس ينفى الخوف من الله . ؟

والجواب على هذا :

أولاً : الجرم الذى يواجه الإنسان هنا جرم غليظ بشع .. إنه «القتل» الذى لم يكن منه مفر - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - وقتل النفس أكبر الكبائر كلها .. ولهذا فقد تخرج منه أحد الأخوين ، ورأى أن قتل نفسه بيد غيره أهون عليه من أن يقتل هو نفساً بيده ..

فالاستسلام للعدوان هنا إنما كان عندما بلغ الأمر إلى هذا الجرم الشنيع .. فلم تطقه هذه النفس الكريمة الرحيمة ، وآثرت أن تموت شهيدة فى سبيل الوقوف عند حدود الله فيه ..

ولشناعة القتل وغلظ جرمه ، فقد جاء بعد هذه القصة مباشرة قوله تعالى :
« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فسكناً قتل الناس جميعاً ، ومن أحيها فسكناً أما أحيى الناس جميعاً » .

والمقتول هنا في تلك المأساة لم يكن قد قتل حتى يقتص من قاتله .. ثم
بعد أن قتل لم يكن يستطيع القصص .. إذ أن ذلك محال !

وهنا يلقانا اعتراض : وهو قوله تعالى في وصاته للمؤمنين في مواجهة
الكافرين :

« فإن قاتلوكم فاقتلوهم .. كذلك جزاء الظالمين » .

ونقول : إن هنا فئتين ، فئة مؤمنة مبني عليها ، وقد بدأ العدو بقتلها
وفئة كافرة باغية .. فهي تستحق القتل .. لأمرين : أولاً - جزاء كفرها
وثانياً : جزاء عدوانها .. !

أما ما بين ابني آدم فهو أن أحدهما باغ والآخر مبني عليه .. وليس فيهما
مؤمن وكافر .. بل هما مؤمنان ! ولهذا جاء في الحديث الشريف : « إذا اقتتل
المؤمنان .. فالقاتل والمقتول في النار » قيل : هذا القاتل .. فما بال المقتول
قال : « كان حريصاً على قتل صاحبه » .

من أجل هذا فقد نأى « المقتول » من ابني آدم عن أن يشتبك في قتال ،
وأن يصول أخاه ، فيقتل أو يقتل .. ولهذا ، فقد قتل مظلوماً ، ومن هنا صح
له أن يقول لأخيه : إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب
النار وذلك جزاء الظالمين » .

ثانياً : أن هذا القتل - من أي من المتقاتلين - قتل متعمد ، أشبه بالمبارزة ،
التي لا تنتهي إلا بقتل أحد المتبارزين ..

فالمركة هنا لا تنجى إلا عن قتل ! .. فلو لم يقتل هذا لقتل ذاك .. فهما
في الواقع قتيلان .. فرضاً وحكماً ، فقد يقتل كل منهما صاحبه ..

ولهذا ساء للقتيل أن يقول لقاتله : « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك »
حين أحل عزمه عن المقاتلة ، ونفض يده من المصاولة ! .

الصراع بين الإنسان والطبيعة :

الصراع الذى بين الإنسان والطبيعة صراع ليس فيه مافى الصراع بين الإنسان والإنسان من عداوة وحسد وبغضة .. لأن هذه الدوافع إنما تقوم بين المتماثلين جنساً ، والمتقاربين درجة ، والمتناسبين صناعة وعملاً ..

وفى الطبيعة قوى عاتية مدمرة ، لو استسلم لها الإنسان لأهلكته ، ولهذا فهو معها فى صراع متصل ، منذ ظهر فى هذا الوجود ، يحاول جاعداً أن يدفع سرها ، بل وأن يحيل هذا الشر خيراً ، حين يبسط يده عليها ، ويقيم سلطانه فوقها ..

ومثل هذا الصراع يمكن أن يسمى كفاحاً وجهاً ، إذ أن مخلفات معارك تنجلي دائماً عن مغنم أو مغنم ، تضمها الإنسانية إلى ماتجمع لها من رصيد المعارك السابقة .. ومن حصيلة هذا الصراع أو الكفاح صمرت الحياة الإنسانية بهذه المذنبات التى تملأ وجه الأرض .. قصوراً ، ورياشاً ، وأثناً ومتاعاً . ومن ثمرات هذا الصراع أو الكفاح عرفت الإنسانية ماعرفت من علوم وفنون .

ولهذا فإن القصص القرآنى لم يتخذ من هذا الصراع موضوعاً له ، إذ ليس ثمة صراع بالمعنى المفهوم ، وإنما هو جهاد وكفاح ..

والإسلام يدعو دعوة حارة إلى العمل والجد والكفاح فى تحصيل أسباب العمران ، وامتلاك زمام القوة والسيادة فى الحياة ..

وفى القصص القرآنى وقفات جانبية ، وإشارات بارقة إلى ألوان من الصراع أو الكفاح الإنسانى مع الطبيعة ، والجهد الذى يبذله الإنسان لى يحصل النجاح ، والغلب ، على قوى الطبيعة المتحدية له ، والواقعة فى طريق القافلة ١ ..

فى قصة ذى القرنين مثلاً : حين يبلغ بين السدين د وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا يا ذا القرنين .. إن يأجوج ومأجوج (١٥ - القصص القرآنى)

مفسدون في الأرض ، فهل نجمل لك خرجا على أن نجعل بيننا وبينهم سداً .
وبأجوج ومأجوج وإن كانوا من البشر إلا أنهم أشبه بقوة من قوى
الطبيعة المانية ١

ولهذا فإن ذا القرنين لا يحاربهم ، ولا يلقاهم لقاء العدو ، وإنما هو يعمل
على أن يقيم بينهم وبين الناس سداً ، كما يفعل الناس في وجه السيول الجارفة .
« قال : ما مكنتني فيه ربي خير فأهينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم
ردما . آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا
جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً . فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا
له نقبا . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد
ربي حقاً » .

فهذا صراع لم يرق فيه دم ، ولم تزهق فيه أرواح ١ .
وهكذا كل صراع مع الطبيعة ١ . لا ينجلي إلا عن كسب ، وخير ١

* * *

ونجد في قصة يوسف شيئاً كهذا ..

ففي تأويله لرؤيا فرعون نرى يوسف لا يقف عند مجرد التأويل ، بل إنه
إذا يرى الطبيعة وقد فغرت فاهها وكشرت عن أنبيائها ، تريد أن تبتلع الناس ،
فإنه لم يشأ أن يقف موقفاً سلبياً إزاء هذا الهول المقبل ، بل تصدى للطبيعة ،
وحاول أن يروض من هاجمها ، ويكسر من ضراوتها . ١

إن رؤيا فرعون لم تسكن عند يوسف سوى مرصد نظر في مرآته ،
فرأى بمعنى بصيرته أبعاداً بعيدة وراء ما رأت عينه .. ومن هنا كان
واجبا عليه أن ينبه إلى هذا الخطر ، وأن يعطى الرأي الذي يراه دافعا له ..
وقد فعل .. ثم حين دعى إلى تولي قيادة المعركة مع هذا الحدث المقبل بما يدم
الناس من بأساء وضراء — لم ينسكص على عقبه ، بل تقدم على ثقة وثبات ،

وخاض المعركة في صدق وأمانة وشجاعة وحكمة .. ثم استطاع أخيراً أن ينتصر ، وأن يرمى السفينة على مرفأ الأمن والسلامة .
واستمع إلى القرآن الكريم ، وهو يقص هذه الواقعة في إيجاز آلتى من شمس الضحى .. يقول الله تعالى :

« وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .. يا أيها الملأ أفتوني في رؤاى إن كنتم للرؤاى تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .. وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف .
أيها الصديق .. أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلنى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .. قال : تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يقات الناس وفيه يعصرون .. وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول ، قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلنا حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب .. وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأماراة بالسوء إلا مارحم ربي .. إن ربي غفور رحيم ، وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال : اجعلنى على خزان الأرض إني حفيظ عليم ^(١) . »

والقصة كما يصورها القرآن الكريم ذات ثلاث موافق : فرعون ومارأى من حلم ، وقد استدعى له أهل الدكر يؤولوه . فيختلط عليهم الأمر ،

وبدو لهم أن هذا ليس حلماً ، وإنما هو من أضغاث الأحلام وأخلاطها ، وأنهم عجزوا عن تأويل الأحلام ، وهم مع أضغاث الأحلام أشد عجزاً .

ثم الموقف الثاني ، وفيه من يخبر بأنه يعرف الشخص الذي عنده علم بتأويل الأحلام ، ويطلب أن يبعثوا به إليه ، فيذهب إلى يوسف ، وهناك يقص عليه حلم الملك ، فيخبره يوسف بتأويله ، ثم يعود الرجل إلى الملك ، ويحدثه بما كان من قول يوسف في تأويل هذه الرؤيا ، ويقع هذا التأويل من الملك موقع القبول والاعتراف .. فيبعث إلى يوسف من يستدعيه له .

وهنا يبدأ الموقف الثالث حيث يواجه يوسف رسول الملك بقوله : « ارحم إلى ربك فأسأله ما بال النسوة التي قطعن أيديهن .. إن ربى بكيدهن عليم » . ويقع في المدينة هرج ومرج ، حين يسأل الملك عن حقيقة هذه الواقعة التي يتحدث عنها يوسف ، وينجلي الأمر عن براءة يوسف مما رعى به ، وتجيء الشواهد كلها ناطقة بعمق هذا الصديق وطهارته ، ولا تجد امرأة العزيز بداً من أن تكفر عن خطيئتها حين رمتها بالإثم .. فتجيء معترفة على الملأ بأنها هي التي راودته عن نفسه .. فتقول : « الآن حصحص الحق .. أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » ثم يلتقى يوسف بالملك ، ويقوض إليه الملك الأمور في تدبير أقوات الناس ، خلال هذه النازلة المقبلة .

والملاحظ في هذه القصة أن الانتصار على الطبيعة — أو بمعنى أصح — الانتصار في الحياة إنما يتحقق بأمرين : العلم والأمانة .. فهذهين الأمرين استأهل يوسف أن يكون ربان هذه السفينة ، حين تلاطمت بها الأمواج : « قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » والحفظ هنا إنما هو مظهر من مظاهر الأمانة .. وفي القرآن الكريم : « إن خير من استأجرت القوي الأمين » فالقوي الأمين هنا في معادل « الحفيظ العليم » هناك ، حيث تعادل القوة العلم ، إذ تحصل بالعلم وتستند إليه ، وكل قوة لا تستند إلى علم قوة . غشوم ، أشبه بالعاصفة تدور دورة ثم تسقط هامدة .. كذلك يعادل الأمين

بالحفيز ، إذ الحفظ كما قلنا مظهر من مظاهر الأمانة ، ولا نكون أمانة إلا بحفظ ما يؤتمن المرء عليه ، لنفسه أو لغيره .

وقد كشفت الأحداث عن علم يوسف وحفظه ، فقد حفظ أمانة العزيز الذي ائتمنه عليها ، وأبى أن يستجيب لدعوة امرأته وإغرائها .. « قال : معاذ الله .. إنه ربى أحسن مثواى » .. كذلك عرف الناس علمه حين كشف لصاحبيه فى السجن عن حقيقة ما يؤول إليه أمرها بعد أن أخبراه بالرؤيا التى رأياها فى نومهما .. كما عرف له علمه حين أول لفرعون رؤياه على وجهها الصحيح ، بعد أن عجز علماءه وسحرتة .. ثم كان علمه وأمانته معه دائماً ، وبهذا استطاع أن يقود المعركة - معركة الحياة - وأن ينتصر نصراً مبيناً حاسماً !

الباب السابع

التكرار في القصص القرآني

التكرار في القصص القرآني ظاهرة واضحة ، ملفتة للنظر ، وداعية لكثير من التساؤل والبحث .

وقد وجد أصحاب الأهواء ومرضى القلوب من الملحدین وأعداء الإسلام في هذا التكرار مدخلا ملتويا ، يدخلون منه على هذا الدين ، ليطعن في القرآن ، والنيل من بلاغته وإعجازه ، وليقولوا إن هذا التكرار قد أدخل الاضطراب على أسلوبه ، وجعله ثقيلا على اللسان وفي السمع معاً . ثم يخلصون من هذا إلى القول بأن أسلوب القرآن ليس على المستوى البلاغي الرفيع ، الذي يتسع للدعوى التي يدعيها له المسلمون بأنه معجز ، وأنه منزل من السماء ثم ينادون في هذا الضلال فيقولون ، إن هذا الخلط الذي وقع فيه . إنما هو أثر من آثار الأحوال النفسية التي كانت تنتاب محمداً ، فتخرج به عن وعيه ، وتجيء الكلمات التي ينطق بها في تلك الحال ، مرددة ، مقطعة ، كما يقع هذا للحمومين والمصروعين .

ولقد قلنا في ردنا على هذا ، في كتابنا إعجاز القرآن : « إن الذين يقولون هذا القول أو يحكونه عن غيرهم ، هم أعاجم أو أشباه أعاجم ، لم يذوقوا البلاغة العربية ، ولم يتصلوا بأسرارها . . ولو أنهم رزقوا شيئاً من هذا المال طوعتهم ألسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ، ولرأهم الحياء أن يقولوا قولاً لم يقع في حساب « قریش » وهي تنصيد التهم والمفتريات على القرآن الكريم ، حتى لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجدت زوراً من القول لقالت فيه ، ورمته به ،

ولكن الزور نفسه أعياها أن تمسك به في وجه هذا الحق المفرق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وإذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول ، وهي مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنهما ، فكيف يساغ هذا القول من أعاجم ؟ إن ذلك هو الضلال البعيد .

هذا وقد وقع التكرار في القرآن الكريم على صور شتى . . كالتكرار في إعادة جملة بعينها مثل قوله تعالى : « كلا سوف تعلمون » أو بين أجزائها مثل قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » في سورة « الرحمن » وقوله سبحانه : « ويل يومئذ للمكذبين » في سورة « المرسلات » أو يكون التكرار في إعادة تصوير الأحداث أكثر من مرة ، وهو ما حدث في القصص القرآني فقد تكررت معارض القصة الواحدة في أكثر من موضع .

وهذا التكرار في القصص القرآني هو موضوع هذا الحديث هنا . . أما مواضع التكرار الأخرى فقد عرضنا لها في كتابنا إعجاز القرآن ، الجزء الأول ص ٣٧٢ وما بعدها .

ما داية هذا التكرار ؟

كانت هذه الظاهرة . . ظاهرة تكرار القصص القرآني . . على تلك الصورة الواضحة مما لفت أنظار العلماء إليها ، وحرك عقولهم وألسنتهم للكشف عن أسرارها ودواعيها .

فهذا أبو بكر الباءة لاني يقول عنها في كتابه : « إعجاز القرآن » : « إن إعادة القصة الواحدة باللفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً — من الأمور الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة ، وتبهر البلاغة » . . وهو يريد بهذا أن يقول إن عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة من القول دون أن تتغير معالمة ،

ودون أن يضعف أسلوب عرضه هو من المسير الذي لا يقدر عليه إلا من كان ذا ملكة بيانية ، واقتدار بلاغي ؛ وذلك في حدود لونين أو ثلاثة من ألوان العرض ، فإذا جاوز ذلك اضطرب الأسلوب ، وبهتت المعاني ، إلا أن يكون ذلك من تدير الحكيم العليم ، رب العالمين .

ثم يقول الباقلاني : « وأعيد كثير من القصص - القرآني - في مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة^(١) ، ونهوا - أي العرب - بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله ، مبتدأ ومكرراً^(٢) » .

وبريد الباقلاني بهذا أن يقرر أن من صور التحدى الذي عجز عنه العرب إزاء القرآن - عرض القصص القرآني - عرضاً متفاوتاً بين الطول والقصر ، والبسط والقبض ، وقد وسع عليهم بهذا مجال المعارضة والمحاكاة ، فلم يكن إلا المعجز ، والاستخزاء !

وهذا القول من « الباقلاني » لا يكشف عن السر الذي رواه في التكرار الذي جاء في القصص القرآني . والذي سنعرض له بعد أن ننظر في بعض الآراء الأخرى التي عرضها أصحابها في هذا المقام .

يقول « الزركشي » في كتابه « البرهان في علوم القرآن » : « ومنه - أي من التكرار - تكرار القصص القرآني ، كقصة « إبليس » في السجود لآدم وقصة موسى ، وغيره من الأنبياء .. قال بعض العلماء : ذكر الله موسى في القرآن في مئة وعشرين موضعاً .. »

ثم يكشف الزركشي عن وجوه لبعض أسرار هذا التكرار فيقول :
« وإنما كررها - أي القصة - لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر ، وهي أمور :

(١) يراد بالتفاوت ، اختلاف صور العرض للقصة الواحدة بين الطول والقصر ، والتفصل والإجمال .

(٢) إمعان القرآن للباقلاني

١ - أحدها : أنه - أى القرآن - إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً .. ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام ، وذكرها في موضع آخر تعباً ؟

٢ - الرابعة : إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة - لا يخفى مافيه من الفصاحة .

٣ - الخامسة : أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آيه ، لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا ،^(١)

والإشارة المقصية التى أشار بها « الزركشى » وكأنها جاءت عفواً ودون مبالاة - فى قوله : إنه - أى القرآن إذا كرر القصة زاد فيها - هذه الإشارة هى فى نظرنا أبرز داعية من دواعى التكرار القصصى .

ولم يذكر « الزركشى » أين هى تلك الزيادة ؟ كما لم يذكرها لهذه « الزيادة » من قيمة فى عرض القصة ، وفى إبراز ما يراد إبرازه من أحداثها ، واكتفى بالقول : بأن القرآن كلما كرر قصة جاء فيها بمجديد لم يكن موجوداً فى العرض الأول ، أو الثانى ، أو الثالث ، وهكذا .

ولقد أشرنا من قبل إلى بعض الأسرار الكامنة وراء هذا التكرار ، وقلنا : إن كل مرة تعرض فيها القصة تكشف عن جانب من جوانبها ، أو تجسم صورة من صورها ، أو تكمل حدثاً من أحداثها .. الأمر الذى لا يمكن أن يتم فى عرض واحد مستقل ، دون أن يقع فى الأسلوب اضطراب ، وتناقض وتقل ، لهذا التكرار المتصل ، ولاختلاف المقولات فيما يبدو أنه موقف واحد ..

قلنا هذا ، أو نحوه فيما مضى ..

ونريد هنا أن نزيد الأمر إيضاحاً من جهة ، وأن نرد على بعض المفاهيم والتأويلات التي قبل بها في بعض الدراسات الحديثة - شرها ، وتعليلاً للتكرار القصصى فى القرآن - من جهة أخرى

دعوى وبرهانها :

والدعوى التى ندعيا لداعية التكرار فى القصص القرآنى ، وفى كل تكرار فى القرآن تختلف فيه الصور للحدث الواحد - هى أن هذه الصور المتكررة بكل بعضها بعضاً ، وأنها فى مجموعها تعطى صورة واضحة كاملة مجسمة أو شبه مجسمة للحدث ، وأن ما يبدو من أنه اختلاف بين المقولات فى الواقعة الواحدة أو الحدث الواحد ليس إلا تجميعاً لمتنائر الأقوال عن هذه الواقعة أو ذلك الحدث ، أو ليس إلا التقاطاً لظاهر القول ، ثم لما يكن وراءه من خواطر وخلجات .

وفى الموازنة التى جمعنا فيها بين ثلاث صور لقصة موسى ، فى الموقف الخاص بمناجاته فى الطور ، وتلقيه الدعوة الساجدة هناك - فى هذه الموازنة رأينا أن مجموع ما فى الصور الثلاث التى جاءت فى سورة طه ، والنمل ، والقصص ، يعطى صورة واحدة مكتملة لما حدث ، وأن كل واحدة منها يمكن أن تستقل بنفسها فى الكشف عن مضمون هذا الحدث .

كذلك رأينا أن كلمات الله لموسى فى السور أو الصور الثلاث ، هى مجموع ما سمعه موسى من الحق سبحانه وتعالى ، فى هذا الموقف ، وأنها على أى ترتيب تجتمع فيه تعطى الصورة المطلوبة لهذا الموقف ، الذى كان مفاجأة مذهلة مزلة لموسى ، فكانت كلمات الله هذه فى تنابها وتلاحقها تنزل برداً وسلاماً على قلبه ، الذى كاد يتطاير شعاعاً . . « يا موسى . . إني أنا ربك . . » « إنه أنا الله العزيز الحكيم » . . « إني أنا الله رب العالمين » . . « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

أما اختلاف مقولات موسى عن النار فى السور الثلاث ، وهى قوله :

« لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .. وقوله : « لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .. وقوله : « سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » . فهذه المقولات - كما قلنا - تجمع بين ما قال موسى لأهله ، وما كان يجري في خاطره من مشاعر وإحساسات ، وتقديرات لما يتكشف عنه الواقع ، عند مداناته للنار التي رآها ، واتصاله بمن عندها .

هذه جزئيات من جزئيات القصة ..

ولو ذهبنا نصنع صنيعنا هذا في جميع المواقف التي ورد فيها ذكر لموسى في القرآن الكريم ، وهي - كما قال بعض العلماء مئة وعشرون موضعاً - لو ذهبنا نفعل ذلك ، لرأينا أن مجموع هذه المواضع يعطى الصورة السكاملة البارزة لقصة موسى كلها ، وما تلبس بمواقفها من مختلف المشاعر والمواقف والآراء ..

ولا يحتمل هذا البحث عرض جميع هذه « اللقطات » لهذه القصة .. ولكن بحسبنا كاشد لما نقول أن نجمع ألواناً مختلفة من هذه « اللقطات » بين طويلة ، ومتوسطة ، وقصيرة ، تمثل جميع المراحل في حياة موسى ، من مولده إلى خاتمة رسالته ..

وذلك على النحو الآتي :

حياة موسى من مولده إلى خروجه ببني إسرائيل إلى مصر :

وعناصر القصة هنا تشتمل من حياة موسى على المراحل الآتية :

١ - ولادة موسى والظروف التي صاحبت هذه الولادة ، من تقتيل فرعون لأطفال بني إسرائيل .

٢ - ما أوحى الله تعالى به إلى أمه من وضع ابنها في تابوت وإلقائه في اليم ، ووعده الله لها بحفظه ورعايته .

٣ - وقوع موسى في يد فرعون ، وتمسك امرأة فرعون بحفظه وتربيته .

- ٤ - بحث أمه عنه ، واهتداؤها إلى مكانه ، ثم جعلها مرضعاً له .
 - ٥ - ما كان من موسى من إغارة إسرائيلي على قتل مصرى .. ثم فراره ، إلى مدين .
 - ٦ - موسى في مدين مع شعيب ، ونزوجه من إحدى ابنتيه .
 - ٧ - عودة موسى إلى مصر ، وما وقع له في طور سيناء من تكليم الله له ، وإرساله رسولا إلى بنى إسرائيل .
 - ٨ - تخوف موسى من لقاء فرعون ، وطلبه من الله أن يشدأزره بأخيه هرون ، وإجابة الله لطلبه .
 - ٩ - لقاء موسى لفرعون ، وتكذيب فرعون له ، حيث استبد به الغرور ، وخيل إليه أنه إله ، وليس فوقه إله .
 - ١٠ - خروج موسى ببني إسرائيل من مصر ، ولحاق فرعون وجنوده بهم ، ونجاة موسى ومن معه ، وغرق فرعون وجنوده .
- هذه مراحل حياة موسى من مولده إلى خروجه ببني إسرائيل من مصر . وكل مرحلة من هذه المراحل قد تكررت ذكرها في القرآن ، ولكن على درجات مختلفة ، فبعضها ذكر مرة واحدة ، وبعضها ذكر مرتين ، وبعضها ذكر أكثر من عشر مرات .
- وهذا الاختلاف بين مرات التكرار في هذه المراحل له دلالة التي سنتضح لنا من عرض ما تعرضه منها في صور التكرار التي جاءت فيها .
- ١ - ولادة موسى وظروفها .
 - ٢ - ما أوحى الله به إلى أمه .
 - ٣ - وقوع موسى في يد فرعون .
 - ٤ - اهتداء أمه إليه وإرضاعها له .
- هذه المراحل من حياة موسى ذكرت في موضعين من القرآن الكريم ، في سورتي : طه ، والقصص .

ففي سورة القصص جاءت هكذا :

١ - « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً بذبح أبنائه ، ويستحي نساءه ، إنه كان من المفسدين . . وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .
٢ - « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخاف ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

٣ - « فالتقطه آل فرعون ، ليكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وهم لا يشعرون .

٤ - « وأصبح نؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .
وفي سورة طه جاء ذكر هذه القصة هكذا :

١ - « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي أن اقذفيه في التابوت ، فاقذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني . .

٢ - « إذ قمى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟ .

٣ - « فرجعناك إلى أمك ، كي تقر عينها ولا تحزن » .

وبالنظر في الصورتين ، ومقابلة إحداها بالأخرى نجد :

(أولاً)

أن ما جاء في سورة القصص كان عرضاً لقصة موسى في مجال الحياة كلها ،
للعظة والعبرة . . . ليجد فيها بنو إسرائيل ما يذكروهم بفضل الله عليهم ،
واستنقاذهم من البلاء الذي كان يصبه فرعون على قومهم وجنسهم . . . ويجد
فيها العرب مشهداً من مشاهد الصراع بين الحق والباطل ، وما ينتهي إليه
الحال بينهما من انتصار الحق وأهله وخذلان الباطل وحزبه . . . ثم يجد فيها
النبي والمسلمون عزاء يشد أزركم فيما يساق إليهم من قريش ، من ضر وأذى . . .
ولهذا فقد بدأت القصة هنا بما كان من فرعون من علو واستكبار
واستبداد ، وما وعد الله به المستضعفين المقهورين من تأييد ونصر وإعزاز .
وهذا ما حلت منه الصورة التي ذكرت في سورة طه ، حيث كان ذكر
القصة هناك في معرض حديث خاص موجه إلى موسى ، ليذكركم به فضل الله
عليه من أول ولادته .

(ثانياً)

ما أوحى الله تعالى به إلى أم موسى بعد مولده فقد جاء مفصلاً بعض
الشيء في سورة القصص ، ثم جاء مجملًا في سورة طه .
انظر : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . .
فإذا خفت عليه فالقيه في اليم . . .
ولا تخافي ، ولا تحزني . . .
إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . . »

[سورة القصص]

« إذ أوحينا إلى أمك مايوحى ..
« أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم .
« فليلقه اليم بالساحل ..
« يأخذه عدولى وعدوله ..

[سورة طه]

وانظر مرة أخرى ، بل مرات ومرات .. فإنك واجد في كل نظرة
ألواناً جديدة من الجمال والجلال ، والإعجاز ..

إن كلا من الصورتين تعطى كل ملامح الحدث ، وتحدث به ، معلنة
بعضه ، ومسرة بعضه الآخر .. فإذا اجتمعت الصورتان في مقام واحد
أعلنت كل منهما ما استمر في صاحبتهما .. وبهذا تتضح الرؤية فيهما لمن
لم يسكن له هذا الفهم ، وذلك الذوق ، للبيان القرآنى وإعجازه .. ثم مع
هذا يبقى لسكل من الصورتين وجهها الذى صورہ القرآن عليه . لأن الجمع
بينهما لا يقع فى التلاوة ، وإنما يلقاها القارىء للقرآن مع هذا الفاصل الذى
يفصل بينهما زماناً ، ومكاناً .

ثم انظر مرة ثالثة ..

إنك تجد هذه الألوان المختلفة بين الصورتين حين تفهم بعضها إلى بعض -
تعطيك صورة مجسمة للحدث ، تراه فيها من جميع جهاته .
« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقه في اليم » .

[سورة القصص]

إن هنا إعداداً للأمر الذى سيكون ، وتمهيداً له قبل أن يقع .. ولهذا
كان هذا التمهيد فيه ، والانتظار به إلى الحال الداعية إليه .. وهنا تجد
الكلمات ممدودة فى استرخاء : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا
خفت عليه .. فألقه في اليم ، ولا تحافى .. ولا تمزنى ... »

فأم موسى ستمحتفظ بوليدها عندها ، وترضعه إلى أن تستشعر الخطر من فرعون وجنوده . ولسكنها حين يفجأها الخطر ، ويحرق بها ، تتحرك الأحداث في سرعة وانقطاع . . . إنها ستسرع إلى التابوت الذي أعدته من قبل ، والذي لم يحرقه ذكر في الصورة السابقة على ما فيها من بسط وتمهل ، إذ أن ذلك عمل لا بد منه ، وقد هيئت لإلقاء وليدها في أليم . . . إنها لا تلقيه هكذا دون أن ترفده بما ينجيها من الفرق ، وإلا كان إلقاءه قتلا عاجلا له ، دونه القتل المنتظر على يد فرعون ! « أن أقذفيه في التابوت فأقذفيه في أليم » .

وهنا — كما قلنا — تجري الأحداث مندفعة ، فتقذفه في التابوت قذفاً ، وتقذفه كذلك في أليم ، ولا تلقيه إلقاء . . . إنها مطلوبة مذمورة ، تقذف بوليدها بعيداً عن موطن الخطر ! فإذا أفلت من يدها ، وامتلأ قلبها فرحاً وكرهاً جاءها من الصورة الأولى قوله تعالى الذي وعدها به من قبل « لا تخافي ، ولا تحزني . . . إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين » . . . وإنك لو قرأت « الصورة » الأولى ثم قرأت بعدها « الصورة » الثانية لوضح لك ما بينهما من التجاوب والتناغم ، والتكامل ، ولبان لك أن الأولى منهما إعداد للموقف ، وأن الثانية إبرام وتنفيذ .

وانظر مرة رابعة . . . في هذا الأمر الموجه إلى أليم : « فليلقه أليم بالساحل » — إنه أمر سيصدع له أليم ، ويلقاه بالخضوع والامتثال ، إذ هو أمر من عند الله الذي يخضع له كل موجود . . . وقد صدع أليم لهذا الأمر السكريم ، وألقى بموسى إلى الساحل !

وكذلك الشأن في الأمر الغيبي الموجه إلى فرعون . . . « يأخذه عدو لي ، وعدو له » . . . إنه لا مفر لفرعون من أن يأخذ موسى ليحل عنده . . . يريه ، ويراه ، رعاية الآباء للأبناء . إنه وقد أخذه ، ورباه !

ونسأل بعد هذا :

وليس من هذه الصورة إلا الآيات الأربع الأولى ، بعد قوله تعالى :
 « هل أتاك حديث موسى » - هي التي تحدث عن واقعة الطور . . وهي - كما
 قلنا - تلخيص دقيق ومعجز للصورة كلها ، قد طويت فيها التفاصيل التي ذكرت
 أو ستذكر فيما نزل أو سينزل من قرآن ، فالذي يقف عندها يذكر بكلماتها
 القليلة كل أحداث الواقعة وتفاصيلها ، إن كان قد علم بها من القرآن ، وإلا ففي
 هذه الكلمات ما يمثل له صورة واضحة محددة لموسى ، ومناجاة الله له ، والمكان
 الذي ناجاه فيه ، وموضوع هذه المناجاة ، وأنها دعوة من موسى إلى فرعون
 الذي ظلمه ، وعلا في الأرض ، وسام الناس ظلماً وخسفاً - يدعو به إلى الإيمان
 بالله ، والاستقامة على طريق المؤمنين ، فإذا جاء ذكر الحادثة مفصلاً بعد هذا
 وجدت لها في النفس مكاناً مهيئاً ، ينتظرها .

وإذن فهذه الصورة الرابعة ليست من التكرار في شيء ، وإنما هي
 إشارات مفصحة مبينة عن الحادثتين ، أشبه بتلك الإشارة الذكية ، التي تقتطع
 من رواية سينائية ، ثم تعرض لتسكون إعلاناً عنها قبل عرضها . .
 وبعض الناس قد تغنيهم هذه الإشارات الموجزة عن التطلع إلى ما وراءها ،
 على حين أن بعضاً آخر قد تغريهم تلك الإشارات بالترقب للعرض الكامل لها ،
 والاستعداد لاستقباله .



أما موقف موسى حين دعى إلى لقاء فرعون ، وتخوفه من ذلك اللقاء ،
 لما عرف من فرعون من جبروت غاشم باطش ، ولما كان من موسى من قتل
 المصري - أما هذا الموقف فقد ذكر في مواضع كثيرة من القرآن . . منها :
 (١) في سورة طه ، وفيها يقول الله تعالى :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى . . قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي
 أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي
 هرون أخى ، أشدد بي أزرى ، وأشركه في أمري . . كي نسبحك كثيراً ،
 ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً . . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى . »
 وتتضمن هذه الصورة :

١ — دعوة الله لموسى بالذهاب إلى فرعون .

٢ — وصف فرعون بصفته التي عرف بها ، وهي البغي والطغيان .

٣ — طلب موسى من الله أن يعينه على أداء رسالته بأن يشرح صدره ، ويسر أمره ويحل عقدة لسانه ، وأن يرفده بأخيه هرون ، ليكون سنداً له وعضداً .

٤ — إجابة الله سبحانه دعوة موسى ، وتحقيق ما طلب .

(ب) وفي سورة القصص بقول سبحانه وتعالى :

« اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب ، فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني ، إني أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً فلا يصلون إليك بآياتنا ، أنما ومن اتبعك القالبون . »

وعناصر هذه الصورة :

١ — دعوة موسى بالذهاب إلى فرعون وملائه .

٢ — وصف فرعون وقومه بصفة أخرى غير الطغيان ، وهي الفسق .

٣ — تخوف موسى من فرعون ، وذكره بين يدي الله ما كان منه من قتل المصري وخوفه أن يقتله فرعون به .

٤ — طلب موسى من الله أن يشد أزره بأخيه هرون إذ هو أفصح منه لساناً .

٥ — وعد الله سبحانه لموسى بإجابة ما طلب .

(ح) وفي سورة النمل جاءت الصورة هكذا :

« وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، في تسع آيات إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما جاءتهم آياتنا قالوا هذا سحر مبين . »

وواضح أنه لم يذكر في هذه الصورة شيء من مخاوف موسى ، ولا شيء مما طلب لشد أزره وتطمين قلبه .

(د) وفي سورة الشعراء يقول الله تعالى :

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ، ولا ينطق لسانى ، فأرسل إلى هرون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون .. قال كلا فاذهباً بآياتنا إنا معكم مستمعون » .

وعناصر الصورة هنا هي :

(١) دعوة الله لموسى أن يذهب إلى قوم فرعون (٢) وصفهم بالظلم (٣) إظهار موسى خوفه من أن يكذب وليس معه لسان طالق (٤) طلب إلى الله أن يقيم من أخيه هرون رسولا يسنده (٥) إظهار خوفه من القتل . (٦) تطمين الله سبحانه له ولأخيه .

(هـ) وفي سورة النازعات : « وهل أتاك حديث موسى : إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى » ليس فيها من هذا الموقف إلا عنصر واحد ، وهو الأمر بالذهاب ، دون أن تكون لموسى مراجعة . وإنك لتستطيع أن تضم هذه الصور الخمس بعضها إلى بعض في تلاوة واحدة ، دون أن تجد شيئاً من التراكب فيها ، أو التدافع بينها ، ودون أن نحس بأنها صورة واحدة تتكرر خمس مرات في سمعك أو فهمك . . ففي كل صورة لون جديد تفتقده الصور الأخرى ، دون أن يدخل عليها من ذلك الفقد خلل أو خفاء ؟ .

فالصورة الأولى - التي نراها في سورة طه - تفتقد ما في الصورة الثانية - التي جاءت بها صورة القصص من أن موسى قتل نفساً وأن هذا القتل من أسباب خوفه وتردده في لقاء فرعون . . على حين أن الصورة الثانية تفتقد ما في الصورة الأولى من أن موسى به عقدة في لسانه ، بينما تحلوا الصورة الأولى مما في الصورة الثانية من الحديث عن هرون بأنه أفصح لساناً من موسى .

والصور الخمس تصف فرعون وقومه وصفاً كاشفاً . . فبينما يتفرد هو

بالظنسان في موقف .. إذ يشترك مع قومه في الفسق والخروج عن طريق
 القصد والاعتدال ، إلى البنى والعدوان ، في موقف آخر .. إنه ظنى ..
 لهم كانوا قوما فاسقين .. قوم فرعون .. ألا يتقون !
 ونقول : إذا كانت هذه الصور قد أمكن أن تجتمع في مقام واحد
 فتنألف منها صورة واحدة ، مع احتفاظ كل واحدة منها بمفخصاتها ،
 ومقوماتها ، فكيف يقال بمد هذا عن العرض القصصى في القرآن على هذا
 الأسلوب إنه تكرر ، وأن من هذا التكرار تولد القول بإحالة هذا القصص
 إلى المنعابه الذى لا يعرف وجهه !! وكيف يقبل مثل هذا القول إذا كان وضع
 هذه الصورة في القرآن على غير هذه الصورة المجتمعة ، وإنما هي كما نعلم وترى ،
 موزعة في القرآن كله توزيماً يباعدها بينها بحكم التلاوة ، التى ينبغى أن يتلى
 عليها القرآن ؟

* * *

أما لقاء موسى بفرعون ، وما جرى بينهما من مساجلات ومجادلات ،
 وتحديات ، فقد كثر في القرآن وروده على وجوه مختلفة من صور العرض ،
 بين مبسوط ومقبوض .

وهذه الصور جميعها شأنها شأن كل ما تكرر من قصص - نمثل ألواناً من
 الصورة الكبيرة ، كل صورة ذهبت بلون أو ألوان منها ، فإذا اجتمع بعضها
 إلى بعض تجسم منها المشهد كله ؛ فتحرك منها ما كان ساكناً ؛ ونطق
 ما كان صامتاً .

وهذه الإشارة وإن أغنت عند كثير عن ذكر الأمثلة ؛ فإن كثيراً من
 يحسن أن نلقاهم بهذه الأمثلة .. فليكن هذا ؛ فهو خير ؛ والاستزادة من
 الخير خير .

الموقف كما يصور في سورة طه :

فهذا موسى وهرون ، يقبلان على فرعون ، وقد حلا كلمات الله إليه :
 « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى .. »

أفي هاتين الصورتين تكرار ؟ وهل في إحداها لون لا نجد له مكاناً في الصورة الأخرى ؟ ولا نجيب على هذا ، فقال الحال أبلغ من كل مقال !
(ثالثاً)

ما كان من شأن موسى في بيت فرعون ، واهتداه أمه إليه ، ثم جعلها مرضعاً له :

في سورة القصص نجيب الصورة على هذا الوجه :
« فالتقطه آل فرعون ليسكون لهم عدواً وحزناً -
« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين -
« وقالت امرأة فرعون فرقة عين لي ولك ، لا تقتلوه -
« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون -
« وأصبح فرؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به -
« لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين -
« وقالت لأخته قصيه -
« فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون -
وحرمتنا عليه المراضع من قبل -
« فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم .. وهم له ناصحون -
« فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن . ولتعلم أن وعد الله حق ،
ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وفي سورة طه جاءت تلك الصورة هكذا :
« ... يأخذه عدو لي وعدو له
« وألقيت عليك محبة مني ، ولتصنع على عيني .
« إذ تمشي أختك ، فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك ،
كي تقر عينها ولا تحزن » .

وأنت ترى أن الصورة الثانية قد جاءت - على إيجازها - بلونين جديدين
(١٦ - القصص القرآني)

ليس لها وجود في الصورة الأولى ، وهما : (١) وصف فرعون بأنه عدو لله ، وعدو لموسى . فهذا الوصف قد خلت منه الصورة الأولى التي جاء فيها أن موسى الذي التقطه آل فرعون ، والذي احتفظوا به ، عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولدًا سيحى لهم منهم غير ما ينتظرون ، ويقدرّون .. سيكون لهم عدوًّا ، وحزنًا .. وبهذا اللون من ألوان العداوة المتبادلة بين فرعون وجنوده ، وموسى ودعوته ، يمتدل ميزان الموقف الذي ستدور فيه المعركة المرتقبة بين الحق والباطل ..

(٢) المحبة التي ألقاها الله على موسى ، هي التي أقامت من امرأة فرعون داعية تدعو إلى الاحتفاظ بهذا الطفل ، حين تحركت في قلبها عواطف الأمومة له .. وبهذا يعرف - من لم يعرف - أن هذا الذي وقع لموسى لم يكن إلا بتدبير من الله ، وبفضل من رعايته له ، وأن الله سبحانه هو الذي حرم عليه المراضع فلم يقبل الوليد ثدي واحدة منهم ، وأنه سبحانه هو الذي حل أخته عليه ، وألقى في روعها أن تقدم أمها كمرضعة له ... وبهذا عاد إلى أمه ، وتحقق وعد الله الذي وعدها إياه في قوله سبحانه : « لا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك .. » .

ونعود فنقرر مرة أخرى أن هذه المراحل الأربع من حياة موسى التي ذكرها الله سبحانه مرتين : في سورة طه ، وفي سورة القصص ، ليس في ذكرها هنا وهناك تكرار . بل إن في كل صورة منهما أضواء تشع على الصورة الأخرى ، وتملأ كل فراغ فيها .

فإذا نظرنا في المرحلتين الخامسة والسادسة ، وهما : ما كان من موسى من إطاعة إسرائيل على قتل مصرى ، وفراره إلى مدين .. ثم ما كان موسى في مدين مع شعيب ، وزواجه من إحدى ابنتيه - إذا نظرنا في هاتين المرحلتين نجد أنهما لم يذكر في القرآن إلا ذكرًا واحدًا في سورة القصص .. وهي قوله تعالى :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمة وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين ،

ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان .. هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فذكره موسى ففضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلان أكون ظهيراً للمجرمين ، فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسك بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب أنجنى من القوم الظالمين .. ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسئ حتى يصدر الرعاء ! وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لمآأ أنزلت إلى من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يبدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ، قال إنى أريد أن أنسكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، قال ذلك ببنى وبينك أبما الآجلين قضيت فلا عدوان هلى ، والله على ما نقول وكيل ، ^(١) .

هذه هى الصورة الوحيدة التى صور فيها القرآن هاتين المرحتين من حياة موسى ، ولم يذكر عنهما شيئاً فى غير هذا الموضع ، إلا أن يكون تذكيراً بما فيها من عبرة وعظة ، كما ذكر فى سورة طه عن قتل المصرى ونجاة موسى من

القصاص منه : « وقتلت نفسك فتجيبناك من القم وقتناك فتونا » أو أن يكون ذلك تهديداً وتخويفاً ، كواجهة فرعون لموسى بهذه الفعلة حين جاء يدهوه إلى الله فقال : « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » (١) .

وإذن ، فلا سؤال هنا عن التكرار . . وإنما السؤال عن عدم التكرار ، إذ كان التكرار هو السمة الغالبة على أحداث القمص القرآني ، وقصة موسى بنوع خاص .

وواضح أن عدم التكرار هنا في هذين المقتطين من القصة ، إنما هو لأنها من الأحداث الدائرة في الحياة اليومية للناس ، وليس فيها ما يخرج عن مألوف هذه الحياة . . وعلى هذا فإن مجرد مردها على وجه واحد يكفي في أداء الغرض المراد به منها ، في سير الأحداث التي تضمنتها القصة بتمامها . .

* * *

أما المرحلة السابعة وهي التي تصور دهوة موسى إلى مصر ، وما وقع له في طور سيناء . . فقد أشرنا من قبل إلى ثلاث مواضع ورد فيها ذكر هذا الحدث في القرآن الكريم . . في سورة طه ، والنمل والقصاص . . وقد رأينا هناك أن هذه المواضع الثلاثة تمثل الواقعة من زوايا ثلاث ، بحيث يمكن الوقوف بالنظر بها عند كل زاوية منها ، فإذا اجتمعت جميعها أشرقت بنا على الواقعة من جميع جهاتها ، ورأينا كثيراً من أسرارها وخفاياها .

بقي أن نذكر . . هنا . . أن هذه الواقعة قد ذكرت مرة رابعة في سورة « النازعات » وأنها جاءت تلخيصاً دقيقاً مركزاً لقصة موسى كلها بما فيها هذه المرحلة . . يقول الله تعالى : « هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . . اذهب إلى فرعون إنه طغى . . فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآبة الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسمي ، فخنق فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » . . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى . .

«قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ ولا يفلح الساحرون، قالوا أجبنا لتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وما نحن لكما بمؤمنين، وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم، فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون، فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر، إن الله سيضلله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون».



هذه معارض أربعة، قد عرض فيها هذا الموقف الذي كان بين موسى وفرعون، عرضاً مبسوطاً، اتسع لأهم الأحداث التي جرت فيه، والتقط أدق الخلجات النفسية التي وقعت في مجريات الصراع بين شخصياته. وكما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة لحدث الواحد نقول هنا إن هذه الصور إذا ضم بعضها إلى بعض قامت منها صورة واحدة، هي صورة مكبرة لكل واحد من هذه الصور على حدة .. فإنك إذ تنظر في الصورة الكبيرة ثم تنظر في أي من الصور الصغيرة تجد الملامح هي الملامح، والصورة هي الصورة، وإن حملت الصورة الكبيرة ألواناً أكثر، وشغلت مساحة أكبر.

وقد قلنا إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال ضم هذه الصورة بعضها إلى بعض، وتلاوتها في معرض واحد، حيث يمضي القارئ في القراءة أو المرتل في الترتيل، دون أن يشعرك أنه بعيد ماقرأ، أو يكرر ما رتل. وزيد هنا أن نصنع صنيعاً آخر مع هذه الآيات بتضخا لنا منه — بصورة أكثر وضوحاً — خلو القصص القرآني من التكرار بالمعنى الذي فهم عليه، والذي كان في نظرا الأغبياء والأدعياء تهمة يرمى بها القرآن في أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان.

ونظر في الواقعة ذاتها فوجد أنها تشتمل على العناصر الآتية :

١ - موسى، ومعه أخوه هرون، وما ألقيا به فرعون من آيات، ومقولات.

٢ — فرعون ، والملا الذى معه من قومه ، وسحرته ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات .

٣ — ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم وإيمان .

٤ — ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد .

وصنيعنا هنا هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر في هذه الصور الأربع التى عرض فيها القرآن الواقعة كلها .

(١) موسى وهرون فى مواجهة فرعون :

موسى وهرون : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى »
[من سورة طه]

موسى وهرون : « إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل »
[من سورة الشعراء]

موسى : يا فرعون إني رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق .. فأرسل معى بنى إسرائيل [من سورة الأعراف]

أما الصورة الرابعة — التى جاءت بها سورة يونس — فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون .

واقراً هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، نجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد جاءت به متلبساً بكل ما كان

يجرى فى النفوس من مشاعر وأحاسيس .

فهذه المقولات الثلاث ليست قولاً واحداً جاء به القرآن فى ثلاث معارض من القول .. وإنما هى أقوال ثلاثة فعلاً ، كل قول منها مستقل بنفسه ،

قائم بذاته .

ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذى بين هذه الأقوال ؛ وأياً يسبق صاحبه أو يتأخر عنه .. ومع هذا فإن الترتيب الذى تجتمع عليه فى كل وضع ممكن

هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه .

ويكفى أن تنظر إليها في وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذي جاء هنا من غير قصد ولا تدبير .

١ — فهذا موسى ومعه أخوه هرون .. يدخلان على فرعون معاً ، ويتحدثان بصوت واحد معاً .. إذ كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل أن يلقاه ، فقد طلب إلى الله أن يشد أزره بأخيه هرون ، فهو أفصح منه لساناً ، فيقولان : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » [سورة طه]

وهي قولة لا تلتقي فرعون لقاء مواجهها ، إنما حكم عام : « أن العذاب على من كذب وتولى » .

٢ — ثم هاها وقد أخذت تزييلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء .. فيلقيان فرعون لقاء مباشراً ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم فيقولان معاً : « إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى إسرائيل .. » [سورة الشعراء] ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يحيد رهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزيله رهبة الموقف بعد ، ولا يزال هرون معه يأخذ مكانه إلى جانبه يشد أزره ؛ ويثبت جنانه ..

٣ — ثم ها هو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ؛ واحتمل الصدمات الأولى لها .

— ها هو ذا يلتقي فرعون وحده ؛ ويسمعه بلسانه مضمون رسالته في قوة وصراحة .

« يا فرعون !! »

« إني رسول من رب العالمين .. »

« حقيق علىّ ألا أقول على الله إلا الحق .. »

« فأرسل معي بنى إسرائيل .. »

يا للعاجاز الذي تذلل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتمنوا الوجوه !

يا فرعون !

هكذا يقولها موسى في وجه فرعون !
أترأه كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟
وكيف وهو الذي حسب لهذا الموقف ألف حساب وحساب قبل أن
يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون إلا بعد ممارسة المرقف ومعاودة التجربة !
وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يا فرعون ! ولا أن يقول بعدها :
إني ؟ هذا الضمير المحقق لشخصيته ، والمؤكد لذاتيته : إني .. لا أحد غيري ..
« رسول من رب العالمين » ولحرف الجر « من » هنا ماله من الإشعار بهذا
الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التي تحملها ، والجهة التي جاءت منها ، ففيها
ماليس في قوله لوقال : « رسول رب العالمين » من الشحنة القوية المليئة
بالاعتزاز بهذا السلطان الذي يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين ..
« حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق » .. وهذا اعتزاز بعد اعتزاز ،
لشخصه الذي يحمل رسالة السماء .. ومن هذا الأفق العالى ينزل أمر موسى
هادراً مدوياً في وجه فرعون : « فأرسل معي بنى إسرائيل » ١٠ ! ولك أن
تضع هذا الأمر الصادع إلى هذا الرجاء الذي أسمعه — موسى وهرون —
لفرعون من قبل .. « أن أرسل معننا بنى إسرائيل » وسيتضح لك ما بين
الحالين من مفارقات !.

وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد
من قبل ؟

تنظر ، ونرى !

(ب) فرعون وقومه وسحرته :

وفرعون في هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشاً عجباً
لهذا التطاول عليه ، والخروج على المألوف في حضرته .. ثم إنه مع هذا هو
فرعون !! يبسط سلطانه على أهل المجلس ، يلقي نظرة هنا ونظرة هناك ،

قال : فمن ربكما يا موسى ؟

قالا : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال : فما بال القرون الأولى ؟

« قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . . الذى جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم . . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . . منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أرسلنا آياتنا كلها ، فكذب وأبى .

— قال أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثله ، فاجمل بيننا وبينك موعداً ، لا نخلفه نحن ولا أنت مكافاً سوى .

« قال : موعدكم يوم الزينة ، وأنى يحشر الناس ضحى .

فتولى فرعون فجمع كيداً ثم أتى .

« قال لهم موسى : ويلكم . . لا تقفروا على الله كذباً ، فيسحقكم بمذاب

وقد خاب من افترى .

.. « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى [قالوا : إن هذان لساحران

يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفاً ، وقد أفلح من استعلى .

« قالوا يا موسى : إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى ؟ .

« قال : بل ألقوا . . فإذا جبالهم وعصبيهم يخيل إليه من سحرهم أنها

تسمى . . فأوجس فى نفسه خيفة موسى .

— قلنا : لا تخف . . إنك أنت الأعلى ، وألقى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا

إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى .

« فألقى السحرة سجداً . .

« قالوا : آمنا برب هرون وموسى !

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر

فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبكم في جذوع النخل ، ولتعلمن
أينا أشد عذابا وأبقى .

« قالوا : لن نترك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض
ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا .. إنا آمننا ربنا ليغفر لنا خطايانا ،
وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » .

واستمع إلى هذا الموقف كما تصوره سورة الشعراء :

وفي هذا الموقف ينتقل المشهد من الموقف الذي كان من موسى بين يدي
الله . إلى فرعون ، دون فاصل ما ..

« فأتيا فرعون . فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا
بنى إسرائيل .

« قال : ألم نريك فينا وليدا ، ولبثت فينا من صمرك سنين ، وفعلت فعلتك
التي فعلت ، وأنت من الكافرين .

« قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففرت منكم لما خفتمكم ، فوهب
لي ربي حكما ، وجعلني من المرسلين .. وتلك نعمة تمنها على أن عبدت
بنى إسرائيل .

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟

« قال : رب السموات والأرض وما بينهما ، إن كنتم موقنين .

« قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟

« قال : ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون .

« قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

« قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين .

« قال : أولو جنتك بشئ مبين ؟

« قال : قالت به .. إن كنت من الصادقين .

« فالتقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبین ، ونزع يده ، فإذا هي بيضاء للناظرين .

« قال للبلاء حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون ؟

« قالوا : أرجه وأخاه وابتعث في المدائن حاشرين .. يأتوك بكل سحار عليم .
« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ؟
« فلما تبع السحرة إن كانوا هم الغالبين .. فلما جاء السحرة - قالوا لفرعون .
« أنى لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين .

« قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين .

« قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون .

« فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون] .

« فالتقى موسى عصاه ، فإذا هي تلقف ما يأفكون .

« فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .

« فالتقى السحرة ساجدين .

« قالوا : آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون .

« قال : أنتم له قبل أن أذن لكم .. إنه لكبيركم الذي علمكم السحر .

« فلسوف تعملون ؛ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين .

« قالوا : لا ضير .. إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا

خطايانا أن كنا أول المؤمنين »

وجاءت صورة الموقف في سورة الأعراف هكذا :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه ؛ فظلموا بها فانظر

كيف كان عاقبة المكذبين .

« وقال موسى : يا فرعون .. إني رسول من رب العالمين .. حقيق على

ألا أقول على الله إلا الحق .. قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معي

بنى إسرائيل .

« قال : إن كنت جئت بآية فأنت بها إن كنت من الصادقين ..
 « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين .
 « قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم
 من أرضكم بسحره فإذا تأمرون .. قالوا : أرجه وأخاه ، وأرسل في اللدائن
 حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم .
 « وجاء السحرة فرعون ..
 « قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين .
 « قال : نعم وإنكم لمن المقربين .
 « قالوا : ياموسى .. إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين .
 قال : ألقوا .
 .. « فلما ألقوا سحوا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم .
 .. « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ، فإذا هي تلقف ما يأفكون .
 .. « فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هناك ، وانقلبوا
 صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين .
 « قالوا : آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون .
 « قال فرعون : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إن هذا لكم مكرتموه في
 المدينة ، لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطنن أيديكم وأرجلكم
 من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين .
 « قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون .. وما ننقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا
 لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين .

* * *

وفي سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه :

« ثم بثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملأه بآياتنا ، فاستكبروا
 وكانوا قوماً مجرمين .. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا هذا سحر مبين .

ويرى بكلمة هنا وكلمة هناك .. إنه هنا المحور الذي تدور به ومن حوله الأحداث .

وطبيعي ألا يأخذ الحديث أنجاساً واحداً ، لتمدد الأطراف المشتركة فيه فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملائكة .. ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التي عرضها القرآن لهذا الموقف ليست لقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هي « لقطات » مركزة مجمعة لا أكثر من لقاء ؛ إذ من غير الطبيعي أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهي إلى هذا التحدى الذي حددا موعده ، والذي يلتقى فيه موسى بالصحرة .. ولكن المقدر في هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن ييأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدى والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرائن ، وإعجازه في تصوير مشاهد هذا الموقف في أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضاً قد جعل منها مشهداً واحداً ، تملك به تلك المشاعر التي كان يعيش بها أصحابها في هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزماني أو المكاني فيها خلخلة ، أو ازدواجاً .

ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، في موقف واحد ، وسرى أنها تقبل مثل هذا العرض ، وتتلاقى فيه وجوهها ، دون أن تتخالف أو تتصادم أو تتدافع .

* * *

ولقد رأينا في الموقف السابق أن فرعون قد أخذ بالمباغنة التي طلع بها موسى وهرون عليه ، وأنه حين أسمعا هذا القول الذي قاله له ، في قوة وجراءة - وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فأتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

« ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ؟ »

[سورة القصص]

(١٧ - القصص القرآن)

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى في الصميم ، وأنها ستخفض رأسه في حضرته .. إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه بيد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة مخيفة لفعلته التي فعلها ، وهي قتل المصري ١٠٠

ولكن موسى يقف لفرعون ، ويحجبه قائلا :

« فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففرت منكم لما خفتكم فوهدتني ربي حكما ، وجعلني من المرسلين .. وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ؟ »
[سورة القصص]

وهنا يلتقي فرعون سائلا :

« من ربكما يا موسى ؟ » [سورة طه]

وانظر إلى كيد فرعون في هذا السؤال الماكر .. إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما في لسان موسى من حبة .. وذلك ليخرجه أويضعه أمام الجمع .

ويحجب موسى ، وقد أطلق الله سبحانه خبسة لسان :

« ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » [سورة طه]

ويعالجه فرعون بسؤال آخر :

« ما بال القرون الأولى ؟ » [سورة طه]

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

« علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى .. كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولي النهي ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخخرجكم تارة أخرى » [سورة طه]

وانظر أيضاً كيف عدل موسى عن الجواب على سؤال فرعون ، والدخول معه في هذه الجهة التي يكثر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفاً حاسماً : ما بال القرون الأولى ؟ طوفان يفرق فيه من يتصدى للجواب

عليه .. ثم خلس من هذا إلى المرض الواضح المحسوس الذى لا ينكر، لقدرة الله ، وما لهذه القدرة من آثار عظام وجوه الحياة .

وبضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة .. فيجىء إلى موسى من طريق آخر فيسأله :

« وما رب العالمين ؟ » .. [سورة الشعراء]

ويكون جواب موسى حاضراً .

« رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » .

[سورة الشعراء]

ويتلفت فرعون حواليه .. عجباً ، دهشاً ، مستنكراً .. يقول لأهل مجلسه :

« ألا تستمعون ؟ » [سورة الشعراء]

وإلى هذه الجهة الجديدة التى فتحتها فرعون بتجه موسى قائلاً :

« ربكم ورب آبائكم الأولين » [سورة الشعراء]

وتثير هذه المرأة حنى فرعون .. إذ كيف يجرد موسى على تحطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته .. ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر فى هؤلاء الذين وجه إليهم حديثه .. فيقول لهم :

« إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » [سورة الشعراء]

ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل ..

فيقول : « رب المشرق والمغرب ، وما بينهما إن كنتم تعقلون » .

[سورة الشعراء]

وفى قولة موسى هذه تحريض قوى هؤلاء الأنباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بمقولاتهم ، فلا يكون فرعون هو الذى يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. « إن كنتم تعقلون » .

ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم - قوم فرعون - من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فليقاه بهذا الوعيد :

« لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجملنك من المسجونين » [سورة الشعراء]

ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله :

« أولو جثثك بشىء مبين ؟ » [سورة الشعراء]

ويجيبه فرعون :

« فأت به إن كنت من الصادقين » [سورة الشعراء]

ويقبل موسى بما معه :

« فالتقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين »

[سورة الشعراء]

ويحسب فرعون أن هذا من حمل موسى ، وسحر من سحره ، وأنه ليس

بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

« إن كنت جثت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين » .

[سورة الأعراف]

وليس بين يدى موسى آية غير تلك الآية التى قدمها من قبل .. فيعرضها

مرة أخرى .

« فالتقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين »

[سورة الأعراف]

إنه نفس المنظر الذى عرضه موسى من قبل ، والنبي ذكر في سورة

« الشعراء » .. لم تتغير لمحة من لمحاته .. إنه كلمة من كلمات الله .. و « لا تبديل

لكلمات الله » ..

وهنا يبدى فرعون رأيه في هذا العمل الذى قدمه موسى على أنه الآية

التي بين يدى دعواه ، ويكثر لفظ القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم

فيها ، ثم يتكشف هذا اللفظ ، وتنتهى هذه الأقوال إلى قول واحد فيها ، هو

ما قاله فرعون :

« قال للملأ حوله :

« إن هذا لساحر عليم ، يريد يخرجكم من أرضكم بسحره ، فإذا تأمرون »

[سورة الشعراء]

وتعمل هذه القولة عملها في حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع . . ويضبطها القرآن الكريم في قوله تعالى :

« قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم . . يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فإذا تأمرون » [سورة الأعراف]

ويمسك فرعون مرة أخرى بزمام الموقف ، بمد أن أشاع في قومه هذا الشهور بأن موسى ساحر عليم . . ثم يجسد هذه المشاعر في تلك الكلمات المتحدة المهددة .. يواجه بها موسى :

« أجبثنا لنخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ » [سورة طه]

وانظر في هذا الإعجاز الذي تنقطع دونه الأعناق !

لقد وزع القرآن هذا المشهد في معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ، فجعل قولة فرعون في سورة ، وجعل قولة الملأ في سورة أخرى حتى لا تتراكم الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظة أو معنوية .

وانظر مرة أخرى في هذه المقولة : « فإذا تأمرون ؟ » لقد جاءت على لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملأ من حوله ..

إنها الكلمة التي كانت تدور على الألسنة في مثل هذا الموقف . . كل يسأل صاحبه : (ما العمل ؟) .. ثم يجيء الجواب بمسكا بالاتجاه الغالب ، الذي كاد يستقر عليه الرأي ، وتجمتع عليه الأثرية . .

« قالوا : أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار

عليم » [سورة الشعراء]

و « قالوا : أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم »

[سورة الأعراف]

وإذا كان رأى قد غلب فى إرجاء موسى وأخيه ، وفى البحث عن
السحرة فى كل مكان ، فإن رأى كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة
من مهر فى السحر من السحرة . فقال قريق بدعوة كل ساحر ، وقال قريق
آخر بدعوة كل ساحر .. ولهذا أعيد الجواب ، فكان مقترناً بكلمة «ساحر»
مرة ، بينما اقترن بكلمة «سحار» فى المرة الأخرى .

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل ، من تلك الفواصل الزمانية
والمكانية بين الآيتين الكريميتين ، ومع ملاحظة أن كلا منهما فى موقف ،
وإن كنا قد جمعناها فى موقف واحد .

(ح) ما كان بين موسى والسحرة :

هذا موقف كان له صدى بعيد فى المجتمع المصرى يومذاك ، فقد وقف
موسى وحده ليس معه إلا عصاه ، وإلا هرون أخوه .. يتحدى فرعون
بكل جبروته وسلطانه ، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحرا

وقد اجتمع الناس ، وحشدوا حشداً لهذا الموقف فى اليوم والمكان
الموعودين : « يوم الزينة .. وأن يحشر الناس ضحى » . وكان موسى هو
الذى اقترح هذا اليوم ، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له ، ويخلون أنفسهم
من كل عمل إلا ما كان لمرح ولهو ، وليس كهذا المشهد داعياً يدعو الناس
إليه ، ويحملهم على أن يتخلوا عن كل عمل جاد وهازل من أجله .. « الضحى »
الذى كان موعد اللقاء فى هذا اليوم هو الساعة التى تبلغ فيها حركة الناس
ونشاطهم غايتها ..

وإذن فهو موقف مشهود مشهور ، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو بما
يسفر به وجه الحق ، وتجلي فيه آياته ، فى صراعه مع الباطل .. وهو بهذا
صورة كريمة من الصور التى ينبغى أن تكون متمثلة دائماً فى خاطر أصحاب
الدعوات ، ليسكون لهم منه عبرة وعظة تخفف بها أعباءهم ، وتشتد عزائمهم
فى السير إلى غايتهم .

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى مواضع كثيرة .

منه ، وعرضه عرضاً يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور .

وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى ..

فنحن نعرف في الموقف القننى كان بين موسى وفرعون أن الرأى قد استقر بين فرعون وملائه على أن يبحث جنده وأهوانه في المدائن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر .

« قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليهم ،

[سورة الأعراف]

« وقالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليهم ،

[سورة الشعراء]

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون بتنفيذ خطته .. وها هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره ..

« فتولى فرعون فجمع كيدهم »

[سورة طه]

ثم نواه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحاً لتنفيذ هذه المهمة ..

وقال فرعون : « ائتوني بكل ساحر عليهم »

[سورة يونس]

ثم نرى المحصول الذى اجتمع من هذا التدبير .. فهم أولاء السحرة قد جئ بهم من كل مكان ، وهاهى ذى أبواق الدماية تنفخ في كل جهة ، تدعو

الناس إلى أن يكونوا من وراء السحرة ، مؤيدين ، وناصرين ..

« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ،

[سورة الشعراء]

لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ؟

لقد بلغ الأمر غايته ، وأعد له كل شيء !

وها هم أولاء السحرة مجتمعون بين يدي فرعون ، قبل أن يدخلوا للمركة ،

ليتلقوا توجيهاً ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وهما يحملون من معدات

القتال .. ١

ونلح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذى تم فى يومه اللقاء ، والتحم الصراع ..

« فلما جاء السحرة .. قالوا لفرعون : أئمن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين ؟ »
[سورة الشعراء]

فهذا الاسترخاء والمط الذى توحى به كلمة « لما جاء السحرة فرعون » يوحي بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقيهم أفراداً وجماعات ، ليعرف أولاً فأولاً ماذا يجتمع له من هذه القوى .. ثم يشعرنا هذا الاستفهام المتخازل للتخافت فى أقوالهم : « أئمن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين » أن السحرة لا يزالون مأخوذين برهبة الموقف بين يدي فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلاً متلطفاً مستأذناً .. أئمن لنا لأجر ؟ .. إن كنا نحن الغالبين ؟ .

ويلقى فرعون هذه اللتى بوعده غير منجز ، وعدم وقوف بالظرف المناسب له ، مقدور بالحالة التى يقع عليها .. « قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين ! » .
واظر إلى الصورة من جانبها .. استفهاماً ، وجواباً عنه :

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئمن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين ؟ »
« قال .. نعم ، وإنكم إذن لمن المقربين ؟ .. » [سورة الشعراء]
ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألواناً وظلالاً .

« وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجر . إن كنا نحن الغالبين ! »
« قال نعم ، وإنكم لمن المقربين » ... [سورة الأعراف]

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التى حملها محمد صلوات الله وسلامه عليه بين يديه ، وعلى لسانه ، وفى قلبه ، هدى ورحمة للعالمين ..

١ — فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة « لما » تلك الكلمة التى تشع بالاسترخاء والمط — كما قلنا — والتى تدل على أن السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حالا ..

٢ — أخذ الفعل « جاء » مفعوله وهو « فرعون » في الصورة الثانية ، على حين لم يذكر له مفعول في الصورة الأولى ..
 (أ) ولما جاء السحرة .. قالوا لفرعون ..
 (ب) وجاء السحرة فرعون .. قالوا ..

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الأولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقيهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفراقاً لم يحدث له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الأخير في مواجهة فرعون ، وفي تلقى وصاته الأخيرة لما أعدهم له .

٣ — في الصورة الأولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذي يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا في هذا الموقف — أشبه بالاستجداء ، يقابله وعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصديق من فرعون ، بينما يتحول هذا الاستجداء في اللحظة الأخيرة وقد أزفت الآزفة ، وواجه فرعون الامتحان .. تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقصاء لأجر في مقابل عمل .. « إن لنا لأجراً .. إن كننا نحن الغالبين » ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة .. « نعم وإنكم لمن المقربين » ! [سورة يونس]
 بعد أن كان قوله لهم : « نعم وإنكم إذن لمن المقربين » .

[سورة الشعراء]

فكلمة « إذن » هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساهر ..
 أوها معاً ! .

* * *

وها قد عبثت القوى التي أعدها فرعون لموسى .. وها هي ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا اليهم ، لهذه الساعة المرتقبة ، في حديث متصل ، وفي تقديرات وتخمينات ، وتهكمات ، روساوس وآمال .

وإذن فنحن هنا في انتظار أن يرفع الستار عن هذا المشهد المشهود !

وبلغة المسرح يمكن أن نقول . الآن أطلقت أنوار «الصالة» ، وأضيئت
أنوار المسرح . وها هي ذى الدقات التقليدية التى تسبق رفع الستار قد
بدأت تدق !

إنها ليست دقات ، ولسكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعته
نفخات «البوق» إلى التآهب والاستعداد !

«فتولى فرعون ..»

«لجمع كيده ..»

[سورة طه]

«ثم أتى ..»

هذه هى الإشارة الوحيدة التى ذكرت فى القرآن لتصوير هذه اللحظة
التي تجعلنا وجهاً لوجه أمام المعركة ! وما كانت هذه الإشارة لتتكرر مرة
أخرى فى أى مساق من مساقات هذه القصة .. لأنها لم تقع إلا مرة واحدة ،
وعلى وجه واحد .

وعلى الذين يرون فى القصص القرآنى تكراراً أن يقفوا طويلاً عند هذه
(اللقطة) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض
للأحداث على وجوهها المختلفة ، ومن زواياها المعتمدة ! استيفاء للصورة ،
وملاً للفراغات التى تدل عليها دلالات الأحوال ، والتى قد يعرف بعض
الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .
ويرفع الستار .

وإذا السحرة وما جلبوا فى جانب .. وموسى ، وعصاه ، وأخوه فى جانب !
وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين فى وجه صاحبه ، وما يحمل
من وسائل الصراع يتوجه موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التى يقودهم بها
إلى طريق الحق ، وليعذر إليهم بعد أن يلفهم إلى هذا الضلال الذى يعملون
له ، ويحيون فيه ..

« قال لهم موسى .. ويلكم لا تفترؤا على الله كذباً .. فيسحقكم
بعذاب ، وقد خاب من افترى » .

[سورة طه]

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة .. يشور له بعضهم ، ويتهدد بعض ، ويلين بعض .. وتكاد تكون بينهم فرقة .

ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ، ويحكمون رأيهم

«فتنازعوا أمرهم بينهم ، وأسروا النجوى .. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ، ثم اتفروا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى » [سورة طه] وهكذا نضيق عند القوم تلك الدهوة السكرية ، التي كان من شأنها أن تحسم الموقف ، فلا يقع بين الفريقين هذا الصراع الذي لا بد أن ينجلي عن هزيمة أحدهما . . وقد كان !

ويبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام . .

« قالوا ياموسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين ؟ »

[سورة الأعراف]

وفي صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى :

« ألقوا » ! ! [سورة الأعراف]

ويضيق هذا الصوت الخافت الذي لا يكاد يسمع ، وبماود السحرة القول ،

في قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

« ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ » [سورة طه]

وبجيب موسى بصوت مسموع مخنوق :

« بل ألقوا » ! [سورة طه]

ويأخذ السحرة يلقون ما بين أيديهم من سحر .. من حبال وعصى

تتحرك في تماوج واضطراب كأنها حيات ..

ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر

ما وعده الله فيمسك عليه نفسه بتلك السكبات يرددها وكأنه يريد أن يذهل

بها عن الموقف .. فكان كلما تابعت وميات السحرة لقيها بهذه السكبات التي

ربما لا يسمعا غيرها .

« ألقوا ما أنتم ملقون . » [سورة يونس]

« ألقوا ما أنتم ملقون . . » [الشعراء]

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه الضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضرب ، اضرب ! وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .

وننظر في الصورة التي صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من

عيني موسى :

١ — « فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . »

[سورة الشعراء]

٢ — « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسمى . . فأوجس

في نفسه خيفة موسى » [سورة طه]

٣ — « فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم »

[سورة الأعراف]

فالمصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشهد كله ،

فالتقطت الأثر الذي تركه فعل السحرة في المشاهدين جميعاً . .

وفي هذا الكرب السكارب والبلاء العظيم يحى صوت الحق ليملاً قلب

موسى أمناً وسكينة :

« وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك » [سورة الأعراف]

« قلنا لا تخف . . إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا

إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . . » [سورة طه]

فبهاتان لقطة تصوران النداء الذي ألقى إلى موسى من السماء . . فقد

جاء النداء الأول هكذا : « أن ألق عصاك » وكأن موسى لم يجد في هذا

الأمر القدر من الطمأنينة له . . فجاء الأمر الشارح الواضح :

« لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما

صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . »

ويعتلى كيانه موسى أمناً ، وطمأنينة ، ورجاء .

ويحرك موسى عصاه في يده وكأنه ينظر إليها لأول مرة ، ويتجه بها إلى القوم قائلاً :

« ما جئتم به السحر ؛ إن الله سيبطله ، إنه لا يصلح عمل المفسدين ، وبحق الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون »
[سورة يونس]
ثم يلقى عصاه ..

« فألقى عصاه .. فإذا هي تلقف ما يأفكون » . [سورة الشعراء]
وكان ذلك تصديقاً لما وعد من قبل : « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون [الأعراف] .. » وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا » .. [سورة طه]

وينجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقيها السحرة وبسحرهم .
« فوق الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .. فقلبوا هناك وانقلبوا صاغرين »
[سورة الأعراف]

ثم يجيء هذا الإجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الجماعة المسعدة أمر لا بد منه لأنه المنهل الذي ترتوي منه النفوس التي أظلمها حر الكفاح ، ودهج الصراع ..

« وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون » .
[سورة الأعراف]

« فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون » .
[سورة الشعراء]

« فألقى السحرة سجداً ، قالوا آمنا برب هرون وموسى » . [سورة طه]
فهذا التكرار على صورة واحدة في الصورتين الأولين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، . ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جواب الحشد الكبير ، الذي قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان .. والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانباً ثالثاً من جواب هذا الحشد نجح بصوت آخر ، غير الصوت الذي تردد مذوياً عالياً ، بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهرون ..

فهذا الصوت سمع معلنا من الإيمان برب هرون وموسى ، إذ أنه من غير الطبيعي أن يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهرون .. وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة فإن بعضنا من القوم ينظر إلى هرون نفس النظرة ، إذا كان صاحب فصاحة وبيان أكثر من موسى .. أو أن هذا التقديم لهرون هنا إنما كان من الذين قدموه - إقراراً قوياً مؤكداً بالتسليم والإيمان لهرون فضلاً عن موسى .. وهذا ذلك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التي لا يكون من بينها ما يراء بعضهم من أن هذا التقديم لهرون كان الرأية الفاصلة التي جاءت عليها آيات السورة .. ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة !

(د) ما كان من فرعون ، ووعيدة السحرة وموقفهم من هذا الوعيد :

وتقع في آذن فرعون ولعينييه كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاضع الخاضع - موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذ حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهذر .. وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه .. على غير وعى ، وبلا حساب :

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلا تقطن أيديكم ، وأرجلكم من خلاف ، ولا صلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى » . [سورة طه]

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولا صلبنكم أجمعين » .. [سورة الشعراء]

« قال فرعون : آمنتم به قبل إن آذن لكم ؟ إن هذا لكم مكرتموه في المدينة لتخرجوا منا أهلها فسوف تعملون .. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين » .. [سورة الأعراف]

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كربه السكرب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجنده تلك الهزيمة المخزية الفاضحة على الملأ .

وتسيطر على فرعون في هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهى خروج أحد عن طاعة ، وتحول أحد من حال إلى حال من غير إذنه .. ! إن ذلك معناه ضياع هيئته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقى لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ آمنتكم له قبل آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟ قبل آذن لكم ؟ إنه الهول الذى يفرق فرعون في هذا الدهول فيردد هذه الكلمة التى كان فى مدلولها سقوط هيئته ، وضياع سلطانه فى رعيته ، حين يبلغ بهم الحال أن يعملوا عملا بغير إذنه . . .

وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل ..

فهذه هى النشيلة التى يملك بها الفريق ١

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . [سورة طه] « إن هذا لمسكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها » [سورة الأعراف] . « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » . [سورة الشعراء]

وتلك خيانة عظمى .. لها عقابها المرصود .

« فسوف تعلمون » !

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل » .. [سورة طه]

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين » ..

[سورة الأعراف]

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين »

[سورة الشعراء]

كلمات يرددها ويهذى بها هذيان المجهوم .

ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التى يهذى بها أو يهذى ستنال من السحرة منالا ، فيجسئ الأمر على خلاف مايتوقع .. لإصرار ، ونجد عنيد ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !

« قالوا : لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينسات ، والذى فطرنا ، فاقض

ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ،
وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى . [سورة طه]
« قالوا . لاضير ، إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا
خطايانا أن كنا أول المؤمنين » [سورة الشعراء]
« وقالوا : إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا
لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » [سورة الأعراف]
إنه الإيمان الذي يقوم على علم ، وينشأ عن حجة وبرهان .. إيمان يحسك
بكيان الإنسان كما تحسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لاتنال منها
المواصف ، ولا تزعزعها الأماسير .

وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هي ،
ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت في هذا الجرد العاصف ! ولكن تلك
المقولات الثلاث هي الروافد الثلاثة التي صبت فيها جميع المقولات ؟
ونظرة بعد هذا إلى هذه الصور التي عرضناها من صور التكرار في قصة
موسى ، وهى أكثر قصص القرآن دورانا وذكراً ، وقد اخترناها عن قصد
لنواجه بها القول بالتكرار في القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول .. أو ما يشبه
الفضول !

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ، ولكن في مجال الجدل ، أو في مقام العناد !

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا مع المماندين سلطان !

هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لم
تجىء لعرض القصة ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هي « لقطات »
للإلفات والتذكرى .. تجىء في مواقف الإلفات والتذكير .
فن ذلك :

١ — ما جاء في سورة النمل : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين .
وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ، فانظر كيف كان طائفة المفسدين » .

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جميعاً ، في هذا المرض للوجز السريع .

٢ — ومثل هذا ما جاء في سورة القصص « فلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له طاقة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .
٣ — ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة النازعات .. وقد جاء عرضاً لقصة موسى كلها ١ .

« وهل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسمي ، فحشر فنادى ، فقال آفا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .. إن في ذلك لمبرة لمن يخشى » .

٤ — ومثل هذا ما جاء في سورة الداريات :

« وفي موسى إذ أرسلساه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه ، وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم » .

٥ — وكذلك ما جاء في سورة الإسراء :

« ولقد آتينا موسى تسع آيات فاسأل بنى إسرائيل لاذ جاءهم ، فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحوراً .. قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر . وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً . فأراد أن يستغزى من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً » .

وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايتها — كما قلنا — الإلفات والتذكير ، في مقام الإلفات والتذكير ، فهي ليست من القصص ، وإن كانت تضم في كيانها أحداث القصة كلها .

وأحسب أن القول بأن في القصص القرآنى تكراراً بعد هذا العرض الذى عرضناه من صور التكرار لأن أكثر قصص القرآن تكراراً ، وهي قصة موسى — (١٨ — القصص القرآنى)

أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال
أو التضليل .

وإذا كان ذلك هو الشأن في القصص القرآني ، فإنه في غير القصص
أظهر وأبين .

ولا نريد أن نعرض صوراً من التكرار في غير القصص ، فقد عرفنا
الوجه الذي يقوم عليه كل تكرار يلحظ في القرآن .

ويكفي أن نقف بين يدي الآية الكريمة : « بل ادرك علمهم في الآخرة ،
بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون » .

في هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد . . هو موقف المشركين من
يوم القيامة .. فهؤلاء ليسوا على حال سواء في أمر هذا اليوم ، وليست
مشاعرهم على درجة واحدة في إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون
لكل واحد من أحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له ..

ولتصوير هذه المشاعر في جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغي
أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمر لا يضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة .
ولو أنه ضبط لما كان له كبريعة في كشف الموقف العام للمشركين منه ..
إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التي لا يكاد يلح فيها بينها فرق إلا نحت
النظر « الميكروسكوبى » .

وإذن فإن العمل الذي يجدى في هذه الحال هو ضبط الناس في « مجاميع »
كل مجموعة تمثل اتجاهاً معيناً ، له صفته ، وله وجهه .
وهذا هو الذى فعله القرآن هنا .

فقد قسم المشركين في نظرهم إلى يوم القيامة ، وفي شعورهم له - إلى
ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك في صريح الآية الكريمة : « بل ادرك علمهم
في الآخرة .. بل هم في شك منها .. بل هم منها عمون » .
فالجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ عليها عن الساعة من مذلول

النظر العقلى المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسائل السكاوية فى هذا .
وأمر الساعة من الأمور الغيبية التى يؤمن بها على الغيب أولاً ، ثم يبحث
عنها بالعقل ثانياً ، بحثاً يهتدى بالإيمان وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .
ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم
مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة التى لاتدع له فرصة
للاستقرار على وجه من الوجوه .. فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضاً .
والمجموعة الثانية .. هى التى انتهى بها هذا العلم العقلى المجرد إلى أودية
الضلال والتهيم فلم يروا إلا أوهاماً وخيالات .. فهم فى شك من هذا اليوم .
والمجموعة الثالثة .. هى التى لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تنفتح
قلوبها للإيمان والتسليم .. هى هذا الصنف من الناس الذين يعبثون كإعبث
الأنعام بلا عقل ولا قلب .. « بل هم منها عمون » !

أصحاب الفن القصصى

ورأيهم فى التكرار

ونقول أصحاب « الفن القصصى فى القرآن » ، وإن كنا نقصد الرسالة
الجامعية التى تحمل هذا العنوان للدكتور محمد أحمد خلف الله .. لأن الدكتور
خلف الله ليس هو صاحب هذا المذهب الذى ذهب إليه فى تلك الرسالة ، وإنما هو
واحد من تلاميذ المدرسة « البيانية » التى قام بتكوينها وتوجيهها أستاذنا
أمين الخولى ، وجعل « فن القول » مسرحاً لأرائها ومذاهبها فى « البيان »
العربى ..

وقبل أن أعرض لموضوع الرسالة ، أوهل الأصح لما فيها من مقولات
عن التكرار فى القصص القرآنى - أود أن أذكر أن الأستاذ أمين الخولى
صاحب دور كبير فى خلق الحس الفنى عند كثير من أدباء هذا الجيل الذين
تلمذوا عليه فى الجامعة وخارج الجامعة ، وبهذا الحس الفنى استطاع كثير من
هؤلاء التلاميذ أن يتصلوا باللغة العربية وآدابها اتصالاً قوياً متمكناً ، وأن

يخلصوا إلى مواطن الحسن والجمال فيها ، وأن يتعرفوا على الأسرار الكامنة وراء هذا الحسن والجمال منها ..

هذه حقيقة ليس لأحد فضل في تقريرها ، وإنما يقررها الواقع الذي تشهد له آثار الأستاذ « الخولى » في محاضراته ، وكتاباته ، وتوجيهاته ، ثم يشهد لها أخيراً أولئك التلاميذ الذين تضمهم مدرسة « الأمانة »^(١) وأعمالهم الأدبية التي يعرضونها في صور مختلفة ، بين رسائل حامية ، وكتب ومقالات . وهذه الرسالة التي يقدمها الدكتور خلف الله عن « الفن القصصى في القرآن » هي عمل من أعمال هؤلاء « الأمانة » ، وأثر من آثارهم الأدبية ، تحمل كثيراً من آراء مدرستهم ، وأسلوب دراستها للأدب وتدوقها له .

موقفنا من الرسالة :

على أن موقفنا من رسالة : « الفن القصصى في القرآن » لا يدعونا إلى أن نواجه المدرسة الأمينية ، أو مدرسة الأمانة كلها ، ونحكم على أعمالها من مضمون هذه الرسالة . . وذلك لأن الرسالة تحمل اسم صاحبها الدكتور خلف الله . وتضاف إليه ، وهو وحده الذي يحمل تبعه ما فيها من آراء . وإذن فنحن نتحدث إلى صاحب الرسالة ، هذا الحديث الذي تناقش فيه رأيه أو آراءه في الفن القصصى في القرآن عامة ، وفي التكرار الذي جاء عليه هذا القصص - بوجه خاص !

مع الأستاذ أمين الخولى :

ولكن قبل أن نلتقي بالرسالة ينبغي أن نقف وقفة قصيرة مع أستاذنا « أمين الخولى » في هذه المقدمة التي قدم بها الرسالة ، ففي هذه المقدمة خلاصة وافية للرأى الذي نريد أن نقف عنده فيها ، وفي مناقشة هذا الرأى ما يغنى عن الوقوف عند التفاصيل الكثيرة التي عرضها المؤلف في صلب الرسالة ، تطبيقاً لهذا الرأى .

(١) هي مدرسة أدبية تنسب إلى رئيسها « أمين الخولى » . . ولها نشاطها الأدبي في مجلتها ، وفي الرسائل والبحوث التي يقدمها الأعضاء المنسبون إليها .

يقول الأستاذ الخولى فى التقديم للرسالة وفى الدفاع عن الآراء التى كانت متنازعة فيها ، واعتراض عليها .. يقول :

« وبهذا التفريق بين المرضين - الفنى والتاريخى - للحادثة والواقعة تبين فى وضوح قريب أن عرض القرآن لأحداث الماضين ، ووقائع حياتهم ، والحديث عن تلك الأحداث والأشخاص ليس إلا المرض الفنى الأدبى - لا المرض التاريخى التحقيقى » .

ومعنى هذا القول أن القرآن - لكى يؤثر ، ولكى يجد أئنتة تصفى إليه - يصطنع هذا الأسلوب الفنى فى عرض الأحداث والوقائع التى تضمنها قصصه ، وأن القرآن - لتحقيق هذه الغاية - لا يلتزم الحقيقة التاريخية ، ولا يقف عندها فى تصويره للحدث أو الواقعة ، بل إن له مطلق الحرية فى عرضها بالوجه الذى يراه ، وصبغها باللون أو الألوان التى يقتضيهما الفن ، أما التزام الحقيقة والمضوع لها ، فذلك حجر على الفن ، وتقييد لحرية الفنان الخالق !!

ثم يقول الأستاذ « الخولى » توضيحاً لهذا رأى : « وفى العرض الأول - أى الفنى - قصد القرآن إلى الإخلال الواضح بمقومات العرض الثانى التاريخى - فأغفل قصداً تحديد الزمان ، وذكر المكان ، وتسمية الأشخاص والتعريف المعتاد بمن قد يذكر أئماءهم من هؤلاء الأشخاص » .

ونحن نخالف الأستاذ الخولى فى استدلاله بإغفال القرآن فى قصصه تحديد الزمان ، وذكر المكان وتسمية الأشخاص - على أن هذا الإغفال كان استجابة لدواعى العرض الفنى ، وأن هذه الاستجابة أدت إلى تجاوز الحقيقة والمخرج عنها ، فى قليل أو كثير ، حسب احتياجات العمل الفنى .

نحن نخالف الأستاذ الخولى فى هذا !

فإن ذلك إن جاز فى بعض مستويات الأعمال الفنية التى لم تقارب درجة السكال المقذور للإنسان ، فإنه لا يجوز فى الأعمال الفنية التى تقارب هذه الدرجة أو تبسب . ، والتى بها تدرج فى سلك البقاء والملود . . فإن العمل الفنى - بكل معنى الفن - لا يقوم إلا على الصدق ، ولا يخلد إلا بمقدار ما فيه من حق ، وإن عين الفنان الأصيل تنفذ إلى أعماق الأشياء وصميمها ، وتنخل لبابها ،

على حين يقف غيره من الناس عند ظواهرها وحواشيه، ويقنعون بما تصل إليه أيديهم من قشورها .

ونحن لا ننكر على القرآن ، ولا على قصص القرآن أن يلبس ثوب الفن . فما الفن إلا الجمال ، والبهاء والجلال . والقرآن هو مصدر كل جمال ، وبهاء وجلال .

ولكن الذى ننكره هو أن يكون نسيج هذا الثوب من أية مادة غير الحق ، والحق الخالص المصنوع من كل شائبة من شوائب التخيل ، أو التزوير ، أو القرض .. وهل بعد جمال الحق جمال ؟ وهل بعد جلال الحق وروعة جلال وروعة ؟

وبعض الأستاذ الخولى فى المزيد من الشرح لآيه هذا فيقول : « وعلى هذا الأساس يستطيع المثقف الراقى حين يتدين أن يعتقد فى تسليم مطمئن بحديث القرآن الفنى فى قصصه ، ومع ذلك يحقق ويحلل فى عمق ووضوح تاريخ هاتيك الأحداث ، وأشخاص أصحابها ، وينبئ فى ذلك ويثبت مطمئناً إلى أن هذا لن يصادم بحال ماذلكم العرض الفنى الآخر ، وأن هذا العرض الفنى مهما يقل التاريخ فى أحداثه .. لن يمس سلامة القرآن وصدقه » ١١

لا ، يا أستاذنا الخولى ، إن ذلك يمس سلامة القرآن - وبصيه فى الصميم منه ! وكيف ؟ وبأى إحساس يستقبل المؤمن ، أو غير المؤمن أحداث القصص القرآنى وأشخاص أصحابها وهو يقلبها بين يديه تقايب من لا يرى أمارات الصدق فى وجهها ، ولا يستمع إلى الحديث الذى يأتيه منها إلا على أنه من واردة الأحلام أو أضغاث الأحلام ؟ أنتظن أن هذا الجو الفنى الذى تقول به ، والذى يصاحبها فى هذا العرض ، يمكن أن يستنقذها من الضياع فى ضباب الأوهام والخيالات التى تطل من عينها ؟

وكيف ؟ وبأى شعور يلتقى الإنسان بالقرآن وبقصص القرآن وهو يحدثه عن أحداث تاريخية ، وشخصيات تاريخية ، ثم هو يذهب بها فى واد ، والتاريخ المحقق أو المظنون يذهب بها فى واد آخر ؟ أليس ذلك هو الذى يخلق الازدواج والانقسام فى شعور المسلم وفى إيمانه ، وذلك الازدواج

الذى تريد أن تجنبه إياهم بهذا التسلم منه بأن القرآن لا يعنيه الحقيقة، ولا يحرم عليها في مقام العرض الفنى ؟

أما كان الأولى من هذا السكى يتجنب المؤمن هذا الانقسام والازدواج في شعوره الإيماني - أن يقيم إيمانه أولاً على يقين ثابت بأن ما نطق به القرآن في قصصه ، وما عرضه من أحداث وأشخاص ، هو الحق كل الحق ، وهو الصدق كل الصدق ، وأنه هو المهيمن على ما يحدث به التاريخ ، وما تضمنه صحفه ، وليس التاريخ هو المهيمن على القرآن ، والمصحح لأخباره ؟

نعم ذلك هو الأولى ، وهو الذى يطابق الحق الذى نزل به القرآن : « إن هذا هو القصص الحق ، وما من إله إلا الله » .. فهاتان حقيقتان درجتهما القرآن في مدرج واحد : إله واحد لا إله غيره ، وقصص حق ، لاحق وراهم . أقبل هذا أو فوق هذا منزلة ينزل فيها القصص القرآنى من منازل الحق والصدق ؟

وقد تقول - وقد قلت فعلاً - إن مقابلة القصص القرآنى وأحداثه وشخصياته بالحقائق التاريخية يكشف عن مفارقات كثيرة ، تفتح المجال لمن يريدون أن ينالوا من القرآن ، وأن يشككوا في صحته ، وفي صدق النبي وأنه تلقى القرآن من السماء .

ونقول : ليسكن هذا .. فهل تحسب أن إحالتك قصص القرآن على الأوهام الفنية وتسوية حسابه عليها - أتحسب ذلك بالأمر الذى يقبل هند من يلتبس المطاعن في القرآن ، ويركب إليها كل طريق ؟ وهل يمثل هذا الهروب بخلص القرآن من أيدي أعدائه والمتربصين به ؟ إن ذلك اعتراف صريح بأن القرآن أو بمعنى أدق - حقائق القرآن - لا تقوى بذاتها على مواجهة الواقع إلا في تلك الحماية التى تلتصقها من الفن ، وتطلب فيها الدخول في رحابه ، والتخفى في ظلاله ، أو ضبابه ؟

ولا .. مرة ثانية ..

إن الذى يعصم القرآن ، ويحمى حقائقه من أن تنالها أيدي السفهاء والمتطاولين - هو أن تظل حقائقه محتفظة هكذا بوجودها الذى تجعلها

دلالات لغته ، وأن تواجه الناس والحياة كما نطق بها القرآن ، غير منسرة وراء الفن وخيالات الفن ، وأن تظل هكذا تتحدى الوجود كله بأنها الحق ، وما خالفها أو خرج عليها فهو الباطل ..

وستكشف الأمور - إن عاجلاً أو آجلاً - على مقولات القرآن الكريم [هي الحق كل الحق ، وأن التاريخ الذي يخالفها سيقف يوماً بين يديها مستخزياً ، مستسلماً ، إن لم يكن اليوم فقدأ ..

ذلك هو الذي ينبغي - على الأقل أن يكون عند الذين يؤمنون بأن هذا القرآن من عند الله ، وأنه كلام الله ، وأنه الحق ، ولا يتلبس به غير الحق . وما كان لمن يعتقد في الحقيقة التي بين يديه هذا الاعتقاد أن يساوم فيها ، وأن يخفى عليها عوادي الأحداث ، أو مهارات المهارين .

وإذن فلا محل لقول الأستاذ الخولي : « وهكذا لا يضطر العالم المؤمن إلى أن يعال العلم وأهله : بأن للقرآن أن يقول ما يشاء ، وأن يستغل الأحداث كما يشاء ، دون أن يلزمنا ذلك بشيء .. لأننا مؤمنون بوجودنا ، ثم باحثون بعقلنا ، وفي أنفسنا هذان التياران المتخالفان ، المتجاوزان معاً . »

ولا ، مرة ثالثة : فإن العالم المؤمن ينبغي أن يعال العلم وأهله بأن للقرآن أن يقول ما يشاء ، وأن يستغل الأحداث كما يشاء ، لأنه يعتقد أن ما يقوله القرآن هو الحق المشرق الذي يسفر به وجه قائله ، وإن إيماننا بوجودنا وبحقنا بعقولنا في الحقائق التي عرضها القرآن لا يقيم في أنفسنا هذين التيارين المتخالفين المتجاوزين معاً ، بل يقيم فينا شعوراً يقينياً راسخاً ، بأن موقع هذه الحقائق من وجداننا ومن عقولنا على سواء ، لا عوج فيه ولا اختلاف !

* * *

مع الدكتور خلف الله :

ووقفنا التي وقفناها مع الأستاذ الخولي فيها كل ملامح الموقف الذي سنقفه مع الدكتور خلف الله - صاحب الرسالة - ولهذا كان يمكن أن تجاوز هذا الموقف إلى مباحث أخرى يحتاج إليها موضوعنا الذي نعالجه : « القصة في

القرآن ، ، ولكن أرى من حق صاحب الرسالة علينا ، بل ومن حق الأستاذ الخولى أيضاً أن تعرض وجوهاً من الآراء التى بسطها صاحب الرسالة ، تطبيقاً لهذا المذهب الذى ذهب إليه الأستاذ الخولى فى مقدمة الرسالة ، والذى أبدينا فيه رأينا .. فربما يكون فى هذا البسط لذلك المذهب على يد أحد تلاميذه ما يكشف منه أموراً لم نتبينها ، ولعله بذلك يصحح فهماً خاطئاً لنا فيما فهمناه عليه .

وأود أن أنبه إلى أن وقوفنا مع الدكتور خلف الله فى رسالته هذه ليس إلا للحظات طابرة ، تلقاه فيها ببعض آرائه ، دون أن يتصل بنا الحديث فى كل ما عرضت له الرسالة ، فذلك يقتضينا أن نقف معه عند كل صفحة من صفحاتها ، بل وعيند الكثير من سطورها وكلماتها ، وهذا ما يخرج بنا عن موضوعنا الذى عرج بنا على هذه الرسالة ، ونحن فى الطريق إلى غاية أخرى غير الغاية التى تنجه إليها .

وأود أن أنبه أيضاً إلى أن هذا الموقف - مهما تتسع فيه شقة الخلاف بيننا - لا يذهب بنا بأى حال إلى الجانب المسمى ، فهو خلاف فى رأى ، واختلاف عن اجتهاد ومنصحة من أجل المقيدة ، وفى سبيلها ، والمجتهد إن أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران .. ومن يدري ؟ فلعلنا نذهب بأجر ، وبذهب كل من الأستاذ والدكتور .. بأجرين !! .

بعض ما فى الرسالة :

وقع الدكتور خلف الله تحت تأثير الدراسة الفنية للأدب العربى ، وامتهلاً بتلك النشوة الروحية التى كان يبعثها الأستاذ أمين الخولى فى تلاميذه ، فى دراسته للنصوص الأدبية ، وتفويجه لها ، وقد أغراه ذلك بأن يدخل بمشاعره تلك إلى ساحة القرآن الكريم ، وأن يتناوله تناول النصوص الأدبية ، وإن كان كلام الله هو الذروة التى لا تسامى من القصاحة والبيان .

ووضع القرآن بهذا الموضع ، وتناوله بهذا الأسلوب من الدراسة أمر لا اعتراض عليه ، بل هو الأمر الذى ينبغى أن يكون ، إذا أريد فهم القرآن والتعرف على مقاصده ، والوقوف على أسرار إعجازه .

فالقرآن - كما يقول الأستاذ الخولي بحق - هو كتاب العربية الأكبر ، وهو بالمكان الذي يرتاد منه المرتادون أروع صور البيان ، وأكرم معانيها ، ولكن هذه الدراسة التي يتناول بها المتناولون القرآن الكريم على هذا الوجه المطلق من كل قيد ، حين ينظرون فيها إليه في هذه الدراسة على أنه كتاب أدب وحسب - إن مثل هذه الدراسة ما كان يمكن أن يقع لديه من خير كثير ، لو أنه جعل في حسابه للقرآن أمراً آخر ، وهو أنه من عند الله ، وأنه كلمات الله ، وأن هذه الكلمات تجمع إلى الصدق المطلق ، الجلال المطلق ، وأن ما في آيات الله من جمال إنما هو جمال الصدق ، لا جمال الصنعة وتهاويل الفن .

ومع اعتراف الدكتور - خلف الله وإيمانه بأن القرآن من عند الله ، وأنه كلام الله ، فقد نحى هذه الحقيقة جانباً ، وساق القرآن سوقاً إلى ساحة « الفن » وحكم فيه بما يبس الفن ، وأخذ به بما يبره ، كأى كلام أدبي يصدر من كاتب أو خطيب أو شاعر ! وذلك فيما قص القرآن من قصص ، وصور من أخبار وأحداث .

وهذا التناول الذي تناول به الدكتور خلف الله القصص القرآني يندم مسموح له بأن يقول في هذا القصص أقوالاً تنزع عنه صفة الصدق الذي له ، والذي لا ينقص عنه أبداً . ثم تلحقه هذه الأقوال بالقصص الأسطوري ، أو التمثيلي والتخييلي . . كما منعرض لذلك بعد قليل .

نقول : استولت على الدكتور «خلف الله» تلك الدراسة الفنية للأدب العربي تغيل إليه أنه يستطيع أن يدخل بها على «القصص القرآني» ، وأن يعرضه عرضاً فنياً ، يدفع عنه بها هذه الشبه التي تغيم على وجهه من هذه المفارقات والمتناقضات ، التي تطل منه ، لو أنه أخذ بمنطوق كلماته كما هي ، دون أن تحمل على بحاميل الفن ، وتورد موارد - هكذا يرى !!

وهذه المفارقات والمتناقضات - في تقدير الدكتور خلف الله - تنجيء في القصص القرآني من ناحيتين :

الناحية الأولى :

في القصص نفسه ، حيث تتكرر القصة ، فيقع الخلاف في تصوير القرآن لأحداثها ، حيث تذكر الواقعة في مواضع ، ثم تذكر في موضع على صورة غير صورتها الأولى . . وقد تذكر مرة ثالثة على صورة غير صورتها السابقتين .

وفي هذا يقول صاحب الرسالة :

« سؤال سألَه العقل الإسلامي نفسه فيما يخص هذا التكرار ، وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التي من أجلها كان التكرار . . فلماذا هذا الاختلاف ؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن ، عنه في آخر ؟ . . » (١)

ثم يعرض لهذا أمثلة من هذا القصص . . فيقول :

« لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه في سورة طه عنه في غيره من السور ، مع أن هذا الموقف واحد ، والحادثة واحدة ؟ لماذا قال القرآن في سورة طه : « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا ، إني آنست ناراً ، لعل آتيكم منها بقدس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاهانودي ياموسى إني أنا ربك فأخلع نعليك لئلا بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ، وما تلك بيمينك ياموسى ؟ قال هي عصا أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمي ، ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها ياموسى ، فألقاها فإذا حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنمدها سيرتها الأولى ، وأضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ، نريك من آياتنا الكبرى إذ ذهب إلى فرعون إنه طغي . . قال رب . . إلخ » . ولماذا قال في سورة النمل عن نفس الحادثة والموقف : « إذ قال موسى

لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين . . ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ، وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ، ولى مدبراً ولم يعقب ، ياموسى : لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسناً بمسوء فأنى غفور رحيم ، وأدخل يدك في جيبك فخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وملأه إنيهم كانوا قوماً فاسقين . . إلخ . . « واذ قال فى سورة القصص غير هذين ؟ . إن الموقف واحد ، وإن الحادثة واحدة ، ولكن الوصف مختلف ، والحوار غير الحوار ، وحديث الرب العلى مع موسى النبي فى موطن ، غيره فى آخر . » (١)

وردنا على هذه الاعتراضات ، وبيان أسرار هذا التكرار ، وما وراءه من إعجاز تجده فيما قررنا من قبل فى مبحث خاص عن « التكرار فى القصص القرآنى » . كما أننا قد عرضنا فى مبحث آخر هذه الصور الثلاث لقصة موسى كما جاءت فى سورة : طه ، والنمل ، والقصص ، وقد انتهى بنا النظر فيها إلى أنها ثلاث « لقطات » لواقعة واحدة من ثلاث زوايا ، يكمل بعضها بعضاً فتتجسد الواقعة ، وتبرز قائمها .

وعلى هذا ، فإننا لا نقف هنا عند هذه الاعتراضات . أما الناحية الثانية التى يرى صاحب الرسالة أنها مهبط اعتراضات وشغب على القرآن ، فهى ما يقع من مفارقات عند مقابلة أحداث القصص القرآنى وأخباره بمقولات التاريخ عن هذه الأحداث وتلك الأخبار . . حيث تكشف هذه المقابلة عن موقف متأزم ، يجرى فيه القرآن ، ويخدرش وجه الصدق منه . ويعلل صاحب الرسالة لهذا بأن القرآن لم يكن فى عرضه للأحداث ينظر إليها من حيث واقعها . وإنما كان يحدث بها على الوجه الذى يطله من أهل الكتاب ، سواء كان هذا العلم مما فى أيديهم من كتب ، أم مما راجع عندهم من أساطير .

وفي هذا يقول الدكتور : « والظاهرة التي يحسن بنا الالتفات إليها في هذا المقام ، هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار - أي التي وردت في قصصه من آيات النبوة ، وعلامات الرسالة - جملها أيضا مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار . حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها ومحتها من الوجهة التاريخية ، ومن جهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار . . . قال تعالى بعد ذكره لقصة يوسف : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه . وتفصيل كل شيء » ، وهدي ورحمة لقوم يؤمنون . وقال تعالى بعد ذكره لقصة موسى وفرعون : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » .

وهنا ينبغي أن نقف مع صاحب الرسالة عند هذا الرأي الخطير . . وهو رأي لم يكن من مبتكرات الدكتور خلف الله ، وإنما هو يتابع في هذا آراء بعض المستشرقين الذين لا يدخل في تصوراتهم أن القرآن كلام الله ، تلقاه محمد صلوات الله وسلامه عليه وحيا ، نزل به الروح الأمين على قلبه . .

وإنما أعدل آرائهم في القرآن أنه من عمل محمد ، وأنه جمع مادته مما كان يدور في الحياة من حوله ، من أخبار تجرى على ألسنة الأخبار والرهبان ، تلقى بعضها في أسفاره ، وعرف البعض الآخر من بعض الأخبار الذين كانوا يقيمون في مكة . .

وهذا ما كانت تقوله قريش في عنادها ، وإعنائها كما حكاه القرآن عنهم . « إنما يعلمه بشر » وقد رد القرآن هذا القول الساقط بقوله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » .

نقول : إن الدكتور خلف الله يتابع في هذا الرأي جماعة المستشرقين ، ويأخذ بوجهة نظرم في القرآن الكريم . . من حيث أن مادته مستقاة من معارف اليهود والنصارى ، وإن يكن من كلام الله !

يقول جولدتسيهر :

« إذن ما كان يبشر به محمد خاصاً بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد استقها بصراحة من الخارج يقيناً ، وأقام عليها هذا التبشير . .
ثم يقول : أقدس أي النبي من تاريخ العهد القديم ، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء » (١) .

ويقول جولدتسيهر في موضع آخر :

« فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جذيرة بأن توفق طائفة دينية حقيقية عند بني وطنه » (٢) .

أليس ذلك الذي يقوله الدكتور خلف الله هو من هذا الذي يقوله جولدتسيهر ؟

وبلى !

فهو يرى أن القصص القرآني إنما جاء بأخباره ووقائعه وأحداثه على صحت ما كان يدور منها في محيط أهل الكتاب ، وخاصة اليهود ، سواء كان محصلها عما في أيديهم من كتب ، أو أحاج وأساطير .
وهو يعمل لهذا ، بأن اليهود كانوا مرجع الأخبار التي تختبر بها قریش النبي فيما يلقون إليه من أسئلة يتلقونها من اليهود ، ويعرفون منهم جوابها . .
وينتظرون من النبي الجواب عليها ، ليعرفوا من ذلك مدى صدق دعواه فيما يدعيه من اتصاله بالسماء . . فكان من مقتضى الحال رماية هذا الواقع الذي تلاقت عليه اليهود وقریش ، ومطابقة الأخبار التي يخبرهم بها النبي لهذه

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام لجولدتسيهر ، ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وزميله ص ١٥

(٢) العقيدة والشرعية في الإسلام لجولدتسيهر . . ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وزميله ص ١٢

الأخبار التي تلاقوا عليها وتداولوها فيما بينهم ، وبذلك ثبت صدق النبي ،
وتفهم قريش ، ويخرس اليهود .

أليس رماية مقتضى الحال من مطلوبات الفن القولى ، أو الفن القصصى ؟
وإذا نحى القرآن منحى آخر ، وخرج على تلك الأخبار المتداولة عند اليهود
والتي هي عندكم « الكين » الذى نصبوه للنبي .. أفلا يكون القرآن قد أدخل
بمقتضيات « الفن » وتخلّى عن أصوله ؟ ثم تكون النتيجة الحتمية لهذا ، هو
أن يحرم القرآن الثمرة المرجوة من وراء التأثير « الفنى » فيلقاه اليهود كما
تلقاه قريش بالبهت والتكذيب ؟

ذلك هو حساب الدكتور خلف الله ، وتقديره فى إزام القرآن أن يكون
مطابقاً فى قصصه وأخباره لما عند أهل الكتاب من أخبار وأساطير !!
ومن أجل هذا كله رأى « الدكتور » هذا رأى الذى جعل فيه مادة
القصص القرآنى تنخلى عن صدق الواقع ، وتنزل على ما عند اليهود من أباء
وأخبار وأساطير !

وليس ذلك عن إنكار لقدرة الله وعلمه ، فالدكتور مؤمن بالله ، وبكل
ماله - سبحانه - من صفات الكمال ، ومن بينها « العلم » المحيط بكل شئ ..
ولكنه يرى أن ذلك من مقتضيات الفن التى ينبغى أن ينزل القرآن على حكمه
وإلا كان له أن يتحلّى عن فصاحته ، وبلاغته وإعجازه !
وما لنا نتحدث عن لسان « الدكتور » ولانده هو محدثنا بلسانه ؟
يقول « الدكتور » :

« وهكذا نستطيع أن نمضى فى حصر الظواهر التى تثبت لنا مذهب القرآن
القصصى ، والتى تدل دلالة قوية على أن بعض ظواهر الحرية الأدبية التى يمنحها
الأدباء لأنفسهم توجد فى القرآن الكريم ، وأن القرآن قصد إليها قصداً .
ومعذرة إذا قطعنا على الدكتور حديثه بمد هذه السمكيات القليلة - إذ لابد
من الإشارة إلى ما يقصد إليه الدكتور من قوله : « إن بعض ظواهر الحرية
الأدبية التى يمنحها الأدباء لأنفسهم توجد فى القرآن ، وأن القرآن قصد إليها

قصداً .. فإن من معطيات الحرية التي يمنحها الأدباء لأنفسهم في العمل الأدبي .. التخيل ، والتمويه والكذب . ولهذا قيل : أعذب الشعراء كذبه ! والقرآن — في رأى الدكتور — قد أخذ قسطه من هذه الحرية ! فليأخذ نصيبه كاملاً . من التخيل والتمويه ، والتلفيق ، والكذب !
ثم يقول الدكتور :

« ولسكننا نريد أن نفق من كل ذلك عند قصتين اثنتين ، كانتا موطن اختبار النبي لمعرفة صدقه من كذبه ، أو لمعرفة : هل هو نبي أو متنبئ ؟ وهما : قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين .. فإن هاتين القصتين تقدمان لنا الدليل القوي على المذهب القرآني في العلاقة بين القصة والتاريخ » .
وفي قصة أصحاب الكهف يقول الدكتور :

« أما قصة أصحاب الكهف ، فنقف منها في هذا الموطن عند مسألتين : الأولى مسألة عدد الفتية ، والثانية مدة لبثهم في الكهف .
« أما من حيث العدد ، فليس يخفى أن القرآن لم يذكر عددهم في دفعة ، وإنما ردد الأمرين ثلاثة ورابعهم كلهم ، وخمسة وسادسهم كلهم ، وسبعة وثامنهم كلهم .

وليس يخفى أن القرآن الكريم قد ختم هذه الآية بتلك النصيحة التي يتوجه بها إلى النبي عليه السلام ، وهي قوله تعالى : « قل ربى أعلم بعهدهم ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت منهم أحداً .. الآية .. » .

ثم يسأل الدكتور :

ما معنى هذا التردد في العدد ؟ وما معنى هذه النصائح ؟

ثم هو يجيب :

« لا نستطيع أن نقول : إن المولى سبحانه وتعالى كان يحجل عدد الفتية من أهل الكهف ، وأنه من أجل هذا لم يقطع في عددهم برأى ، فالمولى سبحانه لا يخفى عليه خافية ، في الأرض ولا في السماء ، وإنه ليعلم السر وأخفى ، وإنما

نستطيع أن نقول: إن هذا لم يكن إلا الحكمة ، والحكمة فيما استقد (كذا)
 هي أن المطلوب من النبي عليه السلام أن يثبت أن الوحي ينزل من السماء ،
 وأن يثبت ذلك ، لا بالعدد الحقيقي للفتية من أصحاب الكهف - فذلك لم
 يكن موطن الإجابة ، وإنما بالعدد الذي ذكره اليهود : من أهل المدينة ،
 للمشركين ، من أهل مكة ، حيث ذهب وفدهم ليسأل عن أمر محمد أبي هوأم
 متنبئ .. وإذ كان أجاب اليهود قد اختلفوا في أمر العدد ، وذكر كل منهم عدداً
 معيناً ، كان على القرآن أن ينزل بهذه الأقوال ، حتى يكون التصديق من
 المشركين بأن محمداً عليه السلام نبي ، ولو ذكر القرآن العدد الحقيقي وأعرض
 عن أقوال اليهود لكان التكذيب القائم على أن محمداً لم يعرف الحقيقة ،
 وليس وراء هذا إلا أن الوحي لا ينزل من السماء
 ثم يقول :

« ومثل هذا تماماً موقف القرآن من عدد السنين ، فلم يذكر القرآن العدد
 الحقيقي ، وإنما اكتفى المولى سبحانه وتعالى بما يعرفه اليهود ، ومن هنا نصح
 للنبي عليه السلام بأن يقول « قل : الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض » .
 « ولسنا بحاجة إلى أن نقول هنا أيضاً بأن العلي القدير لم يعرض عن عدد
 السنين الحقيقي إلا للحكمة ، وأن هذه الحكمة هي أن يكون ما يذكر في
 القرآن مطابقاً لما قال اليهود للمشركين : وهذا هو الرأي الذي أشار إليه بعض
 الأقدمين من المفسرين .. جاء في الطبري « .. فقال بعضهم ذلك خبر من الله
 تعالى ذكره - عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك ، واستشهد على
 ذلك بقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » ، وقالوا لو كان ذلك خبراً من الله
 عن قدر لبثهم في الكهف لم يكن لقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » - وجه
 مفهوم ، وقد علم الله مبلغ لبثهم فيه وقدره » .
 وينتهي الدكتور هذا بقوله :

« موقف القرآن من قصة أصحاب أهل الكهف موقف من لا يحكي الحقيقة

التاريخية ، وإنما يحكى أقوال اليهود ، التى قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها ، ومن هنا لا يصح أن يتوجه أى اعتراض على هذه القصة من حيث اختلافها مع الواقع ، لأن تحقيق هذا الواقع ليس المقصود من القصة فى القرآن الكريم . وهذا رأى - فيما نرى - يصيب القرآن فى صميمه ، من حيث يراد به أن يكون سباجاً يحميه من تقولات المنقولين ، وشغب المشاغبين .

وإنى لأستمع لكثرت العفو والمعدرة إذا أنا ذكرت قصة الدبة التى أرادت أن ترمى صاحبها من ذبابة سقطت على وجهه ، فرمته بحجر .. فقتلتها معاً .. ومعدرة .. مرة أخرى .. فأجد لهذا الحال شاهداً أصدق وأوضح من هذا الشاهد !

فأولاً : إذا سلمنا بأن القرآن قد جاء فى قصصه بما يطابق ما عند اليهود من معارف ، وذلك ليثبت لهم ، ولمن تلقى عنهم من مشركى مكة - صدق محمد ، وأنه نبي ، وأنه لو جاءهم بالواقع الذى يخالف ما عندهم لما سلموا له - نقول لو سلمنا بهذا القول فى القرآن لكان معنى ذلك أن القرآن ليس كتاباً خالداً مع هذه الرسالة الخالدة التى جاء بها ، وأنه إنما جاء ليعيش فى هذه البيئة المحدودة ، ثم من محدود ، ولهذا جاء على وفق تفكيرها ، وما يقع فى هذا التفكير من حق أو باطل . ١

وأحسب أن الدكتور قدر أن القرآن بهذا التدبير قد أحكم معاصرى فترة زوئه ، وأنه بهذا كسب الجولة الأولى عليهم ، وأنه فى سبيل هذا هان عليه أن يتخل عن الحق ، وأن يجارى المبطلين بالباطل ، وأن يلقي جهلهم بجمل ! ولم يسأل الدكتور نفسه : كم يحصر القرآن فى سبيل هذا السكيب الوقفى على فرض أن هناك كسباً ؟ وهل يجوز فى شرعة الحق أن يبيعه أصحابه بهذا الثمن البخس ، وأن ينزلوا فيه على حكم الباطل ويسوموه سومة ؟ .

ثم ألم يقع لظاهر الدكتور هذا السؤال : ماذا يكون موقف القرآن فى الأزمنة التالية ، وفى الأجيال المقبلة ، حيث يعنى الزمن على هذه المبطلات والخرافات التى صورها القرآن على هذا المستوى المزعوم ، يجاريها تلك المعارف

التي كانت تدور في أدمغة فاسدة ، لحفنة من الناس ، في حيز ضيق محدود من الزمان والمكان - ماذا يكون موقف القرآن في هذا العصر الحاضر مثلاً ؟ وبأى وجه يلقي معارف الحياة ، وحقائق التاريخ ، وكشوف العلم ؟ أهبذا الزور ، وذلك الباطل ، وهذه الخرافات كان يمكن أن يعيش القرآن في أجيال الناس ، محتفظاً بسطوته وجلاله وعظمته ؟

إن الدكتور - كما قلنا - لم يجد بصره إلى أكثر من تلك اللحظات العابرة ، التي كان يواجه فيها القرآن - في تلك الأيام الأولى للدعوة - تحديات المشركون من أهل مكة ، وكيد المالكين ، من يهود المدينة .. فجعل القرآن يمثل هذا الدور الهزلي معهم ، ليكسب هذا الكسب الرخيص ! وأى كسب ؟ أن القرآن لم يحقق حتى هذا الكسب الرخيص ، على الرغم مما استطاع له من أساليب الخداع والتقوية - على حسب ما يذهب إليه الدكتور - إذ أن الدكتور نفسه يقول :

« واعتاد القرآن على هذا الرأي الديني اليهودي ، أو على هذا المقياس خلف في الجو في عصر النبوة وماتلاء رأيين مختلفين :

« الرأي الأول .. رأى المشركون والكفار من أهل مكة ، فإن هؤلاء على معرفتهم لهذا المقياس عن طريق وفدهم إلى أحبار اليهود بالمدينة لم يستطيعوا التسليم بما ترتب عليه من نتائج ، فلم يؤمنوا بصدق النبي عليه السلام أو بصحة رسالته اعتماداً على هذه الأخبار الواردة بالقصص القرآني .. وليس ذلك إلى أن هذه الأخبار لا تتفق ومعارفهم التاريخية ، فيظهر أنها كانت تتفق وما يعرفون ، وإنما يرجع ذلك كما هو واضح من آيات القرآن الكريم إلى أن المشركون كانوا يعتقدون أن الوقوف على أمثال هذا القصص القرآني ليس شاقاً ولا عسيراً ، فضلاً عن أن يكون مستحيلاً ، ومن هنا ذهبوا إلى أن محمداً عليه السلام يكتب هذه الأخبار ، وأنها ليست من الوحي ، وأن الذي يعلمه بشر .. » (١)

فيم إذن كان هذا الدور الذي قام القرآن بتمثيله ؟ ، ولأية غاية تخلى القرآن عن الحق الذي هو قائم عليه ، ونزل على حكم الباطل ، وجرى معه في ميدانه ؟ إنه لم يفعل شيئاً عند قريش وعند اليهود على السواء .. فكلهما على ما كان عليه من التكذيب والإنكار .

لم يبق بعد هذا من داعية تدعو إلى هذا الأسلوب الذي اصطنعه القرآن في بناء قصصه على هذه الأسس الواهية ، إلا أن يكون ذلك من أجل القرن وحجته .. ذلك القرن الرخيص الذي لا يروج إلا إذا طلى بالكذب والزور ، وموه بالغداع والخيال !

وثانياً : يعلل الدكتور عدول القرآن عن تحديد عدد أصحاب الكهف ، والوقوف به عند الأقوال المرددة فيهم عند اليهود بأن ذلك يثبت لليهود ، وللمشركين من أهل مكة أنه يعلم عن أصحاب الكهف ما يعلمون ، وبهذا يثبت أنه من عند الله .

والقرآن لم يذكر في أصحاب الكهف قولاً له ، وإنما ذكر ما يتردد على أفواه الناس من أقوال .. في عددهم ، فهو ينقل هذه الأقوال بما فيها من صدق أو كذب ، دون أن يكون عليه شيء منها ، وهو في هذا لا يريد موافقة اليهود أو غيرهم ، في أمر هذا العدد ، ولو أراد ذلك لوقف به عند قول من هذه الأقوال المرددة التي حكاه ، ولكان في عمله هذا قد ضرب اليهود بعضهم ببعض — إذا كان بينهم خلاف في العدد — كما يقول بذلك صاحب الرسالة ، ولا أدري من أين جاء بهذا الخبر — وكان عمل القرآن هذا داعية إلى أن يكسب إلى جانبه الفئة التي تقول بقوله ، وبهذا يوقع بينهم شقاقاً ، يتسع مع الأيام ..

هذا تعليل لا يستقيم على منطق أبداً .

وأما التعليل الذي يمكن أن يفهم عليه إغفال القرآن لذكر العدد الحقيقي لأصحاب الكهف والقطع به ، فهو ما جرى عليه أسلوب القرآن في كل موقف يتلقى فيه بأصحاب المراء والجدل ، الذين يريدون أن يسوقوه إلى المباحكات

والمهارات الجدلية ، التي لا تنتج إلا اضطراباً وبلبلة .. والقرآن يعرف طريقه إلى غاياته التي يريد بها ، فهو لا يقف عند هذه المواقف ، ولا يلقاها بما يقدره أصحابها من صرفه عن غاياته ، وشغله بهذا اللغو من الكلام .

ففي كل مرة كان يسأل فيها القرآن سؤالاً متعنتاً ، لا يراد به كشف حقيقة أو حل مشكلة — كان يدع السائلين لما هم فيه ، ويصرف وجهه عنهم ، ليلقى الحياة كلها بالجواب الذي فيه نفع للناس ، وهدى للعالمين .
سأل الجدليون المارون النبي صلى الله عليه وسلم : ما بال الهلال يبدو صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً ؟

وماذا يريدون بهذا السؤال ؟ وماذا يعود عليهم منه ؟
أقول : معارف يكتسبونها ، وعلماً يحصلونه ؟

أقتريد من النبي إذن أن يترك مهمته التي يقوم عليها ، ويتحول إلى معلم خلك ؟ وهب أنه فعل .. ما وسيلته أو وسائله إلى شرح هذه الحقيقة وعرضها ؟ إنها قضية لو أراد أن يفتح لها طريقاً إلى تلك العقول يومذاك لكان ذلك ممحلاً يقتضيه أن يصرف فيه كل حياته التي قضاها في النبوة ، دون أن يصل بها إلى مواطن الإقناع والتسليم من هؤلاء المعاندين الجاهلين .

وإذن نغير هؤلاء السائلين ، وللناس جميعاً أن يلهوا عن الجواب المنتظر لهذا السؤال ، وأن يفتحوا آذانهم وعقولهم وقلوبهم لهذا الجواب غير المنتظر الذي جاء به القرآن ، وكأنه الجواب الذي كان ينتظر سؤالاً غفل عنه أولئك الضالون ، الذين لا يريدون هدى ، ولا يطلبون خيراً .. وفي هذا يقول الحق سبحانه ، عن سؤالهم أو أسألتهم في شأن الأهله : « يسألونك عن الأهله .. قل هي مواقيت للناس والحج .. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها » ١ ..

إنه منهج تربوي سماوي ، ينبغي أن يستقيم عليه الناس أفراداً وجماعات ، قادة ومقودين ، حكاماً ومحكومين ، وهو البحث عن اللباب دون التمسك بالقشور ، والنظر إلى المقاصد دون الوقوف عند الأشكال والرسوم ١

كذلك كان الشأن في السؤال عن أصحاب الكهف وعندهم ا
إن وراء قصتهم معاني إنسانية كريمة ، هي التي ينبغي أن تكون مثلا
ينتفع به في الحياة ، وقدوة صالحة يقتدى بها أصحاب المبادئ الرشيدة ،
والسنن القويمية . .

وفي هذا يقول الحق سبحانه : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية
آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ، فقالوا ربنا رب
السماوات والأرض لن ندعوك من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذا شططا ، هؤلاء
قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فن أعظم من
افتري على الله كذبا ، وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف
ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس
إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين . . وإذا غربت تقرضهم ذات
الشمال وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهدي الله فهو المهتدي ،
ومن يضل فلن نجد له وليا مرشدا . وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ،
ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلهم بأسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت
عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعباً ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم :
قال قائل منهم : كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما
لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فليستظر أيها أركى طعاماً ،
فليأتكم برزق منه وليتاطف ، ولا يشعركم أحداً ، إنهم إن يظوهو وأعليكم
يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تغلحوا إذا أبداً ، وكذلك أعترا عليهم ،
ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم
أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم
لنتخذن عليهم مسجداً » (١)

هذا هو مضمون القصة ، وتلك هي الأحداث التي ينبغي أن يوقف
عندها ، وأن يلتبس منها الخير والهدى . . أما ما وراء ذلك مما يدور حولها

من لفظ وجدل ، فذلك عما لا يقف عنده القرآن إلا ليحذر منه ، وليسفه أهله ، ومن يقف عنده .

وماذا يعود على من يقف عند هذه القصة ، إذا هو علم على وجه التحديد ، عدة هؤلاء الفتية ، وعدد السنين التي لبثوها في كهفهم ؟ .

إن كثرة العدد أو قلته ، سواء في عدة الأشخاص أو السنين لا يقدم ولا يؤخر ، قليلاً أو كثيراً ، في مضمون القصة ومحتواها ، أو في الأثر النفسي الذي تحدثه ، والمعطيات التي تسوقها ، في مواقع العبرة والعظة .

وليس كذلك شأن القرآن في الأسئلة التي ترد عليه طالبة الرأي ، ملتزمة النصح . . فإنه إذاك يلتقي مثل هذه الأسئلة بالقبول ، ويجب عليها بما يشقى الصدور . .

فمن ذلك قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر .. قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمها أكبر من نفعهما » . وقوله سبحانه : « ويسألونك عن المحيض . . قل هو أذى فاءتزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأنهوهن من حيث أمركم الله » . وقوله جل وعلا : « ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم » . . وهكذا يلتقي السائلون جواباً شافياً كافياً . . فيه علم ، ونفع ، وهدى . . لمن نظر ، واعتبر .

ثالثاً : قول صاحب الرسالة : « موقف القرآن من قصة أصحاب الكهف موقف من لا يحكي الحقيقة التاريخية ، وإنما يحكي أقوال اليهود ، التي قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها .

هذا القول يحمل شحنة كبيرة من الأخطاء والمتناقضات :

١ - فالقرآن في دعوته إلى الحق ، وقيامه على هذه الدعوة ، لم يكن يحفل - في كثير أو قليل - بما في صدور الناس أو عقولهم من ضلالات وأباطيل . . بل إنه كان دائماً من أول يوم لدعوته ، ومن أول كلمة نطق بها ، معلناً بالحق ، واقفاً عنده ، لا يتزحزح عنه أبداً ، ولقد تلقى الرسول والمؤمنون في سبيل

هذا الموقف ، أقسى ما تعرف الحياة ، من ضروب الإغاثات والأذى . ولو أن
 هذا التدبير - الذى يقول به الدكتور - كان منظوراً إليه فى الرسالة الإسلامية
 لكان ذلك مدخلاً فسيحاً يدخل به الرسول إلى قومه فى تدسس ، ومخادعة ، إلى
 أن يوقعهم فى شباك . . وحاشا للحق أن يتستر وراء الباطل ، وأن يجعله من
 سلعه التى يتجر بها . . إنه تجارة المفلسين ، ومعمل المضللين ، وطعام الآثمين .
 ولقد كان القرآن المسكى إلى جانب دعوته الحكيمة الرقيقة ، بهدر هدير
 مزلزلا ، يتوعد المعاندين والمكابرين ، ويسوقهم سوقاً عنيفاً مع آلهتهم إلى
 موارد العذاب الأليم ، فيقول سبحانه مخاطباً المشركين من قريش : « إنكم
 وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة
 ما وردوها ، وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون ^(١) » .
 ويقول سبحانه مخاطباً النبی الكريم : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض
 جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون » .
 ويقول سبحانه فى مشركى مكة : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا
 ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا
 إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ،
 وما آتيناكم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، وكذب
 الذين من قبلهم ، وما بلغوا معشار ما آتيناكم ، فكذبوا رسل ، فكيف كان
 فكيرا . . قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم
 تنفكروا . . ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب
 شديد ، قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على
 كل شيء شهيد ، قل إن ربي يقذف بالحق ، علام الغيوب ، قل جاء الحق ،
 وما يبدىء الباطل وما يعيد ، قل إن ضللت فإنا أضل على نفسي ، وإن
 اهتديت فإني يوحى إلى ربي إنه مسمع قريب ، ولو ترى إذ فرغوا فلا فوت ،
 وأخذوا من مكان قريب ^(٢) » .

ويقول تبارك اسمه : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً .. ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأردهم صموداً .. إنه فسكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبني ولا تذر ^(١) »

وهكذا ، كان القرآن المكي ينزل على رؤوس المكابرين المساندين بالصواعق التي تدمر عليهم معتقداتهم الفاسدة ، وتسفه أعلامهم وأصنامهم ، دون أن يردده عن ذلك ما يصبحون ويمسون فيه .. من تهديد ووعيد .

ومن أجل هذا البعد البعيد بين ما يدعو إليه النبي من هدى وما عليه المشركون من ضلال .. من أجل هذا كان الصراع بين النبي والمشركين ، ثم كانت الحروب المتصلة ، التي انتهت بنصر الله للنبي والمؤمنين ..

ولا ندرى ماذا يقول الدكتور في هذا الصراع الذي كان بين النبي والمشركين إذا كان ما يحدتهم به هو عين ما عندهم من معتقدات وأخبار ؟ ولا ندرى كيف يتصور الدكتور رسالة الرسول ، وكيف يكون لها أثر في الناس إذا لم يكن فيها جديد يخالف كل ما عند القوم من معتقدات وتصورات ؟

وكذلك كان الحال حين التقي القرآن باليهود في المدينة وجهاً لوجه .. دعاهم دعوة الإسلام : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ^(٢) » .. ثم لما لم يستجيبوا إلى هذه الدعوة الكريمة العادلة كشف عن تلبساتهم ، وفضح سوء معتقدهم . « وقالت اليهود يد الله مغلولة .. غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا بل يدها

مبسوطان ينفق كيف يشاء^(١) . . . وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت
النصارى للمسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين
كفروا من قبل ، قالهم الله .. أتى يوفكون .. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم
أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً
واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون^(٢) .. لعن الذين كفروا
من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا
يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى
كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط
الله عليهم وفي العذاب هم خالدون^(٣) .

ونود أن يسأل الدكتور نفسه : إذا كان الرسول صلوات الله وسلامه
عليه يحدث اليهود والنصارى بما يعلمونه هم من أمر دينهم ، فكيف ينسكو
على اليهود قولهم « عزيز » ابن الله ؟ ثم كيف ينسكو على النصارى قولهم إن
المسيح ابن الله . . . ثم كيف لا يقبل من اليهود والنصارى قولهم : نحن أبناء
الله وأحباءه ؟ وكيف يرد عليهم هذا الادعاء يقول الله تعالى : « وقالت اليهود
والنصارى نحن أبناء الله وأحباءه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر من
خلق »^(٤) .

هذا بعض صنيع القرآن في مواقف الحق مع اليهود .. إنه يرى في
وجوههم بكل فاضحة مخزية .. فكيف يلقام بالباطل في مجال الأخبار والأحداث
التي نظم منها قصصه التي جعله عبرة وعظة خالدة على الدهر ؟ أذلك من أجل
تحقيق ما يسميه صاحب الرسالة : « الفن القصصى » ؟ ألا شاء وجه الفن ،
وساء ما يجيء منه .. إن كان الزور لحنه والباطل سداً ؟
أما القول بأن موقف القرآن من أصحاب الكهف هو موقف من لا يحكى
الحقيقة التاريخية ، وإنما يحكى أقوال اليهود التي قد تطابق الحقيقة ، وقد

(٢) التوبة ٣٠ - ٣١

(٤) المائة ١٨

(١) المائة ٦٤

(٣) المائة ٧٨

لا تطابقها - فهو قول قائم على تلك النظرة التي ينظر بها صاحب الرسالة إلى القصص القرآني كله ، وبأنه على ممت القصص الأدبي . . من حيث أنه يمنع نفسه تلك الحرية التي يمنحها الأدباء لأنفسهم في الخلق الفني لقصصهم ، إذ يسترضون إحساساتهم الفنية ، على حساب الحقيقة القائمة بين أيديهم ، حين يلجئهم إلى ذلك قصورهم البشري عن تناول الحقيقة التناول الفني ، الذي يثير ويمعجبا .

ولاشك أن هذا الفهم ينسحب - من غير قصد - على قدرة الله سبحانه ، فينزل بها إلى مستوى القدرة الإنسانية التي تخضع لحكم الضرورة ، وتنزل على دواعيها ، دون أن يكون لها ذلك السلطان الذي يقدرها على تطويع الأشياء لها ، وانقيادها ليدىها . -

وندع هذا . . وننظر في قصة أصحاب الكهف من حيث قيامها على الواقع وتصويرها الحقيقة ، أو تخليها عنهما ، وإخلالها بهما ، فنجد أن القصة قد أمسكت بالحقيقة من صميمها ، وعرضتها العرض الذي يكشف عن أضواء وجوهها - كما أثرننا إلى ذلك من قبل - وأن عدم التفات القرآن إلى تحديد عدة أصحاب الكهف ، وإلى عدد السنين التي لبثوها في كهفهم ، إنما كان درسا حاليًا في الدعوة إلى الجد في الحياة ، وتحصيل ما ينفع ، دون الوقوف عند قسور الأمور وسفسافها .

ولا أستطيع أن أزايل هذا الموقف دون أن أشير إلى بعض الشواهد التي يقدمها صاحب الرسالة بين يدى دعواه التي يدعيها على أن القرآن يعدل عن الحقيقة والواقع ليتطابق مع ما عند من يخاطبهم من آراء ومعتقدات . . فبعض هذه الشواهد صريح كل الصراحة ، واضح غاية الوضوح في أن القرآن يمسك بالحقيقة من طرفيها ، التي تتلاقى مع الواقع من جهة ، ومع ما يعتقده المخاطبون من جهة أخرى . . وبهذا لا يكون لأمثال هذه الشواهد ما يقف إلى جانب صاحب الرسالة ، حتى على تلك المفاهيم ، التي يريد أن يقيم الأسلوب القرآني عليها . .

استمع ، واحكم .

يقول صاحب الرسالة : « القرآن يجرى كما ترى في فنه البياني على أساس ما كانت تعتقد وتخيّل ، لا على ما هو الحقيقة العقلية ؛ ولا على ما هو الواقع العملي ، ولعله أن يكون من ذلك حديث القرآن عن المنافقين ، في قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون ، قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » .

ويقول « الدكتور » في شرح هذه الآية ، وفي استدلاله شاهده منها : يقول : فإننا نراه - أي القرآن - يقيم تكذيب المنافقين على أساس ما يمتقدون ، لا على أساس ما هو الحق والواقع ، فلقد كان المنافقون يمتقدون أن محمداً غير مرسل من ربه ، وكان الحق والواقع أنه رسول .. وقيل - أي قول - المنافقين له إنك رسول الله يتفق مع الحق ، ويختلف وما يمتقدون .. ومن هذا دماغ القرآن بالكذب - وحذر النبي عليه السلام منهم ١١ » (١) ماذا يريد الدكتور أن يقول ؟ بل ماذا كان يريد من القرآن أن يقول في هذا الموقف ، كي يتطابق الحق والواقع ؟ أترأه كان يسلم بقول المنافقين ، ويدع قولهم لرسول الله : إنك لرسول الله ولا يفضح هذه الكلمة المكذوبة المناقفة ، وكيف يستقيم بعد هذا وصفهم بالمنافقين ؟ أم ترأه كان يريد أن يقول القرآن مؤيداً تلك القولة المسكوبة المفضوحة المناقفة « والله يشهد إن المنافقين لصادقون ؟ » . وكيف يجتمع الصدق والنفاق ؟ وهل عرف الناس أو عرفت اللغة اجتماع النفاق والصدق ؟

إن كلمة « المنافقين » التي صدرت بها الآية تجعل كل قول يأتي من جهتها ذا وجهين : ظاهر على خلاف الباطن ، وباطن مخالف للظاهر .. وبغير هذا لا تتشكل للنفاق صورة ، ولا يقوم له وجود . وعلى هذا ، فإنه من غير الممكن أن يكشف القرآن عن وجهه للمنافقين ، وأن

يفضحهم على اللأ إلا إذا عرض ظاهرم وباطنهم جميعاً ، وإلا إذا أجرى أحكامهم معهم على ظاهرم وباطنهم معاً . . فأعطى كلا ما ينبغي له . . فظاهرم الذى عرضوه متطابق مع الحق ، جار معه ، وباطنهم الذى استبطنوه ، منطو على الباطل ممسك به . . ولهذا ضرب القرآن صفحاً عن قولهم ، وإن كان مع الحق ، لأنه لا يقوم على معتقد ، ولا يستند إلى أصل . . فقال : « والله يهدى إنك لرسوله » فهذه هى الشهادة التى يعتمد بها ، لأنها شهادة الحق للحق ، أما شهادتهم تلك ، فهى زور وكذب وبهتان ، وإن لبست ثوب الحق . . تقية ومداراة ! !

فهذه هى صورة النفاق ، وذلك هو وجه المنافقين : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ^(١) » . . فإذا قال المنافقون لرسول الله : « نشهد إنك لرسول الله » فهذا قول قالوه فعلاً ولكن بألسنتهم ، أما ما فى قلوبهم فقد فضحهم الله تعالى به إذ يقول : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . أى لكاذبون فيما قالوه بألسنتهم ، ولم تعتقده قلوبهم . . إن قلوبهم منطوية على التكذيب للنبي ، ولهذا كان قولهم هذا لغواً لا يحصل له . . إنه حق أريد به باطل . . روى أن منافقاً مدح علياً كرم الله وجهه ، فقال له الإمام على : « أنا دون ما قلت ، وفوق ما تعتقد ! » فالمسألة إذن ليست بتحقيق الصورة الفنية - كما يقول الدكتور - ولكنها تقرير حقيقة لا سبيل إلى تحقيقها إلا بإظهار هذا التناقض الذى يعيش فيه المنافق بين ما ينطق به لسانه وما يعتقده فى قلبه . .

ونريد أن يسأل الدكتور نفسه مرة أخرى : ماذا يكون موقفه ولو بين وبين نفسه - مع إنسان يعلم سوء رأيه فيه ، ثم إذا بهذا الإنسان يلقاه بالمدح ، ويكيل له الثناء ؟ ألا يقول لنفسه إن هذا الإنسان كاذب منافق ؟ أم أنه لا يقول هذا القول فى صاحبه هذا إلا إذا كان فى حال انشغال فنى ، وفى حالة وضع لعمل فنى ؟

هل في القرآن أساطير ؟

وقفة أخيرة نقفها مع الدكتور خلف الله في رسالته « الفن القصصى في القرآن » .

ونتلقى مع الدكتور في هذه الوقفة عند قولتين له في القصص القرآنى :
أما القولة الأولى ، فهى قوله بأن في هذا القصص ما هو من قبيل الأساطير .
وأما القولة الثانية فهى قوله بأن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفى عن نفسه وجود الأساطير فيه ، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هى الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام ، وليس من عند الله !!
ونحن نعرض ما يقول الدكتور في هاتين القولتين . ونعرض رأينا الذى نراه فيهما .

أولاً: القول بأن في القصص القرآنى أساطير ؟

يقول صاحب الرسالة بعد أن يقدم أدلته وشواهد - التى سنناقشها فيما بعد - يقول : « إذا كان كل هذا ثابتاً فإننا لا نتخرج من القول بأن في القرآن أساطير ، لأننا فى ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن^(١) .
أما ما يقيمه الدكتور من أدلة وشواهد لهذا القول ، فهو أنه عمد إلى تلك الآيات التى وردت فيها أقوال المشركين من أهل مكة واصفة ما يلقى على أسماعهم من القرآن أو من قصصه ، بأنه أساطير الأولين ، ثم إنه عمد كذلك إلى أقوال لبعض المفسرين ، رأى فيها لمحات تشير إلى رأيه هذا ، فنقلها ، وعلق عليها .

أما الآيات القرآنية التى ذكر فيها على لسان المشركين وصف القرآن أو قصصه بأنه أساطير الأولين ، ونقلها صاحب الرسالة هنا فهى :

١ - قال تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » وجعلنا على قلوبهم أكنة

أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين .

[الأنعام : ٢٥]

٢ — وقال تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

[الأنفال : ٣١ — ٣٢]

٣ — وقال تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين »

[النمل : ٢٤]

٤ — وقال تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أنذا منتساء وكنا تراباً وعظاماً ، أننا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين »

[المؤمنون : ٨٣]

٥ — وقال تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيماً »

[الفرقان : ٥ — ٦]

٦ — وقال تعالى : « وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وآباؤنا أنما لخروجون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل . . إن هذا إلا أساطير الأولين »

[النحل : ٦٧ — ٦٨]

٧ — وقال تعالى : « والذي قال لوالديه أف لكما ، أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ، وهما يستغيثن الله ويحك آمن ، إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين »

[الأحقاف : ١٧]

٨ — وقال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين ، هاز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين »

[القلم : ١٠ — ١٥]

٩ — وقال تعالى : « ويل للمكذبين ، الذين يسكبون يوم الدين ،

وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين »

[المطففين : ١٠ - ١٣]

ثم يقول صاحب الرسالة : « هذه الآيات التي عرض فيها القرآن لهذه المسألة .. فلننظر لثري ما فيها من دلالات على نظره لهذه الأساطير »

وينظر صاحب الرسالة . ويرى هذه الرؤى العجيبة فيقول :

« وأول ذلك أن هذه الآيات جميعها من القرآن المسكي ، حتى ما وضع منها في سورة مدنية كالأنفال مثلا ، فقد نص القدماء - واعتمد ذلك المصحف المسكي - على أن الآيات من ٣٠ - ٣٦ من سورة الأنفال مكية .

وأقرب ما يفهم من ذلك أن الحديث عن الأساطير إنما كان من أهل مكة وهمرتهم المطلقة من المشركين ، وأنه قول لم يقل في المدينة بعد انتقال النبي عليه السلام إليها - وهذه ظاهرة تحتاج إلى تفسير وتعليل !

وبعضي الدكتور فيقول : « وثاني ما يفهم من النظر في هذه الآيات أن القائلين لهذا القول هم في الغالب الذين ينكرون البعث بالحياة الآخرة ، وذلك واضح كل الوضوح من آيات سورة المؤمنون ، النمل ، الأحقاف ، المطففين .. ذلك لأن الحديث معهم في هذه المسألة بالذات ، وهو متصل بسبب قوي بالحديث عن الآخرة في آيات سورتي الأنعام والنحل .

« وتلك ظاهرة تستحق التفسير أيضاً !

« وثالث ما يفهم من النظر في هذه الآيات أن المشركين كانوا يعتقدون بما يقولون اعتقاداً صادقاً ، وأن الشبهة عندهم كانت قوية جارفة ، وذلك هو الواضح تماماً من هذه الآيات التي يحسن بنا أن نستعرضها سوياً . . .

ويستعرض صاحب الرسالة هذه الآيات الكريكات ، ويخلص من هذا الاستعراض إلى النتائج الآتية :

١ - أن الشبهة عند الذين يصفون القرآن بهذه الصفة شبهة قوية جارفة .

٢ - أن هذه العقيدة كانت عندهم قوية ، وتقوم على أساس يطعنون

إليه، من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن، ذلك لأنهم لا يستطيعون هذا القول، إلا إذا كان هناك ما يبرر فعلاً هذا القول في تقديرهم، ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيد ١

٣ — هل هذا الاعتقاد الذي اعتقدوه فيما في القرآن من أساطير — هل هو من الأخطاء التي ملكت عليهم نفوسهم، أو هو شيء من حال القرآن جعلهم يقولون ذلك ؟

ثم يعقب على هذه النتائج التي استخلصها — بقوله :
« لنلتمس الجواب على هذا من دلالة تعرض القرآن للأساطير .. من دلالة نفيا عن نفسه ، وشدة حرصه على ذلك ، أو من دلالة على وقوفه منها موقفاً يخالف ذلك ! »

ثم يقول : لننتظر ، وسنرى ، (١)

ونقول : إننا منتظرون .. فما الذي سيرينا الدكتور إياه ؟

يقول : « يفهم من النظرة في هذه الآيات التي هي كل ما تحدث به القرآن عن الأساطير أن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه ، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام ، وليس من عند الله ! »

ثم يقول في ثقة واعتداد بما يقول : « واستعرض معي الآيات مرة أخرى لتبين موقف القرآن نحو هذا الحرص على نفي وجود الأساطير فيه .. وسترى :
(١) « أن القرآن يكتفي بوصف هذا الصنيع من المشركين في آيات سورة الأنفال ، المؤمنون ، النمل ، الأحقاف .. دون تعقيب عليه . »

(٢) « وأن القرآن اكتفى بهتديد القوم في آيات سورتي الأنعام ، والمطففين ، وهو تهديد يقوم على إنكارهم ليوم البعث ، أو على صدمهم للناس عن اتباع النبي ، وليس منه التهديد على قولهم بأن الأساطير قد وردت في القرآن الكريم . »

(٣) « ومرة واحدة يمرض القرآن للرد عليهم في قبلم بأنه أساطير ، وهي للمرة التي وردت في سورة الفرقان ، وهذه هي الآيات : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض .. إنه كان غفورا رحيما » .

« فهل هذا الرد بنى وجود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما بنى أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبها وعلى عليه ، ويثبت أنها من عند الله »
 « قل أنزله الذي يعلم السر .. الخ ؟ »

« لعل الثاني أوضح . ولعل هذا الوضوح هو الذي جعل « الرازي » في مناقشته رد فقرآن عليهم يقول : البحث الأول في بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة .. وتقريره ما قدمناه .. من أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة ، وظهر عجزهم عنها ، ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد ، فيأتوا بمثل هذا القرآن .. فلما عجزوا عنه ثبت أنه من عند الله وكلامه ، فلهذا قال :
 « قل أنزله الذي يعلم السر » (١) .

ونقف عند هذا الحد من تلك النقول . ١ . ونسأل : هل في القرآن حقاً « أساطير » ؟ وهل يتلاقى ذلك مع الصفة اللازمة له وهو الصدق المطلق ؟
 لقد أجنبنا على مثل هذه الأسئلة من قبل ، وقلنا إن القرآن هو كلمات الله ، وما كان لكلمات الله أن تحمل باطلاً ، أو تتلبس به ، أو تقيمه إلى جوارها ، بل أنها تلقى الباطل دائماً بما يطمس وجهه ، ويسود وجه المتعاملين به .
 ولو اتسعت كلمات القرآن لأية شبهة من شبهات الباطل لانسحب ذلك على كل ما يحمل من مقررات في العقيدة والشريعة جميعاً ، ولما كان هناك مفهوم صحيح لتلك الصفات التي وصف بها القرآن في القرآن نفسه .. في مثل قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه .. هدى للمتقين » ، وقوله سبحانه : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من

حكيم حيد .. وقوله جل وعلا « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » .. وقوله جل ذكره : « قل نزل روح القدس من ربك » .. بل ولما كان مستأهلاً لأن يقسم به الحق سبحانه وتعالى تعظيماً له وتكريماً : « يس ، والقرآن الحكيم » .. « ق والقرآن المجيد » .

وكيف يقع في فهم أن يصف الله القرآن بما وصفه به ، وأن يقسم به في مقام التشریف والتكريم ، وهو يحمل في كيانه أساطير وأباطيل .. ؟ وهل الأساطير إلا باطل الأباطيل ووم الأوهام ، وخرافات المخرفين ؟ فكيف يحمل القرآن هذا الباطل وذلك الضلال على أنه بضعة منه ، وآى من آياته ، ينصبها في مقام العبرة والعظة ؟

ولو أن هذا القول قيل على أنه رأى اجتهدى ، استقام لقائله من النظر في مواد القصص القرآنى ، وفيما حل هذا القصص من أحداث وصور لم يثبت التاريخ وقوعها ، أو أنها بما لا يتصور وقوعه — لو أن هذا القول قيل على هذا الوجه قلنا : قول يقال ، وما على أحد من حاجز في أن يقول مايقول حسب اجتاده وتقديره .

أما أن يضاف هذا القول إلى من لم يقل به ، وأن يحمل عليه حملاً ، فذلك عدوان يجب أن يدفعه كل قاذر على دفعه .. وهذا القول فيما نرى هدوان على القرآن ، وجراًة في الادعاء عليه .
فأنت ترى أن صاحب الرسالة يقرر :

« أن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عنه وجود الأساطير فيه » وقد استمدى لذلك أدلة ، وأطلق شهوداً من القرآن الكريم .
فهل هذا حقاً ما تدل عليه هذه الآيات وتشهد به .

ذلك ما جعلناه موضوع القولة الثانية في وقتنا هنامع صاحب الرسالة .
ثانياً : القول بأن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه

وجود الأساطير فيه :

وننظر في الآيات التي استشهد بها صاحب الرسالة على قوله بأن في القرآن

أساطير ، وأن القرآن نفسه لم يحرص على نفي مقولة المشركين فيه بأنه أساطير الأولين .

فأولاً : في سورة الأنعام :

يقول الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو كذب بآياته .. إنه لا يفلح الظالمون ، ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون .. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ، ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، [ومنهم من يستمع إليك . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين] وهم ينهون عنه ويتأولون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . » .

ونحن — كما ترى — لم نكتف بالآية التي قدمها صاحب الرسالة هنا ، وإنما عرضنا الآية وما قبلها وما بعدها من آيات تتصل بموضوع المقولة التي يقولها الكفار في القرآن بأنه أساطير الأولين .

وأنت ترى أن مقولتهم تلك في هذا الموقف لا يواجهون بها القصص القرآني ، ولا ما يحدثهم به من أخبار وأحداث ، وإنما هم يلقون هذه التهمة في وجه القرآن كله ، بل في وجه ما يحمل إليهم من دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر . وأنهم قد صموا وصموا عن الاستماع لما يلقاهم به الرسول من كلمات الله : وأنه كلما أكثر عليهم القول قالوا — في مقام العناد والجدل — أساطير الأولين .. أي ليس لما يقول أصل يستند إليه ، وإنما هي مقولات يهذي بها ، وكلمات يرددها .. إنهم يتهمون الرسول ، ويتهمون ما جاء به .. يتهمون الرسول ، بأنه مدع يدعى الرسالة ، ويتهمون ما جاء به ، بأنه من مقولاته هو .. وقد ذكر القرآن ذلك عنهم في مواضع كثيرة كقوله تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا سحر كذاب .. أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب .. وانطلق الملائكة منهم أن

امشوا واصبروا على آلهتم ، إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة
الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ، أنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم في شك
من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب ^(١) . فقولهم : « إن هذا لشيء عجاب »
وقولهم : « إن هذا إلا اختلاق » هو وقولهم : « إن هذا إلا أساطير
الاولين » ، إنما ينزع جميعه عن فكرة مسلطة على عقولهم ، وهو أن القرآن
كله حديث مفترى .

٧ - في سورة الأنفال :

يقول الله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا
مثل هذا .. إن هذا إلا أساطير الاولين ، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو
الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .
فأى آيات كانت تتلى عليهم ؟ أليست هى آيات الله التى حملها القرآن ،
وحمل فيها أول ما حمل وأكثر ما حمل تقرير وحدانية الله ، والإيمان به على
تلك الصفة ، والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر . أم أن الآيات التى كانت
تتلى عليهم هى الآيات التى تضم القصص والأخبار وحدها . إن ذلك تحكم
لا يسنده شاهد ، بل إن الشواهد كلها تقوم على دفعه .. فقد جاء قبل هذه
الآية مباشرة قوله تعالى : « وإذ يكره لك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ،
أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين » . وهم لا يمكرون
بالرسول ويلقونه بما يلقونه به من تكذيب ، وإعنات وتهديد ، من أجل
القصص الذى يقصه عليهم ، فإن هذا القصص لا يحدثهم بشئ يسوؤهم فى
معتقداتهم . أو يسفه أحلامهم وعاداتهم ، وإنما فى غير القصص كان يلقام
القرآن صراحة ومواجهة بهذا الذى يضيقون به ، ويتكبرون الاستماع . .
وليس قولهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا تحدياً » للقصص القرآنى وما فيه من
أخبار ، وإنما هو تحد لما يحدث به القرآن كله . . فى كل شئ يحدث به . .
فأهو إلا كلام من كلامهم !

وأما ما حكاه القرآن عنهم من قولهم : « وقالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمر علىنا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فهو إمعان في تكذيبهم للرسول ، ولما يقول الرسول ، وهو مثل ما قال قوم شعيب لشعيب حين دعاهم إلى الله حيث قالوا : « فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين : [سورة الشعراء]
إنه محمد الرسول أن يكون متصلاً بالسماء !

٣ - في سورة النحل :

يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » . وقد جاءت هذه الآية عقب آيات تتحدث عن قدرة الله ، وتكشف عن حكمته وحكمته فيما خلق وأبدع ، وفيما أنعم ومنح ، وفي معرض هذه الآيات تبصرة وهدى لقوم يعقلون ، حيث يجردون طريقهم إلى الله واضحاً مستقيماً . وفي مواجهة هذه الآيات آيات أخرى تتحدث عن عجز الآلهة التي تدعى وتعبد من دون الله ، وأنها مخلوقة لا تخلق شيئاً ، وأن الذين يتعاملون معها أموات غير أحياء ، لأنهم فقدوا إنسانيتهم حيث أسلخوا وجودهم لهذه الأصنام الخاملة ، فهم والأموات سواء ، يحيون بلا إحساس ولا شعور .
استمع إلى آيات الله : « وهو الذي سخر البحر لنا كلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم ، وأنهاراً ، وسبلاً ، لعلكم تهتدون ، وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ ألا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رَحِيمٌ ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، وما يشعرون بأين يبعثون ، إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين [وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين] .

فما الذى سئلوا عنه هنا فيما أنزل الله ؟ إن ما أنزل الله هنا - كما ترى - آيات تتحدث عن قدرة الله وعلمه وحكمته وسلطانه ، وعجز المعبودين من دونه وهوانهم وهوان الذين يعبدونهم .. وليس فى هذا الموقف ، ولا فيما سبقه أو لحقه ، ولا فى السورة كلها شيئاً من القصص ، بل إن للسورة كلها دعوة إلى التوحيد عن طريق هذا العرض الكاشف لقدرة الله وعلمه وحكمته وسلطانه القائم على كل شيء ١

فقول المشركين هنا فيما يتلى عليهم من آيات الله ، بأنه أساطير الأولين - هذا القول ينسحب على القرآن الكريم كله .. فكما قالوا فى القرآن الكريم : هو أساطير الأولين ، قالوا : هو قول شاعر ، وهو قول كاهن ، وقد رد عليهم القرآن هذا البهتان فقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، فتزيّل من رب العالمين »

٤ - فى سورة المؤمنون :

يقول الله تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » .

وهذه الآيات يسبقها ويلحقها آيات تحدث عن جلال الله ، وعظمته وقدرته .. فما سبقها قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة .. قليلاً ما تشكرون ، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون » .. ومما لحقها قوله تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ »

فقولهم : « إن هذا إلا أساطير الأولين » ليس فيه إشارة إلى القصص للقرآنى من قريب أو بعيد ، بل إن هذه الإشارة هنا جارية على منطلق الأفهام

السائلة في تكذيبهم لدعوى رسلهم : « بل قالوا مثل ما قال الأولون » ،
والذي قاله الأولون : « قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ،
لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل » ، إن هذا إلا أساطير الأولين » .
فالقول بأن هذا أساطير الأولين متجه إلى « البعث » الذي وعدوا به
كما وعد آباؤهم من قبل .. وهو عندهم أسطورة من أساطير الأولين ، وخرافة
من خرافاتهم .. وفي هذا يقول الشاعر الجاهلي :
حياة ثم موت ، ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو !
ويقول آخر :

يحدثنا ابن كبشة أن سنجيا وكيف حياة أصداء وهام
فالبعث عند المشركين أمر لا يصدقه العقل ولا يقول به عاقل ، وإنما هو
حديث خرافة ، ما على قائله من حرج !

هـ - في سورة الفرقان :

يقول الله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة
وأصيلا » ، قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، إنه كان غفورا
رحيما .

واستمع إلى الآية الكريمة في سياقها الذي جاءت فيه :
« سبحانه الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .. الذي له
ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ،
وخلق كل شيء فقدره تقديراً ، واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم
يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة
ولا نشوراً ، وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم
آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً » ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى
عليه بكرة وأصيلا .. قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض [

[سورة الفرقان]

أفيكون قولهم : « إن هذا إلا إفك افتراء » ، ثم قولهم : « أساطير

الاولين استنبها ، ، أ يكون قولهم هذا متجهاً إلى القصص القرآنى ام إلى القرآن كله ، وهو الفرقان الذى جاء ذكره فى أول السورة ؟

وبمحسن بنا أن نعيد قول صاحب الرسالة فى هذه الآية ، والذى نقلناه من قبل ، فهو يأخذ من هذه الآية شاهداً على أن القرآن لم يحرص على أن ينفى عن نفسه التهمة الموجهة إليه بأنه أساطير الأولين ..

يقول الدكتور : « فهل هذا الرد ينفى وجود الأساطير فى القرآن ، أو هو إنما ينفى أن تكون الأساطير عند محمد يكتبها وتعالى عليه ، ويثبت أنها من عند الله .. قل الذى أنزله للذى يعلم السر .. إلخ ؟ » .

ثم يقول : لعل الثانى أوضح - وهو نفى أن تكون الأساطير من عند محمد ، وإنا هى من عند الله .. » ونقول . « سبحانه ما يكون أن نتكلم بهذا .. سبحانه هذا بهتان عظيم » .

ثم يقول الدكتور : ولعل هذا الوضح هو الذى جعل « الرازى » فى مناقشته لرد القرآن عليهم .. إلخ .

أخفاً أن القرآن فى رده هنا على تقولات الكافرين على القرآن لم ينف وجود الأساطير فيه ؟ .

وانظر :

لقد قالوا هنا قولتين فى القرآن ، حكاهما القرآن عنهم ، ورد على كل واحدة منهما ..

والقولتان يجتمعان على مضمون واحد .. وهو أن القرآن من تلقينات محمد وتلقياته من غيره .. وهاتان القولتان هما :

أولاً : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون » .

وقد جاء رد القرآن على هذه المقولة المنكرة رداً مفصلاً مفهوماً .. فقد جاءوا ظلماً وزوراً ،

فهذا هو رد القرآن على قولهم : « إن هذا إلا إفك افتراه » - وقد جاء

الرد منفتحاً قاطعاً بأن هذا الذي جاءوا به إلى ساحة القرآن هو إفك مفتري وزرر من القول لا يستند إلى ظل من الحق ..
وثانياً : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا » .
فكان رد القرآن : « قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض » ..

وهذا هو رد القرآن على تلك القولة الأئمة .. وهو أن هذا الذي يقولون عنه أساطير الأولين ، إنما هو منزل ممن يعلم السر في السموات والأرض .
وهل من يعلم السر في السموات والأرض ينزل على حكم الأساطير ويتعامل بها ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !
إن الذي يتعامل بالأساطير هو الذي يعجز عن أن يمسك بالحقيقة ، أو ينفذ إلى أصماغها ، فلا يجد بداً من التعلق بالأوهام والخيالات .

إن القول الذي يقوله المشركون في نسبة القرآن لا « محمد » وأن محمداً استمدّه من أساطير الأولين ، هو أقل شناعة من هذا القول الذي يجعل القرآن منزلاً من عند الله ، ثم يجعل في القرآن أساطير منزلة من عند الله أيضاً ...
إن الأساطير لا تعدو أن تكون أوهاماً وخرافات ، عاشت في تصورات الإنمائية في خطواتها الأولى في الحياة ثم أصبحت تلك الأساطير مادة نسج حولها كثير من الخرافات ، سواء في العقيدة أو في العلم ، أو الفن .. ثم سارت تلك الأساطير ميراثاً إنسانياً يكشف عن حياة الإنسان الأولى ، وعن سذاجة تمسكهم ، وجنوح مرأى خياله تماماً كما نشهد ذلك في مخلفات القرون الأولى التي خلفها آباؤنا الأولون من بيوت في كهوف ، أو أبنية من الحجر ، أو ملابس من ورق الشجر !

وتعالى الله سبحانه وتعالى أن يقيم لهذه الأساطير وزناً ، ويجعل لهذه الأباطيل وجهاً في كلماته وآياته المتتلة في كتابه الكريم الذي يقول فيه سبحانه :
« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .. فهل ماجاء به القرآن من أخبار في قصصه ، أو من أحكام في تشريعه ، أو من أخلاق في آدابه - هل شيء من هذا غير

حق ، بل وحق مصي ؟ إن كل شيء يضاف لله سبحانه وتعالى ، من خلق ، أو قول ، هو الحق المطلق الذي لا يطوف بحماه طائف من باطل .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ما خلقنا السموات والأرض إلا بالحق » .. ويقول جل شأنه : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هوزاهق » .

ثم ماذا يراد من القرآن أن يقول في نبي هذا البهتان أبلغ من هذا القول ؟ إن الحق الواضح ليس في حاجة إلى أن يدافع عنه .. فهو من الواضح والقوة بحيث تستخزي عنه رميات الزور والبهتان من تلقاء نفسها .
لقد قال الكفار في الله سبحانه ، مقولات منكرة ..
« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً » .

فكان رد القرآن عليهم : « لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً . »
« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً » .. وهم يقصدون الملائكة .
فكان رده : « سبحانه ، بل عباد مكرمون .. لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون » .

أما ما ينقله صاحب الرسالة عن « الرازي » في هذا المقام فليس فيه شيء مما يذهب إليه الدكتور ، وكلام الرازي أوضح من أن يكشف عن مضمونه . ثم إننا نحب أن ننبه إلى أن الرازي وغيره من المفسرين لم يلتزموا رأياً واحداً في التفسير ، وإنما هم ينقلون آراء متعددة ، لجرد العلم بها ، دون أن يكون ذلك فهماً خاصاً لهم .. فإن كان لهم في الآية فهم خاص صرحوا به .. وصاحب الرسالة ينقل عن الفخر الرازي ما يقع اختياره عليه من هذه الآراء ، وكثير منها من الإنسائيات والخرافات التي هي قبيل العرض ، لا الرأي .

• • •

وندد هذا لنسأل الدكتور :
لماذا وقف عند هذه المقالة من أقوال المشركين في القرآن ؟

أذلك لأن كلمة « أساطير » هذه تسعفه بمادة القول في لون من ألوان القصص ، هو قصص الأساطير ، وتفتح له باباً يدخل منه إلى تحقيق نظرية جديدة -- إلى جانب نظرياته الجديدة أيضاً في رسالته -- تقول بأن القصص القرآني هو صورة للقصص الأدبي بكل ما فيه ، حتى القصص الأسطوري .. أذلك لهذا ، أم لغاية أو غايات غير هذا ، علمها عند صاحب الرسالة ١ على أي فإن سؤالنا الذي سألناه آنفاً .. يطلب الجواب من الدكتور ونعيد مرة أخرى .

لماذا وقف عند هذه القولة من أقوال المشركين في القرآن ؟

إنهم لم يقولوا في القرآن قولاً واحداً .

قالوا هذه القولة : « أساطير الأولين » ...

وقالوا في القرآن : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعطاه عليه قوم آخرون » ..

[سورة الفرقان]

وقالوا في النبي : « شاعر تربص به ريب المنون » [سورة الطور]

وقالوا في القرآن أيضاً : « إن هذا إلا سحر يؤثر .. إن هذا إلا قول

البشر » . [سورة المدثر]

وقالوا في النبي : « إنما يعلمه بشر » [سورة النحل]

وقالوا في القرآن : « أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما

أرسل الأولون » . [سورة الأنبياء :]

أليس هذه المقولات وأشباهاها من واد واحد ، وتنزع عن موقف واحد ،

إزاء القرآن كله ، لا القصص وحده ؟

وإذا كان ذلك كذلك — وهو مالا بد من التسليم به — فهل لهذه

المقولات عندم شأن غير هذا الشأن الذي جعلهم يقولون قولة أساطير الأولين

هذه التي لم يقولوها إلا بما بين أيديهم من حجة قوية ظاهرة عليها ، بل

وعقيدة راسخة بها كما يقرر الدكتور ، إذ يقول : إن هذه العقيدة — عقيدة

المشركين في قولهم : « أساطير الأولين » — كانت عندم قويه ، وتقوم على

أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن ، لأنهم لا يستطيعون هذا القول إلا إذا كان هناك ما يبرر هذا القول فعلا في تقديرهم ، ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيده (١) .
ما هذا يادكتور ؟

إننا لا نستطيع أن نحتمل هذا الموقف ، ونحاجك فيه ، بعد أن بلغ الأمر هذا الحد من الاستخفاف بالواقع الملموس .. إن نزول العقل في هذا الميدان فيه إضرار به وامتهان له .. إذ كان معنى ذلك وضعه إزاء البدهيات ، وشغفه بها ، وجعلها من قضايا ومشكلاته .

إنني أشفق على « الدكتور » أن أمضى معه في هذا الحديث ، وأن أطلب إليه النظر في هذه المفارقات البعيدة ، المعجبية . إنى كمن يطلب إليه أن يمد رجله من قنة جبل ليجد نفسه على الأرض في وثبة واحدة !
فهل يأذن لي الدكتور أن أتولى الإجابة عنه ؟

ونقول إن هذه المقولات التي كانت تقولها قریش في القرآن ومنها قولهم تلك : « إن هذا إلا أساطير الأولين » - لم تسكن عن عقيدة قوية تقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم على أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن - كما يقول الدكتور - ذلك أنه لو صح هذا القول في الأساطير لصح في كل ما قالوه في النبي وفي القرآن : كقولهم : « إن هذا إلا إفك افتراء وأطانه عليه قوم آخرون » وكقولهم : « شاعر تتربص به ريب المنون » وقولهم ، « إن هذا إلا سحر يؤثر » - فهل كان مع المشركين في هذه المقولات وأمثالها الأساس الذي يطمئنون إليه حيث وسعهم مع هذا الأساس أن يقرروا بهذه القوة وجود الشعر ، أو السحر ، أو الجنون في القرآن ، وفي الرسول الذي يتلو هذا القرآن ؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء ، فلم إذن يقف الدكتور عن مقولة : « أساطير الأولين » وحدها ؟ أذلك لأنه في معرض

الفن القصصى فى القرآن ، وأن القصص لا يكون فناً إلا إذا خالطته الأساطير
والخرافات وامترجت به .

والحق أن هذه المقولات وأمثالها لم تكن تنفى عند المشرىكين أكثر
من التشويش على النبى ، والشغب والصخب بين يدى دعوته ، حتى يلقوا
الناس من الرسول ومن دعوته ، أما الواقع الحق عندم فى القرآن ، وعن
القرآن فهو غير هذا .

فلقد كانوا يعلمون من القرآن مالا يعلم غيرهم من فصاحته ، وبلاغته ،
وعلوه على سائر ما عرفوا من كلام فصاحتهم وبلغاتهم وخطباتهم وشعرانهم ..
وكانوا أينما نظروا إليه وجدوا أمارات الحسن والجلال مشرقة من كلماته وآياته .
ولهذا حاروا فيه ، وعجزوا أن يقوموا على عيب يظهر للناس عليه منه ..
وتاريخ القرآن الكريم فى العهد المسكى يسجل على مشركى قريش ما كان
يدخل عليهم من آياته ، حين كانت تقع على آذانهم ، فتنفذ إلى قلوبهم ،
وتستولى على وجودهم كله ، ثم لا يكون منهم إلا هذه البلبلة وهذا الاضطراب
والتضارب بين ما بأنهم من جهة القرآن من بهر ودهش ، وبين ما تقور به
قلوبهم من كبر ، وعناد ، وضلال .

جاء عتبة بن ربيعة إلى النبى ﷺ ، موفداً إليه من قريش ، يدعوه إلى
أن يترك دعوته التى يدعوهم إليها ، وله عند قومه ما يشاء من جاء ، أو سأل ،
أو سلطان .. فلما جاء عتبة وعرض على النبى ما عرض ، قال له رسول الله
ﷺ : أفد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع منى .. قال :
أفعل .. فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حم . تنزيل من الرحمن الرحيم : كتاب
فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً .. فأعرض أكثرهم فهم
لا يسمعون . وقالوا قلبنا فى أكنة مما تدعونا إليه .. » ثم مضى رسول الله
ﷺ يقرؤها عليه ، فلما معها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ،
معمداً عليهما يسمع منه .. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها

أى من السورة - فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأتى
وذلك ! فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله ، لقد جاءكم
أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك
يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط .. والله
ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ..^(١)

وقد يدفع متشكك هذا الشاهد ، ويقول عنه هو خبر من الأخبار التى
لا تقع مواقع اليقين ، ولهذا فإنه لا يصح أن يفصل فى مثل هذه القضية
المخطيرة بشاهد هكذا .

ومع أن هذا الخبر من الأخبار للتواترة ، فإننا لا نتمسك به ، خاصة وأن
معنا الشاهد الذى لا يستطيع أى مكابر ، أو معاند ، أو ملحد ، أن يشك
فى أخباره كوثيقة من وثائق التاريخ ، وهو القرآن الكريم نفسه ..
فى القرآن الكريم آيات نزلت فى مكة ، وملأت فى وقتها أسماع هؤلاء
القرشيين المعاندين للمكابرين الذين كانوا يقولون فى القرآن هذه المقولات
المرسلة على عواهنها .. وهذه الآيات التى نزلت بمكة ، والتى ملأت أسماع
المشركين فيها - تسجل الحقيقة الواقعة للقرآن عند هؤلاء المنكبرين
المعاندين ..

يقول الله تعالى فى موقفهم من آيات الكتاب الكريم : « وجحدوا بها ،
واستيقنوها أنفسهم ، ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين »^(٢)
ويقول سبحانه ، مواسياً للنبي الكريم فيما يسمع من هذه المقولات
الإعناتية الفنادية : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون .. فإنهم لا يكذبونك ،
ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »^(٣)

بل إنه ليسجل عليهم هذا الوصف الحق للقرآن ، الذى إن لم يكونوا قد
أعلنوا به ، فهو حديث نفوسهم ، ونجى سرايرهم .. يقول الله تعالى :

(١) السيرة لابن هشام : جز ١ ص ١٦٥

(٢) سورة النمل : ١٤

(٣) سورة الأنعام : ٣٣

« وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا »^(١)
 هذا هو رأى مشركى قريش فى القرآن ، وإبه « الهدى » وهو الرأى
 الحق الذى ينبغى أن تقيم عليه قريش عقولها وقلوبها ، وإلا فقد حق عليها
 أن ترمى بالغباء والبلادة والإغلاق .. وما كانت قريش إلا الفطنة والذكاء
 والألمعية !

ولكنه الكبر والعناد ، والاستعلاء عن الانقياد لأى سلطان !
 وأكثر من هذا .. فإن مقولة المشركين فى القرآن : « إن هذا إلا أساطير
 الأولين » - هذه المقولة هى وحدها من بين المقولات التى قالوها فى القرآن ،
 وذكرنا بعضها - هى التى يمكن أن يكون لها فى عقول الذين قالوها معقول
 ومفهوم ، ولكن لا على المعقول والمفهوم الذى قدره « الدكتور » من أن
 الأساطير تعنى عند قائلها الخرافات والخيالات ، على نحو ما عرف من أساطير
 اليونان ، والقراعنة ، والفرس ، والهنود وغيرهم ، وإنما المعقول والمفهوم
 للأساطير عند العرب ووصف القرآن بها هو المدونات والمكتوبات .. وذلك
 من قولهم سطر الشئ إذا كتبه .. وفى القرآن الكريم : « وكتاب مسطور »^(٢)
 وفيه أيضاً « كان ذلك فى الكتاب مسطورا »^(٣) أى مكتوباً .. فالقرآن -
 فى زعم المشركين - هو مما ينقله محمد من كتب الأولين .. ولهذا قالوا :
 « لو نشاء لقلنا مثل هذا .. إن هذا إلا أساطير الأولين » .. إذ كان النقل
 عن الكتب السابقة لا يعجز أحداً ، وقد صرحوا بهذا الزعم ، فقالوا ما حكاه
 القرآن عنهم : « أساطير الأولين اكتتبها ، فهى على عليه بكرة وأصيل »^(٤)
 فلا كتاب ، افتعال من الكتابة ، وهو يدل على المشاركة فى الفعل ، بين
 شئ مكتوب ، وشئ آخر مكتوب منه ، أو منقول عنه !

وأحسب أن وقتنا قد طالت مع صاحب هذه المقولات ، فلنول وجهنا
 إلى أفق جديد من آفاق البحث فى القصص القرآنى .. فإلى هذا الأفق .

(١) سورة القصص : ٧٥

(٢) سورة الطور : ٢

(٣) سورة الإسراء : ٨٠

(٤) سورة الفرقان : ٥

الباب الثامن

الرمز والقصص القرآني

داعية القول بالرمز في القصص القرآني :

لقد فتحت كلمة « قصص » التي جعلها القرآن الكريم سمة دالة على تلك الأخبار التي ذكرها عن القرون الماضية - فتحت هذه الكلمة كثيراً من الميول الحولاء على هذا القصص ، فرأته على هذا المستوى القبي يقوم عليه القصص الأدبي ، بكل ما فيه من حقائق وأخيلة ، وخرافات وأوهام .

ولهذا رأينا من يقول بأن في القرآن « أساطير » ، وأنه جاء بها لتحقيق أغراض فنية ؛ كما رأينا من يقول بأن في القرآن « رمزا » أو قصصاً رمزياً ، ليحقق بذلك أغراضاً فنية أيضاً .

وبحسب هؤلاء الناظرون في القصص القرآني ، على هذا المستوى الأرضي ، أنهم بهذا الصنيع يولدون من القصص القرآني طاقات جديدة ، يواجهون بها مستجدات العصر في العلوم والفنون .. فإذا كان في القصص الأدبي قصصاً أسطورياً ، فليكن في القصص القرآني كذلك هذا اللون منه .. وإذا كان في هذا القصص الأدبي قصصاً رمزياً ، فليكن في القصص القرآني ضرباً أو ضرباً من الرمز ؛ وبهذا يمكن أن يقال : إن القرآن قد حوى كل شيء ، وجاء بكل شيء .

هذا إذا أحسننا الظن فيمن يتولون الترويع لهذه المدعيات ، ويتصدون للدفاع عنها - وما كان لنا أن ننسى الظن بأحد لا تقوم بين أيدينا حجة ظاهرة على اتهامه ، وما دام عمله يلبس - أو في ظاهره - لباس النظر والبحث عن الحقيقة ؛ فلنواجه أصحاب القول بالرمز في القصص القرآني ، كما واجهناهم من قبل في قولهم : وجود الأسطورة أو الأساطير في القرآن .. محسنين الظن (٢١ - القصص القرآني)

بهم ، وبالفائدة التي ينفذونها من وراء هذه المقولات ، وأنهم إنما يبحثون عن الحق ، ويلتمسون السبيل إليه ، أما ما تنطوي عليه صدورهم من نوايا ومقاصد ، فذلك أمره إلى الله ، « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا » ، ويمجى الذين أحسنوا بالحسنى .

الرمز في اللغة :

والرمز في اللغة معناه الإيماء والإشارة للافهام بغير كلام .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : « قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » ..

وقد يكون الرمز بالإيماء والإشارة مع وجود الكلام ، وفي تنبيهه ، بمعنى أن يحمل الكلام مضامين متخفية فى أطوائه ، لا يبدو منها إلا رموز وإشارات خفية ، يلحها ذوو البصائر النافذة ، فيستدلون منها على تلك المضامين المتخفية .. !

والكلام إذا حمل قدراً مناسباً من تلك المضامين المتخفية بلطف وحكمة ، كان ذلك من أمارات بلاغته ، وعلو درجته فى الفصاحة والبيان ؛ إذ كان من الثراء والغزارة والامتلاء بحيث تنثال المعانى من ظاهره وباطنه جميعاً ، بحيث يعطى بكلتا يديه معا ..

وتستخدم اللغة العربية السكناية والتورية كلونين من ألوان النخف ، والرمز ، ولسكنها لا تعترف بهما كمنصرين من عناصر البلاغة إلا إذا أخذنا المكان الذى يستدعيهما من الكلام ، واستقرا فيه استقراراً لبقاً حكماً ، بحيث يشفان ولا ينكشفتان ، ويلوحان ولا يصرحان ؛ ولهذا قيل : رب إشارة أبلغ من عبارة . !

وقد تحدثنا فى كتابنا إعجاز القرآن عن السكناية والتورية وموقعهما فى الصورة البيانية ، وأثرهما فيها .. فقلنا عن السكناية المعروفة فى باب البيان

— من علوم البلاغة — هي أدب رهزى خالص .. حيث أنها ذات وجهين ..
وجه ظاهر غير مراد ، ووجه خفي يندس وراء هذا الوجه الظاهر ، وهو
المراد .. على أن كلا من الوجهين معاً عامل في الحياة .. فلوجه الظاهر أقوام
يتعاملون به ، ولا يتجاوزونه ، ولوجه الخفي أقوام يمرون بهذا الوجه
الظاهر ، دون أن يقفوا عنده ، بل يتجاوزونه إلى الوجه الخفي الذي يرون
فيه الحقيقة التي يندسونها .

ولا نستكثر من عرض الأمثال للسكنايات الموضحة .. فكل كناية
صالحة لأن تقوم هذا المقام ، وتؤدي ما تريد توضيحه هنا .

خذ مثلاً من السكنايات القديمة ، هذه الكناية التي يقدمونها كثيراً
في الدراسات البلاغية ، وهي قولهم : « فلان كثير الرماد » .. فهذه القولة
يقف الساذج منها عند منطوقها ، فلا يقع في فهمه أكثر من أن هذا الإنسان
عنده رماد كثير ! .

أما من جاوز حد الساذجة فإنه يرى رؤى كثيرة وراء هذا المنطوق ..
وأن هذه الرؤى تقصر أو تمتد حسب درجته من الذكاء والفهم .. فهناك
من يفهم أن كثرة الرماد تدل على أنه يوقد نيراناً كثيرة للدفء أو نحوه ..
ثم تقف حدود رؤيته عند هذا .. وهناك من يرى بعد هذا أن كثرة إبقاد
النار تدل على أنه كثير الطعام ، ثم تكون وراء هذه منطقة أخرى للرؤية
يتضح منها أن كثرة الطعام تدل على كثرة الآكلين ، ثم إن كثرة الآكلين
تدل على كثرة الواردين .. ثم إن كثرة الواردين تدل على الكرم ! ..
وإذن فالرجل كريم .

فانظر كم من السر اللطيفة يتحجب وراءها هذا المسكن عنه ؟ وكم من
الفائت الرقيقة قد تدثر فيها ؟ حتى أن الأبصار أو البصائر لتلتطف إليه في
حذر ورفق ، فترفع ستوره ، سترأ سترأ ، حتى تكشف عن وجهه . وتتعرف
على ملامحه ، وتعرف حقيقته .

فالكناية أسلوب من أساليب التخفي والرمز ، ذلك الأسلوب الذي

يشير الخيال ، ويحرك الوجدان ، ويشوق النفس إلى تتبع آثار الحقيقة الغائبة ، التي يتخذ من هذا « الحضور » اللفظي دليلاً عليها .. فإذا قطعت النفس هذه المرحلة ثم التقت بتلك الحقيقة الغائبة ، استقبلتها استقبال الحبيب الذي نادى بعد غيبته ، ورد بعد غربته ، ففقر برؤيته العين ، وبتألق ببقائه القلب .

ثم قلنا عن التورية : « ومن أساليب الرمز في اللغة أيضاً « التورية » ، وهي تحيى في الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى . كلفظ « الجبن » مثلاً ، الذي يدل على صفة هي هذا الخلق المقابل للشجاعة ، كما يدل على ذات هي تلك المادة المعروفة التي تؤكل .

وهذا للنوع من الألفاظ ، وإن صلح لاستخدامه في أداء المعنيين اللذين وضع لهما أصلاً ، إلا أنه لا يمكن أن يستخدم إلا لمعنى واحد في أسلوب واحد .

ومن أجل هذا أمكن استخدام مثل هذه الألفاظ في عملية خداع ذهني ، يراد منه إيقاف العقل وتحريكه ، حتى يتنبه لهذه المغالطة التي يراد لها أن تدخل عليه ، ويعبت به ، وتضحك منه ، فيضبطها وقد أوشكت أن تفلت !! وإنه لكي تمثل عملية المغالطة هذه دورها في لطف وبراعة ، ولكي تسبك هذا الدور ، فإنها تظهر في ثوب أحد المعنيين اللذين لها ، وهو المعنى غير المراد ، على حين أن المعنى المراد يظل مخفياً وراء هذا الثوب ، ولكن دلائل الحال تدل عليه ، وهي التي تستدعيه ، وإن كان مطلقاً على الحياة بوجهه الآخر ! .

فإذا قبل مثلاً : « فلان يأكل العيش بالجبن » ..

فالجبن هنا يظهر في معنى « الإدام » الذي يؤكل به العيش ، وذكر « العيش » هو الثوب الذي يليسه للقيام بهذا الدور .. ولكن دلالة الحال توده إلى المعنى الآخر ، وهو تلك الصفة الذميمة التي هي ضد الشجاعة ، كأن يكون المقام هو مقام ذم لهذا الشخص ، وأنه يرضى بالذلة والهوان ،

ويتقبل الضيم في سبيل أن يحتفظ بالوضع الذي هو فيه ، والذي ينال منه لقمة العيش التي يعيش بها ^(١).

هذا ، وقد كثر في اللغة ورود الكلمات المرادفة لمعنى التخفي . فقيل : الرمز ، والإيماء ، والوحي ، والإيماء ، والإشارة ، والكفاية ، والتورية ، والإيهام ، والحن .. وكلها من واد واحد ، حيث تدل على الحديث الملفوف في رقائق من الرمز والإيماء .

ولأبى على القائل في أماليه كلام في هذا اللون من ألوان القول .. لأبأس من أن نقف عليه ، ففيه فضل بيان لما نحن بصدده من حديثنا عن « الرمز » في اللغة .

وقد تخير « القائل » من بين مرادفات « الرمز » كلمة « اللحن » ، وكانت نظرته إليها واقعة تحت المعنى الذي يشير إليه قوله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » .

يقول « القائل » : قال تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » . . أى في معنى القول ، وفي مذهب القول .. قال الشاعر ^(٢) :

وقد لحنتم لكم لكيما تفهموا ووحيت وحيًا ليس بالمرتاب
ثم يقول : « واللحن - بفتح الحاء - القطننة ، ورجل لحن . أى فطن .
« ومن اللحن - بفتح الحاء - الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم .. من أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست ، فقال عليه السلام : « لعل أحدهما أن يكون ألحن بحجته من الآخر ، فن قضيت له بشئ من حق أخيه ، فأبنا أقطع له قطعة من النار » .

« ولحن يلحن لحنًا فهو لحن : إذا أصاب وفطن » .. وأنشد :

وحديث ألدّه هو بما تشبيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيًا ناك وخير الحديث ما كان لحنًا

(١) انظر كتابنا إعجاز القرآن . . الكتاب الثاني .

(٢) هو افتتال السكلاوى .

« يقول - أى الشاعر - تعوض فى حديثها فتزيله عن جهته ، لئلا يفهمه الحاضرون .

« ويقال : لحنت له لحنًا إذا قلت له قولًا يفهمه عنك الذى تحب إفهامه وحده ، وبخفى على غيره .

قال أبو على : وأصل اللحن أن تريد الشيء فتورى عنه بقول آخر ، كقول رجل من بنى العنبر كان أسيرًا فى بكر بن وائل ، فسألهم رسولًا إلى قومه ، فقالوا : لا ترسل إلا بمحضرتنا .. لأنهم كالوا أن معوا غزو قومه ، يخافوا أن ينذر عليهم .. نجى له بعبد أسود .

فقال له : أتعقل ؟

قال : نعم .. إني عاقل !

قال : ما أراك عاقلًا ! ..

ثم قال - أى الأسير - : ما هذا ؟ وأشار بيده إلى الليل !

فقال العبد : هذا الليل !

فقال الأسير : أراك عاقلًا !

ثم ملأ - أى الأسير - كفيه من الرمل ..

فقال : كم هذا .

فقال : لا أدري ، وإنه لكثير !

فقال : أبعما أكثر .. النجوم أو النيران .

فقال : كل كثير !

فقال : بلغ قومي التحية .. وقل لهم : ليكرموا « فلانًا » - يعنى أسيرًا

كان فى أيديهم من بكر بن وائل - فإن قومه لى مكرمون .. وقل لهم : إن العرفج قد أدبني^(١) ، وقد شكت النساء .. وأمرهم أن يعرفوا نفاقى الحمراء ،

(١) العرفج : ثبت طيب الريح .. أغبر إلى الحضرة ، وله زهرة صفراء ، ولاشوك له .. وأدبى : أى استوفى تمامه .

فقد أطلالوا ركوبها ، وأن يركبوا جلي الأصهب .. بآية ما أكلت معكم
حيسا (١) .. واسألوا « الحارث » عن خبري !!

فلما روى العبد الرسالة ، قالوا : لقد جن الأعور ! والله ما نعرف له ناقة
جرأ ولا جلا أصهب !! ثم مرحوا العبد ، ودعوا الحارث فقصوا عليه القصة
فقال : قد أنذركم ! أما قوله ، « قد أدبى العرفج » فإنه يريد أن الرجال قد
استلأموا ، ولبسوا الدروع ، وقوله : « شكت النساء » أى اتخذت الشكاه
للسفر ، وقوله : « نافق الجراء » أى تخلوا عن الدهناء واركبوا الصمان ، وهو
« الجمل الأصهب » وقوله : « بآية ما أكلت معكم حيساً » أى أخلاطاً من
الناس ستزولكم (٢).

وأنت ترى أن هذا اللون من الحديث ليس من لغة الحياة العامة ، ولا
عما يتعامل به الناس في مجال العلم أو الفن .. وإنما هو مما يمكن أن يلجأ إليه
الناس في ظروف خاصة في حياة الأمسى والمسجونين ، حين يراد نقل الأخبار
عنهم أو إليهم ، حيث تكون بين المتخاطبين أمارات مادية ، أو عهدية ، معروفة
لهم ، أو متعارفة بينهم .

وبغير هذا يتكشف الحديث الذى يراد ستره تحت ظلال هذه الأمارات
والدلالات المعهودة ، أو يكون مغلفاً إغلاقاتاً تاماً ، حيث لا عهد بين المتخاطبين
بما فيه من أمارات ودلالات ، وحينئذ لا يكون له أثر ، حيث لا يحقق غرضه .
فالرسالة السابقة مثلاً لا يمكن أن يفك طلاسمها على الوجه المراد الذى
يؤدى الفرض المطلوب منها - إلا أحد بنى العنبر .. حيث كانت منابر
خيامهم في « الدهناء » ذات اللون الأحمر ، وهى التى كفى عنها صاحبهم بالناقة
الجرأ ، وقد طلب إليهم أن يتخلوا عن هذا الموضع ، وأن يركبوا الجبل -
جبل الصمان - وهو الذى كفى منه بالجمل الأصهب !

وإذن ، فهذه ضرب من الإلغاز ليس فيه فن ، وإن كان فيه ذكاء ومرعة

(١) الخيس : طعام من أطعمة البادية . وهو مركب من تمر وسمن وسويق

(٢) الأماي ، لأبى على القالى - الجزء الأول ص ٤

خاطر وبراعة احتيال ، أشبه بما يأتيه « الحواة » فيما يعرضون من أعمال وحيل ، لا يعرفها إلا من اشترك معهم في إعداد العمل وتنفيذه .

الرمز الذي يتحدث عنه الرمزيون :

الفن الجميل لا يكون فنا إذا هو تمرى من الإشارات ، والإيماءات ، والإيماءات التي تقوم من وراء الصورة الظاهرة للعمل الفني . وبهذا يعيش الفن في الحياة ، وبملا وجود الناس جمالا ، وروعة ، وجلالا .

وقد قلنا في كتابنا « إعجاز القرآن » :

« كل فن من الفنون الجميلة لا يد أن يضم في كيانه قدراً من المعطيات المحببة وراء ظلاله ، والمتخفية خلف ستوره . . فهكذا شأن الفن دائما ، لا تجسى معطياته كلها متجردة عارية ، تنالها كل عين ، ويستولى عليها كل نظر . . إن الفن حرما لا يغشاه إلا أهله . . في جلال ورفق . وحساب إفيانه وإن أباح للناس جميعا أن ينظروا فيه ، ويأخذوا منه إلا أنه - مع ذلك - يحتفظ لنفسه بقدر ما من روائع أسرار ، وذخائر مكنونه ، لا يطلع عليها أحداً إلا بحساب وتقدير . . قطرة قطرة ، وحالا حالا . . ومن هنا كتب للفنون الحياة والخلود المتجدد . إذ يطلع على الناس كل يوم بوجه جديد ، وموجيات جديدة ، وخير جديد .

« هذا الجانب المتخفي من العمل الفني هو في الواقع منطقة رمزية . تنطلق منها رموز وإشارات ، هي كلمة السر بين الفن وأهله ، يعرفون مدلولها . ويترجون منظوفها . . أما عند غيرهم فهي شيء . . لا شيء وراءه » (١) .

والقرآن الكريم ، وما فيه من شرائع وأحكام ، وما يحمل من عبر وعظات لا يقع من الناس موقعا واحداً ، فهم في فهمه ، وفي التلقى عنه ، وفي التجاوب معه على درجات متفاوتة . . ولكن - مع ذلك - هناك قدر

مشترك من الفهم للشرعية ، بين أبناء هذه الشريعة ، هو الذى يجعل بينهم
جتماعا عليها ، وتعاملا مشتركا بها ..

يقول الشاطبى فى كتابه « الموافقات » :

إن الله تعالى جعل أهل الشريعة على مراتب .! ليسوا على وزان واحد ،
ورفع بعضهم فوق بعض ، كما أنهم فى الدنيا كذلك . فليس من له مزيد فهم
فى الشريعة كمن لا مزيد له .. لكن الجميع جار على أمر مشترك .

ثم يقول : « والاختصاصات فيها هبات من الله ، لانخرج أهلها عن
حكم الاشتراك ، بل يدخلون مع غيرهم فيه ، ويمتازون هم بزيادات فى ذلك
الأمر المشترك بعينه .. فإن امتازوا بمزيد الفهم لم يخرجهم ذلك عن حكم
الاشتراك ، فإن ذلك المزيد أصله الأمر المشترك (١) » .

فالقدر المشترك الذى تجتمع عليه أفهام الناس فى أمر من الأمور يمكن
أن يسمى الحقيقة المجردة .. كما يمكن أن يسمى ما وراءها من مفاهيم يدركها
أصحاب البصائر النافذة والعقول الراجحة - يمكن أن يسمى هذا رمزا وإيحاء .

وأحسب أن مفهوم « الرمز » الذى يتحدث عنه الرمزيون من أصحاب
الجديد ، والذى يريدون أن يدخلوا به على اللغة العربية وآدابها وأن يجمعوه
إقحاما على القرآن الكريم ، وعلى قصصه بنوع خاص - هذا المفهوم لا يجبرى
على هذا التقدير ، ولا يقدر بهذا الحسب الذى يقوم فيه الرمز فى العمل
الفنى بوظيفة الإيحاء والإلهام ، والتحديث من وراء حجاب .. وإنما
« الرمز » الذى يتحدثون عنه شيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف . فى
شكله ومضمونه جميعا .

فالرمز الذى تعرفه الفنون الجميلة — ومنها فن القول — له سمات يعرف
بها ، وله معطيات يتلقاها المتلقون عنه ؛ وهذه المعطيات التى اختلفت حظوظ
الناس منها ، وتباينت درجة إحساسهم بها ، هى ذات وجه واحد يتلاقون

عنده ، ويجتمعون عليه ، حين يسفر لهم ، ويطلع عليهم .. أو قل هي شيء موضوعي ، تختلف وجهات النظر فيه ، ولا تخرج من مفهوم مأم له .

أما « الرمز » الذي يتحدث عنه الرمزيون المجددون ، فهو مفهوم ذاتي ، يفيض عن مشاعر وإحساسات ذاتية — هو تخرجات ، وتخرصات ، ووسوسات ، وتوهمات ، وروى وأحلام وأضغاث أحلام ، تنطلق من رموس أصحابها بلا ضابط ، وتتوالد — شيطانياً — لا أم لها ولا أب .. فكل كلام عندهم يمكن أن يلد في رموسهم ، ويضع لأيديهم مواليد لا حصر لها ، تخرج عليهم من « ققام » الرمزية التي يملكون مفاتيح طلاسمها .. فها هي إلا أن يملك الواحد منهم بأي كلام على لسانه ثم يضرب رأسه ضربات بيديه ، حتى يفتتح القمقم ، فتنتقل منه أحلام وأضغاث أحلام ، هي التي تتوالد فيها هذه « الرمزية » التي يطلعون على الناس بها ، من بين سحب قاعة ، وضباب كثيف ، لا يرى فيه أحد شيئاً مما يرويه في ضباب الهلوسة والسرمان !

فالرمزية بهذا المفهوم تأويلات وتفسيرات لهذه الأحلام والأضغاث الأحلام ، يؤولها كل حسب ما عنده من نوازع ذاتية ، وأهواء شخصية . فيينا يقول أحد المؤولين عن الشيء : إنه يرمز إلى الحب ، يقول متأول آخر : إنه يرمز الكراهية ، على حين يقول ثالث : إنه يرمز إلى الموت ، ويقول رابع : إنه يرمز إلى الخيانة .. ويقول خامس وسادس ، وسابع .. إلى مثالات الناس وألوفهم .. كل له في هذا الشيء مفهوم خاص ، لأنه إنما يخفق هذا المفهوم من زمامه ورغباته وأهوائه .

ولقد ضاق بهذه الرمزية العمياء كثير من أصحاب الجديد ، الذين يعرفون للفن حدوده ، كما يعرفون للغة قيمة دلالاتها ومفاهيمها ، التي إن تعرت منها استحالت إلى أصوات كأصوات الحيوانات والطيور . يقول الشاعر المهجري « إلياس فرحات » في مواجهة الشعر الرمزي المغلق على أهله :

لغة مشوهة ومعنى حائر خلف « المجاز » ومنطق متعثر !

وزعيمهم في زعيمهم متفنن عجباً ! أكان الفن فيما يضمّر ؟
لا الأرض تفهم ما يصوره لها هذا الزعيم ، ولا السماء تفسر !
والمثل الواضح هنا هو المذهب « السريالي » أو « السريالزم » الذي
ظهر في هذا العصر ، ولصق ببعض الفنون كالرسم والنحت ! فأنت إذ تجد
نفسك أمام بعض اللوحات « السريالية » التي رسمها « بيكاسو » مثلاً .
لا يمكن أن تضع لوحة منها اسماً دالاً عليها .. فكلها خطوط متناثرة هنا وهناك
على غير نظام ولا تقدير .. إنها أشبه بما يعبت به الأطفال ، إذ وقع لأيديهم
أقلام وأوراق ، أو هي مخلفات قلم عبت به يد صاحبه على ما بين يديه من
ورق ، دون وعي ، أو قصد !

ولسكنك حين تستمع إلى أحد الرمزيين ، أو السريالزميين وهو يقرأ
لك هذه « الأنايبش » تجد شروحات طويلة يفسر لك بها هذه الرموز ، ويحل
بها هذه اللطالسم ، ويتغنى بما فيها من آيات الفن وروائمه .. واهو في الحقيقة
إلا شاعر يتغنى بليلاه !

* * *

وهذا موقف لا تنكره الحياة ، بل هو مما يقع فيها ، ويدور في حياتنا
جميعاً .. فلكل إنسان ميول ونزعات خاصة ، تظهر في نظره إلى الأشياء ،
وفي تقييمه لها .. ولكن هذا الذي يفضيه الإنسان على الأشياء من ميوله
ونزعاته عنصر زائد من عناصر الفهم لهذه الأشياء ، يقوم من وراء الفهم
العام الذي تتلاقى عليه أنظار الناس في فهمها وفي التعامل معها ، ولولا هذا الفهم
المشترك بين الناس للأشياء لما كان بينهم تعامل بها ، بل لذهب كل إنسان
بمذهبه فيها ، على الوجه الذي يعرفها به ، ويريدها عليه .

كوب الماء مثلاً .. في عين للظمان الذي يسكاد يحترق ، هو الدنيا كلها ،
يزيتها ، وزخرفها ، ومالها ، وجمالها .. قد حيزت في هذا الكوب .. وهو
في عين الريان .. ماء ، وكفى ! .. ثم هو في عين الناس جميعاً - من ينظر إليه

تبعين الظامى ، ومن ينظر إليه بعين الريان - نعمة لا يعاش إلا بها ، ولا نكون حياة إلا معها .

وقل مثل هذا فى كل شئ يدور فى حياة الناس من خير وشر . لكل إنسان نظرتان فيه .. نظرة خاصة ، تحكمها ظروفه وأحواله ، ونظرة عامة يتلاقى فيها مع النظرة العامة للناس إلى الشئ وتقديمهم له .

كذلك الشأن فى صغيرات الأمور ومحقراتها . بعض الناس يضخم أمرها ، ويعظم شأنها على حين يراها بعض آخر أصغر وأحقر مما عليه أمرها . . . وذلك حسب ما عند كل من التوقين لها فى خاصة نفسه ، ثم يبقى لها وراء هاتين النظرتين النظرة التى يراها فيها الناس على ما هى عليه فى الحياة . . . تلك النظرة المتجردة من الميل إليها ، أو الانحراف عنها . وفى هذا يقول « المتنبى » :

وتعظم فى عين الصغير صغارها - وتصغر فى عين العظيم العظام
ولقد ضبط الأدب العربى كثيراً من هذه الصور التى تختلف فيها نظرات
الناس إلى الأشياء ، حيث ينفضون عليها من مشاعرهم ألواناً وظلالاً ..
فى كتاب « البيان والتبيين » عقد الجاحظ فصلاً من فصوله الممتعة ، صور
فيه هذه المفارقات البعيدة التى تقع بين الناس فى نظرتهم إلى الأشياء من خلال
رغباتهم الخاصة ، ونزواتهم الذاتية . . .
وقد عرض مواقف كثيرة وقعت فيها هذه المفارقات . . . نكتفى بذكر
شئ منها .

١ - السرور :

- قيل للحصين بن المنذر : ما السرور ؟
- فقال : امرأة حسناء ، ودار قوراء ، وفرس فاره مرتبط بفناء ؛
- وقيل لضرار بن الحسين : ما السرور ؟
- فقال : لواء منشور ، وجلوس على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير (١) .

(١) يعنى بالأبدي نفسه ، أى أنه يرى أن السرور لايم ، والسعادة لا تكمل إلا إذا كان صاحب إمارة ، حيث يسلم الناس عليه باسم الأمير .

• وقيل لعبد الملك بن صالح : ما السرور ؟

فقال :

كل الكرامة تلتها إلا التحية بالسلام^(١)

• وقيل لعبد الله بن الأهم : ما السرور ؟

فقال :

« رفع الأولياء ، وحط الأعداء ، وطول البناء ، مع القدرة على النجاة » .

• وقيل للفضل بن سهل : ما السرور ؟

فقال :

« توقيع جائز ، وأمر نافذ »^(٢) .

فهذا مطلب من مطالب الناس ، ورغبة من رغائبهم ، وهو « السرور »
ويعنى به السعادة — قد اختلفت وجهة نظرهم فيه ، وفي وسائله . . . فما يحقق
السعادة لشخص ، شيء يختلف عما تتحقق به السعادة لشخص آخر . . . !

فإذا كانت السعادة كما عرفها بعض الحكماء هي : « إدراك الملائم » كان
معنى هذا أن الملائم لا يكون شيئاً واحداً محدداً ، وإنما هو أشياء كثيرة
لا تحصر ، إذ لكل إنسان ما يلائمه من طعوم الحياة وألوانها .

ولولا ثلاث هن من عيشة الفنى

وجدك لم أحفل متى قام عودى

فهن سبق العـاذلات بشرية

كيت متى ما تعـسل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف مجنباً

كـيد الغضاء تبهته المتورد

(١) يعنى السلام بالإمارة .

(٢) التوقيع الجائر : كتابة عن الدولة والسلطان ، حيث كان الخلفاء والولاة توقيعات على
المظالم والمطالب التي يتقدم بها الناس إليهم ، فينفذ لهم ما يوقعون به .

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

بهيكنة تحت الطراف المعمد

فهذا طرفه بن العبد الشاعر الجاهلى ، وصاحب المعلقة التى منها هذه
الآيات ، يجعل حياته كلها محصورة فى هذه المطالب ، وهى الحر ، ونجدة
المستصرخ به ، ثم امرأة شابة جميلة وخيمة فى يوم ممطر !
وحين استمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى هذه الآيات تنشد
عنده قال :

« لولا أن أسير فى سبيل الله ، وأضع جبهتى لله ، وأجالس أقواماً ينتقون
أطياب الحديث كما ينتقون أطياب الثمر لم أبال أن أكون قدمت ! » (١) .
وكل إناء بما فيه ينضح ، كما يقولون .. !

لقد كانت حياة الجاهلية هى التى عبات مشاعر طرفه بن العبد وملأت
كياته بهذه النزعات ، فنضحت بهذه الأمانى التى جعلها غاية الحياة عنده ..
على حين امتلأت مشاعر عمر ونزعاته بما حملت دعوه الإسلام إلى الناس من
خير وهدى ، فكانت الحياة عنده ميدان عمل للسعى فى هذه المطالب العالية !

* * *

وأثر البيئة ، والثقافة ، والحرفة ، ينضح دائماً على أفكار الإنسان فتظهر
وعليها سمات بارزة ، من بيئته ، وثقافته وحرفته ..

ويعرض الجاحظ صوراً كثيرة تكشف من مدى تأثر الإنسان بطروف
حياته وأحوالها ، وبما يتقلب فيه فى هذه الحياة من أعمال وشئون ..
ومن ذلك ما يرويه الجاحظ مما سمع ، أو شاهد ، أو تخيل !
قيل لطفيل . كم اثنين فى اثنين ؟ فقال : أربعة أرغفة !

ويقول الجاحظ : « قلت للملاح لى . وذلك بعد العصر فى رمضان : انظر
كم بين عين الشمس ، وبين موضع غروبها من الأرض » فقال : « أ أكثر من

مردى ونصف ! » (١).

ويقول : « قال رجل ملاح : وقع علينا اللموس ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان فى طول هذا المردى ، وكان نخذة أغلظ من هذا السكان ، واسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سواداً من هذا القير » .

وهذا اللون يسميه البلاغيون إظهار المطلوب ، حيث تظهر فيه رغبات النفس ومطالبها . ويسوقون لهذا مثلاً مشهوراً هو قول الشاعر ، وقد نزل ضيفاً بقوم ، فأرادوا مبالغة فى إكرامه أن يسألوه عما يجب من ألوان الطعام ليهبثوه له . . فقال :

قالوا اقترح شيئاً نجد له طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقيصا !

فهذا يكشف عن أن الشاعر كان يحلم بحبة وقيص يظهر بهما فى الناس ، وأن شهوته إليهما أكثر من شهوته إلى الطعام .

* * *

هذا ، وقد يقع الناس تحت ظروف معينة فينفصل بعضهم عن بعض انفصالاً شعورياً ، ويعيش كل واحد منهم فى عالمه الذى يهيمه لنفسه ، غير مؤثر أو متأثر بغيره . . وفى هذا الجو تفقد اللغة وظيفتها ، أو تتخلى عن الجزء الأكبر منها ، حيث يكون للأفراد عوالمهم التى يعيشون فيها ، ولغاتهم التى يناجون بها أنفسهم ، فى صحوهم ونومهم . .

وقد لفتت هذه الظاهرة — ظاهرة فقدان اللغة لوظيفتها فى أدب اللامعقول — لفتت الأنظار إلى البحث عن البواعث النفسية ، أو الاقتصادية ، أو الاجتماعية التى أدت إلى ظهور هذا الأدب فى هذا العصر . . وقد اختلفت الآراء حول الدوافع التى دفعت بهذا الأدب فى حياتنا المعاصرة . . ولعل

(١) المردى . . بضم الميم وسكون الراء ، وكسر الدال ، بضمه ياء مشددة : هو خشبة يدفن بها الملاح السفينة .

أقرب هذه الآراء إلى الصواب في هذا الأمر ، هو الرأي الذى يعزو ظهور هذا اللامعقول إلى مانحهم في هذه الحياة المعاصرة ، من مشكلات قاسية شغلت كل إنسان بنفسه ، فجعل يطلب لها وجهاً من وجوه النجاة ، وقد عصفت بسفينته التى يبحر بها عباب الحياة ربيع طائفة ، تكاد تلقى به لجة المحيط الصاحب الهادر ، فكان ذلك داعية إلى أن تتقطع العلائق الإنسانية بين الناس ، ومن بينها العلاقات اللغوية .

يقول الدكتور مندور في حديثه عن مسرحيات اللامعقول ، وعن مسرحية « المغنية الصلحاء » ليوجين يونسكو . . يقول عن هذه المسرحية : « إنها تلقى الضوء على مشكلة اللغة ، وهل لا تزال وسيلة للتفاهم بين البشر أم أنها قد فقدت هذه الوظيفة ، فأصبح الناس يبدو عليهم أن أحدهم يحدث الآخر بواسطة اللغة ، بينما كل منهم مشغول عن حديث الآخر بمشاكله الخاصة ، فهو في واد وزميله في واد آخر . . وذلك بحكم أن تعقد الحياة المعاصرة وكثرة مشاكلها وهمومها وقد جعلت كل فرد ينطوى على ذاته ، ويفرق في همومه الخاصة ، بحيث لا يستطيع أن يصنى إلى حديث غيره ، وأن يشاركه هذا الحديث ، ولو كان جالساً إلى جواره وفي مواجهته ! » (١) .

وفي هذا التفسير لظاهرة اللامعقول شيء من الوجاهة ، بل يكاد يكون هو التفسير الصحيح لهذا العمل ، إذا وقف به عند حدود أصحابه الذين خرجوا على الحياة ، وعرضوه على الناس . . إذا هو لا شك وليد صدمات نفسية قاسية أو نتائج رياضيات ذهنية عنيفة انتهت بأصحابها إلى ما انتهت إليه الرياضيات الصوفية بأهلها ، فكانت لهم لغات وألسنة قل أن يفهما عنهم أحد ، وقل أن تفهموها هم عن بعضهم . . فهذه الوثبات الذهنية البعيدة الجاذبة ، التى فظهر فى أدت اللامعقول ، والتى تقطع أو اصر اللغة بين الناس ، وتمزق وحدة

(١) مجلة المسرح — العدد التاسع من السنة الأولى [سبتمبر ١٩٦٤] عن مقال [الأصول الدراسة وتطورها] .

التفام فيها بينهم — هي أشبه بالقطحات الذاهلة التي تظهر في أدب المتصوفة..
كلامها ممل ذاتي .. لا يعيش إلا في أهله ومع أهله .. فإذا خرج من بيئته
تلك اختنق ومات !

ومع هذا فإننا نكرر القول بأن لكل إنسان ، وفي كل إنسان ؛ ذاتية
يلقى بها الأشياء ، ويتعاطف بها معها .. ولكن ذلك كما قلنا شيء زائد على
ما في الإنسان من إنسانية ، تجمع بينه وبين الناس على رأى ما ، في الأشياء ،
وتقيمه على وفاق معهم ، في نظرهم إليها ، وتعاطفهم معها .

ونقول : إن مثل هذه المعطيات التي يتلقاها الناس من الأشياء بوجودهم
ومشاعرهم ، ليست في الواقع إلا رموزاً كشفت عنها قراءاتهم الخاصة ،
للأشياء ، وتعاطفهم معها .

ولاشك أن مثل هذه الرمزية ليست مما يمكن أن يحسب على الفن ، أو
يضاف إليه .. وإلا لحسب كل شيء — أيأ كان — فناً ، لأن كل شيء فيه
قدس ما من الرمز الخفى الذى تجسده المشاعر الذاتية للناس ؛ وتشكله نزواتهم
وأهواؤهم ، على الصورة التي يشتهونها ويتشوقون إليها .

وأصحاب الرمزية الحديثة يفهمونها هذا الفهم ، ويريدون أن يدخلوا بها
أو يدخلوها في الأدب كله .. قديمه وحديثه ، جميعاً .

أما الأدب القديم ، فإنهم يريدون أن يقيموا فهمه على تلك الرمزية ،
وأن يمرضوه في معارضها ، حيث يضعه الإنسان في الإطار الذى يريد أو
يتصوره .

وأما الأدب الحديث فإنما يريدون أن يصوغوه في صياغة مصبوبة في
قوالب هذه الرمزية ، مدموغا بها !

ونظرة فاعصة إلى هذه البدعة التي يراد رمى اللغة العربية بها — تربنا
الخطر الذى يهدد اللغة العربية وآدابها وعلومها .

وانظر في بعض ما ينجم من بلاء لو أن هذه الآفة نزلت بأفاق اللغة العربية :

(٢٢ - القصص القرآني)

فأولا : يتحول التراث العربى كله إلى طلاس ، حيث تنخلى فيها الكلمات والعبارات عن مدلولاتها الغوية والبلاغية ، وتصبح جننا هامدة ، وعلى الناس — من يريد منهم — أن ينطق هذه الكلمات والعبارات بما يشاء ، أو بمعنى أدق ينطق هو عنها بما توسوس به نفسه ، وترى به إليه هواجسه .. وأغل ما فى هذا المذهب أنه يذهب بمشخصات اللغة العربية ، ويضع معالمها ، فلا يكون لها وجه يراه الناس فيه ، ويتعرفون به عليها .

وثانيا : يصبح الناس — أعنى العرب — ولا لسان يجمعهم ولا مشاعر تربطهم ، ولا أفكار تؤلف بين قلوبهم .. إذ قد انحلت رابطة اللغة التى تقوم بهذه الوظائف فيهم ، فهى التى يردون مواردها ، ويزودون منها معارف ذات لون معروف ، تتشكل منه آراؤهم ومنازعهم فى الحياة .

وماذا لو أخذت هذه الرمزية مذاها ؟

وأعجب ما فى هذه « البدعة » أنها تجعل القرآن الكريم مركز ديبها ، ونقطة منطلقها ، لتصيب اللغة فى صميمها ، وترمى فى كيدها ، فتصيب منها المقاتل ! .

والقصة فى القرآن هى المجال الذى تتحرك فيه هذه الجملة ، التى تضم أخلاطا من الناس . منهم المسلم وغير المسلم ، ومن يتزيا بى الدين ، ومن خلع زى الدين .. ذلك أن القصص من طبيعته — كفن — أن يتسع لمثل هذه البدع ، فأكثر ما حمل الفن تحت اسمه ، من ضلال وبهتان ! .

فالقصاص القرآنى — كما وهم أصحاب الرمز — يمكن أن يكون بيئة صالحة لفرس هذه البدعة وأشباهها فى مغارسه . . وأنه باسم الفن وتحت رايته ، يمكن أن تندس هذه القرية بين ثناياه ! .

وغابوا ، وخاب تدبيرهم ! فإن من شأن ما كان على الصحة والسلامة أن يبنى الخبث عن وجوده ، سواء فى ذلك ما كان من ماديات الحياة أو معنوياتها فالعين السليمة فى الجسم السليم إذا دخل عليها جسم غريب فاضت عليه من

مائها فأغرقتة ، ثم لفظته .. والصفحة الناصعة البياض تفضح أية ذرة سوداء تقع عليها .. وهكذا القرآن ؛ وقصص القرآن ؛ فإنهما من الصحة والسلامة والشفافية ، بحيث لا تسكن إليهما الأباطيل ولا تستقر في جهاهما المقتريات !

« والرمز » الذى يدفع به « الرمزيون » إلى ساحة القصص القرآنى هو باطل الأباطيل .. من حيث أنه فى ذاته لا يصلح أن يستقيم عليه أى فن من فنون القول ، سواء أ كان شعراً أم نثراً ، وسواء أ كان قصصاً تاريخياً أم أسطورياً .. لأن هذه الرمزية — كما قلنا — لا تعترف للغة بمدلول كلماتها ومفهوم أساليبها ؛ وإنما تنزع عن اللغة هذه السمات التى يعرفها الناس بها ، ويتعاملون فيها بينهم عليها .. ثم نحيل كلماتها إلى أشباح غارقة فى ظلام .. يقول فيها كل إنسان بما يضطرب فى خاطره ، ويموج فى خيالاته !

ومن عجب أن يتباكى هؤلاء « الرمزيون » على القصص العربى ، وأن يظهروا الوله والحزن عليه أن فاته تلك « الرمزية » التى أخذت الآداب غير العربية بنصيب موفور منها !

وإذ رأى هؤلاء المتباكى على القصص العربى أن « المسيحية » قد أسعفت أبنائها بحاجات الفن كلها من الرمز ، وأنها قد أتاحت لهم أن يخلقوا ويبدعوا ، حتى لقد تأثر بهذا كثير من الأدباء المسلمين ، وخاصة فى الشعر الحديث — إذ رأوا هذا فقالوا ، وما لنا نستجدى من المسيحية وفى ديننا من الرمزية ما يعلاً أدينا ، ويسد مطالبنا الفنية فى كل جانب من جوانب الفن ؟

ولا ندرى ماذا نقول لهؤلاء الأصدقاء ، وخير منهم الأعداء العقلاء . ماذا نقول لهم ؟

لنفرض أن الشعر الحديث الذى يريدون أن تستنقذوا أصحابه الذين غرقوا فى الرمزية المسيحية — لنفرض أن هذا الذى يسمى شعراً حديثاً ذهب جملة هو وأصحابه .. بل لنفرض أن الشعر العربى كله ، والقصة العربية وغيرها من فنون القول قد تكسدت سوقها ، وتبور تجارتها — إذا لم تدخل هذه الرمزية

في كيانها .. أذلك يقتضينا أن نضحى .. بالقرآن ، وبما حمل القرآن من عقيدة
وشريعة ، في سبيل أن نكتب حفنة من « هلافت » الشعراء أو القصصيين
- إن كان هذا كسباً . أو أن نروج للأدب العربي بهذا الأسلوب الانتحاري
من أساليب الترويج ؟ . إن ذلك هو الضلال البعيد ؛ وهو الخسران المبين
لوجودنا كله !

ولا .. أيها الأصدقاء الألداء !

لا يخيفنكم أن تروا في الشعر الحديث أو في القصة الحديثة مما يكتب
باللسان العربي - لا يخيفنكم أن تروا فيهما هذه الرمزية المسيحية مطلة بوجهها
فإن ذلك أمر لا بد منه ؛ إذ كانت هذه المقطعات مما يسمى شعراً حديثاً ،
وهذه الأقاصيص - مما يسمى قصصاً - إنما هي مترجمات عن الأدب الغربي
المسيحي ، أو المتأثر بالمسيحية ، وهي ترجمة تكاد تكون حرفية ؛ ألزم فيها
أصحابها النص الأصلي كما هو ، دون أن يكون لهم من شخصياتهم قدرة على
الخلق والإنشاء ؛ أو حتى تغيير بعض معانيها وتخوير بعض أشكالها . فهذا
الشعر ليس عربياً في أفكاره ؛ ولا في أخيلته ، ولا في قلبه ، ولا في موسيقيته
وإنما كل حظه من العربية ، تلك الكلمات المهلهلة التي نسج منها .. وكذلك
الشأن في القصص الرمزي .. كلمات عربية .. نحمل أفكاراً ؛ وأخيلة ، ومنازع
ومشارب لا تعرفها لغة العرب ولا العرب !

وإذن فالمصيبة هينة ، بل لا مصيبة أصلاً ، بل لعله خير وخير كثير - إذا
ذهب هذا الشعر الرمزي ، وهذا القصص الرمزي ، وهما لاشك ذاهبان وشيكان ،
حين يجد أنهما غريبان ، مجفوان من كل عين تنظر إليهما ، محقران في كل
معرض يعرض فيه .

القرآن ، وقصص القرآن ، وهذه الرمزية :

وندع هذا كله ..

وننظر في القرآن الكريم ، وفي القصص القرآني حين نفترض فيهما
الرمزية أو نفترض عليهما .

ولا نعيد الحديث عن هذه الرمزية العمياء ، التي تضيق معها مدلولات اللغة ومفاهيمها ، فقد قلنا في هذا مافيه الكفاية ، وكشف آثارها المدمرة للتراث العربي كله ..

وحسبنا أن نعرض شواهد عملية وقعت في مفاهيم كثير من أصحاب المذاهب والنحل — حين نظروا في القرآن الكريم نظرات تخرج بالنص القرآني عن مدلول كلماته ومفاهيمها اللغوية ، وحين أباحوا لأنفسهم أن يخرجوا الآيات الكريمة ، ويقولوها ، على أهوائهم ونزعاتهم ، وأن يحيلوها رموزاً يحملون من أنفسهم السدنة الذين بأيديهم مفاتيح أخلاقها ، وعندهم مستودع أسرارها .

وكتب التفسير فيها مثل وشواهد كثيرة لهذا التأويل والتخريج لآيات الكتاب الكريم ، الذي يتخذ من الكلمة منطلقاً ينطلق به في أودية الخيال والأوهام .. ولا نكاد نستثنى من هذا أى كتاب من تلك الكتب التي أغرم أصحابها باصطياد الغرائب وجلبها من كل واد إلى حرم القرآن .. وتفسير « الخازن » يمثل الذروة التي بلغتھا التفاسير في الإغراب والتعطيب .. من كل غث وThin .

وإليك مثلاً من تفسير الخازن لكلمة « يأجوج ومأجوج » التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى — في قصة ذى القرنين — : « قالوا ياذا القرنين .. إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض .. فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً » .

يقول الخازن في تفسيره ليأجوج ومأجوج :

« إن يأجوج أمة ، ومأجوج أمة ؛ وكل أمة أربعة آلاف أمة ، ولا يموت الرجل منهم حتى يرى من صلبه ألف رجل قد حمل السلاح .! وم ثلثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز — شجر بالشام طوله عشرون ومئة ذراع — وصنف منهم عرضه وطوله سواء ، عشرون ومئة ذراع ؛ وهو لا يقوم له جبل ولا حديد .. وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف

بالأخرى ، ولا يمرون بفيل ولا وحش ، ولا خنزير إلا أكلوه .. ومنهم من طوله شبر ١ .

وهكذا يعضى الخازن فى خلق هذه العوالم ، وفى إخراجها على الصورة التى يراها ، وكأنه بهذا إنما يستعرض قدرة الله ، وبديع صنعه فى عرضه هذه العجائب على الناس ١١ . وهى كلها من مواليد الخيالات والأوهام ! وقد ذهب كثير من المفسرين هذا المذهب ، وأخذوا به .

وجاء فى الخازن أيضاً عن حملة العرش : « أن من حملة العرش من صورته على صورة الإنسان ، ومنهم من صورته على صورة النسر ، ومنهم من صورته على صورة الثور ، ومنهم من صورته على صورة الأسد ١٢ » وهذه الصور لاشك بعيدة عن الحق الذى جاء به القرآن الكريم ، وما اطلع أحد على الملائكة الأعلى .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، فكيف تصح بعد هذا تلك المدعىات ؟ « أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » .

ومن عجب أن « الزمخشري » ذا الحس البلاغى السليم يندفع فى هذا الطريق ، ويدلى بدلوه مع المدلين فيه .

فقد فسر الزمخشري الآية الكريمة التى تتحدث عن الرسول والذين آمنوا معه : « ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فأزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه » فىقول : إن هذا مثل ضربه الله لبده الإسلام وترقيه ، فأخرج شطأه بأبى بكر ، وأزره بعمر ، واستغلظ بعثمان ، واستوى على سوقه بعلى ١ .

وهذا فى النظر فى الآيات الكونية ، ونحوها من الأمور التى لم يقع فيه خلاف مذهبى !

أما حيث وقع خلاف مذهبى فى أمر ما فقد تنازع المتنازعون آيات الكتاب الكريم ، وأراد كل فريق أن يأخذها إلى جانبه ، فكانت تلك المقولات المتخالفة المتضاربة ، التى لا تنظر فى الآية القرآنية بقدر ما تنظر إلى ما تتطلبه حاجتها ، ويحتاج إليه مذهبها .

وقد كان لبعض فرق الشيعة صولات وجولات في تخريج آيات القرآن الكريم . . على الوجه الذي يرضى عاطفتهم ، ويعزى نزعتهم .. فأقاموا من هذه التخريجات أو على هذه التخريجات عقيدتهم .. يقول الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه « القرآن المجيد » .

« رأى مفسروا الشيعة وباحثوهم في كثير من آيات القرآن وعباراته إشارات ورموزاً إلى علي وفاطمة والحسن والحسين ، مثل قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان » فهي ترمز إلى علي وفاطمة ، ومثل قوله سبحانه : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » رمز إلى الحسن والحسين ، وقوله تعالى : « هذا خصمان اختصموا في ربهم » ترمز إلى علي وخصومته لدى ربه مما وقع عليه من حيف في الخلافة ، وقوله تعالى : « أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » ترمز إلى علي يوم رجعه » (١) .

فانظر كيف تخلق من هذه النظرات الرمزية إلى القرآن الكريم - تلك المقولات وأمثالها ، وهي كما ترى قد حرفت الكلم عن مواضعه ، وجاءت بضلالات وأباطيل ، فأقامت منها عقيدة وديناً .

° ° °

فكيف يكون الحال لو سلطت هذه الرمزية التي يقول بها أولئك الرمزيون المجددون - على القرآن الكريم ، وعلى مافيه من أحكام وتعاليم ؟ أيسكون للإسلام بعد هذا رساله معروفة يتلقاها الناس عنه ، ويتعاملون بها ، ويجتمعون عليها ؟ وكيف ؟ والرمزية - من فضائلها - أنها تهدر مفاهيم اللغة ، وتلفى مدلولاتها ، وتقيم من نفسها مدلولات ومفاهيم ، تتوارد من خواطر الناس وأهوائهم ، وتفيض من أوهامهم وخيالاتهم ؟ أتريد لهذا مثلاً واقعاً ؟

انظر !

لقد أشرنا منذ قليل إلى بعض التأويلات الشيعية لآيات من القرآن الكريم

تخدم آراء أصحابها في القضية التي يدافعون عنها ، وقد رأينا كيف تحولت هذه التأويلات إلى عقيدة دينية آمن بها أصحابها ، وتعبدوا عليها ، على غير ما يعرف المسلمون من الإسلام ، وما يدينون به ، ويتعبدون عليه .

و « الشطحات » التي نجدناها عند بعض الصوفية هي من مستولدات « الرمزية » ، وكثير من هذه الشطحات قد وضع أصحابها في مواقف حرجية من العقيدة الإسلامية ، وقد رمى كثير من المتصوفة بالكفر ، والإلحاد ، والمروق من الدين بسبب هذه الرمزية التي دخلوا بها على نصوص الشريعة ، فأحالوا مفاهيمها إلى مفاهيم خاصة بهم ، وهي وإن كانت تظهر على ألسنتهم في أحوال التواجد والانتشاء ولكنها حين تعلن في الناس تصبح مقولة من المقولات ، ينظر إليها الناس غير ملتبسة بشيء من أحوال أصحابها ومفاهيمهم الخاصة العالقة بها ، فيرون ما فيها من تحريف للكلام عن مواضعه ، وعدول به عن وجهه التي عرفها الناس له .

ولو جاز لنا أن نتسامح للرمزية الصوفية بأن تعيش في هذا المحيط المحصور في المتصوفة ، حيث يفهمونها ويتفاهمون بها ، فإننا لانستطيع أن نقبلها في مجال الحياة ، لافي لغة التخاطب ، ولا في لسان الشريعة .. حيث يعيش الناس معها في ضباب كثيف ، لا يرى فيه أحد وجه صاحبه ، وحتى كأن الناس على تلك الصورة التي رسمها « المعري » في قوله :

وبصير الأقوام في مثل أعمى فهلوا في حندس تصادم

ولا بأس من أن نعرض هنا بعض النماذج لتلك الشطحات الصوفية ، التي وقفت في مجال التفسير لبعض آيات القرآن الكريم ..

يقول الشيخ علي وفا ، وقد سئل عن معنى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : « فمن تبعني فإنه مني » — يقول : « في كل صورة آدمية ، آدم والملائكة له ساجدون ، وهكذا حقائق الآفة ، كل منها كلى بالنسبة إلى أتباعه ، فهم هو مجعلا ، وهو هم مفصلا ^(١) » .

وسئل الشيخ « على الخواص » عن قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » فقال الروح لم تقتل لأنها حية ، وإن قتلت فيه قتلت ، وإن سئلت فيه سئلت ، فقاتلها هو بحبيها بقتلها ومماتها ، والموت عدم العلم ، والعلم عند الله تعالى ، لأنه هو العالم بالقاتل وما يستحقه ، فجزأؤه عليه ، رجوعه إليه ^(١) .

واستمع إلى تفسير ابن عربي لقوله تعالى : « يأيتها الناس اتقوا ربكم » . يقول ابن عربي : « اجعلوا مآظهم منكم وقاية لربكم ، واجعلوا ما بطن منكم ، وهو ربكم ، وقاية لكم .. فإن الأمر : ذم وحمد ، فكونوا وقايته في الذم ، واجعلوه وقايتهم في الحمد ، تكونوا أدياء عالمين » ^(٢) .

وقد يكون لهذا الكلام المرموز مفهوم عند ابن عربي ، ولكنه في المضموم العام الذي يتلقاه الناس عن اللغة ملاسم ومعميات ، بل كفر وضلالات ، وهذا ابن عربي يقول أيضاً في الوضوء :

توضاً بماء الغيب إن كنت ذا سر

وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر

وقدم إماماً كنت أنت إمامه

وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذه صلاة العارفين بربهم

فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

فهذا كلام عرابي ، صرف عن حقائقه اللغوية التي تعارف عليها أصحاب هذه اللغة العربية .. ولن يستطيع أحد من علماء هذه اللغة وأدبائها أن يعرف المدلولات التي أرادها عليها ابن عربي هنا .

ولكن الشيخ « محمد أبو المواهب الشاذلي » استطاع — كما ادعى — أن يفك رموزها ، وأن يصرح بمكنونها .. فيقول :

(١) طبقات الشعراء — الجزء الثاني ص ٦٨

(٢) القمص ٠٠ لابن عربي ص ٣٩

« المراد بالوضوء طهارة أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية .
« وما الغيب خلوص التوحيد ، فإن لم يخلص لك بالعيان ، فتظهر بصعيد البرهان !

« وقدم إماماً كان إمامك يوم الخطاب ، ثم صرت أنت إمامه بعد سدل الحجاب .

« وصل صلاة الفجر التي هي صلاة نهار كشف الشهود ، بعد حجاب ظلمة الوجود - أول العصر الذي هو أول زمان انفجار فرك ، ولا تتأخر لآخر دورك ، لأن الحكم للوقت ، والتأخير له مقت .

« فهذه صلاة العارفين برهم ، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية في جمع مشاهدة الربوبية !

« فإن كنت منهم فأنضح ، يعني اغسل بماء بحر الحقيقة ماتدنس من بر الشريعة » (١).

وهذا الشرح - كما ترى - قد زاد الأمر غموضاً ، وألقى إليه بكثير من الرموز الصوفية الكثيفة !

فأهي أعضاء الصفات القلبية ؟ وما هو صعيد البرهان ؟ وما يوم الخطاب ؟ وما سدل الحجاب ؟ وما انفجار الفجر ؟ وما ماء الحقيقة ؟ وما بر الشريعة ؟ .

إنها جميعاً طلائع واردة على قاموس اللغة .. وما شأن القارئ لها ؛ إلا شأن المنجم الذي وصفه المعري بقوله :

وكان منجم الأقوام أحمى لديه الصحف يقرؤها بلس
ونظم هذه الكلمة ، وقد نهنا إلى الخطر الذي يكمن وراء هذه الرمزية التي يبشر بها اليوم مبشرون باسم التجديد حيناً ، وباسم الفيرة على اللغة العربية وآدابها أحياناً ، ثم باسم الفيرة على العقيدة والحفاظ عليها من الغزو المسيحي أحياناً أخرى ، وهذا هو أعجب أعاجيب الزمان !

وقد بقي أن يتنبه أولوالغيرة الصحيحة من أبناء هذه اللغة ، وأهل هذا الدين ، ليدفعوا عنهما هذه الضلالات التي يلقي بها في ساحتهما .

فلقد استيأس الكأندون للإسلام أن يلقوه وجهاً لوجه ، بالتشويش على مبادئه ، أو التحريف في كلماته ، أو التجديف على رسوله ، أو التشكيك في الكتاب الذي جاء به - استيأس أعداء الإسلام من هذا كله ، فقاموا إليه من طريق خفي ، من طريق إفساد اللغة ، واستحداث لغة جديدة ، ذات وجوه جديدة ومفاهيم جديدة ، وبهذا تركد بنابيع القرآن ، وتهجر موارده وتتعطل شرائعه ، حين تستغلق على الناس كلماته ، وتستمجم آياته !

إن هذا الكيد الذي يكاد للغة العربية في هذه الأيام هو أكيد يراد به الإسلام ، وكتاب الإسلام !

وهكذا نستطيع الآن - وبعد أن كشفنا عن وجه هذه الرمزية الشائهة - أن نسقط هذه الرمزية من حساب العمل الفني في أدبنا العربي عامة ، وفي نظرتنا إلى كتاب الله الكريم خاصة ، وألا نلتفت إليها إلا التفاتاً إلى مرض خبيث معد ، تحمل جراثيمه جماعة من « وارد » الإلحاد الغربي ، وهي لا تزال بعد في دائرة العزل الاجتماعي في أوطاننا العربية ، فلنرقبها في بقعة وفي حذر حتى تشفى أو تموت بدائها .

ألا هل بلغت ؟

اللهم فاشهد !

الباب التاسع

منهج في دراسة القصة القرآنية

القرآن ولغة القرآن :

القرآن الكريم رسالة سماوية إلى الناس جميعاً .. تدعوم إلى الله ، وتقيم وجوهم إلى الدين القيم ، الذي ختم به رسالات السماء .

وانخاذ هذه الرسالة اللسان العربي أداتها المعبرة عن مضمونها ، هو شرف عظيم لهذا اللسان ، وتشريف ، وتكريم لأهله .. ثم هو من جهة أخرى شهادة سماوية ، وتزكية إلهية للغة العربية بأنها أعدل اللغات وأقومها ، وأكثرها اقتداراً على حمل هذه الرسالة السماوية الكريمة ، وأن هذا من شأنه أن يقيم اللغة العربية بالمقام الذي يجعلها مهيمنة على اللغات كلها ، كما جعل الرسالة التي حملتها ، والكتاب الذي نزل بها - مهيمناً على الرسالات والكتب السماوية التي سبقته ! إذ يقول الله سبحانه : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (١).

وليس هذا النظر إلى مقام اللغة العربية ومكانها عن محاباة أو تعصب منا ، لداعي النسب أو القرابة الذي بيننا وبين هذه اللغة ، وإنما ذلك عن حق غفل عنه أهله ، وعن حقيقة تراخت أيدي أصحابها عن الاستمسك بها .. وأنه إذا كانت اللغة العربية قد زهد فيها من زهد أهلها ، وكفر بها من كفر من المحسوين عليها ، فراحوا يروجونها ، ويرمون بها بالنقص والقصور عن تلبية حاجات الفن والعلم ، ثم جعلوا ينسجون لها رقماً من هنا وهناك ، يدخلونها عليها ، ويلصقونها بها باسم التجديد .. في شكلها ومضمونها .. في أساليبها

وأفكارها .. في شعرها ونثرها .. حتى لقد غطت هذه الرقع وجه اللغة ، وأخفت معالمها .

وحسبك أن تنظر إلى بعض هذه الأعمال التي يخرجها أصحاب التجديد في الشعر ، لتعرف إلى أي منحدر تنحدر اللغة العربية ، وإلى أي مصير نصير !
نقول : إذا كانت اللغة العربية قد أصبحت بهذا الوضع في أهلها وعند المحسوين عليها — فإن ذلك لا ينقص من قدر هذه اللغة ، ولا يغير شيئاً من منزلتها التي أنزلها الله فيها ، فهي باقية على صحتها وسلامتها ، لا تغيرها الغير ، ولا يخف ميزانها إذا هي لم تجد العزائم التي تمسك بها ، وتجنّي الكريم الطيب من مغارسها .. شأنها في هذا شأن الكتاب الكريم الذي نزل بها ، والرسالة الكريمة التي أودعها الله فيها .. فما تغير معالم الشريعة الإسلامية ، ولا يشوه وجهها إذا ما تغيرت نفوس المسلمين ، وشاغت عقيدتهم ، بما استقبلت من ضلالات وأباطيل .. فإنه إن يضعف جيل من أجيال المسلمين ، أو جماعة من جماعاتهم من حمل هذه الرسالة الكريمة ، فلسوف تأتي الأيام بأجيال وجماعات يجولون عن وجه هذه الرسالة ، ويقطفون الكريم من ثمارها .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »^(١) ويقول سبحانه : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »^(٢).

هذا ، وكما حقق الله سبحانه وتعالى وعده بحفظ القرآن الكريم من عوادى التبديل والتحويل والضياع في قوله جل شأنه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون »^(٣) — فإنه سبحانه قد حقق في ظل هذا الوعد الكريم أيضاً حفظ اللغة العربية وبقائها على مرور الزمن .. في ألفاظها ، وأصنافها ، وحقائقها ، ومجازاتها ، وأصواتها ، وظلالها ، ومعطيات مفرداتها وموحيات

(١) سورة محمد : ٣٨

(٢) سورة المائدة : ٥٤

(٣) سورة الحجر : ٩

تراكيها .. إذ كان لا حفظ للقرآن الكريم إلا بحفظ لفته التي نزل بها ، وحفظ اللسان التي ينطق بها ، وحفظ الأمة التي تشهد إعجازها الذي ضم عليه كتابها .

إن الشمس قد تكسف ، وقد محتجب وجهها بالسحب المتكاثفة ، زمنا ، قد يطول ، ولكنها ستشرق يوما ، وستطلع على الحياة وعلى الناس بماعدت الحياة ، وبما عهد الناس من ضوءها ، دون أن يفتقدوا شيئا منه .. « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » (١) .

ماذا وراء هذه الحقيقة ؟

ومؤدى هذا القول الذي نقوله في اللغة القرآنية ، هو أن نلزم النص القرآني ، ونقف عند مدلول اللغة لهذا النص ، دون أن نتجاووه . ومن غير أن نلقى عليه من مشاعرنا الذاتية ، ونوازعنا الشخصية ، دلالات ومفاهيم ، هي في الواقع غريبة عن النص القرآني ، دخيلة عليه .. وهذا تبديل لكلمات الله ، وتحريف لها عن مواضعها ! ولعل هذا هو السبب الذي من أجله وقف كثير من الصحابة ، وكثير من التابعين عن أن يفسروا شيئا من كتاب الله ، أو أن يعطوا مدلولاً خاصاً لأي كلمة من كلماته .. لاعت قصور منهم عن التعرف على مافى كلمات الله من دلالات ومعطيات .. وكيف وهم خزائن تلك الرحمة المنزلة من السماء ، وخزنة أسرارها ؟ ولكنهم كانوا يعرفون آيات الله وكلماته حرمتها وقداستها ، كما كانوا يدركون الأنوار العلوية المشرقة من وجوهها ، فيجدون إذ ذاك أن كل كلام إلى جانب هذا الكلام غشاء ، كغشاء السيل ! ولهذا كانوا واقفين عند حدود تلك القولة التي تقال عند تأويل ما يطلب تأويله من آيات الكتاب الكريم : « تأويلها هو تنزيلها » .. أي أن تلاوتها كما نزلت هي وحدها القادرة على حمل ما فيها من معطيات .

ثم إنه بعد أن تراخى الزمن بالمسلمين ، ضعف هذا الإحساس الذى كان يجده الصحابة والتابعون لقدسية القرآن وحرمة ، كما قصرت أفهام كثير من الداخلين فى الإسلام عن فهم آيات القرآن وكلماته . فتصدى كثير من العلماء لفرح مفردات القرآن ، ثم شيئاً فشيئاً وضعت التفاسير للقرآن كله ، ثم بلغ الأمر غايته حين أباح المفسرون لأنفسهم أن يدخلوا على ما جاء فى القرآن من أحداث وأخبار كل ما بلغ أسماعهم من مقررات الأمم عن هذه الأحداث وتلك الأخبار .. وكان للقصص القرآنى - كما أشرنا من قبل - النصيب الأوفر من هذه المنقولات ، التى ليس فى القرآن عنها إشارة من قريب أو بعيد !

لأنريد هنا أن نتحدث عن هذه الغرائب ، وتلك الأساطير والخرافات التى أُلتي بها المفسرون بين يدي آيات الكتاب التى عرضوا لتفسيرها .. فكل كتب للتفاسير - إلا النادر جداً - قد حوت الشيء الكثير منه ! وقد أشرنا إلى بعضه منذ قليل !

وإنما الذى نريد أن نقوله هو أن التزام النص القرآنى واحترامه ، والوقوف به عند دلالات ألفاظه اللغوية .. هو الذى ينبغى أن نقف عنده وأن نأخذ به أنفسنا فى كل موقف نقفه من آيات الكتاب الكريم ، وخاصة فى القصص وما اغتمل عليه من أحداث ووقائع وأشخاص . وإنه لمن الاجترار على الحق والافتراء على الله وعلى كتابه أن نحمل القرآن من المفاهيم والدلالات غير ما عرف اللسان العربى لها ، وأن يتجاوز بها إلى غير ما تحمل من مجاز .

وإنه لكى يستقيم هذا الشعور فى أنفسنا ، وكى يستقر فى وجداننا ، ينبغى أن نستيقن أولاً وقبل كل شيء أن ليس فى القرآن رمز ولا ألساز ، وأنه كما وصفه الحق جل وهلا فى قوله : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين .. بلسان عربى مبين (١) » .. وفى قوله : « كتاب

أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير (١) ، وقوله سبحانه :
« وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل
من حكيم حميد (٢) .

وكون القرآن عربياً مبيناً ، وكونه محكم الآيات مفصلاً - وكونه كتاباً
عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كل هذا يقطع بأن دلالة
قاطعة بينة ، ليس فيها غموض ولا إبهام ، الأمر الذي لا يسكون مع الرمز
والإلغاز ، الذي من شأنه أن يضل ويعمى .

* * *

لقاء مع القصص القرآني :

وعلى هذا الوجه ، وبهذا الإحساس ، وذلك الشعور - سنلتقي هنا بقصص
القرآن ، بمثلاً في قصة خلق آدم ، وخروجه من الجنة ، وما صاحب هذا الخروج
من أحداث ! ثم في قصة يوسف ، وما فيها من كشف عن أغوار النفس
الإنسانية ، وما يعمج فيها من مشاعر الحب والبغض والخير والشر ، والاستعلاء
والإسفاف ، والهدى والضلال .. إلى غير ذلك مما يحويه عالم الإنسان ، وهو
السكون الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر .

وتخيرنا لقصة آدم لم يكن إلا عن قصد وتدبير .. إذ كانت تلك القصة مجالاً
فسيحاً من تلك المجالات التي كثرت فيها شطحات بعض المفسرين ، وتخططات
كثير من القصاص ، فألقوا إليها بكل ما وقع لأيديهم .. من أخبار وأساطير ،
وساقوا لها كل ما خطر في وساوهم وخيالهم ، من خرافات وأوهام .
ومن جهة أخرى ، فإن هذه القصة كما كانت مجالاً فسيحاً لاصطباح
الغرائب والخرافات والأساطير - كانت كذلك مستودعاً كبيراً لمستودعات
الرمزية ، حيث يرى المرمزيون تحت كل كلمة منها ووراء كل اسم من مسمياتها
عوامل غريبة يشككون صورها من أشتات شتى ، فتجنى على غير ما عرفت

(١) سورة هود : ١

(٢) سورة فصلت : ٤١ - ٤٢

الحياة ، وما رأى الناس .. فالطين الذى خلق منه آدم ، والصورة التى صور عليها ، والزمن الذى عاشه فى عالم الطين ، والروح التى نفخت فيه ، والحياة التى دبت فى أوصاله ، ونظراته الأولى للحياة واستقباله لها ، ووحدته فى الجنة ووحشته ، وخلق حواء وظهورها إلى جانبه ، وإحساسه بها ، وشعوره بنحوها فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وكل موقف من تلك المواقف أصبح قصة أسطورية لعب فيها الخيال الإنسانى لعباً ممتعاً ، إذ لم يكن هناك ضابط يبرح إليه ، أو شاهد يستدل به على هذه الوقائع الغيبية ، التى لم يشهد الناس حدوثها ، حيث أباح المفكرون لأنفسهم الخروج عن المفهوم الذى تعطيه كلمات القرآن . وكذلك الشأن فيما جاء فى هذه القصة عن إبليس ، والجن ، والملائكة .. إنهم مخلوقات لله ، ليست لهم صور محسوسة يرأى الناس عليها .. ولهذا كانت تصورات الناس لهم لا تنتهى عند حد .. وقد حوت كتب التفسير صوراً مجسدة للملائكة ، والجن ، تصف أطوارهم ، وجوارحهم ، وأحوالهم ، وأعمالهم ، فى مقولات مختلفة لا حصر لها .

والقرآن الكريم لم يقل فى هذه الأحداث إلا كلمات ذات دلالات محددة ، ومفاهيم واضحة ، لا تلد شيئاً من هذه الصور الغريبة التى ولدها مناهج أصحاب الشطحات الخيالية من القصص والمفسرين .

فمن الملائكة يقول القرآن الكريم : « عباد مكرمون » (١) ويقول : تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » (٢) ، فلم يذكر شيئاً عن الصورة التى صوروا عليها ، وإنما هم قوى خيرة ، غيبية ، لا ترى لأعيننا ، ولا تستجيب لحواسنا ، وقد نعى القرآن على مشركى العرب الذين قالوا فى الملائكة : « إنهم بنات الله ، وأنهم إناث » فقال تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً . أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون » (٣) ، وقال سبحانه : « ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون » (٤) .

(٢) - سورة التحريم : ٦

(٤) سورة النحل : ٧

(٢٣ - الفهم القرآنى)

(١) سورة الأنبياء : ٢٦

(٣) سورة الزخرف : ١٦

وكذلك الشأن في الجن ، والشياطين .. هي قوى شريرة أو خيرة
لا نرى قال تعالى : « إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم » (١) .
وإذن فاختيارنا لهذه القصة هو لتحذيرنا ، من حيث أننا سنعرض
هذه القصة عرضاً يمسك بالمداول الحرفي واللغوي لأحداث هذه القصة ، كما
حملتها كلمات القرآن ... ثم هو من جهة أخرى تحذير للتكرار الذي يقال
به في القصص القرآني .. وذلك لأننا سنعرض كل الصور التي عرضها القرآن
الكريم لهذه القصة أيضاً ، وسننظر فيها جميعاً على امتداد واحد ، وباعتبار
أنها جميعها صورة واحدة بكل بعضها بعضاً ، في حين أن كل صورة منها
تمثل القصة كلها ، وتبرز ملاحظتها .

أما تخيرنا لقصة يوسف ، فقد كان مقصوداً لأمرين :

أولهما : ما فيها من تشريح بمضغ الكلمة للنفس الإنسانية ، وعرضها بكل
ما يضطرب فيها من خير وشر .. وفي هذا ما فيه من مواجهة للإنسان بعالمه
الداخلي ، وما اندس في أطوائه من عجائب وأسرار ، تطلع عليه من حيث
لا يعلم ولا يتوقع .. وهذا من شأنه أن يطلع الإنسان على هذا العالم الرحيب
الذي يعيش ملء كيانه . ولا يراه إلا في غيره ، على مسرح الحياة في هذا
الصراع الدائر بين الناس والناس .

وثانيهما : أن القصة كانت ، ولا تزال مثار جدل حول عصمة الأنبياء ،
وهل لهم نصيب ولو قليل - من هذا الضعف الذي يعرض للناس في مواجهة
الأحداث .. كما سنعرض ذلك عند النظر في الآية الكريمة :

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » .

وهنا نحن أولاء نبدأ اللقاء مع قصة آدم ..

أولا : وقفه مع قصة آدم وخروجه من الجنة

عرض القرآن الكريم هذه القصة في سبعة معارض . في سبع سور ، هي : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف ، وطه ، وص . . . وهي في هذه المعارض على درجات متفاوتة في الطول والقصر ، كما سيري ذلك عند عرضها . ولقد كان من الرأي أن نعرض كل صورة ، ثم نقف عندها وقفه نطالع فيها وجوه الأحداث والوقائع التي تحدث الصورة عنها ، ثم نعرض غيرها ، وهكذا حتى الصورة السابعة ، ولكننا آثرنا أن نعرض الصور جميعها في معارضها القرآنية ، نسقا متصلا ، دون أن نفصل بينها بفاصل ما . . ثم ننظر فيها كلها نظرة واحدة ، باعتبار أنها صورة واحدة في معرض واحد !

* * *

١ - « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .. قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . »

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، أبى ، واستكبر ، وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة تتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بمضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع

هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . [البقرة : ٣٠ - ٣٩]

٢ - « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين .. قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ، قال : أنظرني إلى يوم يبعثون ، قال : إنك من المنظرين ، قال : فبأعوجيتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال : أخرج منها مذموماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم ، لأملأن جهنم منك أجمعين ، وبإآدم أسكننا من الجنة ، فسكنا من حيث شئنا ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ، وقال : ما هنا كما ربكم الله هذه الشجرة إلا أن تكونا مسكينين ، أو تكونا من الخالدين ، وقام بهما إلى لسكنا لمن الناصحين ، فذلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قال : ربنا ظللنا أنفسنا ، وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون .. [الأعراف : ١١ - ٢٥]

٣ - « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجآن خلقناه من قبل من نار السموم ..

» وإذا قال ربك الملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد للملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال : يا إبليس مالك ألا تسكون مع الساجدين ، قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال

من حملاً مسنون . قال : فأخرج منها فياك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، قال : رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال : فياك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال : رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال : هذا صراط على مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . [الحجر : ٢٦ - ٤٢]

٤ — « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ قال : أأرى لك هذا الذي كرمت علىّ لأن أخرجني من الجنة لأحتسكن ذريته إلا قليلاً ، قال : اذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزأكم جزاء موفوراً ، واستغفر من استغفرت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بحيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدم ، وما يعدم الشيطان إلا غروراً ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . . . وكفى ربك وكيلًا . »

٥ — « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ، وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلاً . » [سورة الكهف : ٥٠]

٦ — « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنتك لا تنظمأ فيها ولا تَضْحَى ، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ووعى آدم ربه فعوى ، ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى ، قال اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فإذا يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى ، فإن له معبشة ضئفكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . » [سورة طه : ١١٦ - ١٢٣]

٧ — « قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملا الأعلى

إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين .. إذ قال ربك للملائكة
إني خالق بشر آمن طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ،
فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ،
قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من
العالين ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها
فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ، قال رب فأنظرني إلى يوم
يبعثون ، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعضك لأغوينهم
أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم
منك ومن تبعك منهم أجمعين . [سورة ص : ٦٧-٨٥]

* * *

هذه هي المعارض السبعة التي ذكرت فيها قصة آدم ، وما وقع فيها من
أحداث ..

وأنت تجد أن كل معرض من هذه المعارض يجمع القصة كلها من أطرافها
مع ظهور بعض الألوان في أحدها ، واختلافه في البعض الآخر .. وهذه
الألوان المختلفة ليست إلا عنصراً من عناصر الإضاءة التي تتكشف بها بعض
الجوانب ، أو تتجسم بها بعض المواقف ، كما سيتضح لنا ذلك حين النظر في
هذه الصور ، ومقابلة بعضها ببعض .

هذا ، ويمكننا حصر الأحداث التي وقعت في هذه الصور جميعها فيما يلي :

- ١ — إرهابات في الملا الأعلى بظهور كائن جديد ، هو آدم .
- ٢ — الإعلان عن المادة التي سيخلق منها هذا الكائن .
- ٣ — الاحتفاء بميلاد هذا المخلوق الجديد ، ودعوة الملائكة إلى السجود
له يوم مولده .

- ٤ — امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وحجته على هذا الامتناع ..
- ٥ — طرد إبليس من الجنة ، وتحديه لله سبحانه في إغواء آدم وإضلاله .
- ٦ — وصاة الحق جل وعلا لآدم ، وتحذيره من إبليس .

- ٧ — الشجرة التي نهى الله سبحانه وتعالى آدم عن الاقتراب منها .
٨ — إغواء إبليس لآدم ، وإغراؤه أن يأكل من الشجرة هو وزوجه .
٩ — عتاب الله سبحانه وتعالى لآدم ، وندم آدم وتوبته ، وقبول الله توبته .

١٠ — خروج آدم من الجنة ، وتحذيره وذريته من إبليس ، وما يدبر من كيد .

تلك هي أم عناصر القصة وألوانها التي تحدثت بها آيات الكتاب الكريم في هذه المعارض السبعة .. وهذه العناصر ، وتلك الألوان موزعة - كما قلنا - بين هذه المعارض . يلقانا بعضها مرة واحدة ، ثم يختفي ، على حين أن بعضها الآخر يلقانا مرة ومرة ، ومرات كثيرة .. كما سنرى .

١ — إرهاصات في الملائكة الأعلى بظهور آدم

ذكر هذا الحدث من أحداث القصة في معرض واحد في القرآن كله هو :
في قوله تعالى في سورة البقرة : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .
وقد كان للملائكة موقف من هذا النبأ ..

فهذا الذي سيكون خليفة لله على السكوكب الأرضي .. لن يستطيع أن يقيم على الأرض ملكوتاً يناظر ملكوت السماء .. رحمة ، وعدلا ، وطهرا !
إنهم يرون بما أطلعهم الله عليه من سابق علمه ماذا سيكون من هذا « الخليفة » وذريته في الأرض ، من ضلال وفساد .. ولهذا عجبوا أن يكون هذا المخلوق خليفة لله في الأرض .. فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ » .. فلقد كانوا يرون في أنفسهم أنهم أقرب إلى الله من هذا المخلوق الذي طرأ على الوجود . وأنهم لهذا أولى بأن يكون منهم الخليفة على الأرض !

ولم يكن اعتراض الملائكة إلا ليطلبوا من الله علماً يكشف لهم عن بعض

حكيمه ، سبحانه . في إقامة هذا الخلق بهذا المقام ، وإزالة هذه المنزلة . ولهذا كان جواب الله سبحانه وتعالى لهم : « إني أعلم ما لا تعلمون » ثم كشف لهم الحق سبحانه عن وجه من وجوه علمه بهذه التجربة ، أو هذا الامتحان الذي عقده بين هذا « الخلق » وبين الملائكة .. ليرى الملائكة رأى العين أن هذا الكائن الذي صغروا من شأنه ، هو أكثر منهم علماً ، وأوسع معرفة ، بما أودع الله سبحانه وتعالى فيه من ملكات التفكير الخلاق المبدع .

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة .. فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ؟ » وقد عجز الملائكة عن التعرف على تلك المعروضات ، والاستدلال على خصائصها ، ووظائفها ، وإطلاق الدلالات الإسمية الدالة عليها .. « قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا .. إنك أنت العليم الحكيم » .. ولقد اعتاد الملائكة أن يتلقوا العلم من الله سبحانه .. ولكن هنا ، ولأول مرة ، يستدعى الله سبحانه وتعالى خليفته هذا ، ليكون معلماً للملائكة !! « قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .. وهنا يسكن الملائكة ويطمئنون .. وهنا يكون سجودهم لآدم سجوداً قائماً على معرفة عيانة بمنزلته ومكانته .. إنه ذو علم يفيض عن ذاته التي أودع الله فيها ما أودع من عقل وعلم .. وواضح أن هذه الصورة لم يذكر فيها شيء عن المادة التي سيخلق منها هذا الوليد الجديد .

٢ — الإعلان عن المادة التي سيخلق منها آدم

أما إعلام الملائكة بالمادة التي سيخلق منها آدم ، فقد ذكر في موضعين من المعارض السبعة الشريفة : في قوله تعالى في سورة الحجر : « وإذ قال ربك للملائكة ، إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون » . وفي قوله سبحانه في سورة ص : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق

بشرًا من طين » . وواضح أن الصلصال متولد من الحما المسنون ، وأن الحما المسنون متولد من الطين .. وإذن فالطين طور من أطوار خلق آدم ، ثم الحما المسنون مرحلة تالية له ، ثم الصلصال ، طور يجيء بعد الحما المسنون .. وعلى هذا تكون الآيتان - في سورتي طه ، و ص - متكاملتان ، أو حلقتان في سلسلة التطور في خلق آدم .

٣ - الاحتفاء بميلاد آدم ودعوة الملائكة إلى السجود له

في المعارض السبعة جميعها التي ذكرت فيها قصة آدم جاء ذكر هذا الحدث ، وهو دعوة الله سبحانه للملائكة أن يسجدوا لآدم يوم خلقه ..

١ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (البقرة)

٢ - « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (الأعراف)

٣ - « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين .. »

فسجد الملائكة كلهم أجمعون .. » (الحجر)

٤ - « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (الإسراء)

٥ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (الكهف)

٦ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (طه)

٧ - « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين .. فسجد

الملائكة كلهم أجمعون » (ص)

وأنت ترى أن الأمر بالسجود قد تكرر خمس مرات على صورة واحدة في البقرة ، والأعراف ، والإسراء ، والكهف ، وطه . وأنه تكرر مرتين على صورة واحدة في الحجر ، و ص .

والتكرار في الصور الخمس لم يضاف جديداً إلى الصورة ، لأنه تكرر لفظي ، لا يعطى أكثر مما تعطيه الصورة الواحدة منه .. ولكن له مع هذا دلالة القوية في إظهار الاحتفاء بآدم ، وإذاعة هذه الدعوة الكريمة وإعلانها في كل مرة يذكر فيها شيء عن آدم .

أما الصورتان الأخريان فتضيفان لونا جديداً إلى هذه الصورة ، وذلك بما تعطيه كلمة « فقموا له ساجدين » من حركة تنبئ عن المبادرة إلى السجود الذي يكون عن مشاعر قوية من الإجلال والإكبار ، تملأ كيان الساجد ، فلا يملك معها إلا أن يخر ويهوى هويّاً . وما تعطيه كلمة « كلهم أجمعون » من دلالة على أن الملائكة أجمعين قد امتثلوا أمر الله ، ولم يتخلف منهم متخلف إلا إبليس الذي تخلف عن هذا الموقف - كما سنرى - والذي كان هذا التخلف سبباً في عزله عن أن يكون في جملة الملائكة ، حتى من قبل أن يقع منه هذا التخلف ، وذلك تغليظاً لجريمته التي غطى ظلامها الكثيف على ماضيه .. يوم أن كان من الملائكة .

٤ - امتناع إبليس عن السجود وحجته في هذا

وفي جمع المعارض السبعة التي ذكر فيها سجود الملائكة لأدم ذكر امتناع إبليس عن السجود ، كما ترى :

١ - فسجدوا .. إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين (البقرة)
٢ - فسجدوا .. إلا إبليس لم يكن من الساجدين .. قال مامنعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين .
(الأعراف)

٣ - فسجد الملائكة كلهم أجمعون .. إلا إبليس أبى أن يسجد مع الساجدين ، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتني من صلصال من حمأ مسنون (الحجر)

٤ - فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً ؟ (الإسراء)

٥ - فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه (الكهف)

٦ - فسجدوا إلا إبليس أبى (طه)

٧ - فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ استكبرت أم

كنت من العالمين ؟ قال أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين (ص)
وصفة إبليس موزعة في هذه المعارض :
أبى .. لم يكن مع الساجدين .. أبى واستكبر وكان من الكافرين .. كان
من الجن ففسق عن أمر ربه .

وهذه الصفات — متفرقة ومجمعة — تكشف موقف إبليس ، وتفضح
فعلته تلك التي استقبل بها أمر ربه .

وفي ثلاثة من هذه المعارض يسأل الله سبحانه وتعالى إبليس عن سبب
امتناعه عن السجود ، وفيها يجيب إبليس معللاً سبب امتناعه :

مامنعك أن تسجد إذا أمرتك ؟ (الأعراف)
مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ (الحجر)
مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ ، أستكبرت أم كنت من العالمين ؟
(ص)

ويكون جواب إبليس :

« أنا خير منه .. خلقتني من نار وخلقته من طين ! (الأعراف)
« لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ! (الحجر)
« أنا خير منه .. خلقتني من نار وخلقته من طين ! (ص)
وليست هذه الأسئلة وأجوبتها من قبيل التكرار ، وإنما هي سؤال
واحد .. فقد وقف إبليس بعد فعلته تلك هذا الموقف الدليل ، موقف الاتهام
بين يدي الله .. والله سبحانه وتعالى يلقي إليه بهذه الأسئلة ، وهو واجم
متلبذ ، لا يحير جواباً !

ولم يكن بد من أن يجيب !
وإذ أجاب فقد أخذ يترثر بالأعذار ، ويستكثر من الحجج ، ليبرىء
ساحته من هذا الإثم المهلك ، الذي أحاط به .

وتدبر ماجاء في سورة الإسراء ، حيث قال إبليس : « أأسجد لمن خلقت
طيناً » دون أن يكون هناك سؤال سبق هذا القول .

والفهم الذى يستقيم لنا هنا فى هذه الآية هو أن ذلك كان من إبليس فيما بينه وبين نفسه ، حين دعى مع الملائكة إلى السجود ، فغلبت عليه شقوته ، وقدر فى نفسه أنه خير من آدم ، وأن ذلك يجعله جديراً بالألأ يسجد له . . .
وعندهما أبى وقال « أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ » قالها فى نفسه ، ولنفسه كما يمكن أن يكون ذلك جواباً من أجوبة إبليس بين يدى الله ، وقد حذف سؤاله لدلالة الحال عليه .

٥ — طرد إبليس من الجنة وتحمديه لله فى إغواء آدم

كان الحكم الذى حكم به المولى سبحانه وتعالى على إبليس بعد عصيانه أمر به — هو الطرد من الجنة ، ولقد أبى إبليس أن يتقبل هذا الطرد ويمتنله دون أن يعقب عليه .

ولأن آدم هو سبب طرد هذا اللعين الطريد ، فقد جعل تحمديه لله متجهاً إلى آدم ، هذا المخلوق الذى فضله الله عليه ، وأمره بالسجود له .

وننظر فى تصوير القرآن الكريم لهذا الموقف فتجد :

١ — فى سورة البقرة لم يتجه أمر الطرد من الجنة إلى إبليس وحده ، بل جاء ضمن الأمر الصادر إلى آدم وزوجه : « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ، ومتاع إلى حين » .

٢ — وفى سورة الأعراف يجرى الأمر مصوراً هكذا : « قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين » ، ويتلقى إبليس هذا الأمر قائلاً : « رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » ، ويحييه الله سبحانه وتعالى إلى طلبه : « قال إنك من المنظرين » ويسكشف إبليس عن مقصده من هذا الذى طلبه : « قال فما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لأتبعهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا نجد أكثرهم شاكرين » . . . ويكون جزاء هذا التحدى الوفاح أن يطرد هذا اللعين ، طرداً مصحوباً باللعنة وسوء المقلب : « قال فاخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » .

٣ — وفي سورة « الحجر » بصور الموقف على نحو ما جاء في سورة الأعراف :

— « قال فأخرج منها فإنك رجيم .. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين .
 — « قال رب : فأنظرني إلى يوم يبعثون .
 — « قال فإنك من المنتظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم » .
 — « قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ،
 إلا عبادك منهم المخلصين .
 — « قال هذا صراط على مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان
 إلا من اتبعك من الغاوين » .

٤ — وفي سورة الإسراء يمجى تصوير الموقف هكذا :
 — « قال أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة
 لأحتسبن ذريته إلا قليلا » .

— « قال اذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزاءكم جزاء موفوراً ،
 واستفز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ،
 وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدةم الشيطان إلا غروراً .. إن
 عبادي ليس لك عليهم سلطان » .

وأنت ترى أن إبليس يكشف هنا عن السبب الذي من أجله كان هذا
 التحدى لله في شخص آدم .. وأنه يعني من وراء هذا التحدى أن يضع بين
 يدي الله صورة مزرية لآدم الذي فضله الله على الملائكة ، وأن إبليس سينارله
 وينتصر عليه ، ويقيم من ذلك شهادة بين يدي الله بأن ثقته في آدم ، وتفضيله
 له لم يكن واقعاً موقعه .. فانظر كيف ياج الضلال والعناد بالضالين المعاندين
 إلى تلك الموارد الوبيلة ، وكيف يسرقهم سوفاً إلى التردى في مهاوى الهالكين
 « وماذا بعد الكفر إلا الضلال ؟ » .

ثم انظر كيف كان فضل الله على آدم ، إذ جعله أهلاً لتلك الثقة العظيمة
 به ، وبقدرته على الانتصار على عدو الله هذا ، وخذلانه في هذا التحدى

الذى يتحدى به قدرة الله ، وحكمته ، فلقد دعا الله سبحانه — إبليس إلى أن يصول ويجول ، وأن يأتي بكل مامسه من حول وحيلة في صراعه مع آدم وذريته ، فإنه لن يبلغ مما أراد شيئا .. « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

لقد رفع الله سبحانه آدم وأبناءه إلى هذه المنزلة الرفيعة .. وقد بقي على أبناء آدم أن يثبتوا أنهم أهل لتلك المنزلة .. وسيعملون .
٥ — وفي سورتي « السكف » و « طه » لم يذكر شيء عن تحدى إبليس لله .

أما في سورة « ص » فقد صور الموقف على نحو مما صور عليه في سورة « الحجر » .

- « قال فأخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين » .
- « قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » .
- « قال فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم »
- « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين .. إلا عبادك منهم المخلصين »
- « قال فالحق والحق أقول .. لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » .

وكما فعلنا في المواقف السابقة من مجموع المقولات في نسق واحد ، نستطيع أن نفعل هنا ، ونجد أقوال كل مقولة وإن توزعت في صور متعددة هي قول واحد في موقف واحد .

فتلا مقولة إبليس فيما طلب من إنظاره إلى يوم البعث ، جاءت هذه المقولة في أربع صور .. هكذا :

- ١ — رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . (الأعراف)
- ٢ — رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . (الحجر)
- ٣ — رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . (ص)
- ٤ — لنن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته لإقليلا . (الإسراء)

وقد تكررت هذه المقولة على صورة واحدة ثلاث مرات .. لفظا ومعنى، وجاءت في الصورة الرابعة على صورة مشابهة معنى لا لفظا .
وهذا التكرار يكشف عن لهفة إبليس ، وعن حرصه في أن يتحقق له هذا الطلب ، الذى إن فاته ضاع منه هذا الأمل الذى يتعلق به ، ويعلق عليه - كما قدر جهلا وضلالا - سقوط الحكم الذى صدر عليه بالطرد من رحمة الله - إذا أهملته الأيام ، واستطاع أن يطوى آدم وذريته تحت جناحه ، وأن يحىيهم بين يدي الله ملطخين بالأحوال !.

وهكذا يمكن أن ننظر إلى المقولات الأخرى على هذا الوجه ، وأن نعد كل مقولة منها مقولة .. واحدة مع تكرارها ! .

٦ - وصاة الله لآدم وتحذيره إياه من إبليس

- ١ - « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [البقرة]
- ٢ - « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا منها حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [الأعراف]
- ٣ - « وقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى .. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى » [طه]

والمقولتان الأوليان تبدوان كأنهما مقولة واحدة تكررت للتأكيد .. أما المقولة الثالثة فقد كشفت لآدم وزوجه عن إبليس ، وعن عداوته لهما ، وأنه سيكيد لهما ليخرجهما من الجنة .

٧ - الشجرة التى نهى آدم عن الاقتراب منها

- ١ - « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [البقرة]
 - ٢ - « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [الأعراف]
- في هذين المعرضين من الممارض السبعة التى صورت فيها قصة آدم جاء

ذكر هذا التحذير على صورة واحدة لفظاً ومعنى في المرضعين ، دون زيادة حرف واحد في أى منهما . وهذا يدل على أنها قول واحد ، تكرر للتوكيد ، وزيادة التنبيه والتحذير .

ويلاحظ أن النهى كان عن الاقتراب من « الشجرة » لاعتنا الآكل منها ، وهذا أبلغ في النهى عن الآكل ، لأن مجرد الاقتراب يوقع في الإثم ، فكيف بمباشرتها والآكل منها ؟

٨ — إغواء إبليس لآدم وزوجته

ورد ذكر هذه الواقعة في معرضين من معارض القصة :

١ — « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوا آتئما ، وقال مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تسكونا ملكين أو تسكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين » (الأعراف)

٢ — « فوسوس إليه الشيطان .. قال يا آدم : هل أدلك على شجرة الخلد ومملك لا يبلى ؟ » (طه)

ففي مرة كانت الوسوسة لآدم وحده ، وفي المرة الأخرى كانت لآدم وزوجه معاً .. وهذا لا يمنع أن تكون الوسوسة قد تكررت من إبليس مرات كثيرة .

٩ — عتاب الله لآدم ، وتوبة آدم وقبول توبته

وهذا الموقف ، قد ذكر في ثلاثة مواضع :

١ — « ... فلتى آدم من ربه كلمات فتاب عليه .. إنه هو التواب الرحيم » (البقرة)

٢ — « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوا آتئما وطقفا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين .. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .. » (الأعراف)

٣ — « فأكل منها فبدت لها سوا آتتها ، وطلقا يخلصان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى » [طه] هذا ، ولم يقع في الصورة الأولى ذكر لما وقع من آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة ، أو الأكل منها ، كما لم يذكر شيء مما كان لإبليس من وسوسة وإغراء .

والصورة الثانية ينكشف منها أن مجرد ذوقهما للشجرة كشف عن سوا آتتها ، على حين أن الصورة الثالثة تجمل هذا الذوق أكلًا .
والصورة الأولى تحدث عن توبة آدم وقبول توبته ، وكذلك الصورة الثالثة . أما الصورة الثانية فتحدث عن ندم آدم . وطلب للغفرة من ربه ، ولا ينكشف منها شيء عن قبول ندمه ، وغفران زلته .
وبهذا يمكن أن تضم الصور الثلاث بعضها إلى بعض ليكون منها جميعاً صورة واحدة تكشف جوانب الموقف كله .

١٠ — خروج آدم من الجنة

وتحذيره وذريته من إبليس وكيد

ونختتم قصة آدم بخروجه من الجنة يحمل معه وصاة ربه بالحد من إبليس وكيد . .

١ — « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (البقرة)

٢ — « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » (البقرة)

٣ — « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (الأعراف)

٤ — « قال اهبطا منها جميعاً .. بعضكم لبعض عدو » (طه)
(٢٤ - القصص القرآن)

والأمر الأول يجمع بين إبليس وآدم وزوجه ، وكذلك الأمر الثانى
ولثالث القى جاء على صورة الأمر الأول لفظاً ومعنى .

أما الأمر الرابع فهو للجهتين المتعاديتين : إبليس وجنوده من جهة ،
وآدم وذريته من جهة أخرى .

هذه هى الصورة العامة للقصة كما تنطق بها كلمات القرآن . . . وهى فى
إطارها القرآنى ، قصة حافله بمعطيات الإنارة ، التى تشع من الحق الذى يقصر
الخيال عن مداناته ، أو التعلق به !

تعقيبات على القصة

في هذا الأسلوب الذى عرضنا به القصة هذا العرض الذى جمعنا فيه بين الصور السبع التى عرضها فيها القرآن الكريم - فى هذا الأسلوب تكشف لنا أن التكرار الذى جاء فى القصص القرآنى - وقصة آدم مثل بارز له - قد جاء لغايات بيانية ، لانتحقق فى غير القرآن ، وهى توزيع جوانب الحدث أو الموقف القصصى توزيعاً مختلف فى كل جزئية منه بعلامح الحدث ومماته ، فإذا تضامت الأجزاء واجتمعت - متقاربة أو متباعدة - ظهر فيها الحدث مجسماً ، يكشف عن كل جوانبه .

على أننا لم نشرفى هذه القصة إلى الجانب الرمضى الذى كان مجالاً لمقولات كثيرة فى مواضع متعددة منها .. كمادة خلق آدم ، ونشأة الحياة على الأرض ، وكالشجرة التى أكل منها آدم ، والجنة التى كان فيها .. وها نحن أولاء نستعرض مقولات القائلين من رمزيين وغيرهم فى هذه الموضوعات ، ثم ندلى برأينا الذى نرتضيه فيها .

أولاً : آدم ، ومادة خلقه

من أين جاء الإنسان ؟

سؤال يجرى فى خواطر الناس ، ويدور فى عقولهم منذ كان للانسان عقل يقدر ويفكر .. ولم يكن بالسؤال الذى وقع للملءاء والفلاسفة وحدهم .. بل هو سؤال كل إنسان ، مهما يكن حظه من العلم والمعرفة . أما الجواب على هذا السؤال فهو الذى اختلف فيه الناس اختلافاً بيناً ، لانتكاد تضبط صورته وأشكاله .. فالناس يرون الحياة تدفع بمواليدها فى عالم النبات ، والحيوان ، والإنسان .. وهذه المواليد إنما تنجىء من أصول - ذكر وأنثى - وهذه الأصول كانت مواليد لأصول .. وهكذا تمتد السلسلة ، وتطول إلى ما لا نهاية .. لأولها أو آخرها .

ومع هذا ، فإن منطق العقل يلزم الإنسان أن يقف بهذه السلسلة عند نقطة معينة ، بدأت منها ، وإن لم يلزمه هذا الإلزام بالنهاية التي تنتهى إليها .
طبعى إذن أن يبحث الإنسان - كل إنسان - عن الأصل الذى نشأ منه ، وأن يرتفع به فى سلسلة متصلة الحلقات إلى حلقة أخيرة يكون فيها ذلك الإنسان الذى هو الأب الأول أو الجد الأكبر للأسرة الإنسانية كلها .

وتلتقى الديانات السماوية مع تفكير الإنسان فى هذا ، حيث تقرر أن آدم هو أبو البشر جميعاً . . . « يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (١) .

وتؤكد تتفق الديانات السماوية وغير السماوية جميعها على أن الإنسان الأول - آدم - كان فى الجنة ، يتبوأ منها حيث يشاء ، وأنه لمعصية وقعت منه هناك أخرج من هذه الجنة ، وهبط إلى هذه الأرض ، وأن هذا الهبوط هو ابتلاء له ولذريته ، ليكفر عن خطيئته تلك ! .

ولعل هذه الصورة التى وقعت فى تفكير الإنسانية عن هبوط الإنسان إلى الأرض وخروجه من الجنة إنما هى لون من الغراء لما يكابده الإنسان فى حياته على هذه الأرض من آلام ، وما يصادفه فيها من محن . . . فهو كأنما يمد بصره إلى أيام السعادة التى كان يعيش فيها أبوه الأول ، ويمنى النفس بالعودة إلى تلك الدار التى خرج أهلها منها . . . شأن الناس فيما يذكرون من أجداد ماضية لهم أو لا بانهم .

الإنسان هل هو مخلوق سماوى أم أرضى ؟

وتبعا لهذه الصورة التى وقعت فى تفكير الإنسان عن نشأته الأولى . . . فقد نسج العقل الإنسانى من أوهامه ، ورؤاه وأحلامه ، فصفاً أسطورية تجمع بين المتناقضات فى أصل نشأة الإنسان ، والجرثومة التى نبت منها .
ونعرض هنا مثلاً للتفكير الإنسانى فى نشأة الانسان والكائنات الحية .

هلى هذه الأرض .. وهذا المثل مأخوذ من الفلسفة الهندية للمقدمة . كما سجلته
أسفار « بوبانشاد » - كتاب الهند المقدس :
تقول « البوبانشاد » :

« كان الله فى الحنى كبير الجسم . . حتى ليعدل جسمه رجلاً وامراًء .
» ثم شاء لهذه الذات أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة .
» وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة ، وهذا الفراغ
تملؤه الزوجة .

« وضاجع الزوج زوجته ، وبهذا أنسل البشر . »
فالإنسان - كما تقرر هذه القصة - هو ابن الله ، وأن الله كان يشتمل فى
كيانہ على كائن آخر هو المرأة ، ومنه ومن هذه المرأة كان البشر .
إنما قصة غريبة ، ولسكنها قريبة من تلك القصص التى تحويها كتب
التفسير من أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم . ويكون آدم هنا
يمثالة الله فى القصة الهندية .

ثم تمضى القصة أو الأسطورة الهندية فنحدث خلق سائر المخلوقات .
« وسألت الزوجة - زوجة الإله السابقة - سألت نفسها قائلة : كيف
استطاع أن يضاجعنى بعد أن أخرجنى من نفسه ؟ . . فلا تخف .
» فاختلفت فى صورة البقرة ، وانقلب هو ثوراً ، فزاوجها ، وكان
بازدواجهما أن تولدت الماشية .

« فالتحذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذت لنفسه هيئة الجراد . . .
» ثم أصبحت أنثاء فصار حماراً . . وزاوجها ، فولدت ذوات الحافر .
» وانقلبت عنزاً فصار نيساً . .
» وهكذا ، حتى توالت جميع المخلوقات . . من الدرة ، والنمل ، إلى
الغيلة والجمال .

« فإذا انتهى إلى هذا ، ونظر الإله إلى تلك الكائنات أدرك حقيقة الأمر

» وقال : حقاً أنا هذا الخلق نفسه لأنى أخرجه من نفسى ١١ «^(١) .
وليس بعيننا من هذا التصوير مدى مبلغه من الحق ، ولكننا نستدل
منه على هذا الإحساس الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو إحساس الانسان
بوثاقة الصلة ، التى تصله بهذا الوجود ، وتخلط مشاعره به ، فهو أخ لكل
المخلوقات التى يرجع توالدها جميعاً إلى أب وأم ، بل إلى أب هو « الله »^(٢) .

° ° °

وفى كل أمة ، وعند كل مجتمع صورة ما ، خلق آدم ، والمادة التى
تشكلت منها صورته فى الملائ الأعلى .

وكتب التفسير الإسلامية تنقل كثيراً من هذه الصور ، بما وصل إلى محيط
العقل الاسلامى من أساطير الأولين ، ومن ديانات أهل الكتاب ، وغير أهل
الكتاب ، ومن مولدات هذه الأخبار الوافدة من كل جهة ، فكانت هذه
النقول معرضاً يجمع كل غريب وعجيب ، ويضم كل شارد ووارد .

ويعلل ابن خلدون لهذه الظاهرة التى فشت بين علماء التفسير ، والتى
لم يكدها يعلم منها أحد - يعلى لذلك بأن أمة العرب جعلتهم يتشوفون إلى
ما عند غيرهم من الأمم ، من معارف ، فلما أمكنتهم الفرصة بعد الفتح الاسلامى ،
أقبلوا على ما ألقى إليهم من أخبار وأساطير فى شوق ولهفة .. يقول ابن خلدون :
« السبب فى ذلك .. أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ، ولا علم ، وإنما غلبت
البداءة والأمية عليهم ، وإذا تشوفوا إلى معرفة شئ مما تشوف إليه النفوس
البشرية ، فى أسباب المسكنات ، وبدء الخليقة وأسرار الوجود - فإنما يسألون
عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم .. وأهل الكتاب هم أهل التوراة
من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى .. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم
مما لا تتعلق به الأحكام الشرعية التى يحتاطون لها .. فامتلاّت التفاسير من
المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض ، وهى ليست مما يرجع إلى الأحكام

(١) انظر قصة الحضارة جزء ٣ ص ٣٤

(٢) انظر كتابنا « قضية الألوهية : الله .. ذاتاً وموضوعاً » الناشر « دار الفكر العربى »

فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل» (١).

وإذ كانت قصة خلق آدم وما اتصل بها مما لا تتعلق به الأحكام الشرعية فقد تسامح المفكرون في قبول كل ما وقع لهم من أنباء هذه القصة أياً كانت مصادره ، وأياً كان نصيبه من الصدق أو الكذب أو التلقين .

القرآن وخلق آدم :

والقرآن الكريم يعرض قصة خلق آدم عرضاً محكماً .. يقف أمامه العلم خاشعاً مستسلماً ، ويستقبله العقل العلمي راضياً مسلماً .. لا يستطيع أن يجد فيه ثغرة للطعن ، أو النقض !

ومع أن القرآن الكريم ليس كتاب علم ، وليس من همه أن يقرر حقائق علمية ، فإنه في قضية خلق آدم قد أمسك بها من أطرافها ، وجاء بها على الوضع الذي يلتقي مع الحقائق العلمية في أصدق وجوها ، وأضواؤها .. فمن شاء أن يلتقي القرآن هنا بكل ما تنكشف من العلم ، ومائت من حقائقه - فليأت بما معه ، وليدل بحجته بين يدي كتاب الله ، وسيجد أنه كمن يحمل الماء إلى البحر ، أو يرسل الضوء إلى الشمس !

استمع إلى ما تحدث به القرآن الكريم في خلق الإنسان :

- ١ - « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون .. » (الحجر)
- ٢ - « خالق الإنسان من صلصال كالفخار ... » (الرحمن)
- ٣ - « وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين .. » (ص)
- ٤ - « إنا خلقناكم من طين لازب .. » (الصافات)
- ٥ - « الذي أحسن كل شيء خلقه » وبدأ خلق الإنسان من طين (السجدة)
- ٦ - « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فسكسونا العظام لحماً .. ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون)

٧ - « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً .. (نوح)
فالطين كما نصرح الآيات هنا هو الأصل الذي نشأ منه الإنسان ، وإن
يكن هذا الطين قد تقلب في أطوار عديدة ، حتى ظهر منه هذا الإنسان ..
فاللحما المسنون هو الطين بعد أن يتخمر ويتعفن^(١) ، وبين طور الطين والحما
للمسنون طور آخر هو الصلصال ، الذي يتحول فيه الطين إلى مادة من الزبد
يشبه القحار .

وبلغة العلم الحديث : يكون الطين ، فالصلصال ، فاللحما المسنون - وهو
الطين المتعفن - ثلاثة أطوار تنقلت فيها بذرة الحياة ، وأن هذا التعفن الذي
أصاب الطين هو بشائر الحياة ، إذ هو « البكتريا » التي نضجت فيها خاتمة
الحياة ، وظهرت بها جرثومتها .

ومقررات العلم الحديث - أو آخر ماوصلت إليه مقررات هذا العلم -
تقول : إن الحياة ظهرت على هذه الأرض أول ما ظهرت على شواطئ البحار ،
حيث يكون الطين فالزبد ، فالصلصال ، فالطحالب ، التي اختلطت به ، وتخلقت
منهما « البكتريا » ... ثم ظهر النبات ، فالحيوان ، فالإنسان ١

هكذا يقرر العلم الحديث في نشوء الحياة وتطورها ، وهو - أي العلم -
يرى أن هذه الأطوار قد سارت عبر ملايين السنين ، حتى أثمرت شجرتها
أكرم وأكمل ثمرة ، هي الإنسان ..

والقرآن الكريم وإن لم يتعرض لهذه الشجرة التي كانت منها أصول
الحياة وفروعها ، والتي ربما كان الإنسان فرطاً من فروعها ، وثمره من ثمارها ،
إلا أنه لم يجهل بما ينفي هذه الصلة التي بين الإنسان وبين عوالم الأحياء ..
بل إنه على عكس هذا ، قد أشار في أكثر من موضع منه إلى ما يمكن أن
يستقيم منه فهم واضح لهذه الصلة التي بين الإنسان وعالم الحياة كله ..

(١) انظر في هذا تفسير الطبري ، والقرطبي في تفسير الآية « ولقد خلقنا الإنسان من
صلصال من حمأ مسنون » .

ففي قوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء »^(١) وقوله سبحانه :
« وجعلنا من الماء كل شيء حي »^(٢) دلالة قوية على أن الأحياء كلها
— ومنها الإنسان — مخلوقة من مادة واحدة هي « الماء » .. والماء هو المادة
التي يتسكون منها الطين ، وإنه لا وجود للطين إلا إذا اختلط به الماء .

وقد نجد عند بعض المفسرين لمحات ذكية تشير إلى شيء من هذا الذي
أصبح من مقررات العلم الحديث ..

فالبعض يرى يقول في تفسيره لقوله تعالى : « من حمأ مسنون » أى من
طين تغير واسود من طول مجاورة الماء^(٣) .

فالقول بانتماء الإنسان في أصل نشأته إلى شجرة الحياة العامة لا يعارض
نصاً من نصوص القرآن .. فإذا كان الإنسان — أى آدم — خالق من طين ،
فالأحياء كلها مخلوقة من الطين . فالإنسان إذن ابن هذه الأرض .. « منها
خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »^(٤) .. « والله أنبتكم
من الأرض نباتاً »^(٥) . ولو كان الإنسان من طينة غير طينة هذه الأرض
لما كان له سبيل إلى الحياة على الأرض ، والقرار فيها ، والارتفاع
بوجوداتها .. من جماد ونبات وحيوان .

وليس ذلك بالذي يزرى بالإنسان أو يحط من قيمته ، فمن هذا الطين
تتخلق أكرم الجواهر ، وأنفس المادان ، والإنسان هو الذي يضع نفسه
حيث يشاء .. إن شاء كان جوهرأ كريماً ، وإن أراد كان طيناً لازباً
أو حمأ مسنوناً .

(١) سورة النور

(٢) سورة الأنبياء

(٣) انظر تفسير البضاوى — سورة الحجر

(٤) — سورة طه

(٥) سورة نوح

وصدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذ يقول: « الناس معادن : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام » .. وفي هذه الكلمة النبوية الجامعة ما يشير إلى مدلول الآيات القرآنية السكرية التي تتحدث عن خلق آدم ، والمادة التي خلق منها .. وذلك على الوجه الذي فهمناها عليه .. !
وللقياصوف المسلم « محمد إقبال » رأى في قصة خلق آدم وتطوره ، بعرض الرأى الذى ذهبنا إليه ..

يقول « إقبال » بعد أن عرض لقصة آدم كلها ، كما جاءت في القرآن الكريم ، وفي التوراة - يقول :

« وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لاصلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا السكوكب ، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان ، من بدائية الشهوة الغريزية ، إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان ..

« وليس معنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة .. أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عليّة شخصية ، بوجوده ! » (١).

وهذا الفهم الذى فهمه « إقبال » لآيات القرآن الكريم في خلق آدم هو - كما ترى - أقرب فهم إلى منطوق كلمات القرآن ، ودلالاتها اللغوية ، كما أن هذه الفهم الذى يقف بآيات الكتاب الكريم عند هذه الحدود يحمى يتابع القرآن الصافية من هذا الغشاء الذى يلقى به في ساحتها ، من تلقايات الأوهام والخرافات التى تتناقضها أجيال الناس ، وتلونها بألوان وأصباغ ، تكاد تغطي تمام آيات الكتاب الكريم وتجب أضواءها .. وبهذا يظل الطريق مفتوحاً بين آيات الكتاب الكريم وبين أنظار الناظرين فيها ، والمتلقين عنها ، كلما جد للناس فهم فى الحياة ، وكلما انكشف لهم سر من أسرارها .. حيث

يمكن عرض كل جديد على القرآن في حدود منطوق كلماته ومفهومها، فيقبل منه ما يقبل ، ويرفض ما يرفض ، دون أن يكون عليه من ذلك شيء .. بل يظل في عليائه مشرفاً مشرفاً ، تأخذ العين من ضوئه على قدر استمدادها وقوتها ..
فثلاً نظرية « دارون » في أصل الأنواع ، وفي النشوء والارتقاء ..
هذه النظرية كانت ولا تزال عند كثير ممن أخذوا فهمهم للآيات القرآنية الواردة في خلق آدم عن هذه النقول الخرافية ، وهذه المقولات الأسطورية التي جمعها المفسرون والقصاص من كل ساقطة ولاقطة - كانت ولا تزال هذه النظرية عند هؤلاء من الكفريات والإلحاديات ، التي إن جرت على لسانه كان مجرد جريبتها كفراً وإلحاداً ! ولهم عذرهم في هذا .

فالدین قرءوا فی کتب التفسیر أن آدم نشأ فی الملائ الأعلى ، وأن طینته غرست فی جنة عدن أو جنة الخلد أو غیرها من الجنان — علی اختلاف آراء المفسرین فی هذا — هؤلاء الذین قرءوا هذه المقولات فی نشأة آدم یرون أن کل قول یرخالف هذا هو خروج علی الدین ، بل هو خروج من الدین ! :
فی حین أن هذا الأمر کلہ لیس فیہ شیء من الدین ، ولهذا أباح المفسرون لأنفسهم أن یرخصوا فی الحدیث عنه ، وألا یأثموا فیہ حداً ، فکان لكل منهم مقولانہ التي رآها أو سمعها ، أو توهمها ، لأنه من الأمور التي لا ترجع إلی الأحکام فیتحرى فیہ الصحة التي یجب العمل بها ، كما یقول ابن خلدون :

علی أن مقولات « دارون » التي أنکرها علماء الدین ، واضطربوا من أجلها ، وهاجوا وماجوا إنما تقوم علی علم وتجربة ، وقد یکون فیها کثیر أو قلیل من الخطأ فی الاستنتاج ، ولکن الذی ینبغی أن یکون علیہ موقف العقل إزاءها هو الاحترام لها ، والتقدير للجهد الذی بذل فیها ، ومادامت ترجع إلی التجربة ، وتحتکم إلی منطق العقل فإن کل عقل مدعو إلی الوقوف عندها ، والنظر فیها ، وأخذ ما یطعن إلیه منها . . أما صد العقل عنها ، وفراره من بین یدیه فذلك إزاء العقل ، وامتنان له ، وتعطیل لوظیفته التي خلق لها ، وخروج علی دعوة القرآن التي دعاه إلیها .

و «دارون» الذى أثار هذا الإعصار العاصف فى عقول رجال الدين — من كل دين — لم يكن منكرآ لله ، بل إنه فيما أرى — من أشد الناس إيمانآ به ، وشهوذاً لله فى آياته التى رآها رأى العين فيما أبدع الخالق وصوره يقول «دارون» فى حديثه عن أصل مذهبه : «إن المشابهة وأسبابآ أخرى تدعونا ضرورة إلى الاعتقاد بأن الأحياء أصلها واحد ، وألا فاصل جوهرى بين العالمين ، عالم النبات ، وعالم الحيوان» .

ثم يقول : «إنى أرى فيما يظهر لى أن الأحياء عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة^(١)» .

ودارون ، الذى أقام الدنيا وأقعدھا بنظريته تلك ، ليس هو أول من قال بهذا القول ، ولا أول من نظر تلك النظرة إلى الحياة وما فيها من أحياء ، وإن يكن له فضل فى هذا الأمر فهو فضل العرض الواضح ، القائم على التجربة ، المستند إلى البرهان المشهود ، على حين كان مفهوم هذه النظرية عند من سبقه قائماً على الأفيسة المنطقية ، والبناء الفلسفى للوجود ، أو على الزكاة والحدس .

من أجل هذا كانت مقولات «دارون» فى هذا المجال مطبوعة بطابع القوة والجرأة ، إذ كان يبنى مقولاته على معطيات التجارب الحسية التى يراها رأى العين ، ومن أجل هذا أيضاً كان لمذهبه هذا الدوى الذى ملا أسمع العالمين ، وشغل عقول العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، فى كل أمة ، ومن كل دين .

وإذا كان لأحد أن يقف من دارون موقف الهلع والخوف على معتقده الدينى ، فليس هو المسلم الذى يعترف دينه بالعقل ، وبحقه فى البحث والنظر ، وفى احترام مؤدى البحث والنظر الذى لا يقوم على هوى ، ولا يستند إلى سلطان غير سلطان الحجة والبرهان !

(١) مذهب النشوء والارتقاء الكتاب الأول — ج ١ ترجمة إسماعيل مظهر من ٤٧

نم إنه إذا كان لأى دين أن يجافى مقومات « دارون » وأن يضيق بها فليس هو الدين الإسلامى الذى تكاد تنطق آياته بما أوجها دارون والعلم الحديث الوقوف عليه ، من أسرار الخلق وقدرة الخالق وعظمته .

ومع ما نعرف من أن القرآن الكريم ليس كتاب علم ، وأن الرسالة الإسلامية لم تجيء لتقرير حقائق علمية - فإن في عرضه لمشاهد الكون وفي كشفه عن مظاهر الوجود لمحات - مضيئة ، وإشارات مشرفة ، يجد فيها العلم مستنداً لمقولاته ، ومجازاً لحقائقه .

ولو أن العقل الإسلامى لم يصب بتلك للنكسات التى اعتقلته زمناً طويلاً في غياهب الجهل والظلام لكان له دور القيادة والمبادرة في محاولات العلم والفن ، ولما رضى بهذا الفئات الذى يلتقطه من فضلات العقل الأوروبى .

وهذا قول يقوله علماء الغرب أنفسهم ، ويذكروننا به وقد نسيناه !
استمع إلى مايقوله « جوستاف جرونوبوم » في كتابه « حضارة الإسلام » عن نظرية النشوء والارتقاء ، وعن سبق علماء المسلمين إليها .. يقول :

« وعندما يعبر الجاحظ ، والمسهودى ، وإخوان الصفا ، عن اعتقادهم في النشوء والارتقاء متصورين تصاعداً تدريجياً .. من المعادن إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان - كانوا في ذلك يركنون حذراً .. أى أن هذا الرأى لم يكن وليد تجربة ، وإنما كان عن لمحة ذكاء ، وصفاء وجدان .

وينقل « جرونوبوم » عن « النظام العروضى » المترفى سنة ١١٥٦م - نظرية متكاملة عن النشوء والارتقاء .. ونصها هو الآتى :

« وبذلك علت الآن مملكة العالم العضوى متفوقة على العالم غير العضوى ^(١) .
« وهكذا اقتضت حكمة الخالق الواسعة أن ترتبط المملكتان إحداها

(١) العالم العضوى : هو عالم الأحياء الذى يتكون الكائن الى فيه من أعضاء ذات وظائف تؤديها لسكان الحي .. أما العالم غير العضوى فهو عالم الجاد .

بالأخرى ارتباطاً متعاقباً مستمراً ، بحيث حدث [في العالم غير العضوى] أن المادة الأولى وهى الطين مرت فى عملية نشوء وارتقاء ، وأصبحت أعلى تنظيمها حتى صارت مرجانا . وهو النهاية القصوى فى العالم غير العضوى ، كما أنه مرتبط بأشد مراحل حياة النبات بدائية ، وأشد الأشياء بداءة فى المملكة النباتية هو الشوكة ، وأعلاها تطورا هو النخل والعنب اللذان يشبهان مملكة الحيوان ، حيث أن الأول منهما يحتاج إلى الذكر لإخصابه حيث يثمر ، على حين يفر الثانى من عدوه كما يفعل الحيوان .. ذلك أن السكرم يفر من العليق ، وهو نبات إذا التفت بالسكرم جملته يضوى ، ومن ثم يفر السكرم منه .. وإذن فمملكة النبات لا تحتوى شيئا أعلى من النخلة والسكرمة ، نظراً لأنهما تمثلتا ذلك الشيء الذى هو أعلى من مملكتيهما ، وتجاوزتا بلطف حدود عالمها الخاص ، وتطورتا ارتقاء إلى اتجاه أعلى .. » .

ويعلق جرونيدياوم على هذا رأى الجريء بقوله : « دهشتنا لعظمة تلك الرؤيا تماثل دهشتنا لهذا التهاون الذى بسطت به » !

ثم يعتذر للنظام ولعصره بقوله : « ولكن النظام ما كان فى مركز - بالنسبة لعصره - يسمح له أن يثبت بالبرهان « رؤياه » الخاصة بالتطور الصاعد ، من العالم غير العضوى ، إلى العالم العضوى » (١) .

ونسأل بعد هذا . هل جاء « دارون » فى نظريته عن النشوء والارتقاء بأكثر من هذا ؟ ونقول : إن دارون لم يبلغ حدود هذه النظرة الشاملة التى زرد الوجود كله إلى جرثومة واحدة ، فإن دارون لم يقطع بهذا ، ولم يحزم بأن الأنواع ترجع إلى أصل واحد ، بل الذى جزم به هو ظهور الأنواع فى عدة أصول .. تفرع كل أصل منها إلى أنواع ، على طريق التطور والارتقاء . ثم بعد « النظام » بنجورقنين ونصف يجيب الفيلسوف المسلم ابن خلدون (٢)

(١) حضارة الإسلام لجرونيدياوم ص ٣٢١ .

(٢) توفى ابن خلدون سنة ١٤٠٦ م

فيجدد القول بنظرية النشوء والارتقاء ، ويجعلها مقولة من مقولاته ، ورأيًا
يقيم عليه الكثير من آرائه ، بل ويدعم به معتقده الديني .. !

يقول ابن خلدون :

« إننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على هيئة من الترتيب
والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الآكوان بالأكوان ،
واستحالة بعض الموجودات إلى بعض — لانتقاض عجائبه في ذلك ولا تنتهي
غاياته .. »

ثم يقول : « انظر إلى عالم التكوين .. كيف ابتدأ من المعادن ، ثم النبات
ثم الحيوان على هيئة بدبعة من التدريج .

« آخر أفق المعادن — من أعلا — متصل بأول أفق النبات — من أسفل —
مثل الحشائش ، وما لا يذره .

« وآخر أفق النبات — من أعلا — مثل النخل والكرم متصل بأول أفق
الحيوان — من أسفل — مثل الخيل والصدف ، حيث لا توجد لهما إلا قوة
اللمس فقط .

ثم يقول معقباً على هذا :

« ومعنى هذا الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد
الاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده .

ثم يتابع القول ليبلغ بنظرية إلى غايتها :

« واتسع أفق الحيوان ، وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين
إلى الإنسان ، صاحب الفكر والروية » ^(١) .

وأنت ترى أن ابن خلدون قد اندفع وراء هذا التسلسل إلى أبعد الحدود ،
وقد جعل الإنسان حلقة متطورة من سلسلة الموجودات التي بدأت من عالم
الجماد ، ثم تدرجت شيئاً فشيئاً إلى عالم النبات ، فالحيوان ، فالإنسان .

وإذا كان « دارون » قد أرجع الإنسان إلى فصيلة القردة ، فإن ابن خلدون قد نزل بنسبه إلى مادون القردة ، فإن عالم القردة - في رأى ابن خلدون - متطور من عالم أسفل منه ، وهذا العالم ناشئ من عالم آخر دونه ، وهكذا ، حتى يصير إلى عالم الطهالب في النبات ، ثم ينزل إلى عالم الجناد في المرجان ، ثم إلى عالم الجناد المطلق .. من الطين .. والحجر !
وأرانا قد أطلنا الوقوف عند هذه المسألة ، التي لم تكن إلا أمراً عارضاً في بحثنا هذا عن نشأة الانسان ، ولكن وجدنا فرصة متاحة للدفاع عن العقل الاسلامي ، بل وعن الاسلام الذي ينسب إليه - ظلماً . . في كل مناسبة - هذا الركود الذي خيم على المجتمعات الاسلامية ، وحجبها عن تلك المعارف الكونية التي أخذ العرب منها بهذا القدر الموفور ، الذي مكن له في الأرض ، فأقام ما أقام من مدنيات وحضارات !

° ° °

ونعود إلى قصة خلق آدم فنقول إن الأساطير التي عرفها العرب في الجاهلية عن خلق آدم ، ثم ظلت متداولة بينهم في الاسلام ، ثم رقدتها روافد كثيرة من الأمم التي دخلت في الاسلام .

نقول : إن هذه الأساطير قد ألقت على الآيات القرآنية التي ذكر فيها خلق آدم ظلالاً متكاثرة أتاحت لأشباح هذه الأساطير أن تشغل المكان الذي كان ينبغي أن تشغله مفاهيم هذه الآيات ، ومعطيات دلالاتها .. ومن أجل هذا ليست تلك الآيات في أكثر كتب التفسير هذه الصور الأسطورية ، واعتبر ذلك مفهوماً حقيقياً لها .

وقد رأينا نماذج من العقل الإسلامي الذي لم تستول عليه هذه الأساطير ولم تفرض عليه سلطانها عند نظره في كتاب الله . . فنظر إلى قصة خلق آدم نظراً محرراً ، وبهذا النظر عرف الجاحظ ، والمسمودي ، والنظام العروضي ، وابن خلدون من أسرار الخلق ما لم يصل إليه العلم الحديث إلى اليوم .

هذا ، وقد يرى بعضهم أن في قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة

إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقموا له ساجدين ، وفيما جاء من الآيات التي تحدث عن دعوة الله سبحانه وتعالى للملائكة أن يسجدوا لآدم عندما ينفخ فيه الحق جل وعلا من روحه - قد يرى بعضهم أن في هذا ما يدل على أن آدم قد انفرد بخلق خاص دون سائر المخلوقات .

ونقول : إن ما ورد في الآية السابقة وأمثالها ، إن دل على خصيصة لآدم ، فإنه لا ينبغي أن يكون ذلك قد كان حين وصل تطور الحياة بالآحياء إلى هذه المرحلة التي بلغ فيها التطور غايته بظهور هذه السلالة الناضجة من ثمرات الحياة ، ويكون معنى قوله تعالى : «إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، أي إذا بلغ الكتاب أجله بهذا الطين الذي سرت فيه الحياة ، ونهياً لقبول النفخة الإلهية فيه . ليكون هذا الكائن البشري ، فقموا له ساجدين ، إذا هو تلقى النفخة من روح الحق جل وعلا .

ولعل في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » . . لعل في هذا ما يشعر بهذا المعنى الذي ذهبنا إليه ، وهو أن الإنسان لم ينجح من الطين مباشرة ، وإنما كان ذلك بعد سلسلة من التطورات ، وبعد عمليات طويلة من التصفية والانتخاب ، انتهت بظهور الإنسان على تلك الصورة التي انفصل بها عن جميع الأحياء ، وكان أهلاً لتلقى النفخة الإلهية يوم مولده ، وكأنها التاج الذي توج به ملكاً على العالم الأرضي كله .

وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نقبل أقوال المفسرين في خلق آدم على تلك الصورة المغلقة التي يصورون بها الأسلوب الذي خلق به ، إذ يسكدها يجمع المفسرون على أن ميلاد آدم كان هذا النحو ، الذي لا مستند له من آيات الكتاب الكريم !

يقول « القرطبي » مثلاً : « خلقه الله بيده ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فرت به الملائكة فمزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم مزعاً إبليس ! فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت (٢٥ - النص القرآني)

الفخار تكون له صلصلة ، ويقول لأمر ما خلقت (١) ؟

وهذا القول وأمثاله إن هو إلا من موارد قصص الأولين وأساطيرهم ، وليس في آيات القرآن الكريم دلالة عليه من قريب أو بعيد .

وهذه المقولات كلها ليست من معطيات الآيات القرآنية التي تحدثت عن خلق آدم ، فليس في أية آية منها إشارة من قريب أو بعيد إلى شيء من هذا الذي يحدث به المفسرون والقصاص في خلق آدم ونشأته .

ونتهى من هذا كله إلى قول واحد في هذه القضية ، وهو الاحتفاظ بها في الإطار القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فآدم مخلوق من طين ، أو من حمأ مسنون ، أو من طين لازب ، أو من سلالة من طين .. فهذا هو الذي يقوله القرآن في خلق آدم .. وليقل العلم ما يشاء من مقولات ، فإن مصير العلم وما يقع له من حقائق ثابتة في هذا الشأن ، لابد أن ينتهي إلى تلك الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية له ..

° ° °

٢ — الشجرة التي أكل منها آدم

نهى الله سبحانه وتعالى آدم أن يقترب من شجرة بعينها من أشجار تلك الجنة التي أسكنه فيها ، وأباح له الأكل من كل طيب منها .

وهذه الشجرة لم يعرض القرآن لبيان نوعها ، ولهذا فهي غير معروفة النوع ولا الصفة لنا ، وإن كانت معروفة لآدم حيث أشار إليها الله سبحانه حين نهاه وزوجه عنها : بقوله سبحانه « ولا تقربا هذه الشجرة » .

وقد وصف إبليس هذه الشجرة لآدم وحواء وصفاً كاشفاً لها وللمعطيات التي ضمت عليها ..

« فوسوس إليه الشيطان .. قال يا آدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » .

« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوءتهما ،
وقال مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا
من الخالدين » .

ولاشك أن هذه الأوصاف التى خلعها إبليس على الشجرة لالتقى مع
الواقع ، ولا تستقيم مع الحق ، وإنما هى من تلفيقات إبليس وأكاذيبه ،
البيخدع بها ويغرى ا .

ومع هذا فإن المفسرين والقصاص قد ذهبوا فى الحديث عن نوع الشجرة
كل مذهب ، مستندين فى هذا إلى روايات معزوة إلى بعض الصحابة
والتابعين ..

فهى « السنبلة » .. فيما يروى عن ابن عباس .

وهى « السكرمة » .. عن ابن مسعود والسدى .

وهى « التينة » .. عن ابن جريج .

وهى شجرة « الكافور » .. عن على بن أبى طالب .

وهى شجرة « العلم » - [علم الخير والشر] - .. عن السكبي .

وهى شجرة « الخلد » التى كانت تأكل منها الملائكة .. عن
ابن جندان (١) .

وبعيد أن يكون لهذه المقولات سند صحيح من كتاب أو سنة ، وإلما
كان بينها هذا الاختلاف البعيد ، الذى لا يمكن الجمع فيه بين مقولة وأخرى .
والقرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها ، فإنما ذلك
لأنها معروفة معهودة لآدم ولزوجه - كما قلنا - ثم إن عدم تحديد نوعها فى
الحديث إلينا عنها يسمح لأن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا ، لا يدخل
فيه نوعها .. أياً كان ا .

فإنحاول أن نفهم الشجرة على أنها مجرد شجرة ، ليس لها صفة خاصة
تتماز بها عن الأشجار التى معها ، إلا فى تحديد ذاتها بالاشارة إليها .

(١) انظر مجمع البيان فى علوم القرآن للطبرى الجزء الأول .

ثم إن نهى آدم عن الاقتراب منها إنما هو امتحان له ، وإبتلاء لعزمته ، أمام الإغراء وحب الاستطلاع ، « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى ولم نجد له عزما » .

وغريزة حب الاستطلاع أقوى غريزة متحكة في طفولة الانسانية ، كما هي متحكة في طفولة الأطفال .

وطفولة الانسانية كلها مندسة في كيان « آدم » ، ولهذا فإن هذا النهى الذى تلقاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس آدم في موقعين :

١ — موقع الخوف من الجهة التى أُلقت إليه بهذا النهى ، والحذر من أن يخالف مانهى عنه .

٢ — الرغبة الصارخة في مدانة هذه الشجرة والتعرف عليها ، وعلى ما يمكن فيها .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقارنة الشجرة ، كانت وسوسة إبليس لآدم ، وإغراؤه له — الأمر الذى عجل بخطوات آدم إلى الشجرة ، وسيره حثيثاً إليها ، ولولم يقم إبليس من وراء آدم يغريه بالشجرة ويدفعه إليها ، لساو هو وحده نحوها ، ولباغها ، ولأكل منها .. ولكن بعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذى اقترب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها !!

وبلغانا في القصص القرآنى موقف كهذا الموقف الذى كان من آدم إزاء نهيه عن الاقتراب من الشجرة ، فلقد نهى « صالح » عليه السلام قومه ثمود عن أن يعرضوا للناقاة بسوءه فكان هذا النهى منه كأنه إغراء لهم بالمدوان عليها ، هذا المدوان الذى كان سبباً في إهلاكهم والتدمير عليهم . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ، ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، أنتهانا أن نعبد

ما يعبد آباؤنا ، وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ، قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ، فما يزيدوني غير تخمير .

«ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فمقروها ، فقال تتمعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جائعين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود أكفروا ربهم إلا بعمداً لثمود ..» (١) :

هكذا الإنسان ، وهكذا الناس ، يتعدون كل سلطان يقيد نوازعهم ، ويتسلط على إرادتهم ، ولو كان ذلك لخيرهم وإسماعدهم ، فالناس موكلون بما ينهون عنه .. في الشرائع السماوية أو القوانين الوضعية .. «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون» (٢) .

ولهذا ، فإني أحب أن أذكر هنا قوله تعالى : «خلق الإنسان من عجل» وقوله جل شأنه : «وخلق الإنسان عجولاً» كما أحب أن أفهم الآيتين السكريميتين على أنهما تسكلان الصورة التي خلق عليها آدم ، وأن إغراء إبليس له قد عجل بظهور الإنسان في آدم !!

فإن انتهى آدم إلى الشجرة ، وذاق من ثمرها ، بعد هذا الصراع الشديد بينه وبين ، نفسه أدرك أنه جنى على نفسه جنابة غليظة ، كما أدرك أنه سيلقى جزاء ما اقترف .. وهنا يتنبه إلى وجوده ، فيرى أنه مخلوق ذو إرادة ، يستطيع أن يتقدم أو يتأخر ، يوحى من ذاته ، وأنه لم يعد شيئاً من أشياء الوجود التي

(١) سورة هود : ١٤١ - ١٥٨

(٢) سورة الأنعام : ٢٧ - ٢٨

لاتشارك في نسج حياتها ، وفي صنع قدرها .. وهنا تنبه أيضاً إلى أنه عاد مكشوف العورة ، كالحيوانات السائمة ، ولم يكن في مقدور عقله وحيلته أن يسفاه بأكثر من ورق الشجر ليستر به سوءاته .. تماماً كما تفعل بعض قبائل الزنوج ، حين تنتقل من طور العرى الخالص إلى طور التستر بأوراق الشجر ! ونود أن نقف هنا مع الفيلسوف المسلم « محمد إقبال » الذي أشرنا من قبل إلى تلك النظرة الذكية التي نظرها في كتاب الله ، وحصل بها ما حصل من علم ومعرفة في هذه المسألة التي تضاربت فيها الآراء ، وكثر فيها الخلط والتلبيس .

يقول « إقبال » :

« وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن ، لاصلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب . وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان .

ثم يقول :

« وليس معنى الهبوط أى فساد أخلاق ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط ، إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هونوع من اليقظة من حلم الطبيعة ، أحدثتها خفقة من الشعور بأن الإنسان صلة عليية شخصية بوجوده .

ويقول :

« هذا ، إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب ، سجن فيه إنسانية شريرة العنصر ، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية .

ثم يقول :

« فالعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له ، تتمثل فيه حرية الاختيار ..

ولهذا تاب الله على آدم كما جاء في القرآن وغفر له !

« ومثل الخير لا يمكن أن يكون قسراً ، بل هو خضوع عن طواعية للمثل

الأخلاقي الأعلى . خضوعاً ينشأ عن تعاون النظرات الحرة المختارة عن رغبة ورضى .
« والكائن الذى قدرت عليه حركانه كلها كما قدرت حركات الآله
لا يقدر على فعل الخير !
ثم يمضى قائلاً :

« وعلى هذا ، فإن الحرية شرط فى عمل الخير !
« ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل
بعد تقدير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها - هو فى الحق مغامرة كبرى ،
لأن حرية اختيار الخير تتضمن كذلك حرية اختيار عكسه ..
ثم ينهى هذا الموقف قائلاً :

« وربما كانت مغامرة كهذه هى وحدها التى تيسر الابتلاء والتنمية
تتقوى الممكنة لوجود خلق على : « أحسن تقويم » ثم رد إلى « أسفل
سافلين ^(١) » .. وكما يقول القرآن : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .
[سورة الأنبياء : ٣٥] ^(٢)

وهذا كلام واضح مشرق ، ولا يحتاج إلى تعليق أو توضيح .

٣ - الجنة التى أهبط منها آدم

بكاد يجمع المفسرون على أن الجنة التى كان فيها آدم قبل المعصية ثم خرج
منها هى جنة واقعة وراء الحشر ، أى أنها من تلك الجنات السماوية التى وعد
المتقون بها فى الآخرة .

وقد أعان على هذا الفهم لجنة أمور .. منها :

١ - ما وقع فى التفكير الإسلامى من اختصاص آدم بهذا الخلق الذى
انفرد به عن سائر المخلوقات .. مادة وصفة .

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة التين : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، ثم
ردهناه أسفل سافلين » .

(٢) تاريخ التفكير الدينى فى الإسلام ص ٩٩

٢ - ماورد في القرآن الكريم من وصف تلك الجنة ، وما كان يلقاه فيها من راحة ونعيم : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنتك لا تظلمأ فيها ولا تضعى » .

٣ - كثرة ذكر « الجنة » في القرآن الكريم مرادآ بها الجنة السماوية ، ومع هذا فإن هذه الأمور لا تعطى حكماً قاطعاً بأن جنة آدم كانت جنة سماوية .. ولا تدفع القول بأنها كانت جنة أرضية ، من تلك الحدائق والغابات المبتوثة في بقاع شتى من الأرض .

أما تلك العناصر التي مهدت للقول بأنها جنة سماوية ، وأعانت عليه فيمكن دفعها بما يلي :

فأولاً : مايقال من اختصاص آدم بمخلق تفرد به عن سائر المخلوقات - هذا القول لم تشهد له آيات القرآن الكريم ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى ، وانهبنا إلى القول بأن آدم مخلوق أرضى بت في الأرض ، كما نبئت سائر المخلوقات التي تدب عليها .

وثانياً : الوصف الذي وصفت به جنة آدم بأن مساكنها لايجوع ولا يعرى ، ولا يظلمأ ولا يضعى - هذا الوصف يمكن أن يتحقق في كثير من جنات الأرض ، حيث يجرد من يعيش فيها كل مايكفى مطالب الحياة وضرورتها .. خاصة وأن آدم - في هذا الطور من حياته - لم يكن ذا مطالب تتجاوز سد حاجته من الطعام والماء ، والسكن الذي يقيه الحر والبرد .. وإن شئت فقل إنها مطالب الانسان البدأى من ساكنى الغابات ، ليس له مطلب وراء مايشبع جوعته ويروى ظمأه ، ويدفع عنه حادية الحر والبرد .. وكل هذا حاضر غيب لايتكلف له أحد جهداً في مثل هذه المواطن ، سواء في ذلك الانسان والحيوان .

وثالثاً : إذا كانت الجنة السماوية قد ذكرت كثيراً في القرآن ، في معرض الجزاء الأخروى للمتقين ، فإن الجنة الأرضية قد ذكرت أيضاً بهذا الاسم

— جنة — فقال تعالى : « أريد أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات .. » (١) وقال سبحانه : « مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل » (٢) وقال تعالى : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلنا الجنتين أنت أكلها ولم تظلم منه شيئا » (٣) وقال سبحانه : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إن ترى أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتيني خيراً من جنتك » (٤) .. وقال جل شأنه : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون » (٥) .

فالجنة في اللغة : الأرض ذات الشجر الكثير الملتف ، لأنها تجن من يدخل فيها ، أى تستر ، ومنه سمى الجن جنّاً ، لأنه يستجن فلا يرى ، وجن عليه الليل ، أى دخل عليه بظلامه الذى يحجب العيون عن الرؤية الواضحة . وعلى هذا فإن جنة آدم التى ذكرت في القرآن يمكن — لغوياً — أن تكون جنة مماوية أو أرضية ، حسب القرائن التى تشهد لهذه أو تلك . والقرائن التى قدمناها في هذا البحث تعمل بجنة آدم إلى الجانب الأرضى ، وتقيمها على أى مكان منها !!

هذا ، وقد سبق بعض العلماء المفسرين إلى القول بهذا القول ، الذى ربما أنكره وفزع منه كثير من علماء القرن العشرين ! فهذا أبو مسلم الأصفهاني — صاحب التفسير الذى كان عمدة كثير

(١) سورة البقرة : ٢٦٦

(٢) سورة البقرة : ٢٦٥ .

(٣) سورة الكهف : ٣٢ — ٣٣

(٤) سورة الكهف : ٣٩ — ٤٠

(٥) سورة ن : ١٧ — ١٨

من علماء المسلمين وفقهائهم - يقول عن جنة آدم : « هي جنة من جنات الدنيا في الأرض » .

ثم هو يجيب على الإشكال الذي يعترض به المعترضون في قوله تعالى لأدم وإبليس : « اهبطوا منها » من أن هذا الهبوط يعني نزولاً من السماء إلى الأرض - يجيب على هذا الإشكال بقوله : « إن قوله تعالى اهبطوا منها لا يقتضى كونها السماء ، لأنه مثل قوله تعالى : « اهبطوا مصرأ » (١) .

ويفسر « القرطبي » الهبوط الذي وقع على إبليس على نحو ما فسر به أبو مسلم هبوط آدم : فيقول في قوله تعالى لإبليس : « قال فاهبط منها » .. قيل من صورتك التي أنت فيها .. وقيل انتقل من الأرض إلى جزائر البحار (٢) .

ويرى الفيلسوف « إقبال » هذا الرأي نفسه في جنة آدم .. فيقول :
« ليس هناك من سبب لافتراض أن كلمة «جنة» هي (حديقة) استعملت في هذا السياق - سياق قصة آدم - الدلالة على جنة وراء الحس ، يفترض أن الإنسان هبط منها إلى هذه الأرض ..
ثم يقول :

« وطبقاً للقرآن ، وليس الإنسان غربياً عن هذه الأرض ، إذ يقول :
« والله أنبتكم من الأرض نباتاً » - فالجنة التي ورد ذكرها في القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التي جعلها الله مقاماً خالداً للمتقين ..
ثم يقول :

« وعلى هذا ، فإنني أميل إلى اعتبار الجنة التي جاء ذكرها في القرآن تصويراً لحالة بدائية ، يكاد يكون الإنسان فيها مقطوع الصلة بالبيئة التي يعيش فيها ، ومن ثم فإنه لا يحس بلذعة المطالب البشرية التي تحدد نساؤها - دون سواها من العوامل - بداية الثقافة الإنسانية » (٣) .

(١) من تفسير أبي مسلم نفعاً عن مجمع البیان فی علوم القرآن للطبرسی جزء ١ ص ١٦٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبي الجزء السابع ص ١٧ طبعة دار الكتب

(٣) تجديد التفكير الديني الإسلامي ص ٩٨

يريد إقبال أن يقول إن وصف جنة آدم بما وصفت به من كفايتها لمطالبه كلها ، لا يدفع القول بأنها جنة من جنات الدنيا ، أو غابة من غاباتها ، حيث تكفى مطالب الانسان البدأى وتسد حاجاته المحدودة ، التى هى أقرب شئ إلى مطالب الحيوان ، المحصورة فى الطعام ، والماء ، والمأوى .

وبعد ، فإن فى هذه القصة كثيراً من المواقف لازال فى حاجة إلى كشف وتحلية ، ولكن ماعرضناه من مواقف القصة يكفى فى الدلالة على المنهج الذى نريد أن نترسمه فى دراسة هذه القصة ، وفى القصص القرآنى كله ، ذلك المنهج الذى يقوم على احترام النص القرآنى ، والزام دلالاته دون الترخص فى قبول ما لا يعطيه منطوق النص أو مفهومه ، فإن ذلك مع ما فيه من رعاية لقمديسة القرآن الواجبة له — فيه أيضاً حماية للحقائق التى حملها القصص القرآنى من أن تضع وتطمس معالمها ، فى زحمة الغرائب والأساطير الزاحفة عليها من كل صوب ، وبهذا تظل حقائق هذا القصص قائمة فى الحياة ، مهيمنة على ما ينكشف للعالم منها .. حيث ينظر إلى حقائق العلم من خلالها ، ولا ينظر إليها من خلال حقائق العلم 11.

ذلك هو مقصدنا الأول من هذه الدراسة للقصص القرآنى ، فإن يكن قد استبان فيه قصدنا ووضح سبيلنا ؟ واستقام منهجنا ، فهو فضل من أفضال علينا ، يستأهل حمده وشكرانه ، ويستوجب دوام هذا الحمد والفكران ، بالعمل الدائب ، والجهاد المتصل ، لحياطة كتابه الذى أنزل ، وحراسة دينه الذى ارتضى .

ثانياً قصة يوسف

بين يدي القصة ..

تقديم :

قبل أن نلتقي بالقصة لقاءً مباشراً في آيات القرآن الكريم التي ضمت عليها - أود أن أشير إلى أمور أرى من الضروري أن نكون على ذكر منها ونحن نبدأ المسيرة مع أحداث القصة ..

فأولاً : انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور ، سميت باسم « يوسف » الذي تدور حوله معظم أحداث القصة .. وهذا ما لم يكن لأية قصة أخرى من قصص الأنبياء غير نوح عليه السلام ، الذي سميت باسمه سورة من قصار السور ، هي سورة نوح ، على حين أن بعض الأنبياء قد سميت بعض السور باسمهم كمسورة هود ، وسورة صالح ، وسورة إبراهيم ، ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم ، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء ..

وثانياً : جاءت قصة يوسف في معرض واحد في القرآن الكريم ، وفي ثمان وتسعين آية ، ابتداء من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعد المائة .. وهذه ظاهرة لم تكن في قصة نبي من الأنبياء ، حيث تتمعد المعارض ، وتوزع المشاهد في كل قصة ، فتجسّد القصة في أكثر من سورة أو في مواضع متباعدة من السورة ، حتى لقد تجسّد بعض القصص في أكثر من مائة موضع في القرآن الكريم ، كقصة موسى ، التي عد العلماء ذكرها في مائة وعشرين موضعاً .

وهذا العرض الممتد الجامع لقصة يوسف ، من شأنه أن يلفتنا إلى الإعجاز

المبين في النظم القرآني ، ذلك الإعجاز الذي تتجلى آياته فيما يستولى على قارئه القصة أو المستمع إليها من روعة الجلال وسطوته ، ومن بقطعة الوجدان ونشوته ، على امتداد العرض ، وتمدد المشاهد ، دون أن يفقد الشعور وحدته ، ودون أن يجد الملتقي لأحداث القصة مجالاً للتحرك خارج مسارها ..

o o o

وثالثاً : إذا كان للمرأة مكان بارز في قصة يوسف ، وإذا كان دور المرأة في تلك القصة هو الدور الذي يشتهيه الرجل منها ، ويشوقه الحديث الذي يعرض لوسائل كيدها ، وأساليب إغرائها ، وشباك مغامراتها — فإن دورها في القصة لم يكن مستحلباً لئلاً فراغاً فيها ، أو ليلطف من جو المأساة التي ضمت عليها ، أو ليجدد نشاط الملتقي لها .. وإنما كان حدثاً تجارياً مع اتجاه أحداثها ، في الصراع بين الخير والشر ، فيما بين الناس عامة ، وفيما بين الإنسان وبين نفسه خاصة .. وصدق القرآن في نقله للأحداث ، وبلاغته في عرضها ، هو الذي يعطى القصة القرآنية هذا الجلال ، وتلك الروعة التي يستشعر المرء معها ما يشعر العابد في محراب صلانه من ضراعة وخشوع ! إن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان ، ويسمو بمدركاته إلى حيث يعطى الإنسان من ذات نفسه لاحق كل ما في وسعه من إيمان به وولاء له .

فالمرأة في القصص القرآني لا تستجاب لغاية غير العبرة والعظة ، ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير والعدل ، والإحسان ، وفي التفسير من الشر والبغى والعدوان .

والذي يجده القارئ أو المستمع لقصة يوسف في القرآن الكريم ، من روعة البيان وجلال العرض ، ومن سمو بالمعاطفة ، واستعلاء بالنفس على الشهوات ، وقيادتها إلى مواقع الخير على طريق مفروش بالأشواق ، يحفوف

بالمسكاره - هذا الذى يجده القارىء أو المستمع لقصة يوسف ، هو هو ما يجده
فى قصة أصحاب الكهف ، أو قصة موسى والعبد الصالح مثلاً ، وفى كلتا
القصتين لا يبدو وجه المرأة ، ولا يشار إليها من قريب أو بعيد .

* * *

ورابعاً : فى هذه القصة ، كما هو الشأن فى معظم القصص القرآنى يتجلى
سلطان « القدر » ، حيث تجري الأحداث فى مجرى يرى الناس منه ما يكرهون
أو يحبون ، حسب ما يحبسون ويقدررون ، ثم تجىء الخاتمة على غير ما حسبوا
وقدروا ، إذ الذى حسبوه خيراً هو شر ، وإذا الذى ظنوه شراً هو خير ،
مصادفاً لقوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن
تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة : ٢١٦)

وخامساً : تتحرك الأحداث فى قصة يوسف حركة مسابرة لحركة
الزمن ، حيث ينمو الحدث نمواً طبيعياً مع سير الأيام والليالى ، كما ينمو
السكان الحى ويتطور مع مسيرة الزمن . فالصغير يكبر ، والكبير يشيخ
ويهرم ، والعواطف الشابة الحارة الشائرة ، تبرد وتهدأ .. وهكذا تظهر
« بصمات » الزمن على وجوه الناس ، وعقولهم وقلوبهم ، كلما خطا بهم الزمن
خطوة إلى الأمام .. فالزمن عنصر له مكانه ، وله وزنه وحسابه فى تلك القصة

* * *

هذه بعض ملاحظات نحب أن نكون على ذكر منها فى تلك الدراسة
الموجزة لقصة يوسف . فإن ذلك مما يعين على مزيد من الفهم لها ، والوصول
إلى الكثير من الحقائق العلمية والفنية المودعة فيها . والتى لا تنفذ على الزمن
أبداً .. وهذا مما يعين على استخلاص العبر والعظات منها ، ثم الانتفاع بها
انتفاعاً يعيش منه الإنسان مع زاد طيب لا ينفد ، لاستقامة التفكير ، واعتدال
السلوك ، وبلوغ الغايات السكريمة ، والمنازل العالية فى الدنيا والآخرة جميعاً ..

مع القصة ..

لعل خير ما يبدأ به الناظر في هذه الدراسة ، هو أن يضع المصحف الشريف بين يديه ، وأن يسمى إلى لقاء سورة « يوسف » وهي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف ، فيرتلها ترتيباً قرآنياً ، أو يقرأها قراءة مستأنية متمهلة إن كان لا يحسن الترتيل .. وإنه لا بأس أن يعاود التلاوة أو القراءة مرة ومرة ، وأن يقف على ما يدعوه الوقوف من ألفاظها ، ومعانيها ، وأحداثها ، وذلك ليقيم لنفسه فهماً خاصاً للقصة ، يواجه به تلك الدراسة التي نعرضها بين يديه إذ ليست هذه الدراسة - في صميمها - إلا فهماً خاصاً مستوحى من آيات القرآن الكريم ومن عرضها لأحداث القصة .. وبهذا يكون للمتلقى لهذه الدراسة حق المناقشة لها ، والقبول أو الرفض ، لما يقبل أو يرفض منها .. فذلك - فيما أرى - هو أعدل سبيل ، وأقومه للبحث عن الحقيقة ، والكشف عن وجهها .. فالحقيقة ليست ملكاً لأحد ، كما أنه ليس لإنسان أن يدعى لنفسه العصمة من الخطأ .. والباحث عن الحقيقة يشوق دائماً بل ويسعد أنه يرى غيره مشاركا له في البحث ، ومعيناً على الكشف ، فيرى فيه رفيقاً مؤثراً ، وصديقاً مخلصاً ، يهون عليه المسيرة إلى الغاية ، ويدنى له البعيد منها ..

هذا ، وقد بدا لي من النظرة الأولى أن أعرض القصة أولاً في إطارها القرآني الذي عرضها القرآن الكريم فيه ، بمعنى أن ننقل هنا سورة يوسف .. ثم نبدأ بعد ذلك في دراستها .. وذلك حرصاً مني على تحقيق ما أشرت إليه منذ قليل . وهو تلاوة السورة ، أو قراءتها قبل النظر في هذه الدراسة ، وخوفاً من أن يجد القارئ هذه الدراسة بين يديه ، فيعجل بالنظر فيها دون أن يسبق ذلك إعداد نفسه بتلك الدراسة الخاصة التي أشرت بها والتي رضيت منها بتلاوة السورة أو قراءتها من المصحف ..

ولكن رأيت في هذا التدبير إلزاماً للقارئ بمنهج ربما لا يرضيه ، وذلك حين يجد نفسه بين يدي السورة ، فلا يرى من دينه وأدبه مع آيات الله أن يتخطاها إلى تلك الدراسة ..

لهذا فقد سلكت طريقا وسطا في هذا المقام ، فجعلت على رأس كل فصل من فصول القصة ، أو مقطع من مقاطعها ، الآيات القرآنية المصورة لهذا الفصل والمحدثة عن هذا المقطع .. فإذا قرأ القارئ تلك الآيات واستقام له فهم خاص منها ، قبل أن يلتقى بما تعرضه عليه من فهمنا لها ..

ونبدأ بالمقطع الأول من القصة .. وعلى الله قصد السبيل ، ومنه العون والتوفيق ..

قبل أن يرفع الستار

تبدأ القصة بهذه المقدمة التي تنبه مدارك المتلقي لها ، وتوقظ مشاعره أن يلتقي بها ، ويتابع أحداثها .. وشبيه بهذا ما يكون من طرقات على خشبة المسرح قبل بدء عرض الرواية ، وما يحدث من تغيير وتبدل

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب المبين
إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم
تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن
النقص بما أوحينا إليك هذا القرآن
وإن كنت من قبله لمن الغافلين
[آيات : ١ - ٣]

في الأضواء المسلطة على جمهور المشاهدين ، وعلى مواقع الممثلين ، الأمر الذي يؤذن بأن العرض وشيك أن يبدأ ، فيتهيأ المتلقي له للقاءه ، عقليا ونفسيا ..

وأول ما يلتفت النظر من هذه المقدمة ابتداءها بتلك الأحرف المقطعة : ألف .. لام .. راء ، وهي مجرد رموز ، وإشارات ، لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم .. وهذا يعني أن هذا مقام يستدعي له الراسخون في العلم ، حيث يجدون لهم هذا مجالا للكشف عن أسرار ضمت عليها هذه القصة ، وليس لغير الراسخين في العلم سبيل إلى الوصول إليها .. ففي القصة — كما سنرى — أحداث غامضة ، خفي على الناس أمرها ، وأعيام تأويلها ،

كرؤيا صاحبي يوسف في السجن ، وكرؤيا الملك ، التي استمدى لها العلماء ، وأهل الفطنة والنظر ، في دولته ليكشفوا عن وجهها ، وليبدلوا هلى صريح مضمونها .. وقد عجزوا جميعا عن حل هذه الرموز ، وتأويل تلك الإشارات ، و « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .. حتى إذا عُرِض أمر هذه الأحلام على يوسف ، نفذ ببصيرته إلى صميمها ، وجاء بتأويل الحق لها ..

هذه الحروف المقطعة ودلالاتها :

ثم إن مما يلفت النظر في هذا البدء بالحروف المقطعة التي بدئت بها القصة ، أو السورة ، أن هذا البدء قد بدئت به السورتان اللتان قبلها : « يونس » و « هود » ، كما بدئت به بعدها السورتان : « إبراهيم » و « الحجر » . فلقد بدئت السور الخمس بالأحرف الثلاثة : « الألف واللام ، والراء — هكذا :

- « الأثر . تلك آيات الكتاب الحكيم » (يونس) .
- « الأثر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (هود) .
- « الأثر . تلك آيات الكتاب المبين » (يوسف) .
- « الأثر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (إبراهيم) .
- « الأثر . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (الحجر) .

ويلاحظ في هذا البدء أمور .. منها :

- • أولا : ذكر الكتاب ، أو آيات الكتاب بعد هذه الأحرف ..
- وهذا مما يشير إلى ما بين هذه الأحرف وهذا الكتاب ، وآيات الكتاب من صلات ، وأن من بين هذه الإشارات أن آيات القرآن الكريم منها المحكم والمتشابه ، كما يقول سبحانه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون
- (٢٦ - القصص القرآني)

ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » (٧: آل عمران) وأن المحكم ما كان لكلماته مدلول واضح محدد ، مثل كلمات السورة كلها ما عدا هذه الحروف المقطعة ، وأن المتشابه ما كان غير واضح الدلالة ، بحيث يحتاج الكشف عن معناه إلى بصيرة نافذة من الراسخين في العلم ، مثل هذه الأحرف المقطعة .. ثم إن نسبة المتشابه إلى المحكم نسبة قليلة جداً ، أشبه بنسبة الحروف المقطعة في أول السورة إلى السورة كلها .

• • • وثانياً : أنه إذا ذكر لفظ « كتاب » لم يُشِرْ إليه بحرف إشارة ، على حين إذا ذكر لفظ « آيات الكتاب » أُشير إليها بحرف الإشارة « تلك » .. وهذا مما يشير إلى أن القرآن الكريم نسيج واحد من نور الحق في مجمله ومفصله ، وفي محكمه ومتشابهه ، وفي حروفه ، وكلماته ، وفي آياته ، وسوره ، فهو معجزة خالدة متجددة . باعتباراه كلا لا يتجزأ ، بحيث يُنظر إليه من المبدأ إلى الختام نظرةً يلتقي فيها متشابهه مع محكمه ومجمله مع مفصله ، وقصصه مع أحكامه وآدابه ..

• • • وثالثاً : في ذكر « الكتاب » ، والتزام هذا الذكر بعد تلك الأحرف الهجائية ، تحريض على العلم ، ودعوة إلى التعلم ، كتابة وقراءة ودرساً ، ودعوة إلى من يتصل بكتاب الله ، وما في خزائن آياته وكلماته من علم لا ينفد — أن يكون من أهل العلم ، ومن مارس الكتابة ، ودرس ما كتب العلماء ..

* * *

• لا شك أن هذه اللفظة — من القرآن الكريم إلى قوم أميين ، في أمة أمية ، وفي بيئة يشتمل عليها الجذب والقحط — لا شك أن هذه اللفظة تحمل في طياتها إلى هؤلاء الأميين ، أن يخرجوا من جلد الأمية ، وأن يزعموا عنهم

لبأس الجبل والجاهلية ، وأن يأخذوا بأسباب المدنية والحضارة التي لا تقوم إلا على محمد وطيدة من العلم والمعرفة ..

ثم لعل في عرض هذه الحروف المقطعة التي بدئت بها تلك السور وغيرها من سور القرآن الكريم ، مثل : « ألف .. لام ميم .. » و « حا ميم .. » و « ياسين .. » و « قاف .. » و « نون .. » لعل في عرض هذه الحروف ، ونطقها على تلك الصورة ، حرفاً حرفاً - هو أول درس صلى يقدمه القرآن الكريم ، ويفتح به الطريق إلى تعلم القراءة والكتابة ، إذ كانت تلك الأحرف هي أول ما عرف العربي الأبي من أجزاء الكلمة ، وعرف منها أن الكلمات التي ينطق بها ليست مركبات مصمتة ، وإنما هي قوالب ، يتشكل من كل مجموعة منها بناء ، هو الكلمة ، كما يتشكل من الكلمات نظام يتألف منه الكلام الذي يتعامل به الناس في لغة التخاطب ، وفي نظم القصيد ، أو إنشاء الخطب .. فكما يتعلم المبتدئ القراءة والكتابة يتعلم الحروف الهجائية التي تبنى منها الكلمات ، يتعلم العرب الأميون من هذه الأحرف المقطعة كيف يشكلون منها الكلمات التي ينطقونها ويصورون منها صوراً تكتب وتقرأ ..

ونقرأ مطلع السورة الكريمة : « آر .. » ونصل هذا المطلع بما بعده : « تلك آيات الكتاب المبين » فنجد لفظ الإشارة « تلك » مشاراً به إلى هذا المطلع ، وإلى آيات الكتاب المبين ، جاءلا منها حقيقة واحدة .. فأيات الكتاب المبين مصورة من حروف مقطعة كهذه الأحرف .. وهذه الأحرف المقطعة هي من معدن آيات الكتاب المبين وجوهره ..

الكتاب المبين الحكيم :

وفي وصف الكتاب في سورة يوسف بأنه مبين ، تأكيد لوصفه بأنه « الكتاب الحكيم » في سورة يونس ، وبأنه « كتاب أحكمت آياته » في سورة هود .. إذ أن الحكمة لا تكون حكمة ، والحكيم لا تتم حكمته ، حتى تخرج تلك الحكمة على صورة بينة واضحة مشرقة ، يرى الناس على وجهها أضواء العلم والمعرفة ، وإلا كانت حكمة مضمرة لا ينفع بها أحد .. أشبه

بالآلآى فى أصدافها فى البحر .. فالملين ، مبين وحكيم معاً .. والحكيم
حكيم ومبين كذلك ..

وقولة تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » تقرير وتوكيد
لذلك الحقيقة التى وصف بها القرآن الكريم ، وبأنه كتاب مبين .. فمن بيان
القرآن ، الذى يكشف عن الحكمة المشتمل عليها ، أنه جاء إلى من يخاطبهم
باللسان الذى يحسنون الفهم عنه ، والتفاهم به ، وهو اللسان العربى .. ولوجاء
القرآن إلى العرب بغير هذا اللسان العربى ، لما عقلوا عنه ، ولما انتفعوا بأحكامه
وآدابه ، ولأفنت من أيديهم كل ما اشتمل عليه من حكمة .. ولهذا جاءت
فاصلة الآية : « لعلكم تعقلون » مصدرة بحرف الرجاء « لعل » حيث
يكون العربى المستمع لهذا القرآن العربى على رجاء من أن يعقله ، ويفهم
مرامييه ، وبهذا تقوم الحجة على كل عربى استمع لهذا القرآن ولم يؤمن
بالله ، وبأن القرآن كلام الله .

وإنه ليس بالحكيم من يخاطب الناس بالأسلوب الذى يعلو على أفهامهم ،
أو بالغة التى لا يحسنون الفهم عنها .. إنه حينئذ لا يجد أذنا تصنى إليه ،
ولا قلباً يفتح له ، ولا عقلاً يتجاوب معه ..

ولقد كان من مقتضيات البلاغة ، ومن بلاغة البليغ ، مراعاة مقتضى
الحال ، فلكل مقام مقال — كما يقولون — فلا يخاطب الجاهل خطاب العالم ،
ولا العالم خطاب الجاهل ، ولا البدوى بمفاهيم الحضرى ، ولا الحضرى
بمفاهيم البدوى ، وإلا فقدت اللغة قيمتها ، وضاعت معالمها ، وأصبحت
أشبه بالنقد الرائف الذى ينكره الناس ، ولا يتعاملون به .. وفى الحديث
الشريف — كما روى البخارى — أن رسول الله ﷺ قال : « كلموا الناس
بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون .. أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ »
والمراد بمخاطبة الناس بما يعرفون ، أى بما تبلغه مدركاتهم ، ويقع منهم موقع
الفهم .. والمراد بكذب الله ورسوله ، هو ما يقع من اختلاط الأمر على

الناس حين يتحدث إليهم علماءهم أحاديث لا يفهمونها على وجهها الصحيح ،
فتنشأ من ذلك مفاهيم كثيرة مختلفة ، يناقض بعضها بعضاً ، وكلها — في
ظاهرها — تحدث عن الله ، وعن رسول الله ، فيقع من ذلك الشك والارتياب ،
ثم التكذيب والكفر !

أحسن القصص :

وفي قوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك
هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

الضمير « نحن » هو الله سبحانه وتعالى ، وفيه استدعاء للرسول الكريم
ومدافاة له من ربه ، وتكريم لذاته - صلوات الله وسلامه عليه - بهذا الحديث
الذي يتلقاه من ربه بغير واسطة . « نحن نقص عليك » .. وهذا على خلاف
يخبر النظم القرآني هكذا : « الله يقص عليك » فإن هذا يشعر بأن مخبراً
ما أوجاه الرسول بهذا الذي يقصه عليه ربه جل وعلا .. أما « نحن نقص عليك »
فإن الله تعالى هو الذي يقص على النبي .. وشتان بين الحالين ..

و « القص » تتبع الأثر ، والتعرف على صاحبه من الآثار الدالة عليه ،
وقص الأخبار ، تتبعها ، والكشف عنها ، وعرضها ..
و « أحسن القصص » .. أصدق حديثاً ، وأشرف غاية ، وأكرم مقصداً ،
وأفوم طريقتاً ، وهو قصص القرآن ، الذي يقصه الله تعالى ..

ولا نذهب مذهب القائلين بأن التفضيل هنا على غير حقيقته ، بمعنى أنه
ليس هناك مفاضلة بين القصص القرآني وغيره .. وأن القصص القرآني وحده
هو الحسن ، وهو الأحسن .. بل نقول إن التفضيل على حقيقته ، وأن هذا
التفضيل لا يقع بين قصص القرآن ، إذ كان القرآن كله على مستوى واحد من
الكمال المطلق الذي ليس بعده كمال ، سواء في ذلك قصصه ، وآدابه ، وأحكامه ..
وإنما المفاضلة هنا بين قصص القرآن ، وغيره من القصص .. وهذا يعني أنه
إذا كان القصص القرآني الغاية في الحسن والكمال ، فإن ذلك لا يمنع من أن

يكون في القصص غير القرآني ، مما ألّفه المؤلفون وقصه القاصون ، سواء ما كان منه من نسيج الواقع أو من شباك الخيال ، وسواء ما كان منه على ألسنة الناس أو على ألسنة البهائم والطيروالجماد ، إن ذلك لا يمنع من أن يكون في هذا القصص ما هو حسن يتأدب به ، وتؤخذ منه العبرة والعظة .. وليس ذلك بالذي يزحم القصص القرآني في منزلته العالية التي انفرد بها ، فكان أحسن الحسن ، بل إن ذلك يكشف عن جوهر القصص القرآني ، ويبين عن شرفه وعلو منزلته ، حين يوزن بميزان الحسن ، ويوضع كل قصص حسن في السكفة المقابلة للقصص القرآني الذي ترجح القصة منه كل ما عرف أو يعرف من قصص حسن .

وفي قوله تعالى : « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » رد على أولئك السفهاء من المشركين الذين حين أعيام القول في القرآن الكريم ، وأعجزهم الذيل منه ، قالوا إن هذا إلا أساطير الأولين ، كما يقول سبحانه وتعالى على لسانهم : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » (٥: الفرقان) .. وأن هذا القصص الذي يقصه النبي على الناس إنما هو من عند الله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل أن يصطفيه الله تعالى لرسالته ، ملتفتاً إلى شيء من هذا ، أو طالباً له ، بل كان غافلاً عن هذا الأمر كله ، وأنه لم يكن يتوقع أن يكون رسول الله إلى الناس ، حتى فجأه وحى السماء على رأس الأربعين من عمره ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا آنهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » (٥٢ : الشورى) ..

تلك هي مقدمات القصة ، والإشارات الضوئية المؤذنة برفع الستار عن أحداثها ومشاهدها ..

ويرفع الستار ١١ :

وإذ يرفع الستار . وتأخذ
الأبصار مكانها على مسرح الأحداث
نسمع كلمات الله تعالى ، تجمع الوجود
كله بين يدي هذا المشهد العظيم :
حيث يظهر فيه على مسرح الأحداث ،
غلام حَدَّثَ ، يقص على أبيه رؤيا
عجيبة رآها ، وينتظر من أبيه
تأويلها :

• «إذ قال يوسف لأبيه يَأْتِ بِإِنِّي
رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» .

«إذ قال يوسف لأبيه يَأْتِ بِإِنِّي
رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ، قال
يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ
فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ
لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وكذلك
يُحِبُّبِكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى
آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ
قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

[الآيات : ٤ - ٦]

فها هو ذا نبى كريم يجلس إليه ابنه الذى كان خاتمة أبنائه الإثني عشر ،
وآثرهم عنده ، وأحبهم إليه ، فيلقاه أبوه مشرق الوجه ، منشرح الصدر ،
مجتمع النفس لمجامع ما يحدثه به من أخباره ومطالبه ..

ويتحدث الابن إلى أبيه : « يَأْتِ بِإِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .. إنه رأى فى منامه هذا الحدث العجيب :
أحد عشر كوكبًا ، والشمس والقمر ، قد سجدوا بين يديه ١١ ! وأشرح عين
يوسف فى وجه أبيه ، ليرى على قسماته أثر هذا الحديث عنده ، وتأويله
الذى أوله عليه بينه وبين نفسه ، وهل هو مما يسر أو يسوء ؟ .

وعلى هذه التساولات الصامتة الناطقة من عيني يوسف يجيب الأب :

• « قال يا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ
الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

لقد كشف يعقوب لابنه عن جانب من تأويل هذه الرؤيا ، وأنها تحذير إلى خير كثير ينتظر يوسف ، ويجمعه بالمكان الذى لا يناله إخوته ، والذى سيكون فيه بموضع السيادة والرياسة عليهم ، ولهذا فإنه ينبغي ألا يتحدث يوسف بهذه الرؤيا إلى إخوته .. فهذا مما يزيد فى حسدهم له ، ويعجل بالمساءة والكيد الذى يكيدون له .. إنهم سيرون من هذه الرؤيا فى بيت النبوة ، ومن ابن النبى - شواهد على أن يوسف مرشح من السماء لخير عظيم .. أما هذا الخير فلا يدرون حقيقته .. إنه خير مخبوء ستجىء الأيام بتأويله .

ويجزع يوسف إذ يسمع من أبيه هذا التحذير الذى يدعو فيه إلى كتمان هذه الرؤيا ، وعدم التحدث بها إلى إخوته .. وإذن فإن بين إخوته وبينه عداوة خفية لا يعلمها ، وهو صغير غافل عما يمحله له إخوته الكبار من كره وضغينة ..

ويلج الأب هذه المشاعر التى تجرى فى خاطر يوسف . فيلقى إليه بالجانب الآخر من تأويل رؤياه ، ويكشف له عن الوجه الجميل منها .. فيقول له :

« وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق .. إن ربك عليم حكيم » .

فقوله : « وكذلك » معطوف على مضمون قوله : « يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا .. إن الشيطان للإنسان عدومبين » أى هذا يابنى ما أراه فى تأويل رؤياك ، وكذلك أرى منها أنك فى معرض الاصطفاء والإحسان من ربك ، فأنت ممن يختارهم الله تعالى للنبوة ، فتكون مماء تطلع على الناس بالحق والهدى ، كما تطلع عليهم الكواكب والشمس والقمر .. ومن إحسان الله تعالى إليك أنه يعلمك ما يشاء من تأويل

الأحاديث ، ويكشف لبصيرتك خفايا الأمور وهو اقربها ، فيما تشتمل عليه من رموز وأسرار لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم ..

وقد جاء في السورة الكريمة حدثان ، كشف فيهما يوسف عن المضمون الذي اختفى وراء الصورة التي جاء عليها في الرؤيا المنامية ، كما سنرى ذلك ، في رؤيا صاحبيه في السجن ، وفي رؤيا فرعون .. وهذا مصداق لما كشف له عنه أبوه في قوله « ويعلمك من تأويل الأحاديث .. » ونلفظ « من » هنا للتبعيض ، أى ويعلمك تأويل بعض الأحاديث ، لاكل الأحاديث التي لا يحيط بها إلا علم الله وحده .

وفي قوله : « ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق .. إن ربك عليم حكيم » إشارة إلى ما ينتظر يوسف من تمام نعمة الله عليه . وذلك حين يختاره الله تعالى للنسب ، وتلك هي النعمة في أعلى منازلها ، وأنتم أحوالها . وهى نعمة بنالها آل يعقوب . أى أبنائه جميعاً ، كما نالها من قبل أبوهم إبراهيم وإسحق .. وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن يوسف : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحق ، بن إبراهيم » .

والذى ينظر إلى الرمز الذى رمز به في رؤيا يوسف ، لأخوته ، ولأبيه وأمه ، بالأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، يرى الصلة واضحة بين هؤلاء الصفوة من الناس ، وبين الكواكب ، والشمس والقمر ، في هذا العلو .. وكما أن الكواكب والشمس والقمر منارات هدى للناس ، فكذلك الشأن فيمن رمز إليهم هذه الأجرام العلوية ، وأنهم هداية ونور يسمي بين الناس بالحق ، والعدل ، والخير .. إن الرمز هو عنوان الحقيقة ، وهو الصدف الذى يضم جوهرها ، والكتاب - كما يقولون - يقرأ من عنوانه ، والصدف يدل على الجوهر الذى فى داخله .

الأحداث تتحرك ١١

«لقد كان في يوسف وإخوته آيات

للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه
أحب إلى أينا منا ونحن عصبة إن
أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف
أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه
أيكم وتكونوا من بعده قوماً
صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا
يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه
بعض السيارة إن كنتم فاعلين .

[الآيات : ٧ - ١٠]

وتطرق بيت النبوة طرقات
تنبيء عن أن وراءها أحداثاً تريد
أن تقتحم هذا البيت ، وأن تنير
فيه عواصف محملة بالحمد والصفينة
والكيد ..

ويعقوب على توقع لمثل هذه
الأحداث ، وأن مركز دائرتها
سيكون ابنه وصغيره يوسف ..
ولكنه لا يدري وجه تلك الأحداث ،

ولا يعلم خط مسيرتها .. فذلك غيب ستكشف عنه الأيام بعد ..

وتلو قول الله تعالى :

«لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين .. إذ قالوا ليوسف وأخوه
أحب إلى أينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين .. اقتلوا يوسف
أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين .. قال
قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة إن
كنتم فاعلين .

• • •

تلو هذه الآيات - مجرد تلاوة - فإذا نحن بمראي ومسمع من تلك الجماعة
المتأمرة ، التي تدبر لأبشع مأساة في بيت النبوة ، وبين أبناء هذا النبي الكريم .
وها نحن أولاء نرى أول خيوط المأساة وهي تتجمع وتشابك ثم تمتد
شباكها في انتظار الفريسة التي تقع في حبالها ..

فهؤلاء إخوة يوسف ، قد خلا بعضهم إلى بعض بعيداً عن الآذان التي
تسمع ، والعيون التي ترى ، ثم أخذوا يدرون الأحاديث في شتى شئونهم ، حتى

إذا ذكروا أخام يوسف الذى آثره أبوم بحبه ، واستخلصه من بينهم لنفسه .
وشغل به عن النظر إليهم - ساهم ذلك ، وحرك نوازع الحمد والمقد فى
نفوسهم . وهنا يمسك القرآن الكريم من تلك الأحاديث الكثيرة المرددة ،
وهذه الآراء العديدة التى أداروها فيما بينهم - يمسك القرآن الكريم من كل
هذا بالرأى الذى أجمعوا أمرهم عليه ، فى الخلاص من يوسف ، وفى الأسلوب
بما لجؤوا به أمرهم فيه .

وتعيد تلاوة الآيات آية آية . لتقف بين يدي كل آية وقفة تدبر ،
وتبصر ، واعتبار . .

• « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين »

وهذا يعنى أن قصة يوسف جاءت جواباً على سؤال أو أسئلة ، وردت
على النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود ، أو من المشركين بإيعاز من اليهود . .
ويجوز أن يكون عرض القصة جواباً على أسئلة واقعة أو مفترضة أن تقع
من الذين يطلبون العلم بأخبار الماضين ، ويبحثون عنها فى مظانها ، ويسألون
كل من يحسبون عنده علم بها . . وها هو ذا القرآن الكريم ، قد جاء فى هذا
بالحق كله ، لمن يطلب أنباء هذه القصة ، ويلتمس مواقع العبرة منها . . أما من
أراد بالسؤال عنها ، الامتحان والتحدى ، فقد جاءه من الحق ما يحزبه ،
ويفضح ضلاله ومهتانه ، وسوء ظنه . . وهنا سؤال . . وهو كيف يجيبه
القرآن الكريم بهذا الحكيم : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » -
ولم يكن قد ذكر شيئاً عن يوسف وإخوته ، حتى يكون فيما ذكره آيات
للسائلين ؟ أفليس من المنطق إذن أن يكون هذا الحكيم فى أعقاب القصة ، تعقيباً
عليها ، وافتتاحاً إلى مواقع العبرة منها ، لا حكماً سابقاً عليها ؟

نعم إنه المنطق ، ولكنه منطق البشر الذين لا يحكمون على أفعالهم
إلا بعد أن تقع ، وتأخذ مكانها فى الحياة ، وينكشف وجه الحسن أو القبح
منها . . أما الله سبحانه وتعالى ، فعلمه محيط بكل شيء ، فما لم يقع مما سيقع ،
هو واقع أزلاً فى علم الله . .

مقصدة يوسف قبل أن تقع ، وقبل أن يعرضها القرآن الكريم ، هي واقعة في علم الله القديم ، على الصورة التي وقعت عليها ، وعلى ما ذكره القرآن عنها . . فسكان حكم الله تعالى عليها بأن فيها آيات للسائلين ، حكماً واقعاً على أمر واقع في علمه جل شأنه . . وفي هذا النظم شهادة من شهادات كثيرة تشهد بأن منزل القرآن ، هو الله عالم الغيب والشهادة ، وأنه ما كان لبشر أن يحد الشفور الذي على عليه هذا الحكم الذي يسبق الحدث ، قبل أن يحدث به ، ويستوفى عرضه ، ويضبط آثاره في الناس وفي الحياة .. فسبحان من هذا كلامه !

هذا هو البدء :

• « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة .. إن أبانا لفي ضلال مبين » .
هذا هو في الواقع بدء القصة ، وكل ما سبق ذلك هو مقدمة لها ، وإدخالها بها

وتبدأ القصة بهذا الحديث المنخافت الهامس بين الإخوة .. « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » .. هكذا يجيء الذي انتهوا إليه مؤكداً ومصدراً بهذا القسم الذي تدل عليه لام القسم الواقعة في جوابه : « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا » .. لقد كان يوسف وأخوه له من أم ، وكان الإخوة العشرة الآخرون من أم ، وكلهم أبناء يعقوب ، فكيف يستأثر هذان الولدان بحب الأب دونهم ، وهم عصبة ، أي جماعة كبيرة ، لها شأنها واعتبارها ؟ وكيف يفضل الأب الإثنين على العشرة ؟

إن ذلك أمر غير مستساغ ، وتقدير غير سليم ، وبخاصة في بيئة بدوية كبيتهم ، تعز بزكثرة العدد في الرجال ، وتأخذ فيها الجماعة مكانها في مجتمعها ، بقدر ما لها من رجال ، أكثر مما لها من أموال .. !

• « اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضاً يحل لكم وجه أبيكم وتكونون من بعده قوماً صالحين » .

وهنا ينتقل الحديث بين الإخوة من هذا الاتهام لأبيهم بإيثار يوسف وأخيه عليهم ، إلى الحكم على يوسف بالقتل ، أو بإلقائه بعيداً عن أبيه ، في مكان لا سبيل إلى العثور عليه فيه أبداً الدهر ، وبهذا ينتقمون لأنفسهم من أبيهم ، ومن يوسف معاً .. وبهذا يخلو لهم وجه أبيهم ، وتخلص لهم مشاعر حبه ، التي كانت متجهة كلها إلى يوسف ، ثم إلى أخيه ، ومن ثم ينصلح أمرهم مع أبيهم ، وتصفو قلوبهم من الضغينة والحسد وتسلم صدورهم من الحسرة والألم ، وتنطفئ تلك النار التي كادت تشب في هذا البيت ؛ وتأتي على كل شيء فيه .. هكذا فكروا ، وقدروا . ١

• « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

هذا رأى رأى أحدكم في الأمر الذي دبروه ، وهو الأخذ بأحد التدبيرين اللذين دبروهما للخلاص من يوسف ؛ وذلك في قولهم : « اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضاً » .. وهذا الرأي يقضى بالعدول عن القتل إلى التطويج به في مجمل من مجاهل الأرض ؛ فهذا على ما به أهون من القتل ، وبه يتحقق ما أرادوه من التفرقة بين يوسف وبين أبيهم !

* * *

التدبير والتنفيذ !

لقد انتهى دور التفكير ، وجاء دور التدبير والتنفيذ ..

وهنا نجد المشهد ينتقل نقلة بعيدة ، وإذا بيعقوب وأبنائه في هذا الحوار :

— « قالوا يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وإنا له لناصحون ؟

« قالوا يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليجزني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون »

[الآيات : ١١ - ١٤]

أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » ١١

استفهام إنكارى ، يدل على أنه كان بينهم وبين أبيهم مواقف من قبل هذا الموقف ، طلبوا إليه فيها أن يصحبوا معهم يوسف إلى حيث يسرحون بأغنامهم ، وإلى حيث يقضون في يوسف ما دروه له . . وكان أبوم في كل مرة يأبى عليهم صحبة يوسف لهم ، متعللاً بالخوف عليه من أن يصيبه مكروه . . وكانت تلك المرة هي آخر المرات التي بين يعقوب وأبنائه في شأن يوسف ، وصحبته لهم . . ولهذا نرى الأبناء وجدوا في أبيهم هذه المرة شيئاً من الاستعداد لإجابة طلبهم الذي اشتد إلحاحهم عليه . . فأتبعوا هذا الاستفهام الإنكارى على أبيهم لعدم أطمأنهم على أخيههم - أتبعوه بالطلب المباشر : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » ونستشعر هنا من توقيت الطلب بظرف الغد ، أن هذا الحديث كان بينهم وبين أبيهم ليلاً ، وبعد أن عادوا من المرعى ، وأن غداً هو الغد الذي يطلع به صبح هذه الليلة . . ونستشعر أيضاً من التوقيت بالغد أنهم يستعجلون الأمر الذي دروه ، ويخافون إذا تطاول الزمن به أن تنحل عزيمتهم ، أو يقع الخلاف بينهم فيما أجمعوا عليه . .

وفي قولهم : « يرتع ويلعب » إغراء لأبيهم بهذا الأمر الذي أرادوه عليه . . ذلك أن أحب شيء إلى الصبيان أن يرتعوا ويلعبوا ، وإن يعقوب ليسعه أن يرى يوسف آخذاً بأوفر نصيب مما يحبه الصغار ويحرصون عليه . . وإذ يشد الأبناء آذانهم إلى أبيهم ، ليلتقطوا الكلمات التي تخرج من فمهم ردّاً على ما طلبوه منه ، تبيحهم كلمات أبيهم حزينة مرتعشة : « قال إني ليحزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .

إنه يخاف مكروها يقع ليوسف ، ويتوقع سوءاً يناله . . وإن كان لا يدري مصدر هذا المكروه ، ولا مورد هذا سوءه !

ولهذا ، فإنه يمجّد حزناً يطوف بقلبه إذا ذهبوا بيوسف .. ثم يتمثل له من صور المسكاره التي يخافها على يوسف ، أن يأكله ذئب من تلك الذئاب المتربسة في المراعى ، تنتظر غفلة من الرعاة ، فيأكله ، كما يأكل الشاة ..

الذئب .. من فم يعقوب !!

ويلتقط أبناء يعقوب من فم أبيهم قوله : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .. ويتخذون من هذا الذئب المتخيل ، حقيقة يضعونها بين يدي أبيهم ، بعد أن يمضوا أمرهم في يوسف ، ثم يحيثون إلى أبيهم بتأويل ما توقعه .. لقد أكله الذئب كما توقعتم !! ولهذا فهم يقفون مع أبيهم من أمر هذا الذئب موقف التعدي ، وأن الذئب لا يجرؤ أن يقترب من حمام ، وعم عشرة رجال ..

• « قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لحامرون » .

فهذا رد على اتهام من أبيهم لهم بالغفلة ، وسوء الحفظ لما معهم من أنعام ومتاع . حتى لتغشاهم الذئاب ، وتعيث فساداً في ماشيتهم ، وذلك بعد اتهامهم بالنهاون وعدم الحرص على سلامة أخيهام ..

رحلة عبر الأهوال :

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبيههم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .. وجاءوا على قيصه بدم كذب قال

في هذا الإطار الموجز من النظم تعرض أحداث كثيرة من أحداث القصة ، حيث نشهد نجاح الكيد الذي كاده أبناء يعقوب لأخيهم وأبيهم .. فقد جاء الغد ، وهام أولاء يصحبون يوسف معهم على العزم الذي عزموه وهناك حيث بلغوا بما شيتهم المسكان

بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر
 جميل والله المستعان على ما تصفون.
 وجاءت سيارة فأرسلوا واردم
 فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام،
 وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون.
 وشروه بثمن بخس دراهم معدودة
 وكانوا فيه من الزاهدين ... وقال
 الذي اشتراه من مصر لامرأته
 أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو
 نتخذه ولذا، وكذلك مكنا ليوسف
 في الأرض ولنعلمه من تأويل
 الأحاديث والله غائب عن أمره ولكن
 أكثر الناس لا يعلمون ... ولما باع
 أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك
 نجزي المحسنين »
 [الآيات : ١٥ - ٢٢]

الذي يرسلونها فيه للرعى، خلا بعضهم
 إلى بعض ليروا رأيهم في يوسف،
 وفي التخلص منه ... وأجمعوا
 أخيراً أمرهم على أن يلقوه في الجب،
 وأن يدعوه فيه حتى تمر بعض القوافل
 التجارية التي تنزل عادة قريباً من
 هذا الجب لتستقي منه، وتأخذ فترة
 من الراحة عنده، فتلقط يوسف،
 وتأخذه معها عبداً رقيقاً، إلى
 حيث تحط رحالها في ديارها ..

• فلما ذهبوا به وأجمعوا
 أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا
 إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم
 لا يشعرون .

جواب « لما » مخدوف، دل
 عليه المعطوف عليه بعمده الذي هو

بعض الجواب، وهو قوله تعالى : « وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا
 وهم لا يشعرون » ..

والمعنى أنهم لما انطلقوا بيوسف، بعد أن أخذوه من أبيهم، وأجمعوا
 رأيهم على أن يلقوه في الجب - كانت عناية الله معه، لحفظه الله من الشر
 الذي دفعوا به إليه، ثم صحبته عناية الله، وحفت به ألطافه، وأوحى الله
 سبحانه وتعالى إليه، أي ألهمه وأوقع في نفسه شعوراً قوياً، بأنه سيمتقي
 بإخترته يوماً، وأنه سيخبرهم بهذا الذي كان منهم له دون أن يعرفوه، وهذا
 ما تحقق حين ملك يوسف خزان الأرض في مصر، وجاء إخوته يمتارون

من خيرات مصر .. فيقول لهم في إحدى لقاءاته معهم ، دون أن يعرفوه :
« هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ »

الكذب المفضوح :

• « وجاءوا أباهم عشاءً ليكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستقي وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . »
وهكذا الباطل ، يفضح نفسه ، ويخزي أهله ..

لقد جاءوا أباهم عشاءً .. وتلك أول أمارات الكذب الذي جاءوا به معهم .. إنهم جاءوا ملففين في ظلام الليل ، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار ، ويمزق هذا القناع الزائف المموه بتلك الدموع الكاذبة التي بللوا بها خدودهم ..

إن العين إذا التقت بالعين كشف لها ذلك عن كثير من خفايا النفس ، وقرأت على صفحة الوجه مالا يصرح به اللسان ، ولا تبوح به الكلمات ..
ولهذا يجرؤ الإنسان على أن يقول في الظلام ما لم يكن ليقوله في النور حين تلتقي العين بالعين ..

والعين تعرف من عيني محدثها .. إن كان من حزبها أو من أحاديها
ثم هذا البكاء ، هو فضيحة أخرى تفضح الكذب .. إنه تباك وليس بكاء ، إنه مجرد أصوات حاكية لصوت البكاء ، ليس فيها حرقه الكبد ، ولا زفرة الصدر السليم .. وإن الأذن لقادرة على أن تميز التباكي من البكاء ، وتمرق بينهما .. وقد عرف يعقوب هذه القصة الملفقة التي اصطنعها أبناءه ، من قبل أن ينطقوا بالمسكروه الذي وقع ليوسف ، أو يكشفوا عن وجه الذئب الذي ادعوا عليه أنه أكله .

ثم كيف ذهبوا يتسابقون جميعاً دون أن يتركوا واحداً منهم مع يوسف

أنسوا قولهم لأبيهم : « وإنا له لحافظون » ؟ وكيف يتفق أن يكونوا جميعاً على حال واحدة من الاستعداد النفسى والجسدى لهذا السباق ؟
ويكاد المريب يقول خذونى ، فمن أنبأهم أن أباهم يتهمهم بالكذب فى هذا الخبر الذى جاءوا به إليه ، من أن الذئب قد أكل يوسف — حتى يقولون له تعقيباً على هذا الخبر : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ..
إن هذا اتهام منهم لأنفسهم ، قبل أن يتهمهم أحد !!

الدم الكذب :

• « وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وإنه هروباً من الجريمة ، وبحنأ عن كل وجه تبرق منه بارقة سراب للنجاة ، تراهم يستكثرون من وسائل التضليل والتعمية ، حتى إنهم ليحملون معهم إلى أبيهم قميص يوسف ملطخاً بالدم الذى نزف منه والذئب يفتريه .. أليس ذلك دليلاً مادياً على أنهم صادقون فيما أخبروا أباهم به من أمر الذئب ويوسف ؟

ولكن هذا التدبير قد جاء على غير ما قدروا ، فكان شهادة قائمة عليهم بأنهم غير صادقين فيما جاءوا به من خبر يوسف .

فالدم الذى جاءوا به على قميص يوسف ، دليل من الأدلة القوية على أن القصة ملفقة .. فإذا يحملهم على حل هذا الدم إلى أبيهم ؟ أليسوا هم أولياء الدم وأهلها ؟ وهل يجد دلى الدم قدرة من نفسه على حل إصبع أو عين أو رأس من ابنه أو أخيه المقتول ، ثم يطوف بها ، ويقلبها بين يديه ، ويعرضها على الأنظار ؟ . ذلك مالا يكون لو أن الذئب كان حقاً هو الذى عدا على

يوسف وافتريه !

ويقرر علم الإجرام ، أن المجرم مهما كان ذكياً حذراً لا بد من أن يترك
أثراً يدل عليه ، أو أن يقع في تديره خلل ما ، يكون مفتاحاً
للكشف عنه ..

قبل أن القميص الذي جاءوا به ملطخاً بالدم كان سليماً لم يمسه القذوب
المزعوم بمخلب أو ناب ، ولهذا عجب يعقوب حين رأى القميص على
تلك الحال . وقال منهكاً : « تالله ما رأيت كالليوم ذنباً أحلم من هذا ..
أكل ابني ولم يمزق قميصه !! »

ولا يجحد يعقوب عزاءاً على هذا المصاب الفادح إلا أن يلرذ بالصبر ،
وأن يستعين بالله على احتمال هذا الابتلاء .. « فصبر جميل .. والله المستعان
على ما تصفون » .

نجمدة من السماء :

• « وجاءت سيارة فأرسلوا واردم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام
وأُسروه بضاعة والله عليم بما يعملون » .

وتطوى الأحداث على عجل ، وينتقل المشهد في سرعة خاطفة إلى حيث
يوسف في الجب ، يعاني ما يعاني من وحشة ، وخوف ، وجوع !
وتتجه أبصار الذين يتابعون أحداث هذه القصة إلى هذا الجب ، أو
القبر ، الذي ضم على هذا الصبي البريء ، وتتلقت القلوب نحوه ، وتطوف
الخيالات حوله .. وإذ سيارة — أي جماعة من المسافرين — تلوح من
بعيد ، حتى إذا دانت الجب حطت رحالها ، وبعتت بمن يستنى لها
من الجب ..

« وجاءت سيارة » .. هكذا جاءت السيارة كما قدر أبناء يعقوب ،
لأن الجب كان على طريق تجارى يصل بين الشام ومصر ، ويسكن على هذا
الطريق مرور القوافل المسافرة بين الشام ومصر . ١٠٠

ومن إعجاز القرآن هنا أنك تجد في النظم القرآني : « وجاءت سياره »
— صورة مرئية لهذه القافلة ، وقد أعيأها السفر الطويل ، وأثقل خطوها
ما تحمل من أمتعة وأزواد .. ففي واو العطف ما فيه من لين ورخاوة ،
وفي الثقلان بحرف الجيم الممدودة وما فيها من تعطيش ومط وتماوج — في هذا
كله ما يوحي بكلال القافلة ، وبثقل خطوها ، وبغفلتها عن هذا الغلام الذي
يعاني سكرات الموت وهو على خطوات منها .. وهذا يبلغ المشهد حدًّا
بالغا من التأزم ، تضطرب معه القلوب ، وتبهز الأنفاس ، وتذهل النفوس عن
الحاضر الذي تعيش فيه ، لتقف وراء هذه القافلة ، تستعرضها ، وتدفع بها
في قوة لتدرك هذا الذي احتواه الجب ، وأطبق عليه ..

وحطت القافلة رحالها — بعد لأي — على مقربة من الجب ، ثم جعلت
تعالج في تناقل أمتعتها ، وتسوى رحالها ، وتهب لها مترلا آمنًا تجد فيه
بعض الراحة من عناء الرحلة ..

ويجيء وارد القوم إلى الجب ، ويلقى بدلوه فيه ، ثم يرفعه إليه ، بعد
أن ظن أنه امتلأ ماء ، حتى إذا أخرج الدلو من الجب وجد شيئًا هاله وأفزعته ،
وكاد يفر من بين يديه .. فلقد تعلق يوسف بالدلو طلبًا للنجاة ، حتى إذا
داني الرجل أمسك به صارخًا ضارعًا ، والرجل يحاول الإفلات منه صارخًا
مستنغيًا .. ثم انكشف الموقف أخيرًا عن حقيقة الأمر ، وأن هذا الذي
تعلق بالدلو ليس إلا غلامًا سقط في الجب بسبب ما .. وعندئذ يطمئن الرجل ،
ويهتف : « يا بشرى هذا غلام » .. إنه غلام ، وليس شيئًا آخر ، وإنه لرزق
صافه الله إليه ، فليمسك به ، وليحرص عليه من أن تراه العيون من أهل
تلك الجهة : « وأسروه بضاعة » أي أخفوه في أمتعتهم ، وعدوه بضاعة من
بضاعتهم ، يبيعونه فيما يبيعون من بضاعة .. « والله عليم بما يعملون » ..
• « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .

أى أن أصحاب هذه القافة قد « شروه » أى باعوه « بثمان بجنس » أى خيه غن على البائمين حيث باعوا الجوهر ببيع الحمصا ، ورضوا بأن يتقاضوا فى مقابل يوسف « درام معدودة » ولو عرفوا قدر هذا الجوهر السكريم الذى فى أيديهم لاضوا به على البيع ، حيث لا يقدر بثمان ، ولو كان القناطير المنظرة من الذهب والفضة ، أو لباعوه وغالوا فى الثمن الذى يطلبونه فيه ، إن كان لابد لهم من ييمه ، ولكنهم كانوا خبراء أمتعة لا خبراء نفوس ، ونقده أموال ، لا نقدة رجال !!

يوسف فى مصر :

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعمله من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »
وها هو ذا يوسف ، ينتقل من بلد إلى بلد ، ويتحول من يد إلى يد ، حتى يقع أخيراً بيد رجل من مصر ، لا ندرى إلى الآن من هو هذا الرجل ، ولا المكانة التى له فى قومه .

وإذن فيوسف الآن فى مصر . فهل يستقر به المقام فيها ، أم ستتناقله الأيدي من بلد إلى بلد ، ومن مصر إلى مصر ، بيعاً وشراءً . إنه الآن سلعة تباع وتشتري !

وتحدثنا الآية السكرية بأن المصرى الذى اشترى يوسف قد رأى فيه رأياً آخر غير الذى كان يسوى حساب يوسف عليه من قبل . لقد كان من قبل بضاعة تباع وتشتري .. ولكنه وقد صار إلى يد هذا المصرى سيصبح شيئاً آخر ، غير الذى كان عليه . لقد ضمه الرجل إليه ، وانخذله ابناً له ، ودعا امرأته إلى أن تسكرمه . وتتولى تربيته وتنشئه ، على ما يترتب وينشأ عليه الأبناء ..

وهكذا يجد يوسف في مصر أهلاً بديل أهله ، وأباً وأماً في مكان أبيه وأمه .. وهكذا صنع الله تعالى ليوسف ، ولطف به .. وليس هذا غريب ، بل إن له عند الله مزيداً من الفضل واللطف .. فلقد تحرر من العبودية ، وفي هذا التحرر تمكين له في الأرض وتثبيت لأقدامه عليها ، كما إنسان يعطى الحياة ، ويتعامل معها بكل ما في كيانه من ملكات وطاقات ، وبهذا يصبح مؤهلاً لما يعلمه الله تعالى إياه من تأويل الأحاديث ، الأمر الذي يجعل لأبيه عند الناس وزناً أى وزن ، ولحكمته حساباً أى حساب ، وملكاته مقام أى مقام ، « والله غالب على أمره » يجرى الأمور على ما شاء وقدر ، لا على حسب ما شاء الناس وقدروا .. فتقدير الله هو النافذ ، وأمره هو الغالب : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » هذه الحقيقة من سلطان الله القاهر وأمره الغالب !!

• « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين »

وهكذا يمضى يوسف في طريقه ، محمّداً برعاية الله ، مصحوباً بالطفاه ، يزداد مع الأيام كلاً وتاماً ، كما يزداد الهلال كل ليلة كلاً وبهاء ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال ، كان أعلم الرجال وأحكم الرجال ، بما آتاه الله من علم وحكمة « وكذلك نجزي المحسنين » أى يمثل هذا الجزء الحسن ، يجرى الله كل محسن .. وقد كان يوسف من المحسنين ، لم تفسد فطرته ، ولم ينل من معدنه الكريم ، ما نزل به من مكروه ، وما أصابه من ضرر ، بل لقد كشف ذلك عن معدنه وجلى عن جوهره ، كما تنجلي النار عن حقيقة الذهب ١٠

مصر .. دار الأنبياء :

ولا بد هنا من وقفة مع تلك الظاهرة التاريخية التي جعلت من مصر مفرجاً لكثير من أنبياء الله ، ودار هجرة لمن جفاه منهم أهله ، وضاق به موطنه ..

فهذا إبراهيم أبو الأنبياء - عليه السلام - يجرى إلى مصر مفارقاً قومه ، معتزلاً ديارهم وما يعبدون فيها من آلهة .. « وقال إني ذاهب إلى ربى سيدي »

(٩٩ : الصفات) فكأن وجهته إلى ربه ذلك البلد الطيب مصر . . ويعيش إبراهيم زمناً في مصر ، يعبد الله دون أن يزجه أحد ، أو يتسلط عليه متسلط . . حتى إذا هلك طاغية قومه « الخروء » عاد إلى وطنه يدعو إلى الله . . « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً » (٤٩ : مريم) .

وهذا يعقوب ، ويوسف ، والأصباط (إخوة يوسف) يحبون جميعاً إلى مصر ، ويتخذونها موطناً آمناً لهم . .

ثم هذا موسى وهرون عليهما السلام - يولدان في مصر ، ويبلغان مبلغ الرجال فيها ، ويصطفيهما الله تعالى للنبوّة والرسالة على أرضها . .

وأخيراً تستقبل مصر كلهم الله « عيسى بن مريم » كما تستقبل أمه معه ، وتضمهما إلى صدورهما الرعوم ، حتى تنجلي العاصفة التي هبت هاتهما في الناصرة ، من أرض الجليل بالشام . . وفي هذا يقول الله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » . . فمصر هي هذه الربوة ذات القرار ، أي ذات الأمن والاطمئنان ، وهي الربوة ذات المعين ، أي ذات الخير الوفير الذي لا ينضب معينه . ! يقول الإنجيل « ملاك الرب ظهر ليوسف - زوج مريم - في حلم قائلاً : « قم خذ الصبي ، واهرب إلى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودس مزعم أن يطلب الصبي ليهلكه . . فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً ، وانصرف إلى مصر » (إنجيل متى : الاصحاح الثاني) .

هذه ظاهرة تاريخية تحدث بأن مصر حقاً « كنالة الله في أرضه » كما ورد في الأثر ، وأنها أرض مباركة ، تخطو عليها أقدام الأنبياء ، وتطار أجواءها أنفاس الرسل ، وهذا من شأنه أن يجعل لمصر شأناً أي شأن في دنيا الناس ، وأنها موطن خير وأمن وسلام ، ودار حق ، وعدل وصدق . . تشع منها أضواء الهدى على مدى الأزمان . . تلك حقيقة ينبغي ألا يحجبها عن

العيون ما قد ينعقد في سمائها بين حين وحين من دخان الباطل وضبابه ..
كالشمس يحجبها الغمام ، حتى يظن الجاهلون أنها غربت ، ثم لا تلبث أن تسفر
عن وجهها ، وتغلا الأرض نوراً وبهاء

يوسف والفئة المتحدة

• « وراودته التي هو في بيتها
عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت
هيئ لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن
مشاوى إنه لا يفلح الظالمون .. ولقد
همت به وهم بها لولا أن رأى برهان
ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء
والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ..
واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر
وألقيا سيدهما الذي الباب قالت ما جزاء
من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن
أو عذاب أليم .. قال هي راودتني
عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها
إن كان قميصه قد من قبل فصدقت
وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه
قد من دبر فكذبت وهو من
الصادقين .. فلما رأى قميصه قد من
دبر قال إنه من كيدك إن كيدك كن
عظيم . يوسف أعرض عن هذا
واستغفري لذنبك إنك كنت من
المخاطئين » [الآيات : ٢٣ - ٢٩]

• « وراودته التي هو في بيتها
عن نفسه ، وعلقت الأبواب ، وقالت
هيئ لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن
مشاوى إنه لا يفلح الظالمون » ..
المرادة : المخادعة ، والمخاتلة ،
والتدسس إلى النفس في أسلوب من
اللطيف ، وحسن الحيلة .

و « هيئ لك » - هو صوت
استدعاء لهذا الأمر الذي يكون
بين الرجل والمرأة .. وقد جاء به
القرآن الكريم على هذه الصورة التي
لم تعرفها اللغة العربية في لسانها قبل
نزول القرآن .. وذلك أدب رفيع
من أدب الشريعة الإسلامية ، وأدب
كتابها الكريم ، وذلك أن هذا
الأمر الذي يتحدث عنه القرآن من
شأنه أن يسكون سراً بين الرجل
والمرأة ، لا يطلع عليه غيرها - إنها
لغة يفهمها الزوجان .. سواء أكانت
بإشارة أم بمباراة .. هذا هو المفهوم

الذى يعطيه هذا الصوت : « هيت لك » ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأريلات وتخريجات لكلمة « هيت لك » وخذها على أنها حكاية صوت ، مصحوبة بإشارة يد ، أو لحظ عين .. لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها في قاموس اللغة .. إنها في مقامها هنا كلمة استدعاء وإغراء ، وكفى !

وقد كنى القرآن الكريم عن المرأة التي دعت يوسف إلى نفسها بقوله تعالى : « التي هو في بيتها » سترأ على هذه المرأة ، حتى لاتفصح بين أهلها وقومها عن الملاء .. كما أن في إضافة يوسف إليها ، وبأنه في بيتها ، إشارة إلى أنها ذات سلطان على يوسف ، الذي هو نزيل بيتها ، وربيب نعمتها . وأن لها أن تأمر ، وعليه أن يطيع .. فإن لم يكن ذلك بسلطان جمالها ، كان بسلطان جاهها .. فكيف وبيدها سلطان الجمال ، وسلطان الجاه ؟

وفي قوله تعالى : « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » — إشارة أخرى إلى أنها هي التي دبرت لهذا ، وأعدت له ، فهي التي راودت يوسف عن نفسه بما ألقت إليه من كلمات ، وإشارات ، وتلميحات .. وهي التي غلقت الأبواب ، فكانت تلك دعوة صريحة منها إليه ، ثم إنها حين رأت أن كل هذا الإغراء ، لم يدعه إليها ، ولم يقربه منها ، دعته إلى نفسها ، وقالت : « هيت لك » .. أي ها أنذا فأقبل .. وهذا مالا تفعله الحرة أبداً .. إنها — مهما استبد بها الحب والوجد — لا تلقى الرجل بهذه المراحة ، بل تأبى عليها طبيعة الأنثى إلا أن تغالب أشواقها حتى تكون هي المطلوبة من الرجل لا الطالب له !!

فإذا كان من امرأة العزيز هذا الاسترخاء لجمالها وسلطانها أمام سلطان حبها ليوسف — فإن هذا إنما يدل على مدى تمكن الحب من قلبها ، حتى وقف بها هذا الموقف المبهين لدلال المرأة ، وعفاف الحرة ، وامتهان سلطان الجاه والجمال !

عفة ومروءة وإيمان :

• « قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون » .

بهذا الأسلوب الرصين الوديع كان رد يوسف على مادحته إليه امرأة العزيز .. « معاذ الله » أى عياداً بالله ، ولجأ إليه ، واحتماه من هذا السوء الذى يدعى إليه .. « إنه ربى » أى إن هذا السيد الذى أنت زوجه ، هو ربى ، أى سيدى الذى ضمنى إلى بيته ، وأكرم مثواى عنده .. وخيائته فى أهله عدوان على المروءة والخلق الكريم .. إذ كيف يقابل الإحسان بالإساءة ، والإكرام بالغدر والخيانة ؟ إن ذلك ظلم أى ظلم .. وإن الظالمين لا يفلحون أبداً .

ويجوز أن يكون قوله : « إنه ربى » مراداً به الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه الذى أحسن مثوى يوسف ، وهياً له الطريق إلى هذا البيت الذى وجد فيه الطمأنينة والأمن ..

فكلمة « رب » كما تستعمل على إطلاقها لذات الله سبحانه وتعالى ، فإنها تستعمل كثيراً بمعنى السيد المالك للشيء .. يقال فلان رب هذه الدار أى صاحبها وسيدها - وقد جاءت لفظة « رب » فى أكثر من موضع من هذه السورة بمعنى السيد ، والمالك ، كما سنرى بعد ..

همت به وهم وبها :

• « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه .. كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » .. اللهم بالشيء ، اتجاه العزم إليه ، والبدء فى تنفيذ ما انمقد العزم عليه ..

ولقد اختلف المفسرون ، فى معنى الهم الذى هم به يوسف : أهو هم عزيمة ؟ أم هم رغبة .. وهل هو هم فعل ؟ أم هم ترك ؟

وصريح اللفظ القرآني أنه هم بها ، وأنها همت به .. بمعنى أن كلا منهما هم بصاحبه ؛ وأقبل عليه ، فلا وجه إذن للترفة بين لفظين متساويين لفظاً ومعنى ، وهما في مقام واحد ..

كذلك اختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى : « لولا أن رأى برهان ربه » — اختلفوا في هذا البرهان ، أهو ملك جاءه من الله يحذره مما يدعى إليه ؟ أم هو شيء وجدته في نفسه فغلب به نفسه ، فكان ذلك برهاناً من الله ، يرى به طريقه المستقيم ؟ أم كان هذا البرهان صورة أبيه يعقوب ، وقد تمثل حاضراً على إصبعه محذراً من هذا الخطر الذي يهدده ؟ إلى غير ذلك من عشرات الصور التي صور فيها المفسرون هذا البرهان ١
وقد حمل المفسرين على هذه التأويلات أمران :

أولهما : أنهم أزموا لفظ « ربه » معناه المطلق ، وهو الدال على ربوبية الله سبحانه وتعالى .. ولو أنهم نظروا إلى المعنى الآخر لكلمة « رب » وأنها تجسئ بمعنى السيد ، وخاصة في مثل هذا المقام — لو أنهم فعلوا هذا لخرجوا من ذلك الحرج الذي وقعوا فيه ، وهم يحاولون جاهدين أن يجدوا تأويلاً لقوله تعالى : « لولا أن رأى برهان ربه » .. فإن « لولا » حرف يفيد امتناع جوابه لوقوع شرطه ، أي أنه لولا وجود برهان ربه لأمضى عزيمته لهم بها ، وهم يدفعون أن يكون يوسف قد هم هم فعل ١١

وثانيهما : أنهم يرون في النبي أنه ينسلخ عن طبيعة البشر ، فلا تتحرك له شهوة ، ولا تندفع في كيانه رغبة .. ولسكن فأت هؤلاء الذين ينظرون إلى النبي هذه النظرة — فاتهم أن النبي بشر ، قبل أن يسكن نبياً ، وأنه حين يلبس ثوب النبوة الجليل لا يخلع ثوب البشرية العظيم .. فالنبوة لا تنلبس إلا أعلى قمم البشرية ، وأعظمها ، ولسكن يبقى مع ذلك من بشرية النبي كل مقوماتها ، وما فيها من عواطف ونوازع ، وشهوات .. وبهذا تتجلى عظمة

النبي حين تتسع نفسه العظيمة لثوب النبوة ، والاحتفاظ بها في طهرها ، وبهائها ،
مع ما ينازعها من أهواء النفس البشرية وشهواتها ..

على أرض البشر :

وعلى هذا ، فإن الذي نطمئن إليه ، هو أن هم يوسف كان هم فعل ،
لا هم ترك ، وأن برهان ربه ، هو برهان سيده العزيز ، وأن هذا البرهان
هو إشارة معروفة ، كان يشار بها عند محيى العزيز إلى بيته ، حيث يسكون
ذلك إعلاناً لخدمه ، وحشمه ، وحرسه ، ليسكون جميعاً في هيئة استعداد
لاستقباله .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وألقيا سيدهما لدى الباب » ..
أى أنه ما كادت امرأة العزيز تدانى يوسف ، وما كاد يوسف يدانها حتى
رأى حركات في القصر تنبى عن مقدم العزيز ، وأنه ما كاد يقلت من بين
يديها ، ويتجه نحو باب الخروج حتى كان العزيز بالباب ١١ وإذن فيسكون
قوله : « إنه ربى أحسن مثواى » مقصوداً به العزيز ، فإنه لا يخون سيده
الذى أكرمه بالعدوان على زوجه .

وهذا الحدث الذى كان من ظهور العزيز فى تلك المحطة التى كاد يقع
فيها هذا المنسكر — لطف من لطف الله تعالى بيوسف ، وإحسان منه سبحانه
إليه .. ذلك أن الأسباب الموصلة إلى الأعمال الطيبة ، أو الحائلة دون الأعمال
السيئة ، هى من توفيق الله ، ومن لطفه وإحسانه ، كما أن الأسباب المؤدية إلى
الشر ، أو الصارفة عن الخير ، دليل على خذلان الله تعالى للعبد ، وتخليته
وأهواء نفسه ، ونزغات شيطانه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى صرف
السوء عن يوسف : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا
المخلصين » .. أى يمثل هذا التدبير ، وهذا التوقيت لمصادمة الأسباب بالأسباب ،
يصرف الله تعالى السوء والفحشاء عن هذا العبد الصالح ، الذى أخلص لله
تعالى دينه وولاه ..

فالسبب اللطاف من اللطاف الله ، وآيات من آيات رحمته ، يديها سبحانه من أوليائه ، ويبرها لهم ، أو هي مزايا وعثرات يهوى إليها أعداء الله ، ويتساقطون فيها كما يتساقط الثراش في النار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » (٥ - ١٠ : الليل) .
 ويحيى العزيز ، أو ظهور المشاهد الدالة على مجيئه في تلك اللحظة الحاسمة ، هي - بلا شك - آية من آيات الله ، ورحمة من رحمته ، ولطف من لطفه ، وحراسة قائمة على هذا العبد الصالح الذى يؤهل للنبوة ..

إن الرسل والأنبياء ، - صلوات الله وسلامه عليهم - مبتلون بما يبتلون به الناس ، بل وبأقوى وأعظم ما يبتلون به الناس من فتن تلح عليهم بكل ألقائها ، فيلقونها بعزماتهم ، ويصدقونها بإيمانهم ، ويستمعصمون منها بكل ما في طاقتهم من قوى ، حتى إذا استنفدوا كل ما في كياناتهم من صبر تحتمل الطاقة البشرية ، وكادوا يهزمون في هذا الصراع المحتدم ، جاءهم نصر الله ، وتوافدت عليهم أمداده وألطفه ، فربطت على قلوبهم ، وثبتت من أقدامهم ، وإذا هم في مقامهم الرفيع الكريم ، وإذا الفتن صرعى بين أيديهم ، مغفرة بتراب الخزي والاندحار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » (١١٠ : يوسف) .

وأى فضل لأنبياء الله ورسله على غيرهم من الناس إذا هم لم يبتلوا أعظم ابتلاء ، ولم يمتحنوا أشد امتحان ، وإذا هم لم يجاهدوا هذا الجهاد المتصل في فتر الفتن ، ودحر الأهواء ، ومغالبة الشهوات ؟ وأى فضل لهم إذا كانت الفتن لا تحوم حولهم ، والأهواء لا تتحرك في نفوسهم ، حتى لا يسكون منهم معاناة ، ومغالبة ، وصبر على احتمال المكاره ؟ أى فضل لهم يحمدون عليه ويستأهلون به هذا المقام العظيم الذى هم فيه ، إذا لم تتحرك فيهم دواعي الشهوات ، ولم تنازعهم الأهواء ، ولم يبلوا البلاء أعظم البلاء في دفعها ، ودحرها ، وإجلاء غيوبها من مصائبهم الصافية ؟

إن الثواب على قدر المشقة . . وهذا يعنى أن نصيب أنبياء الله تعالى ورسله ، وأوليائه ، من المشقة والمعاناة أكبر نصيب وأنهم بقدر ما واجهوا من بلاء وفتن ، وبقدر ما بذلوا من مشقة وعناء ، وكانت منازلهم عند الله . . « هم درجات عند الله ، والله بصير بما تعملون » (١٦٣ : آل عمران)

وقد أحس الإمام « البيضاوى » حين قال عن هم امرأة العزيز بيوسف وهم يوسف بها : « إنها قصدت مخالطته وقصد مخالطتها . . والهم بالشئ قصده ، والعزم عليه ، والمراد بهمه - عليه السلام - ميل الطبع ، ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختيارى ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالممدح والأجر الجزيل من الله ، من يكف نفسه عند قيام هذا الهم ، ومشارفة الهم . . »

توقد النار وتفر منها ١١

• « واستبقا الباب وقدت قبيصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . »
حين رأى يوسف برهان ربه ، وهو - كما قلنا - الشارة الدالة على مقدم العزيز ، والتي هى برهان ربه تعالى له ، وآيته على عنايته به ، وإحسانه إليه - حين رأى يوسف ذلك ، رآته معه كذلك امرأة العزيز ، فأسرط نحو الباب المغلق دونهما ، للخروج من مخدع العزيز ، وكان يوسف أسرع منها ، لأنه كان على حال بين الإقدام والإحجام ، فتناولته المرأة بيدها من خلفه لتسقه ، ولتنجو بنفسها ، فعقلت يدها بقميصه فقذته من دبر رأى قطعته طولاً من الخلف . . وما كاد الباب يفتح حتى كان العزيز معهما وجهاً لوجه . . وأسقط فى يد يوسف ، إذ لم يكن قد أعد لهذه المواجهة عدتها ، لأنه لم يفكر فى هذا السوء من قبل ، ولم يعمل أى حساب لمقدماته ونتائجها . . أما المرأة فكان جوابها حاضراً ، إذ كانت تعيش فى هذه المحنة أياماً وليالى ، تفكر فيها ، وتقلبها على جميع وجوهها واحتمالاتها ، ومن هذه الاحتمالات أن يعلم زوجها عن أى طريق بهذا الأمر ، أو يضبطها متلبسة به . . وقد أعدت الجواب

لكل موقف .. فلما وقعت الواقعة ، وجدت الجواب الذى أعدته حاضراً :
« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ إلا أن يسجن أو عذاب أليم » .
 وهكذا تدبر الأمر وتلقى بالتهمة على البريء منها ، ثم تصدر حكماً فى
 التهمة ، فلا تدع زوجها فرصة للتفكير فيما ينبغى أن يواجه به هذا الموقف ،
 فها هو ذا الحل حاضر بين يديه لا يحتاج إلى تفكير !

وفى قولها : « من أراد بأهلك سوءاً » إشارة إلى أن الأمر لم يجاوز
 حد الرغبة والإرادة من جانب يوسف ، ولم يبلغ حد تنفيذ هذا سوء ،
 وفعله .. أما هى فلم يكن منها استجابة لهذه الرغبة التى بدت من يوسف ،
 وإذن فليطمنن العزيز إلى عفة أهله ، وليقف بهذا الأمر عند حد الزجر ،
 أو النصيح لهذا الشاب الغرير ، الذى غلبت عليه فورة الشباب .. وأما قولها :
« إلا أن يسجن أو عذاب أليم » فهو مبالغة منها عند زوجها فى الغيرة على
 عفتها وشرعها .. وهذا كله من شأنه أن يهون الأمر على العزيز ، ويملأ قلبه
 ثقة فى الاطمئنان على عفة زوجه .. فهذه العفة وحدها هى الحارس الأمين القائم
 عليها من ذات نفسها ، فلا يطررها أبداً طارق سوء ما دامت فى حراسة هذه العفة !
 وإزاء هذا الاتهام الصريح من المرأة ليوسف ، مع أنها رأس هذه الفتنة
 - لم يجد يوسف بداً من أن يدافع عن نفسه بالحق ، وقد دافعت هى عن نفسها
 بالباطل .. وفى كلمات قليلة وأدعة وداعة النور ، قوية قوة الحق ، عرض يوسف
 صفحة دفاعه ، ومنطق برائه : « هى راودتنى عن نفسى » .. هذا أقل
 ما يمكن أن يدفع به يوسف هذه القرية التى تفتريها امرأة العزيز عليه .. إنه
 لم يكشف للعزيز عن محاولاتها العديدة معه ، ولم يتحدث عن إغرائها له ، وعرض
 مفاتنها عليه .. إن أدبه العالى يحول بينه وبين أن يفضح امرأة سيده ، وحسبه
 أن يقف عند حدود هذا الحدث ومعالجته بحكمة ، دون الكشف عن جذور
 المأساة وأبعادها .. ولو كان من الوفاء بحق الحق أن يصمت لصمت ، فيكون
 بهذا ظالماً لنفسه ، وظالماً للحق معه .. ولكنه تناق بالحق الذى ينبغى أن
 يقتصر له فى نفسه ، وفى أى موقع يكون فيه ..

إن أصحاب الحق يجدون في الكلمة المرسلة على طبيعتها من غير حلف أو تأكيد ما يغنى عن كل تأكيد وتزويق ، وليس كذلك شأن أصحاب الزور والبهتان .. إنهم يكثرون من القفر والثرثرة ، ويبالغون في الحلف بالأيمان الكاذبة الفاجرة ، ليداروا به وجه هذا الباطل الذى يجرونه على ألسنتهم ، ويمسثوا فيه شيئاً من الحرارة الباردة ، والحياة الكاذبة !

وشهد شاهد من أهلها :

ويقف العزيز وفي عينيه صورة المأساة ، وفي أذنيه دوى مخيف من تدافع الحق والباطل فيما سمع من هجوم ودفاع ! وتدور عيناه متفرسة في مسرح الجريمة ، لعله يقع على دليل البراءة أو الاتهام ، ويقع نظره على يوسف وهو يلهم قيصه ، ويحاول أن يمسك به على جسده ، وقد شق من خلف ، وكاد يسقط ، لولا أن يدي يوسف تشده ، وتجمع أطرافه ..

ويسأل العزيز نفسه : أهنالك إذن كانت معركة ، وكان شد وجذب حتى قُتِلَ هذا القميص .. وهنا يثوب العزيز إلى رشده ، وبقي قلباً قليلاً إلى السكينة والهدوء ، فلقد دله هذا الشاهد على أن الأمر لم يكن عن توافق وتقام بين امرأته وفتاها ، وهذا يعنى أن الجريمة لم تقع قبل اليوم ، ولم تقع الآن .. وبقي أن يعرف من من الطرفين كان المهاجم ، ومن كان المدافع .. ويسأل العزيز نفسه مرة أخرى : مادلالة شق القميص من الخلف ؟ وهنا قلب الأمر على جميع وجوهه واحتمالاته ، فلا يرى وجهاً مقبولاً ، واحتمالاً يرتفع إلى مستوى اليقين - إلا في أن المرأة هى الطالبة المهاجمة ، وأن يوسف هو الفار الهارب من بين يديها ، حيث تناولته من خلف ممسكة بقميصه ، وهو يجد في الفرار ، فيتمزق قيصه من خلف ، ويفلت من يديها .. هكذا قامت الدلائل ناطقة ببراءة يوسف من أنه أراد بأهل العزيز سوءاً كما ادّعت عليه ذلك امرأة العزيز ! فالشاهد الذى أدى شهادة الحق في هذا الموقف هو العزيز نفسه إنه الذى شهد على المرأة وأدانها ، وهو من أهلها ، وليس من أهل يوسف ..

ولا تنظر لما قيل من أن العزيز استدعى أهل الرأي والحكمة في دولته وأخذ رأيهم في هذا الحدث .. فإن ذلك عمل لا يعمله عاقل أبداً قيفضح نفسه وأهله على الملأ ..

ولا تنظر كذلك إلى ما قيل من أن طفلاً نطق في المهد ببراءة يوسف ، وشهد بأنها هي التي راودته . فإكان الأمر محتاجاً إلى هذه المعجزة المتحدية وجسم الجريمة - كما يقولون - مائل للعيان !!

ويصور القرآن الكريم هذا المشهد في قوله تعالى : « وشهد شاهد من أهلها إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قيصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن إن كيدكن عظيم » ..

وهكذا برئت ساحة يوسف - وهو البريء دائماً - من هذا المنكر الذي رمت به امرأة العزيز ، وأقبل العزيز على امرأته ، لا ليدينها وحدها في شخصها ، بل ليجعل التهمة مشاعة في بنات جنسها جميعاً : « قال إنه من كيدكن » أيها النساء « إن كيدكن عظيم » .. إنه يتهمها بأنها المدبرة لهذا المنكر ، والداعية إليه ، ولكنه يغلف هذا الاتهام بتلك الكياسة السياسية التي هي صنعة الملوك ، ومن في صحبة الملوك !..

ثم ينهي العزيز هذا الموقف بالجمع بين المرأة وفتاها في مقام النصيح ، واللوم والتأنيب .. فيقول ليوسف : « يوسف أعرض عن هذا » .. أي تجنب الخوض في الحديث عن هذا الأمر ، فلا يجبر له ذكر على لسانك ، وابتعد كذلك عن كل ما قد تحدثك به نفسك من سوء بتلك المرأة . ثم يلتفت العزيز إلى امرأته قائلاً : « واستغفري لذي بك إنك كنت من الخاطئين » .. وفي التعبير بلفظ الخاطئين ، بدلا من الخاطئات ، ليخفف عنها وقع التهمة ، فلا يجعل الخطيئة مقصورة على بنات جنسها وحدهن ، بل يشاركهن الرجال فيها ، فشكل ابن آدم خطأ . فلا عليها إذن أن تعترف ولو بينها وبين نفسها بهذا القبح .

وأن تطلب التوبة والمغفرة .. ولو أن العزيز كان يريد أن يلقى امرأته بالاتهام الصريح ، لقال لها : إنك كنت خاطئة .. ولكنه - كما قلنا - كان يخاطبها بما يقضى به أدب الملوك ، من اصطناع الكياسة ، واللباقة ، والالطف !

العزيز . متهم في رجولته !!

وقد اتهم بعض المفسرين «العزيز» بأنه كان ناقصا في رجولته ، ولم يكن له أرب في النساء ، لأنه استقبل فعلة امرأته هذه المنكرة ، باستخفاف وبرود ! ولعل هذا القول يرجع إلى ما تقول التوراة عن العزيز من أنه كان خصيا ، تابعا للملك !

والتعليل الذى علل به المفسرون القائلون بأن في رجولة العزيز نقصا - تعليل غير صحيح ، إذ المعروف أن من كان في رجولتهم ضعف أو نقص ، داروه بتلك الغيرة المصطنعة الحادة ، المجاوزة لسكل حد ! ولو كان العزيز ناقص الرجولة - كما زعموا - لما أبى على المرأة ، ولا حاول أن يخفف من وقع الأمر عليها ، بل لأراق دمها ، ودم فتاها ، كشهادة ناطقة برجولته التى هى موضع اتهام ! وأقرب تعليل لموقف العزيز ، هو أنه كان ينظر إلى يوسف نظرته إلى ابنه ، وأن ما كان من امرأته لم يكن إلا نزوة طائشة أعمتها عن أن تنظر إلى يوسف نظرة الأم إلى ولدها ، وأنها سرعان ما تعود إلى رشدتها ، وتصحح نظرتها من فتاها .

والذى جعلنا نقول إن الشاهد الذى شهد على امرأة العزيز ، هو العزيز نفسه ، وليس أحدا غيره - هو ما يشهد به واقع الحال ، وهو أن العزيز ، وهو صاحب هذا المقام فى قومه ، ما كان له أن يفضح نفسه وأهله ، وأن يستدعى من يحتسك إليه فى أمر شهده بنفسه ، واطلع عليه من غير أن يبدله عليه أحد .. وإنه لمن السفاهة والحق ، بل والعجز ، أن يعرض العزيز مكانته ، وشرفه ، وشرف أهله لهذه القضيحة على اللأ ، وأن يطلب إلى غيره الكشف

عن راءة البرىء وإدانة المذنب - فيصبح وإذا هو وزوجه على ألسنة الناس ،
يطلقون فيهما قالة السوء ، ويولدون من هذا الحدث أحداثاً ، تنمو وتتضخم
على الأيام !!

فكان من الحكمة إذن أن يتدبر « العزيز » هذا الأمر ، وأن يتولاه
بنفسه ، وأن يحصره في أضيق حدوده ، وأن يحسمه هذا الحسم الرشيد ،
في غير صخب أو ضجيج ..

فكان حكمه في القضية حكماً حاسماً باتاً ، لسكل ذيول تعلق بها ..
« يوسف أعرض عن هذا » .. فلا تبحر له ذكرراً في خاطرك ، أو
على لسانك .

« واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .. فلا تعودى إلى مثل
هذا الموقف أبداً !

إنها لفئة إلى يوسف ، ولفئة إلى المرأة ..

ثم انتهى الأمر عند هذا الحد . ، ولكن إلى حين !!

فلقد دبر العزيز في نفسه أمراً .. ولكن بعد أن تنتهى هذه العاصفة
التي هبت في بيته ، والتي لا بد أن تثير همسا ولغطا داخل القصر ، وربما خارجه ،
لأنه من المستبعد أن يقع هذا الأمر ثم لا تلحظه عين ولا تسمع به أذن ،
والقصر كله أذان مرهفة ، وكاه أعين راصدة لسكل حركة من حركات أصحاب
القصر ، وكل خلجة من خلجات حياتهم .. فتحين العزيز ليوسف فرصة يدفع
به فيها إلى السجن .. ولكن من غير أن يكون لامرأته - في ظاهر الأمر -
شأن بتعلق بها في أمر يوسف وصحنه .. من قريب أو بعيد .. كما سنرى في
أحداث القصة بعد ..

الكيد العظيم ١١

« وقال نسوة في المدينة امرأة

العزیز تراود فتاها عن نفسه قد
شغفها حباً إنا لنها في ضلال مبين .
فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ،
وأعدت لهن متكأ وآتت كل واحدة
منهن سكيناً ، وقال أخرج عليهن ، فلما
رأينه أكرهه وقطن أيديهن وقلن
حاش لله ما هذا بشراً إنا هذا إلا
ملك كريم .. قالت فذلكن الذي
لمنتفى فيه ، ولقد راودته عن نفسه
فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره
ليسجنن وليكونن من الصاغرین ..
قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني
إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب
إليهن وأكن من الجاهلین .. فاستجاب
له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو
السميع العليم .. ثم بدا لهم من بعد
ما رأوا الآيات اليـسـجننه حتى حين »
[الآيات : ٣٠ - ٣٥]

لأول مرة - منذ بدأت أحداث
القصة - يكشف القرآن الكريم
عن شخصية المرأة التي راودت
يوسف ، وعن مكانتها في مجتمعا ..
إنها إلى الآن لم تكن غير امرأة ، هي
زوج الرجل الذي اشترى يوسف ،
وضعه إليه ، واتخذته ولدأ له ..
ولهذا جاء ذكرها من قبل في القرآن
هكذا : « وراودته التي هو في بيتها
عن نفسه » .

وهنا - في هذه المرحلة من
القصة - يكشف القرآن عن
شخصيتها ، وأنها لم تكن امرأة من
حامة النساء ، بل كانت امرأة «العزیز»
وهو السيد ذو القوة والسلطان ،
فهو عزیز بسلطانه وقوته .. يقول
القرآن الكريم :

« وقال نسوة في المدينة امرأة

العزیز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً إنا لنها في ضلال مبين » ..

ماداعية الكشف عن وجه المرأة ؟

ولعل سائلاً يسأل : وماداعية الكشف عن وجه هذه المرأة وعن مكانتها في
المجتمع ؟ وقد كان يمكن أن تحفى أحداث القصة دون حاجة إلى معرفة هذ

المرأة بالذات ، وحسبها أن تكون امرأة وقعت في حب ربيها ؟ .
ونقول - والله أعلم - إن القرآن الكريم لم يكشف عن وجه المرأة
من قبل ، لأن الأحداث كانت تجري على المستوى المألوف في حياة عامة الناس
وخاصتهم على السواء .. فأى بيت كان يمكن أن يضم إليه يوسف ، وأى امرأة
كان من الممكن - غير المستحيل - أن تراوده عن نفسه ، سواء أكانت
امرأة ملك أو سوقة .. إنها امرأة أياً كان وضعها الاجتماعى إذا لم يكن
ليوسف خيار في اختيار السيد الذى يملكه ، والمرأة التى تكون في بيت
هذا السيد !

أما حين يكون للحدث ذكر ، وشأن يراد به الكشف عن وقعه في
المجتمع وأثره في الناس ، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق به الحدث ،
من حيث وضعه الاجتماعى ، ومكانته في المجتمع !

فالحدث يكبر أو يصغر ، وتنسع دائرته أو تضيق ، تبعاً لمن تعلق به
الحدث .. إذ قد يقتل الرجل من عامة الناس دون أن يشعر الناس من حوله
بهذا الحدث ، أو يلتفتوا إليه ، على حين قد يصاب الحاكم أو السيد من سادة
القوم ، بخدش ، أو جرح ، فيكون ذلك حديث الناس في الأندية والمحافل
ليوم أو لبضعة أيام .

فميون الناس وآذانهم متعلقة بأصحاب السلطان والسيادة فيهم ، يتسمعون
إلى أخبارهم ، ويرقبون أحوالهم ، ويشغلون بالحديث عنهم ، في كل مايتصل
بهم من صغير أمورهم وكبيرها .

وعلى الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت في دائرة ضيقة ، لاتتمدى
المرأة ، ويوسف ، والعزيز زوجها ، فإنه سرعان ما نفذت العيون من خدم
القصر إلى هذا السر ، ووقعت الأذان عليه ، فكان همساً على الشفاه ، ثم
حديثاً داراً على الألسنة ، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة ..

ومن هنا كان لابد من كشف وجه هذه المرأة التى اهتم الناس بأخبارها ،

وشغلوا بالحديث هنا .. إنها امرأة العزيز ! وإن يئنها ليضم سرّاً خطيراً ..
إنها تراود فتاها عن نفسه ، وهو يتأبى عليها ، وهو في الوقت نفسه ملك
يديها !!

والنساء هن أكثر الناس بحثاً عن أسرار البيوت ، وأقدرهن على فتح
مغالقتها ، وفضح ستورها .

وها هي ذى امرأة العزيز تصبح هي وفعلتها مع يوسف ، حديث الطبقة
العالية من نساء المجتمع ، خاصة ممن هن على مدانة وقرب منها .

• « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » .. أهكذا تنزل السيدة عن
مقامها لتراود خادمها ؟ أهذا مما يليق بالحرّاء ، أو يجمل بسيدة مع خادمها ،
فضلاً أن تكون هذه السيدة امرأة العزيز ؟ ذلك أمر منكر شنيع !

• « قد شغفها حباً » أى ملأ قلبها حباً ، فأصبحت أسيرة حبه ، وأمة
هواه .. « إنا انراها في ضلال مبين » إذ قد استرخصت نفسها ، وأذلت
كبريائها ، لنزوة غارة ، وشهوة طارئة طائفة !

كيد المرأة وانتقامها !

وتسمع امرأة العزيز بما يدور من حديث بين جماعات من النساء عنها ..
إنه حديث يدور هامساً خافتاً ، وإنه مما قليل ستسمع دائرته ، وتعلو نبرته ..
وإذن فلتتدبر الأمر ، ولتعمل بكل ما أمك من حول وحيلة لإطفاء نيران
هذه الفتنة والقضاء عليها قبل أن تتحول إلى حريق يأتى على كل شيء !

وفي سرعة وحكمة أخذت امرأة العزيز تعمل وتعمل ، وأخذت العزيز
يفكر ويقدر !

• « فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكاً وآتت كل
واحدة منهن سكيناً ، وقالت اخرج عليهن .. فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن
وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم »

لقد أعدت المرأة لهؤلاء النسوة اللاتي يتولين كبر هذا الأمر، ويجرحنها بقوارص الكلم، ويرمينها بسهام الاتهام - أعدت لمن ولية، تخيرت لها مناسبة ما، وكان من تدبيرها أن «أعدت» أى هيات لكل واحدة منهن متكئا تنكح عليه وتمترخى، بعد تناول الطعام، وهى ممسكة بيدها سكيناً مرهفاً، تعالج به فاكهة فى يدها ..

وهكذا أخذت النسوة يجلسن عند امرأة العزيز، وهن متكئات على الوسائد الينة، بعد أن امتلأن بما قدم لمن من شهى الطعام، وألوان الشراب .. ثم إنه ما كاد الفتور يبدو عليهن، وهن مستلمات لهذه الإغفاءة اللذيذة التى تطوف بالمرء، بعد أن يمتلىء بالطعام والشراب .. وفى يد كل واحدة منهن سكين حاد تقطع به بعض الفاكهة - ما كاد التدبير يبلغ هذا المدى، حتى ضربت المرأة ضربتها، التى تصيب منهن مقتلاً، وإذا هن - وقد طلع عليهن يوسف، فى أبهى حله، وأروع جماله - بين يدي ملك كريم نزل من السماء، لا يدرين من أين جاء، فيصحن صحوة السكران من خماره، حين يجد نفسه بين يدي ظاهرة من ظواهر الطبيعة المفاجئة المذهلة .. وإذا كيانهن كله يصعب عيوناً معلقة بهذه المعجزة التى طلع عليهن القدر بها ..

لقد استبد بالنسوة الدهول، فلم يعدن يدرين ما يمكن فى أيديهن .. وفى حركات لاشعورية أمملن السكاكين فى أيديهن، فأصابت منهن ما كان من شأنه أن يصيب الفاكهة منها .. فسالت الجروح، ونزفت الدماء .. وعندئذ تنبهن لوجودهن، وملائن أعينهن من هذا الجمال الملائكى الذى لم تقع عليه عين بشر، فتهتن من أعماقهن، «وقلن حاش لله، ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم»

المرأة تصرح بمكنون صدرها

عندئذ استوثقت المرأة بما وقع فى قلوب النسوة من يوسف، وأنه ليس للعبء الذى زحموا، ولا الخادم الذى تصوروا، وإنما هو فوق مستوى البشر،

فضلا عن الخدم ! « ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » .. وهنا لا ترى المرأة بأساً عليها من أن تصرح بمكنون حبها الأمر لهذا الإنسان الذى ساقه القدر إليها .. فمثل امرأة — أياً كان شأنها — لا ترى طاراً فى أن تعلن حبها ليوسف ، وفنقتها به .. إنه ظاهرة تخرج عن مألوف الحياة ، مما من شأنه أن تتغير معه موازين التقاليد ، والأعراف ، والأخلاق !

• « قالت فذلك الذى لمثنى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونن من الصاغرین »

وهكذا تجد المرأة فرصتها فى التنفيس عن نفسها ، وما يفتى فيها من لواعج الحب ، وحرق الهوى .. وإنما لتعلنها صريحة على الملأ ، وعلى مرأى ومسمع من يوسف ، وإنما لاتدعه يفلت من يدها ، وإنه إن لم يفعل ماتأمره به : « لیسجنن وليكونن من الصاغرین » .. حيث يلقى مايلقى الآرقاء من دل وهوان !

الفرار إلى الله من الفتنة :

ولا يبعد يوسف إزاء هذا السلطان القاهر المتحدى ، إلا أن يفزع إلى سلطان ربه ، وإلا أن يلجأ إلى أمداد لطف الله ورحمته ، لصرف هذا السوء عنه :

• « قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین » .

إن يوسف ليشفق على نفسه من أن يضعف أمام هذا الإغراء .. إنه بشر وللاحتمال البشرى حدود ، وهو هنا فى مواجهة ابتلاء فوق طاقة البشر ، وإنه إن لم يمدد الله تعالى بعونه وقوته ، كان بمعرض الزلل والسقوط .. وهنا تذكر قول الله تعالى : « ولقد همت به وهم بها » فنجد لهم هذا المعنى الذى فهمناه عليه ، وأنه هم فعل ، لاهم ترك .. إنه هم رجل بامرأة .. غاية ما عند الله أن المرأة هى التى بدأت بالأمر وهيات له !

وقد استجاب الله تعالى ليوسف ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع
لدماء الداعين ، وغوث المستغيثين ، وهو العليم ، بما تكن الضائر وما تخفى
لصنور : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم »
وسنرى كيف صرف الله تعالى السوء عن يوسف ، وبم صرفه ؟

في السجن حصن الأمان

لقد كان مما اختاره يوسف لنفسه ، فراراً من الوقوع في الفتنة ، السجن
الذي تهددته به امرأة العزيز إن هو لم يستجب لها ، حين قالت في وجهه :
« ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليسكوا من الصاغرين » . . لقد اختار
البلاء مع الاحتفاظ بدينه وخلقه ومروءته ، على العافية في نفسه ومع الإفساد
لدينه ، وخلقه ، والسقوط بمروءته . .

كذلك اختار السجن على الصغار والهوان .. « رب السجن أحب إلي مما
يدعونني إليه » . . وهكذا دخل يوسف السجن ، استجابة لما طلب وامتحاناً
لصدق عزمته ، في الفرار من الفتنة بأي ثمن . . فكان السجن هو الحصن
الذي احتنى فيه من الفتنة ودواعيها ، فغاب في غياهبه عن وجه المرأة التي
تطلبه وتطارده ، وحبس بين جدران السجن دواعي الفتنة أن تتحرك في نفسه !
وتعالت حكمة الله !

لقد كان السجن هو الصارف الذي صرف الله تعالى به هذا السكيد الذي
يراد بعبد من عباده المخلصين ، فلقد عزله هذا السجن عزلاً تاماً عن موطن
الفتنة ، وباعد بينه وبين مهابها التي تهب عليه منها .. ثم لقد كان هذا السجن
هو الطريق الذي سلكه يوسف إلى الملك الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعه
بين يديه ، وأن يجعله خاتمة لهذه الرحلة الشاقة على أشواك الابتلاء : « واقه
غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

رسول يدعو إلى الله

في غيابات السجن !!

لم تذكر الآيات القرآنية السبب الذي من أجله دخل يوسف السجن، وإن كانت قد أشارت من قبل إلى تهديد امرأة العزيز له بالسجن إن لم يفعل ما تأمره به من خشاء، وقد آثر يوسف أن يسجن على أن يأتي هذا المنكر، أو يطوف به.. فليس بالمستبعد أن يكون هذا السجن تنفيذاً لوعيد امرأة العزيز، أو أن يكون تدبيراً من تدبير العزيز نفسه، بعد أن هدأت العاصفة، وذلك منه إما أن يكون انتقاماً من امرأته في شخص يوسف الذي شغفها حباً، أو انتقاماً من يوسف وجماله الذي أوقع امرأته في هذا الحب الأمر ..

• «ودخل معه السجن فتيان» .. والفتى هو الخادم، أو المملوك الذي يكون في يد سيده، ويعمل في خدمته.. وسعى الخادم المملوك فق لأنه يظل في خدمة سيده ومالكه ولو شاخ، وتقدمت به السن، فيكلف من الأعمال ما يكلف به الفتيان.

«ودخل معه السجن فتيان»، قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرًا، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً نأكل الطير منه بشنا بتأويله إنا نراك من المحسنين.. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا يأتيكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون.. واتبع ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون.. يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار.. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا، وأما الآخر فيسلب فتاً كل الطير من رأسه، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان.. وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ٢. [الآيات ٣٦ - ٤٢]

هذا، ويجوز أن يكون هذان الفتيان قد دخلا مع يوسف السجن في يوم واحد، إثر حدث وقع في قصر الملك، فكانت فرصة يساق فيها يوسف إلى السجن، في زحمة هذا الحدث، الذي تكثر في أمثاله الوشائات، والتهمة الباطلة الملفقة ..

مفسر أحلام .. وداعية إلى الله :

ويعيش يوسف في السجن مع رفقاء سجنه، وسرمان ما يكسب حب رفقائه، وينال ثقتهم بما يتجلى لهم من سمو أخلاقه، وعلو نفسه، وسداد رأيه، ونفاذ بصيرته .. وإذا هو الأمين على أسرارهم، والمفزع لكل أمر ينوبهم ..

ويذكر القرآن الكريم، حدثاً من الأحداث التي تجري في السجن، وفي هذا الحدث تظهر منزلة يوسف عند رفقائه، وتبرز مكانته بينهم .. وذلك أن الفتيتين اللذين دخلا السجن معه، قد رأى كل منهما حلماً لم يعرفا تأويله، فجاها إلى يوسف، يمرضان عليه ما رأيا، ويطلبان إليه أن يكشف لهما عن مضمونه ..

• « قال أحدهما إنى أراى أعصر خمرآ، وقال الآخر إنى أراى أحمل فوق رأسى خبزآ تأكل الطير منه .. نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين » ..

ويمسك يوسف بقولهما . « إنا نراك من المحسنين » إذ يجد من حسن ظنهما فيه منطلقاً إلى أمر هو أعظم وأنفع لهما من تأويل أحلامهما، وهو دعوتهما إلى الله، وإلى الإيمان به، إيماناً مبرأ من كل شرك .. وفي تقدير يوسف أنه إذا صح من صاحبي سجنه أن يقبلا منه الكشف لهما عن المجهول في حلمهما، فلن يأبيا أن يقبلا منه الكشف عن الدين الحق، والمعبود الحق، من بين أخطا الأديان التي يدينون بها، ومن بين وجوه المعبودات التي يعبدونها .. وكان من هذا أن بدأ يوسف يتحدثها عن مصدر هذا الإحسان

الذى رأياه فيه ، وأنه من ثمرات الدين الذى يدين به ، ومن فضل الإله الذى يعبده . فيقول لهما :

• « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » ..
فهذا مما عند يوسف من علم .. إنه لا يعرف تأويل الأحلام وحدها ، ولا ينبىء عند الغائب بالتوسم فى وجه الشاهد ، وحسب ، بل إنه يخبر عن الغائب الذى لا يرى الناس منه شاهداً أو دليلاً .. إنه يخبر عن الطعام الذى سيأتيهما من خارج السجن اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد . إلى ما شاء الله من أيام مقبلة .. وهذا العلم ، هو مما كان لعيسى عليه السلام ، كما يقول سبحانه على لسان عيسى لبنى إسرائيل : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لىكم إن كنتم مؤمنين » .

ويثير هذا الخبر تساؤلات كثيرة تدور بها رأسى صاحبى السجن ، حيث تذهب بهما الظنون كل مذهب ، وهما يبحثان عن المصدر الذى تاتى منه يوسف هذا العلم الذى لم يبلغه أهل العلم أو السحر ، ويحيثهما يوسف فوراً بالجواب الذى يبحثان عنه ، فيقول لهما : « ذلكما مما علنى ربى » أى أن هذا العلم ليس علماً مكتسباً من علم العلماء ، وإنما هو علم علمه إياه ربه الذى يعبده ..

وترسم على وجهى صاحبى السجن استفسامات كثيرة عن هذا « الرب » الذى يعلم المؤمنين به هذا العلم .. إنهما يعبدان آلهة شتى ، خرساء ، صامتة ، تقاد ولا تقود ، وتعان ولا تعين .. فأى إله هذا الإله ؟ وأى رب هذا الرب ؟ ويكشف يوسف لصاحبيه عن حقيقة دينه ، وعن المعبود الذى يعبده فيقول :

« إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون .. واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب .. ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ » .

إنه ترك ابتداء عبادة تلك المعبودات الفاسدة الضالة التي يعبدها أولئك
قديين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، من المشركين والملحدين ، وتابع ما يعبد
آباؤه من قبله ، إبراهيم وإسحق ويعقوب .. وهو عبادة الله الواحد الذي
لا شريك له ، والإيمان بالحياة الآخرة ، وما فيها من حساب وجزاء ، ونعيم
وعذاب .. فذلك هو الدين الحق الذي ينبغي أن يدين به العقلاء .. ولقد كان
من فضل الله على يوسف وآبائه أن هداهم إلى هذا الإيمان ، وأن ملأ أيديهم
من ثمراته الطيبة المباركة .. وهذا الفضل من الله ليس محبوساً على يوسف
وآبائه ، بل هو فضل يسع الناس جميعاً ، وينال منه الواردون عليه على قدر
إيمانهم بالله ، وولائهم له .. وإذن فإنه إذا أراد صاحب السجن أن ينال من
فضل الله وإحسانه ، فإن الطريق مفتوح لهما إلى الله ، فليؤمننا بالله ، كما آمن
يوسف ..

• « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس
لا يشكرون . »

لا جدل .. ولا مباحكة:

وإذ يلج يوسف في نظرات صاحبيه حيرة ، وتردداً بين الانخلاع عن
دينهما ، والإيمان بالدين الذي يدعوهما إليه - إذ يلج يوسف هذا ، يلتقي إليهما
بمزيج من الضوء الذي يعينهما على الاتجاه إلى الإيمان بالله ، فيقول لهما :

• « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون أم الله الواحد القهار ؟ »

هذه قضية منطقية ، لا تحتاج إلى كثير من الجدل والمباحكة .. فأى أحق
بأن يدين له المرء بالطاعة والولاء ؟ آلهة متفرقون قد توزع بينهم السلطان
- إن كان لهم سلطان - أم الإله الذي تفرد وحده بالملك والسلطان ؟ وأي
أرضي للإنسان أن يكون حاملاً لأمير أو وزير ، أم أن يسكون حاملاً للملك
الذي يعمل له الأمراء والوزراء ؟ الجواب واضح صريح !

وإذ يقع هذا الجواب في نفس صاحبي السجن ، وهو أن الإله الواحد ، القائم على كل الآلهة أولى بأن يعبد ، وإذ يتجه عقلاها وقلباها إلى الإله الواحد - ينظرون إلى آلهتهم تلك التي عبدوها من قبل ، وارتبطت بها مشاعرهما زمنا .. ما شأنهما معها الآن ؟ وما شأنها هي معهم ؟ أبتزكونها هكذا من غير استئذان ؟ ثم أتدعما تلك الآلهة يخرجان عن طاعتنا ثم لاتناهم بأذى ؟. ويرد يوسف ، كل هذه الخواطر التي تنازعهم في شأن آلهتهم تلك ، ويكشف لهم عن زيفها ، وعجزها ، وأنها ليست إلا مخلوقات من مخلوقات الله لاتملك مع الله شيئا ، فيقول لصاحبيه :

• « ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .. تلك هي معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله ، إن هي إلا مجرد أسماء أطلقتتموها أنتم وآباؤكم عليها ، وخلعتم على ذواتها اسم الآلهة .. إنها دعوى لم يكن لها في عالم الحق مكان .. فلم تأتكم بها دعوة من رسول من رسل الله ، ولم يحملها إليكم كتاب من كتب الله .. إنها مولودات من بنات الوهم والضلال .. « إن الحكم إلا لله » فهو وحده سبحانه المتفرد بالحكم وال سلطان على هذا الوجود : « ألا له الخلق والأمر .. تسارك الله رب العالمين » .

ثم ينتهي يوسف من هذا العرض الكاشف لصاحبيه عن حقيقة ما يعبدون من آلهة . وعن الإله الواحد الحق الذي يدعوهم إلى عبادته ، فيبلغهم رسالة ربه إليهما ، وإلى كل إنسان ، فيقول :

« أمر ألا تعبدوا إلا إياه » .. هذا ما يأمر الله تعالى به عباده ، فنأطاع هذا الأمر نجا وسعد ، ومن عصاه ، هلك وشق .. ثم يعقب على هذا الأمر الإلهي بقوله :

« ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .. إن ذلك الذي يدعوهم إليه هو الدين الحق ، القائم على صراط مستقيم ، ولكن أكثر

الناس لا يعلمون هذه الحقيقة ، بما تغشاهم من جبل ، وما ركبهم من ضلال
بسبب هذا الجهل .

عود إلى الأحلام وتأويلها

لقد أدى يوسف حق الله تعالى عليه ، في الدعوة إلى الإيمان بالله ،
وباليوم الآخر ، وبعد أن كشف لصاحبيه عن طريقهما الضال الذي يسيران
فيه ، ودلهما على الطريق المستقيم إلى الله - جاءهما ليكشف لهما عن تأويل الحلم
الذي عرضاه عليه ، وذلك مما علمه ربه . فيقول لهما معا :

« يا صاحبي السجن .. أما أحدهما فيسقى ربه خمرآ .. وأما الآخر فيمصلب
فتأكل الطير من رأسه .. قضى الأمر الذي تستفتيان »

هذا هو تأويل حلميهما .. أحدهما يعود إلى مكانه من الملك ، فيكون
ساقى شرابه من الخمر ، وأما الآخر فيمصلب ، ويكون بعد صلبه ملقى بالمرء
فتنشه السباع ، وتأكل الطير من رأسه ، وما بقي من أعضاء جسده .

ويلاحظ أن يوسف لم يقل لصاحبيه تأويل رؤيا كل واحد منهما على
حدة ، بل ألقى إليهما تأويل رؤياهما معا ، ليأخذ كل منهما بنفسه ما يراه
متفقا مع رؤياه ، وما يدل عليه ظاهرها .. وذلك حتى لا يواجه الذي سيمصلب
مواجهة صريحة بهذا الخبر المزعج .

ويترك يوسف صاحبي سجنه بين مصدق وشاك ، فيما سمعا منه ، حتى
إذا هدا قليلا لما اضطرب في نفسيهما من مشاعر الفرحة أو الحزن .. أقبل
يوسف على ذلك الذي توقع له النجاة ، وبشره بها ، يريد به أن يؤدي له
بعض حقه عليه فيما ساق إليه من الخبر الذي بشره به ، وذلك بأن يذكره
عند « ربه » أى سيده ، وهو الملك ، وأن يخبره بالظلم الذي وقع عليه
بسجنه من غير ذنب اقترفه أو جناية جناها .

« وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك » فأنساه الشيطان ذكر
ربه ، فلبث في السجن بضع سنين ،

ففي غمرة الفرحة بالنجاة ، نسي صاحب السجن هذا الذي نجا ، ما عهد إليه يوسف به ، فلم يذكره عند سيده ، لقد أنساه الشيطان الوفاء بهذا الحق فلبث يوسف في السجن بضعة سنين جاء الفرج بعدها !

من السجن .. بسوس الدولة !!

حلم الملك :

في الأحداث العظيمة ، وبين يدي الهزات العنيفة التي تعرض للناس وتؤدي بتحول أحوالهم ، وبتغيير مسيرة حياتهم - في هذه الأحوال تكثر الرؤى والأحلام ، وتطرق الناس أحاسيس شتى تنبئ عن أن شيئاً عظيماً في طريقه إلى الوقوع ، إن في الإنسان حاسة خفية كثيراً ما تنبئ الحواس الظاهرة في لقائهما للأحداث المقبلة قبل أن تقع في محيط المدركات الحسية ، وهذه ظاهرة واضحة عند كثير من الناس ، تختلف بينهم قوة وضعفها .

وحلم الملك هذا ليس إلا إرهاباً بالأحداث التي تستقبلها البلاد ، ويتأثر بها الناس ، وإذا كان الملك هو القائم على أمر البلاد والعباد ، فإن ما يطرقه من تلك الأحداث المقبلة أكثر مما يطرق غيره من الناس .. ولهذا وقع في نفسه هذا الإحساس

د وقال الملك إنى أرى سبع

بقرات سمان يأكلن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأبها الملا أفتونى في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاناً أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .. وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ..

يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعالمهم يعلمون .. قال تزرعون سبع سنين دأباً فسا حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداداً يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال التمسوة التي قطعن أيديهم إن ربى يكيدهن عليم . قال ما خطبكن

إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن
 حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ،
 قالت امرأة العزيز : الآن حصحص
 الحق أنا وراودته عن نفسه وإنه لمن
 الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخسه
 بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين
 وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة
 بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور
 رحيم . . . وقال الملك اتوني به
 أستخلصه لنفسي ، فلما كلفه قال إنك
 اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني
 على خزان الأرض إني حفيظ عليم ،
 وكذلك مكنا ليوسف في الأرض
 يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا
 من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ،
 ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا
 وكانوا يتقون .

[الآيات : ٥٣ - ٥٧]

الحلم الذي تحول إلى حلم في المنام ..
 ثم إلى خبر في تأويل يوسف له ، ثم
 إلى واقع فبا جاءت به الأيام ، بعد
 سبع سنين !

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات
 سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع
 سنبلات خضراء وأخر يابسات ، يأبها
 الملا أفندي في رؤياي إن كنتم
 لرؤيا تعبرون »

وكم رأى الملك قبل ذلك من
 أحلام لم يلتفت إليها ولم يحفل
 بالوقوف طويلاً عندها ، ولكنه في
 هذا الحلم يرى شيئاً خطيراً سبق ،
 ولكنه لا يدري ماهو على وجه
 ظاهره ، ولهذا فهو يدعو وجوه دولته
 من علماء ووزراء وأمرأه ليعبروا له
 عن هذا الحلم وبسكشفوا له عن
 مدلوله ، إذ كان - كما يبدو له - أن

لهم في هذا الحلم شأنًا ، وأن ما يقع سيمسهم من قريب أو من بعيد !!
 ولا يجد الملا من حول الملك تأويلاً بسكشف عن وجه هذا الحلم ،
 فيقررون بالمعجز :

« قالوا أضغاث أحلام » أي أخلط أحلام دخل بعضها في بعض ، فلم
 يعد لناظر فيها سبيل إلى إعادة تركيبها على وجه سليم . « وما نحن بتأويل
 الأحلام بعالمين » ، لأن الأحلام مجرد رموز ليس من السهل حل طلاسمها ،
 وكشف معمياتها ، فكيف إذا كانت أحلاماً أضغاثاً ، وأخلطاً ؟

صاحب السجن يذكر مانسى :

وتكثر الأحاديث حول حلم الملك وتدور في محيطه التخريجات والتخرصات ،
وتزحف المدينة بالتكهنات والأراجيف . . ويشارك حاق الملك ، صاحب
سجن يوسف ، في هذا الذي يحب فيه الناس ويضمون ، وهنا يصح هذا
الحاقى من قفوته ، وبقيق من سكرته ، فيذكر يوسف وماله من قدوة خائفة
على تأويل الأحاديث ، والأحلام . . فيهتف في صرخة مدوية :

« أنا أنبئكم بتأويله . . فأرسلون » . . أى اتركوني أمضى إلى حيث
أجد لكم تأويل هذا الحلم ، فأنا أمرف الجهة التى أجيبكم منها بتأويله . .
لقد ذكر يوسف بعد أمة ، أى بعد زمن طويل ، وبعد تفكير عميق :

وفى لحظة خاطفة كلمح البصر ، نراه وجها لوجه مع يوسف فى السجن
الذى خرج منه منذ بضع سنين . . وفى لحظة ينسى معها الرجل كل شيء
إلا أن يعرض الحلم على يوسف ، ويطلب إليه تأويله . .

« يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سماى يا كلهن سبع عجاى ،
وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعل أرجع إلى الناس لعلمهم بعلون » :

ولم يعتب يوسف على الرجل أنه نسي ما عهد به إليه ، حين قال له :
« اذكرنى هند ربك » ولم يحجب عنه خير هذا العلم الذى علمه الله ، ولا
يحزبه بما فعل فيده خائبا . . بل يضع بين يديه الحقيقة صافرة . . فيقول له :

« قال زرعون سبع سنين دأبا فاحصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا
مما تأكلون . . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا
قليلا مما تحصنن ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس ، وفيه يعصرون »
لقد ظهر وجه الحقيقة التى ينطوى عليها حلم الملك ظهورا براه كل ذى
عقل من علماء الناس وعامتهم على السواء . .

ويطلق الرجل إطلاق المهم ، فيلقى بين يدي الملك بهذا التأويل ،

الذى يقع من الملك موقع الحق المستيقن ، وعندئذ يهتف الملك بالملأ حوله طالباً إحضار هذا الذى عنده هذا العلم الذى تفرد به ..

ويلاحظ هنا أن يوسف لم يكتف بتأويل الرؤيا ، بل أعطى مع هذا التأويل ، التدبير المحكم الذى ينبغى أن يكون إلى جانب ما كشفت عنه الرؤيا من أحداث .. لقد كان يمكن أن يقول يوسف فى تأويل الرؤيا : إن مصر تستقبل منذ اليوم سبع سنين من الخصب ، حيث يجىئ النيل بالماء الذى يروى الأرض ويخصبها خلال تلك المدة ، ثم يأتى بعد ذلك سبع سنين مجدبة ، يعمك فيها النيل ماء ، فلا يفت زرع خلال تلك السنين .. ذلك هو تأويل سبع البقرات السمان ، التى يأكلهن سبع عجاف ، وسبع السنبلات الخضرة وسبع السنبلات اليابسات ..

كان يوسف يمكن أن يقف عند هذا الحد من تأويل الحلم .. ولكن هذا التأويل يصبح عديم الجدوى إذا لم يقم من ورائه التدبير المحكم المناسب له .. ولهذا ، فإنه دعا إلى الجد فى زراعة الحبوب ، خلال السنوات السبع المقبلة ، وأن ما يحصد من هذا الزرع يترك فى سنبله ، حتى لا يصيبه سوس ، أو عطن . ويكون ذلك كله مدخراً للسنوات المجدبة المقبلة بعد هذا ، لا يخرج منه إلا ما يحتاج إليه الناس لطعامهم ، على أن يكون ذلك فى حدود الاعتدال ، والقصد الذى يبلغ حد التقتير .. ثم لم يقف يوسف عند هذا ، بل يكشف للقوم عما وراء هذه السنين العجاف .. فيبشرهم بأن العام الذى يلى تلك السنين سيكون عام خصب وخير كثير : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس ، أى يجيئهم فيه الغيث ، والثروت معاً .. » وفيه يعصرون ، أى يعصرون عنباً ، مما يفيض من أكلهم .. وتلك أمانة من أمارات الخصب والوفور ..

السجون وأهوال القيامة :

ولعل سائلاً يسأل : كيف يعصى الرجل يوسف ، وهو الذى كشف له

من رؤياه في السجن ، وأراء منها وجه للنجاة ، وزف إليه هذه البشرى
المسدة ؟ كيف يذكر يوسف بعد أمة ، أى بعد زمن متطاوّل من البحث
والتفكير ؟

والجواب - والله أعلم - أنه ربما كان للأيام التي قضاها الرجل في السجن
والعذاب المرهق الذي أخذ به ، والرعب الرهيب الذي استولى عليه من الأهوال
التي ظلمت عليه في سجنه - لعل هذا ربما كان له أثر في تفكير الرجل وفي
ذاكرته على وجه خاص .. فأكثر ما تضم السجون بين جدرانها من
عذاب أليم ، يرى المبتلون به شواهد من عذاب يوم القيامة قبل أن تقوم !!

من السجن .. إلى الملك :

يأتى يوسف أن يستجيب لدهوة الملك ، الذي أرسل إليه من محضره
ولم تشغله فرحة الخروج من هذا القبر الذي أطلق عليه تلك اسم الطويلة ،
عن أن يطلب التحقيق في أمر سجنه ، وفي الأمر الذي من زج به في هذا
السجن . . . إن برأته على الملاءم المطلوب عنده أولاً لأن في ذلك رداً
لاعتباره عند من ظنوا السوء به .. إنه ليس رجل سوء ، وإنه من الظلم
لنفسه وللاحق أن يرى فيه الناس صورة الرجل الخائن المريب وهو الأمين البريء .

لهذا رد يوسف رسول الملك الذي بعثه إلى يوسف ليأتى به : « وقال
الملك اتوني به فلما جاءه الرسول » قال « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال
النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي سكيدهن عليم »
ويهتم مجلس الملك من هذا الخبر الذي جاء به الرسول من عند يوسف .
وتكثر التساؤلات عن هؤلاء النسوة ، ولم قطعن أيديهن ؟

وتجيبه وقائع الحادثة بين يدي الملك كامله كأنها بفت يومها . .

فهؤلاء من النسوة - أو ما بقى منهن على قيد الحياة - يمثلن في مجلس
الملك ، ويسألن عن هذا الحدث الذي كان يدهن وبين امرأة العزيز ، حين

طلعت عليهن ييوسف ، فلما رأينه أكبرنه وقطنن أيديهن وقلن حاش لله ،
ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . .

ويسأل الملك النسوة : « ما خطبكن » أى ما شأنكن « إذ راودتن
يوسف عن نفسه » ؟ وهل استجاب لكن ؟ ولا نجد النسوة جواباً إلا
الجواب الذى لا سبيل إلى إختفائه : « قلن حاش لله . . ما علمنا عليه
من سوء » . . إنه كيد كان من امرأة العزيز لنا وليوسف . . أما يوسف
فإنه أكبر في دينه وخلقه من أن يستبد به هوى أو تغلبه شهوة . .

وهنا يصيح مجلس الملك بصيحات الحمد ليوسف والثناء عليه ، وتمتلىء
الصدور إعجاباً به ، وبمقته ، بعد أن امتلأت من قبل إعجاباً بذكائه ،
وفناذ بصيرته في تأويله لرؤيا الملك .

ولا يسع امرأة العزيز إزاء هذا المشهد إلا أن تشارك في هذا الاحتفاء
بيوسف ، والتكريم له ، فتخرج عن وقارها ، يل وحياؤها ، فتعترف على
الملا بأنها هى التى راودت يوسف عن نفسه .

« قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه
لن الصادق » أى أن يوسف من الصادقين حين قال للعزيز ، بعد أن ألقت إليه
بإتهام يوسف ، وأنه أراد بها سوءاً . . « هى راودتنى عن نفسى » . .
وهنا نذكر قوله تعالى بعد ذلك « وشهد شاهد من أهلها » - فنذكر أن
من بين الشهود عليها من أهلها ، شهادتها هى على نفسها ، واعترافها بأنها هى
التي راودت يوسف عن نفسه . . والاعتراف - كما يقولون - سيد الأدلة . .
هذا إلى شهادة العزيز ، الذى قرأ صحيفة إتهامها على قيص يوسف .

وأما قوله تعالى : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد
الظالمين » وما أرى نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي إن
ربي غفور رحيم -

فإن أكثر المفسرين يذهب إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز ، وأنه معطوف على قولها : « أنا راودته من نفسه ، وإنه لمن الصادقين »

رأى في تأويل هاتين الآيتين :

ونحن نرى - والله أعلم - أن هذا من كلام يوسف ، تمقيهاً على قوله للرسول الذي جاء بدعوه لبقاء الملك : « اذهب إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » .. فيوسف لم يرد بهذا أن ينفضح الحرائر ، ولكنه أراد أن يبرئ نفسه ، وأنه لا سبيل إلى تبرئة نفسه إلا بالكشف عن هذا الأمر ، ولا سبيل للكشف منه إلا بسؤال هؤلاء النسوة .. فهو يقول لنفسه معتذراً من هذا الطلب الذي طلبه معللاًه : « ذلك ليعلم » أي فعلت هذا الذي طلبته من المالك ليعلم العزيز أنني لم أخنه في أهله ، منهزماً غيبته ، واشتغاله بالحكم ، وليعلم العزيز أيضاً « أن الله لا يهدي كيد الخائنين » أي لا يجعل الله للخيانة وأهلها سلطاناً في الحياة .. ثم يعود يوسف إلى نفسه ، فيذكر أنه هم بامرأة العزيز ، بعد أن همت به ، وبعد أن عرضت مقاتها ومغرياتها عليه ، في أكثر من وضع وفي أكثر من موقف .. يذكر يوسف هذا ، فيعترف على نفسه بهذا الهم الذي كان منه فيقول : « وما أبرئ نفسي .. إن النفس لأماراة بالسوء .. إنها نفس بفسرية ، من شأنها أن تميل مع الهوى ؛ وأن تغري بالسوء .. » إلا مارحم ربي « أي إلا ما كان من رحمة الله ، ودفعه هذا السوء عن عباده المخلصين .. » « إن ربي غفور رحيم » يتجاوز عن سيئات المسيئين ، الذين يجيئون إليه قائلين ، مستغفرين ..

لماذا قلنا بهذا الرأي ؟

والذي دعانا إلى فهم هاتين الآيتين على هذا الفهم ، وهو ما جاء فيهما من توحيد خالص ، ومعرفة مستبصرة لما لله تعالى من سلطان .. وذلك في قوله

تعالى : . . وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وقوله سبحانه : . . إلا مارحم
ربي إن ربي غفور رحيم ، . . وهذا لا يصدر إلا من إنسان مؤمن بالله
إيماناً مشرفاً متمكناً ، كإيمان يوسف .. وامرأة العزيز ، لم تكن - في غالب
الظن - مؤمنة . . وأنه إذا كانت مصر قد عرفت التوحيد قديماً ، في فترة من
فترات تاريخها الفرعوني - فإنها في فترات كثيرة كانت تعبد آلهة شتى . .
من عالم الحيوان ، أو الكواكب ، وغيرها . .

ثم إن مصر في هذه الفترة بالذات التي عاشت وجود يوسف فيها ،
كانت على غير دين التوحيد ، حيث رأينا يوسف في سجنه يدعو صاحبيه
إلى الإيمان بالإله الواحد ، ويكشف لهما عن زيف الآلهة التي يعبدونها من
دون الله ، إذ يقول : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد
القهار . . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله
بها من سلطان » .. وهذا لا يكون إلا مع قوم لا يؤمنون بالإله الواحد .

يوسف والملك وجهاً لوجه :

وتشتد رغبة الملك في لقاء يوسف بعد أن قامت الأدلة ناطقة بعفته
ومروءته ، ويقع يوسف من نفسه موقفاً متمكناً ، إذ رأى فيه الرجل الذي
يحمد عنده من سداد الرأي ، وصدق النصيح ، وحسن التدبير ، ما يقيم ملكه
على دعائم قوية ، وخاصة عند هبوب هذا الإعصار المزلزل الذي سيمر
بالبلاد عما قليل . .

« وقال الملك اتنوني به أستخلصه لنفسي ، أي أجعله لخاصتي نفسي ،
وأشركه في تدبير أمور الملك معي . . »

« فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » . . أي حين رأى الملك
يوسف ، وتحدث إليه ، رأى سلامة منطقه ، وحسن بيانه ، فازداد إعجاباً
به ، وإكباراً له فلم يسعه إلا أن يفسح له مكاناً رحيباً عنده ، وأن يجعله

موضوع ثقته ، وحافظ سره : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » . . . أى مكين
المكانة عندنا ، أمين مؤتمن على أُمُراتنا . . .

ويسأل الملك يوسف : ماذا تحب أن تلى من أعمال الملك ؟ إن لك أن
تختار ما تشاء . . .

ويختار يوسف العمل الذى يرى أنه يحسن تدبيره ، وضبطه ، وهو
الأمر الذى يطلب حسن التدبير ، ودقة الضبط ، فى تلك الأزمة المقبلة على
البلاد ، والتي رأى وجهها فى حلم الملك ، الذى صورها أدق تصوير . . .
« قال اجعلنى هلى خزائن الأرض . إنى حفيظ عليم » ،

وخزائن الأرض ، ما تخرجه الأرض من فاكهة وحب ، وكل ما تنبت من
ورع . . . وسمى ذلك خزائن الأرض ، لأنها تخزنه فى كيانها ، إلى أن يظهره
الجهد الإنسانى ، وبكشف عنه بالغرس ، والسقى والرعاية . . .

وهكذا أقام الملك يوسف على خزائن أرض مصر ، زرعاً ، وحصداً ،
وادخاراً واستهلاكاً . . . وقد وصف يوسف نفسه بصفتين هما معاً الضمان
لأداء هذا الأمر الذى وكل إليه ، على أكمل الوجوه وأعدلها ، والصفتان
هما : الحفظ ، والعلم . . . والحفظ ، هو الضبط ، والجزم فى تنفيذ الخطة التى
رسمها العلم ، فهو بالعلم يرى الأمور ردّية واضحة كاشفة ، فلا يضل الطريق
إلى مواقع الحق والخير ، وهو بالحفظ ، يعضى ما كشف له العلم وبحقيقته . . .
فالمشكلة التى تواجه مصر فى ذلك الوقت كانت محتاجة إلى حزم صارم ،
بأسلوب حكيم يحمل الناس على طريق مستقيم واضح لا يحيدون عنه ، وإلا
كان البلاد ، وكان الهلاك . . .

إن مصر يومئذ كانت تستقبل سبع سنوات من الخصب ، ثم يعقبها
سبع سنين من الجذب والقحط . . . وأمر كهذا لا بد أن يكون الحزم ،
والضبط أول خطة يخططها ولى الأمر مع الناس ، ويأخذهم بها ، وإلا فإن

الناس قد ينفسون في يومهم مادم في حاجة إليه في غدهم ، إذ النفوس مولمة بحب العاجل ، تؤثره وإن كان قليلا على العاجل وإن كان كثيراً ..

ولهذا قدم يوسف ، الحفظ على العلم ، فالصفتان وإن كانتا مطلوبتين لمواجهة هذا الأمر ، إلا أن الحفظ أولى ، وأهم من العلم ، إذ قد يستغنى الحفظ عن العلم ، ويتحقق للناس منه بعض الخير أو كثير منه ، على حين أنه لو استغنى العلم عن الحفظ ، لما تحقق للناس في هذه الحال خير ابداً ، ولسكان مجرد حقائق مرسومة في كلمات .. فإذا اجتمع الحفظ والعلم فقد احتنع الخير كله .. وهاتان الصفتان - الحفظ والعلم - اللتان زكى بهما يوسف نفسه . لنولى هذا المنصب الخطير ما أشبه شيء بالصفتين المتين رأتها ابنة يعقوب في موسى ، حين زكته ليكون قائما على مصالح أبيها . وذلك في قولها : « يا أبت احتأجره .. إن خير من احتأجرت القوى الأمين » (٢٦ : القصص) .

وفي قوله تعالى :

« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

في هذا تعقيب على هذا الجانب المحفوف بالمسكاره من قصة يوسف ، وأن هذه المسكاره هي ابتلاء من الله لعباده المؤمنين بمعصمهم بها ، وبصنى جوهرهم الكريم من كل كدر .. وأن عاقبة أمرهم إلى نصر وتمكين .. هكذا مكن الله تعالى لعباده المؤمنين ، من أنبياء ، ورسول وأولياء . ويمثل هذا التمكين مكن الله ليوسف .. وهذا من فضل الله يختص به من يشاء من عباده ، حسب ما يقضى به علمه ، وحكمته في خلقه . ومع هذا فإن المحسن لا يحرم جزاء إحسانه .. وإذن فهناك فضل من عند الله يمن به على من يشاء من عباده ، وفضل آخر هو ما يجزى به المحسنون جزاء إحسانهم .. وكل من فضل وإحسانه ..

أما الأجر العظيم والثواب الجزيل ، فهو ما يجزى به المحسنون في الآخرة من أجر .. حيث دار الخلد ، وجنات فيها نعيم مقيم ..

إخوة يوسف في مصر

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا

عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفى الكيل وأنا خير المنزلين .. فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا سزاود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتياناه اجمعوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . (الآيات : ٥٨ - ٦٢) .

مضى الزمن بطوى الأيام والسنين ، ووقعت مجاعة في أرض كنعان التي كان يعيش فيها يعقوب وأبنائه .. وكانت مصر - بفضل تدبير يوسف - قد أخذت لهذا الأمر أهبتها ، فادخرت خلال سبع سنين مضت كثيراً مما زرعت وحصدت .. وبهذا أصبحت مصر في تلك الأيام المجيدة محط رحال

الوافدين إليها من حولها من أهل البلاد يطلبون الزاد والليرة .

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » .

وجاء إخوة يوسف إلى مصر فيمن جاء إليها من شق الأمصار حولها ، ولما دخلوا على يوسف فيمن يدخل عليه من الوفود ، عرفهم ، ولسكنهم لم يعرفوه ، لأنهم لم يتوقعوا أبداً أن يلتقوا به يوماً من الأيام .. لقد أصبح يوسف في حكم الأموات عندهم ، وهذا هو بعض سر التعبير القرآني : « فعرفهم وهم له منكرون » الذي جاء مخالفاً لما يقضى به الظاهر ، وهو أن يقال : عرفهم ، وهم لم يعرفوه .. أما قوله تعالى : « وهم له منكرون » فإنه يدل على أنه كان من طبيعة الأمور أن يعرف إخوة يوسف أخاهم ، ولكن بفعلتهم المنكرة معه قد أصبح يوسف غربياً منكراً عندهم ، كأن لم يكن في يوم من الأيام واحداً من أبناء يعقوب .

ومنذ اللحظة التي رأى فيها يوسف إخوته أخذ يدبر أمراً بينه وبينهم ،
ستكشف عنه الأيام مما قيل ..

فلقد وضع يوسف على إخوته عيوناً ترصدهم ، ونجىء إليه بأخبارهم
وما يتجدثون به وقد حطوا رحالهم في مصر .. ثم انتهى الأمر بوضعهم
موضع الشك والالتهام وأنهم ربما يكونون جواسيس على مصر في صورة
تجار ، ولكنهم دفعوا هذا الاتهام بأنهم أبناء نبي من أنبياء الله هويـعـقـوب
وأن لهؤلاء العشرة أبناءه الأشقاء فهم أخوان من أبيهما ، أحدهما فقد منذ
زمن ، والآخر مقيم مع والده .. تلك أمارات تدل على أنهم ليسوا عيوناً
على مصر ، وأن للعزيز أن يستوثق من هذا ، بما يشاء من وسائل ..

وهنا وجد يوسف فرصة في معاسترتهم ، والتضييق عليهم ، وأخذهم
بشيء من الابتلاء اتقى سقوه كأسه مترعة .. فطلب إليهم أن يأثوه
بهذا الأخ الذي لهم من أبيهم - كما يقولون - ليكون ذلك دليلاً على
صدقهم فيما قالوه من أنهم أبناء نبي الله يعقوب وإلا فإنه لن يتعامل معهم
ولن يعطيهم من ميرة مصر شيئاً .

« ولما جهزهم بجهازهم قال اثتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني
أوفى الكيل وأنا خير المنزلين فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ،
قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » .

وهكذا ترك يوسف إخوته يمددون إلى مصر ، بعد أن حمل كل واحد
منهم حمل بصير من الحب .. وكان من تدبيره أنه أمر أتباعه أن يدسوا
بضاعتهم التي جاءوا بها ليلتاعوا الميرة في رحالهم دون أن يشعروا :
« وقال لفتيانہ اجمعوا بضاعتهم في رحالهم بعرفونها إذا انقلبوا
إلى أهلهم لعلهم يرجعون » ..

فلقد قدر يوسف أن إخوته إذا عادوا إلى مصر ، وفتحوا أمتعتهم ،
ثم وجدوا فيها البضاعة التي كانوا قد حملوها معهم إلى مصر - وقع في أنفسهم

أن في الأمر خطأ ، وأن العزيز - أي يوسف - قد نسى هو أو أتباعه أخذ هذه البضاعة في مقابل ماأخذوه من ميرة مصر .. وهذا من شأنه أن يحلمهم على العودة إلى مصر مرة أخرى ، ليردوا هذه البضاعة ، التي لم يكن لهم حق فيها .. إن دينهم - كما يعلم يوسف - بمنهم من أخذ ما ليس لهم ..

الركب العائد

ويعود أبناء يعقوب إلى أبيهم ، وما يكادون يلتقون به حتى يلقون إليه بهذا الخبر المشؤم .

« قالوا يا أبانا منع منا الكيل » !!

أبعد هذا الانتظار الطويل ،

والأحلام المسمدة بانتظار الركب

العائد بالطعام ، يواجه الشيخ المتهدم

بهذا الخبر المنذر بالجوع ، والموت ؟

« منع منا الكيل » .. إن السكيل

إنما منع منهم مستقبلا ، أما في هذه

المرّة فلم يمنع منهم كيل ، ولسكنهم

ألقوا إلى أبيهم الخبر مجعلا ، ليكون

سلاحا من أسلحة الحرب النفسية

مع أبيهم ، لأمر أرادوه ..

نم يحییء وراء ذلك الخبر ، هذا

الطلب العجيب : « فأرسل معنا

أخانا نكتله وإناله لحاظون » ويسأل

يعقوب نفسه ، ويسأل من حوله :

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا السكيل فأرسل معنا أخانا نكتله وإناله لحاظون .. قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونغير أهلنا ونحفظ أخانا وزداد كيل بعير ذلك كيل يسير .. قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل .. وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون . (الآيات : ٦٣ - ٦٧)

ما العلاقة بين منع السكيل ، وإرسال أخيه معهم ؟ أهو مطلوب لعزيز مصر ؟

وهل يعرف العزيز أخاهم هذا ؟ ومن دله عليه ؟ أسألات كثيرة ، عرفه يعقوب جوابها فيها قصه عليه أبنائه مما كان بين العزيز وبينهم من حساب وإتهام لهم بأنهم جواحيس جاءوا إلى مصر في زى تجار ، وأنه لن يرى صاحبهم عنده إلا أن يأتوه بأخيهم من أبيهم ، الذى قالوا عنه إنه الأخ الحادى عشر ، وأنه مقيم مع أبيه .. فلأنهم إن فعلوا كمال لهم ، وتعامل معهم .

وفى تلك الحال التى استولت على يعقوب من هذا الخبر المزيج الذى تلقاه من أبنائه ، وأنه لن يكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم . لم يجد بداً من التسليم - مقدماً - بما لا بد من التسليم به ، تحت وطأة هذا الطرف العصبى فبقول لبنيه : « هل آمنكم عليه إلا كما آمنتمكم على أخيه من قبل ؟ فافقه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » .

لقد تمثل يعقوب فى هذا الموقف ما كان منهم من إلحاح عليه فى طلب يوسف ، ليرتع ويلعب معهم ، كما كانوا يقولون ، ثم « جاءوا أباهم عشاء بكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وماأت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » . لقد تمثل له هذا الموقف ، فرأى فيه يطلبه منه أبنائه الآن ؛ صورة مشابة تماماً له ، وأن الذى دبروه ليوسف من كيد ، ليس ببعيد أن يدبروا مثله لأخيه .

ففى قول يعقوب : « هل آمنكم عليه إلا كما آمنتمكم على أخيه من قبل » إتهام لهم بالسكيد ليوسف أولاً ، ثم السير فى طريق السكيد لأخيه ثانياً ..

مفاجأة .. وتأويلها :

وينتهى الحديث بين يعقوب وأبنائه عند هذا الحد ، إلى أن يستخرج الركب ما فى أمتعتهم ، وإلى أن يأخذوا حظهم من الراحة من غذاء السفر ، ثم يتصل الحديث فى أمر العودة إلى مصر ، وفيما يريدون من أخذ أخيهام معهم . « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغى ،

هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أئانا وزداد كيل بمير ذلك
كيل يسير »

لقد كانت مفاجأة مذهلة للقوم أن وجدوا بضاعتهم التي حملوها معهم
إلى مصر ليتنازعوا بها الطعام ، قد ردت إليهم .. وكيف هذا ؟ لقد عجزوا
عن أن يجزموا بالسبب الذي جعل البضاعة تحمل معهم في متاعهم .

وعلى أي فإن هذه البضاعة ليست من حقهم ، إنها من حق العزيز الذي
ابتاعوا منه الطعام بهذه البضاعة .. وإذن فلا بد من العودة إلى مصر ، إن لم
يكن لأجل الميرة ، فن أجل رد هذه الأمانة إلى أهلها ..

« يا أبا ناسي » أي مانحور ، وما نظم بأخذ ماليس لنا ، بل لابد من
أن نعود إلى مصر ، لنرد هذه البضاعة إلى العزيز .. إنها من حقه ، ولاحق
لنا فيها ..

وفي قولهم : « ونمير أهلنا ونحفظ أئانا وزداد كيل بمير ذلك كيل يسير » :
الواو في : « ونمير أهلنا » هي واو المطف على محذوف ، تقديره ، إذا كان
ذلك كذلك . فإننا سنعود إلى مصر ، « ونمير أهلنا » أي نأتيهم بالميرة ،
وهي الطعام ، « ونحفظ أئانا » الذي سترسله معنا ، « وزداد كيل بمير »
حيث سيكون له حمل بمير كما أن لكل واحد منا حمل بمير !

وانظر كيف استدعوا أخام من أبيهم بهذا الأسلوب البق الحكيم ..
« ونمير أهلنا ونحفظ أئانا وزداد كيل بمير » .. لقد جعلوا أخذ أخبيهم
معهم طلبا ثانيا بعد الطلب الأول ، وهو الميرة . وربطوه به ، بحيث لا تكون
الميرة إلا وأخوهم معهم ..

ثم م من جهة أخرى يقولون : « ونحفظ أئانا » ولا يقولون : « وتأخذ
أئانا » كأن أخذه أمر مفروض منه ، لا مراجعة لأبيهم فيه .. فهم آخضوه ،
وحافظوه ..

من إعجاز النظم القرآنى :

وانظر إلى روعة النظم القرآنى ، فى تصويره لهذا الإغراء العجيب الذى جاءه إلى يعقوب محمولا فى قولهم : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أمانا ، وزداد كيل بعير » .. فهذه الواوات المتتابعة التى تجمع هذه المتعاطفات ، وتقرن بعضها إلى بعض ، تمثل أروع ما يمكن أن يبلغه فن العرض لمجموعة من فريد اللائى وكريم الجواهر ، نحر كم يد صناع ، فتجى بها واحدة إثر أخرى ، حتى لسكانها أنغام موسيقية تؤلف لحناً ..

وفى اختيار حرف « الواو » من بين حروف العطف ، وفى تكراره دون مغايرة حتى هذا ما يزوج بين هذه المتعاطفات ، ويؤاخى بينها ، بحيث تبدو مجتمعة وهى متفرقة ، لما فى حرف الواو من رخاوة ولين ، حيث تصبح هذه المتعاطفات على هذا النسق كياناً واحداً ، ومطلباً واحداً لا يمكن الفصل بين أجزائه ..

ولم يجد نبى الله يعقوب بداً من التسليم بالأمر الواقع ، فسمح لهم بأن يأخذوا أخام معهم ، ولكنه بعد أن يأخذ عليهم عهد الله وميثاق بأن يأتوه به ، إلا إذا وقع أمر لاهية لهم فى دفعه :

« قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم ، قال الله على ما نقول وكيل » ..

وهكذا يستسلم يعقوب ، وينزل على حكم الأمر الواقع ١١

وكما توقع يعقوب سوء آيحل ييوسف حين طلبوا أخذه معهم ، فقال : « إني ليعزنى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله القتب وأنتم عنه غافلون » - توقع أيضاً أن سوء ما سيحل بابنه الآخر ، إذ يقول لبنيه : « لتأتني به إلا أن يحاط بكم » وقد أحبط هم فعلاً ، ووقع المخذور فى أخيم هذا ، كما سنرى بعد .

قلب الأب .. وقلب النبي !

وحين تحركت القافلة بأبناء يعقوب ، يريدون مصر ، ومعهم أخوهم المطلوب للعزيز ، نصح لهم أبوهم فيما نصح قائلاً :

« يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتبوكل المتوكلون » .
ولعل أظهر ما في هذه النصيحة من حكمة هي ألا يلتفتوا الأنظار إليهم ؛ بهذا الموكب المريب الذي ينتظم أحد عشر أخاً ، أو كوكباً ، في سميت واحد من الشباب ، والبهاء ، والجمال .. فذلك من شأنه أن يدير الروس إليهم ، فتكثر الأحاديث عنهم ، وتختلف الآراء فيهم ، وليس ببعيد أن يكاهلهم من أكثر من جهة .. من الرجال أو النساء ، أو من تجار أمثلهم ، أو من حاشية العزيز نفسه .

وأياً كان الأمر ، فإنه شعور الأب الذي يتخوف على أبنائه نسبات الريح حين تهب عليهم ، فكيف وهم على سفر طويل ، وفي بدو غربة بعيدة ؟ .. ثم كيف وخبيثته في يوسف لا تزال تفرى كبده ، ثم هاهي ذى خبيثة أخرى تسكاد تتمثل له في ابنه الآخر ، شقيق يوسف ؟

يقول يعقوب لبنيه هذا القول ، وينصح لهم به ، وهو على إيمان وثيق بأن ذلك التدبير الذي دبره لهم ، لا يغنى عنهم من قدر الله وقضائه شيئاً ، وأن ما قدره الله تعالى كائن لا محالة .. ولكنه كإنسان - مطلوب منه أن يفكر ، ويفكر ، وبأخذ بالأسباب التي يراها جالبة خيراً أو دافعة شراً .. هذا هو المطلوب من كل ذي عقل .. ثم لا يمنع هذا من أن تجري الأمور على خلاف ما فكر المرء وقدر .. فيقع الشر مما قدر أنه خير ، ويحى الخير ، مما حسب أنه شر .. وهذا ما يشير إليه تعقيب يعقوب على تلك النصيحة التي نصح بها لأبنائه : « وما أغنى عنكم من الله من شيء .. إن الحكم إلا لله » عليه توكلت ، وعليه فليتبوكل المتوكلون » .

في مصر .. مرة أخرى

ودخل أبناء يعقوب مصر من أبواب متفرقة كما نصح لهم بذلك أبوم ، فهل يغنى عنهم هذا التدبير شيئاً مما قضى الله تعالى به ؟ إن هناك مكروها ينتظرهم على الطريق ، على الرغم من أنهم أخذوا بنصيحة أبيهم .. ويعقوب قد أنبأهم مقدما أنه لن يغنى عنهم من الله من شيء ، وأن هذا التدبير القدي دبره لهم هو ما يقضى به علمه المحدود ، أما ما قضى به علم الله القدي وسع كل شيء ، والذي لا راد له ، فإنه فوق علمه ، وفوق متناول تقديره .

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوم .. ما كان يغنى عنهم من الله من شيء » .. أي ما كان هذا التدبير لينج عنهم ما أراد الله تعالى بهم من هذا الابتلاء الذي سيبتلون به مما قليل ..

وقوله تعالى : « إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها » .. الاستثناء

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لدو علم لما لعنناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون .. فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون .. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون .. قالوا نفقد سواع الملك ولمن جاء به حل بمير وأنا به زعيم .. قالوا تائه لقد هلتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين .. قالوا فاجزأوه إن كنتم كاذبين .. قالوا جزأوه من وجد في رحله فهو جزأوه كذلك نجزي الظالمين .. فبدأ بأوعيتهم قبل وهاء أخيه ثم احتضرجها من وهاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » .
[الآيات ٦٨ : ٧٦]

أنا منقطع بمعنى « لكن » أى لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها . .
وهذه الحاجة هى ما يهيم به الإنسان إزاء موقفه من الأمور التى تعرض له ،
حيث لا يلقاها دون أن يتأثر بها ، ويؤثر فيها ، فيقبل عليها أو يعرض عنها ،
وذلك حسب تفكيره وتقديره ، وتلك الحاجة واقعة فى نفس كل إنسان ،
وبدافع هذه الحاجة يتحرك الإنسان ، ويعمل . . وقد تحرك يعقوب جهده
طاقته ، ومبلغ علمه ..

وفى قوله تعالى : « وإنه لندو علم لما علمنا ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون » - إشارة إلى أن يعقوب يعلم هذه الحقيقة ، وهى علمه بسلطان
ربه ، وبحكمته ، وإرادته ، وسعة علمه ، وأنه تديره لا يصادم أبداً تدير الله ،
ولا يحاول دون إمضاء إرادة الله كما أرادها سبحانه . . هذا ما علمه يعقوب ،
وهو يأخذ بالأسباب الظاهرة له ، وهى مما علمه الله تعالى ، وهذا العلم
مما يقوم عليه إيمان المؤمنين بالله . فكيف بمن هم رسل الله ؟ ولكن أكثر
الناس لا يعلمون هذه الحقيقة ، لأنهم على غير الإيمان بالله ، كما يقول سبحانه :
« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . . فقير المؤمنين بالله ، لا ينظرون
أبداً إلى قدر الله القائم سلطانه فوق العباد ..

يوسف وأخاه :

ويلتقى يوسف بأخيه الذى جئ به إليه مصر ، فيخلو به ، ويضعه إليه ،
ويخبره أنه يوسف أخوه ، وأن عليه ألا يبتئس ويحزن مما كان يلتقى من
إخوته من أزوار عنه ووحشة منه . .

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخرك فلا تبتئس
بما كانوا يعملون » ..

ثم ترك يوسف أخاه ليكون فى رفقة إخوته ، على أن يكتم عنهم ما أخبره
به من أنه يوسف ، فهذا خبر لم يأت بعد الوقت المناسب لإخبارهم به . .

للبريء المتهم :

« فلما جهزهم بمجهازهم جعل السقاية في رجل أخيه ، ثم أذن مؤذق أيها العير إنسكم لسارقون » .

لقد كان من كيد يوسف لإخوته أن يضعهم أمام المحنة القاسية ، وذلك بانزع أخيه من بين أيديهم ، وقد أعطوا أباهم العهد بحفظه ..

وهذا جزاء لهم من جنس فعلهم .. إنهم من قبل أعطوا أباهم عهداً بحفظ يوسف ، ثم هم نقضوا هذا العهد بأيديهم صمداً ، فضيعوا يوسف عن صمد وسبق إصرار .. وهام أولاء الآن بضيعون أخاهم الذي أوعدوا على حفظه ، ولكن عن غير إرادة منهم ..

إنهم الآن أبرياء من نعمة التضييع لأخيه ، ولكنهم - وهم أبرياء - يؤخذون مجرمة سابقة أفلتوا من عقابهم بها ، وهكذا تسوى المدالة حسابها مع الناس .. فإذا أفلت من بين يديها منهم في جريمة ما ، ولم يقتص منه بها ، ألبيسته ثوب الاتهام في أمر هو برىء منه ليلقى جزاء الجريمة التي ارتكبها من قبل ، ولم يلق الجزاء عليها ..

وكم في أحكام القضاء وفي المحاكم من ظواهر عجبية ، تبدو فيها إدانة أبرياء ، وتبرئة مذنبين .. حيث تقرم ظروف وشواهد ، لا يجد فيها القاضي سبيلاً إلى تبرئة من يشعر أنه برىء ، لأن أسباب الإدانة التي اجتمعت بين يديه ناطقة بالحكم بالإدانة .. كذلك لا يجد القاضي بداً من تبرئة من يشعر أنه مذنب ، لأنه لا يملك الدليل المادي على إدانته ..

وفي سجل القضاء ، أن رجلاً قدم للقضاء في جريمة قتل ، ولكن أدلة الاتهام لم تكن بحيث تدبر الرجل . وقرر قضاة المحكمة برأته ، في مداوانهم الأمر بينهم .. ولما جلس رئيس المحكمة على المنصة لينطق بالحكم ، حكم

على الرجل بالموت ، وكأنه واقع تحت سلطان حلم ، ثم حاول مراراً أن ينطق بالحكم الذى يرى الرجل فلم يستطع . . واستدعى الرجل ومثله من جلية هذا الأمر الذى جاء غير إرادة القاضى ، فلم ير الرجل بدأ أمام استنصاره بسلطان الله وعدائه ، إلا أن يعترف اعترافاً كاملاً بجرمة سابقة له ، فى قتل عن عمد وسبق إصرار . فأعيد التحقيق معه فى تلك الجريمة ، وأخذ باعترافه على نفسه ، وحكم عليه بالموت . . وليس هذا الحسام بالحكم اللازم أن يقع دائماً فى الحياة الدنيا ، إذ كان هناك حساب فى الآخرة ، يسوى به حساب الدنيا . وهذا دليل قاطع على حتمية البعث والحساب والجزاء . .

والسقاية التى اتهم إخوة يوسف بسرقتها ، هى الكأس التى يستخدمها الملك لشرا به . . والمير هى الدواب التى تستخدم فى الحمل والركوب . .

وفى المناداة عليهم بهذا النداء : « أينها المير » - دون المناداة عليهم بالنداء : « أينها الركب أو يا أصحاب المير » - فى هذا دعوة لهم إلى أن يتوقفوا عن المسير ، لأن المير هى المنظور إليها عند هذا النداء ، وأن عليها أن تقف . . ولهذا حسن مخاطبتها ، لأنها هى المطلوبة أولاً ، فإذا وقفت كان للمنادين شأنهم مع راكبيها . . ولهذا ، فإنه ما إن صدر النداء : « أينها المير » حتى توقفت بفعل أصحابها ، وما إن توقفت حتى توجه الخطاب إلى أصحابها : « إنكم لسارقون »

وهنا يجب أبناء يعقوب ، ويقبلون فى لهفة على من يلقون إليهم بهمة السرفة :

« قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ »

إن شيئاً ما قد افترقه القوم ، وانهموا أصحاب المير به . . فما هو هذا الشيء ؟ « ماذا تفقدون »

« قالوا تفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حل بعير وأنا به زعيم »
 إن الذين يفقدونه ، وينهمون الركب بسرقة هو صواع الملك ، وهو
 السقاية التي هي القدح الذي يشرب فيه الملك شرابه . . وأن من جاء بهذا
 المسروق ، قبل أن ينكشف أمر السارق ، فإن له جزاء هذا حل بعير ،
 وأن هذا الحل في ضمانة رئيس الجماعة المنتدبة للبحث عن صواع الملك ،
 فهو بهذا الوعد زعيم ، أى كفيل به ، وضامن له . .

ويلقى أبناء يعقوب هذا الاتهام بالنفي القاطع الجازم :

• « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » ..
 وإنهم ليدفعون تهمة السرقة عنهم بمعاملة القوم منهم ، وأنهم ما جاءوا
 ليلفسدوا في الأرض ، أرض مصر ، وما كانوا عيوناً عليها ، كما اتهموا من
 قبل ، وطلب إليهم إحضار أخيه من أبيهم كدليل على صدقهم ، وأنهم أبناء
 نبي من أنبياء الله ، هو يعقوب . . ولقد جاءوا بأخيهم وظهر لهم بصدقهم ..
 إنهم ليسوا من أهل الفساد ، وإذن فلن يكونوا من السارقين ، لأن السرقة
 وجه منكر من وجوه الفساد في الأرض . . أفليس في هذا ما يدفع
 تلك التهمة عنهم ؟

ولا يأخذ القوم بهذا المنطق ، بل يحضون في الاتهام ، وفي الكشف
 عن المتهم . .

• « قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين »

أى بماذا يحكم على من يسرق ، إن ظهر أن المسروق في أوعيتهم ؟
 • « قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين »
 أى إن جزاء السارق هو أن يؤخذ بحرم ما سرق .. إنه وحده الذي
 يتحمل وزر ما فعل . . ذلك هو شرعنا الذي ندين به . . فلا تزر وازرة
 وزر أخرى .

وهذا أخذ أتباع الملك يجررون تقديشاً ، وبهنا في أوعية القوم ، وذلك بين يدي العزيز ، الذي أشار بأن يبدعوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه وأنه أصغرهم ولأنه - فيما يبدو - لا يجرأ على أن يأتي هذا الأمر دون تحريض منهم . .

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه » أي إنه وجد السقاية في وعاء أخيه ، فاستخرجها منه ، وأخذها بها ، وجعله رهينة عنده بحسبكم فيه بما يرى . .

وبهذا التدبير خرج أخوهم من أيديهم ، وصار رهينة في يد الملك ، مقابل السقاية التي أتم بسرقتها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كذلك كدنا ليوسف » أي درنا له هذا التدبير وأريناه سبيله . . « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله » أي ما كان يوسف أن يضع يده على أخيه ، ويجعله من متعلقات الملك إلا بمشيئة الله تلك التي دبرت له هذا التدبير . .

وقوله تعالى : « نرفع درجات من نشاء » هو تعقيب على هذا الإحسان من الله تعالى ليوسف ، وأنه سبحانه يصنع له الخير ، ويدني له منه ما يريد ، وهذا رفع لدرجته عند الله ، وقرب له من موافق رحمته وإحسانه ، وأنوار علمه وهده . .

وقوله تعالى : « وفوق كل ذي علم علم هلم » . . هو إشارة إلى أن ما بلغه يوسف من علم علمه الله تعالى إياه ، ليس هو نهاية العلم ، بل هناك علم لا حدود له ، ولا نهاية لمداه ، وهو علم الله تعالى . . فهذا العلم الذي عند يوسف ، والذي بلغ به هذه المكانة في الناس ، هذا العلم فوقه درجات كثيرة من العلم ، وفوق هذه الدرجات درجات . . وهكذا ، حتى تصب جميعها في محيط علم العلم الإلهي الذي لا حدود له . .

يأس ، وحيرة ، واضطراب !

لقد أسقطني بد أبناء يعقوب ،
وأمسكت التهمة بهم ، ووقع أخوهم
لأبيهم في شباكها . . وإذا لم يكن
لهم ما يقولون في دفع التهمة ، إزاء
هذا الواقع الصريح ، إلا أنهم لسكى
يقولوا شيئاً ما يمدرون به لأنفسهم في
هذا الموقف . ألقوا بالتهمة بعيداً عنهم
وعزلوا أنفسهم عن الصلة الجامعة بينهم
وبين أخبيهم ، فهذا السارق ليس أخاً
شقيقاً لهم ، وأنه من طينة غير طينتهم
فإنه وإن كان ابن أبيهم يعقوب ،
فإن أمه ليست أمهم ، ومن هنا فعل
تلك القصة النكراء التي ما كان لأحد
من أبناء يعقوب أن يفعلها . . ثم
لكي يدمعوا هذا القول ويؤكدوه
جملوا لابني يعقوب من تلك الأم
سابقة في الدرفة ، وإن هذا الابن
إن يكن قد مرق اليوم ، فإن أخاه
الأخر وهو يوسف قد مرق من
قبل . . هكذا يلقون بهذه التهمة
ليوسف في مواجهته . .

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ
له من قبل ، فأمرها يوسف في
نفسه ولم يبيدها لهم ، قال أنتم شر
مكاناً والله أعلم بما تصفون . . قالوا
بأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً
فخذ أحداً مكانه إن أرازك من المحسنين .
قال معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا
متاعنا عنده إنا إذا لظالمون . .
فلما استنأسوا منه خلصوا نجياً قال
كبيرهم ألم تعلموا أن أبناكم قد أخذ
عليكم موثقاً من الله ومن قبل
ما فرطتم في يوسف فلن أروح الأرض
حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو
خير الحاكمين . . ارجعوا إلى أبيكم
فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما
شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب
حافظين . . واسأل القرية التي كنا فيها
والمير التي أقبلنا فيها وإننا لصادقون .
قال بل سولت لسكم أنفسكم أمراً
فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم
جميعاً إنه هو العزيز الحكيم ،
[الآيات : ٧٧ - ٨٣]

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » وهم يعنون بهذا الأخ يوسف
ويعنون بما صرقه ما كان من استيلائه على قلب أبيه ، وهذا في نقد برهم مرفقة

من يوسف لأبيهم ، واستثنائه بحبه دونهم . . « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ، ونحن عصبة . . إن أبانا لفي ضلال مبين »

• « فأسرهما يوسف في نفسه ولم يبدها لهم »

أى أن يوسف حين سمع هذا الاتهام له ، لم يظهر لإخوته شيئاً ، بل طوى في صدره الكلمة التى هم أن يواجههم بها ، وسألمهم مما سرق هذا الأخ :

« قال أنتم سرق مكانا والله أعلم بما تصفون »

قال ذلك في نفسه . . « أنتم سرق مكانا » . . أى أنتم فى أحوالكم بأخذ الأخ من أخيه ، بهذا الاتهام الظالم له ، « والله أعلم بما تصفون » أى أنه سبحانه عالم بهذا الوصف المقتضى الذى تصفون به أخاكم هذا . .

رجاء مرفوض :

وإذ يرى أبناء يعقوب أنهم بحيث لا تعلق بهم تهمة السرقة ، لأن الذى سرق ليس أخاً شقيقاً لهم ، وأن نظرة العزيز إليهم غير النظرة التى ينظر بها إلى أخيهيم هذا - إنهم إذ يرون هذا يجيبون إلى العزيز متلفعين مستغفنين ، مستشفعين بضمف أبيهم وشيخوخته ، وما يكون لوقع الخبر عليه بأن ابنه قد سرق ، وأخذ بما سرق . .

« قالوا بأبيها العزيز . . إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين » . . فهذا من شأنه أن يخفف كثيراً من آلام هذا الشيخ الكبير إذا أطلق سراح هذا الابن ، وحل محله واحد منهم . . فذلك أياً العزيز بحسن كريم ، لا تبخل علينا بأجابة هذا الطلب الذى فيه إحسان إلى أب شيخ ، هرم .

« قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذ نلظالمون »

لقد استنكر يوسف هذا الطلب ، واستماذ باقه منه . . فإنه ليس من الإحسان فى شيء أن يأخذ البرىء بجريرة المذنب . .

فهذا ظلم لا يلتقى مع الإحسان بأى وجه من الوجوه . .
نم لماذا لم يطلب أبناء يعقوب إلى العزيز أن يكون إحصائه بإطلاق سراح
أخيه تفضلا منه وكرما ؟

إنهم لم يفعلوا هذا ، لأن في ذلك تعطيلاً لحد من حدود الله . فالسارق
لا بد من أن يعاقب ، وأن يقتص منه ، ليسكون في ذلك ردعاً له من معاودة
السرقة ، وعبرة لغيره من تدبره نفسه إلى السرقة ، ولهذا طلبوا القصاص
منه في شخص واحد منهم . .

مؤثر بين الإخوة :

وإذ رأى أبناء يعقوب أن العزيز لم يستجب لما طلبوا ، بعد أن جاءوا
إليه من كل سبيل من سبل الرجاء ، والاستعطاف ، ووقع اليأس في نفوسهم
من أن العزيز لن يطلق سراح أخيه . إذ رأوا هذا خلوا بأ أنفسهم ، في مكان
بعيد عن أعين الناس وآذانهم ، وجعلوا يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة ..
« فلما استنأسوا منه خلصوا نحيبا ، أى حين استنأسوا من خلاص أخيه ،
أداروا الحديث بينهم في عزة منقطعة عن الناس . .

« قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن
قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى أو يحكم
الله لي وهو خير الحاكمين »

هذا هو رأى كبيرهم ، وصاحب الرأى والكلمة فيهم ، وذلك هو ترفعه
من هذا الحدث الذى طرقهم . . إنه لن يبرح الأرض التى هو فيها ، وهى
أرض مصر ، ولن يلتقى أباه إلا إذا دهاه إليه ، صافحا عنه ، أو كان لله تعالى
مشيئة في أن يعود إلى أرض الوطن مرة أخرى . .

وهو يقدم لهذا الحكم الذى حكم به على نفسه ، بما كان منهم من ميثاق

وتفه معهم أبوهم بأن يأتوه بأخيهم هذا ، وهام أولاء وقد أفلت أخوهم من أيديهم . . . وليست هذه أول مرة يفجعون فيها أباهم بولد من ولديه الصغيرين ، فلقد فجعوه من قبل في يوسف . . . فبأي وجه بعد هذا يلقي كبيرهم أباه ، وهو قائد الركب ، والمسئول الأول عن سلامة كل عضو فيه ؟ إنه لن يبرح الأرض ، ولن يقادر مكانه حتى يأذن له أبوه ، أو تغلبه إرادة الله الغالبة . . .

أما إخوته ، فلهم شأن آخر غير شأنه هو . . . إنهم لابد أن يعودوا إلى أبيهم ، ويجبروه بما حدث . . .

« ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها ، والميراثي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » . . .

إنه لم يكتف بأن يوجههم إلى لقاء أبيهم ، بل لقد زودهم بما يقولونه لأبيهم ، من أمر أخبيهم وما كان منه ، وأنهم لم يدخروا وسعاً في المحافظة عليه ، ولكن سلطان القدر لا ينال . . .

وإذ يعلم كبيرهم هذا أن أباهم لن يصدق ما يخبرونه به ، وأنهم منهمون عنده بالسكيد ليوسف وأخيه - فإنه لهذا لغتهم إلى هذا الموقف الذي سيقفه أبوهم منهم ، وما ينبغي أن يواجهوا به هذا الموقف ، وهو أن يؤكدوا له صدقهم بأن يسأل القرية التي كانوا فيها ، وهي مصر ، التي وقع فيها هذا الحادث ، فإن لم يجد سبيلا إلى سؤال أهل تلك القرية ، فليسأل أهل الركب الذين جاءوا معهم ، وهم منه قريب . . . إنهم من أبناء كنعان ، أو البلاد المجاورة لها .

كلمة الحق لها قوة :

وانظر إلى موقفهم هنا ، وقد جاءوا إلى أبيهم بالصدق كله ، وإلى موقفهم من قبل مع يوسف وقد جاءوا إلى أبيهم بالكذب كله ..
إنهم هنا يجدون لكلمة الحق مساعداً في أفواههم ، وقوة على ألسنتهم ، فيقيمون عليها الأدلة البعيدة والقريبة ، ثم لا يكتفون بهذا ، بل يجزمون بصدقهم ، ويؤكدونه بقولهم : « وإنا لصادقون » .

أما هناك — في موقفهم من يوسف — فإنهم قد حلوا إلى أبيهم شاهد الزور بين أيديهم .. قيصاً ملطخاً بدم كذب ، ودموعاً متلصصة تتخذ من الليل ستاراً يستر زيفها .. ثم كلمات مستغذية ، غشى على استحياء في رعدة ، واضطراب . « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الثوب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » .. إنهم هنا يجهلون أنفسهم ، ويحكمون على ما يقولون بأنه لا يقع موقع التصديق من أبيهم ..

فما أبعد المدى بين قولهم هنا : « وإنا لصادقون » .. وقولهم هناك : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ..

إنه بعدما بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ١١

ويصدق حدس كبير الإخوة فيما قدره من سوء ظن أبيه به وبأخوته .. إذ يلقى الأب هذا الحديث الذي ساقه إليه أبناءه عن أخيه لأبيهم — يلقى هذا الحديث بقوله :

« بل سولت أنفكم أمراً » .

إن ذلك كيد من كيدكم ، سولت لكم به أنفسكم .

ثم لا يجد يعقوب إلا الصبر على هذا المكروه ، والاستسلام لأمر الله ، والوجه في رحمة وإحسانه .. « نصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ..
إنه هو العالم الحكيم » ..

ذلك ظنه بريه ، ورجاؤه في فضله وإحسانه .. وإذن فهو صابر لحكم الله ، متروك لما وراء هذا الصبر من فرج .. إذ لا بد من وراء الصبر الجميل من جزاء طيب ، وبشريات مسعدة .. « وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون .. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

• • •

أحزان يعقوب ودموعه

« وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين .. قال إنا أشكوبن وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون .. يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

[الآيات : ٨٢ - ٨٧]

انصد انصرف يعقوب عن الحديث مع أبنائه في شأن أخيه هذا الذي افتقدوه في مصر ، وأسلم نفسه إلى ما يستمل في كياه من أمى وحسرة ، على يوسف .. فلقد نكأ هذا الجرح الجديد جرحه القديم الفاز في أحماق نفسه من فقد يوسف .
« وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » .

وإنه يتعزى في فقد ولده في مصر ، بأنه مازال حياً يعيش مع

الأحياء .. أما يوسف فلا يدري إن كان حياً أو ميتاً .. ولهذا كان حزيناً على ابنه في مصر ، محرراً للحزن الدفين العميق على يوسف .. وهكذا يخفف وقع المصائب الجديدة عليه ، إذ يوازن بالمصائب العظمى القديم .. وهكذا يستشفى من داء بداء ، وذلك البلاء أعظم البلاء .

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أهلك ما شفاكا

أنبي ... ويجزع ؟

وقد يسأل سائل : كيف يكون هذا الجزع ، وذلك الحزن المدمر ، من أنبياء الله ؟ وأين الصبر الجميل الذي وطن عليه نفسه هذا النبي الكريم عند استقبال هذا المصاب بقوله : « نصبر جميل » ؟

ونقول - والله أعلم - إن هذا الحزن السكظم - أي الدفين الذي لا يبوح به - ليس باللهي يجور على الصبر الجميل ، أو ينتقص من مشاعر التحليم لله ، والرضا بقضائه ، وخاصة فيما يتصل بماطفة الأبوة .. وإنه ليس من الصبر الجميل في شيء أن نجف عواطف الأبوة ، وتجمد مشاعر الحزن على فقد الابن .. ثم إن هذا السكظم للحزن ، وحبه في القلب هو في ذاته وجه من وجوه الصبر الجميل ، حيث لم يتشكل هذا الحزن في صورة لطم الحدود ، أو حق الجيوب .. أما شكاته ، وبث حزنه ، أي إذاعته والتعريض به في صور من الشكوى إلى الله ، فهو عبادة خالصة وولاء مطلق لله ، وطمع في رحمته ، ولجأ إلى فضله وإحسانه : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين .. قال إنما أشكو بنى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

إن أبناء الشيخ الجلبل ، ليفارون من يوسف ، حتى بعد أن ألقوا به في غيايات الحب ، ويستكثرون على أبيهم أن يحزن على يوسف هذا الحزن الذي لانهاية له .. إن ذلك لدليل على هذا الحب العميق الذي كان ليوسف في قلب أبيهم ، وأنه لا يزال مشغولا عنهم بالحزن عليه بعد فقد ، كما كان مشغولا عنهم بالحب كله وهو حي ..

فهم يلقون أيام منكرين عليه هذا الحزن أن يظل ملازما له ، حتى يتلف كيانه ، ويهدم بنيانه : « حتى تكون حرضا » . والحرض الشيء الذي استحال طبيعته وتغيرت معالنه ، كالنبات يتحول إلى حطب ، والثلوب الجديد

بصير بالياً .. «أو تكون من المالكين» أى إنك لا تنقطع عن هذا الحزن حتى تذلل ، وتحف وتموت .

وقد كان رد أبيهم عليهم : «إنما أشكوبنى وحزنى إلى الله» أى إنما أتوجه بأثنينى ، وحزنى إلى الله .. والبث ، إذاعة الحزن ، والإعلان عنه بلفظ أو اثنين .. والحزن الألم الذى يكتبه صاحبه ، ولا يصرح عنه بقول أو حركة .. فيعقوب يشكو ما به إلى الله فى سر ، وفى جهر ، وهو يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه - ومن علمه أن هذه الضراعة إلى الله ، والشكاة إليه هى عبادة خالصة ، وولاء صادق لله رب العالمين . إنه يشكو إلى سيده ، ومالكه ، ومن ييده الأمر كله .. وليست هذه الشكوى إعلاما لله بحال الشاكى ، فإله سبحانه يعلم كل شئ علما أزليا ، ما وقع وما سيمتع ، وإنما هذه الدعوات والالتجالات هى عبادة لله بما يستولى على العبد منها من مشاعر الحاجة والعوز إلى الله ..

لا يأس من روح الله :

ويعضى يعقوب فى موقفه هذا مع ربه ، وفى شكاته إليه ، والوقوف بباب فصله وإحسانه ، غير يئس أبداً من فضل ربه ، فيقول لبنيه :

«يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون» .

إنه يدعوهم إلى أن يشاركونه فى هذا الإيمان بقدرة الله ، وفى الطمع فى رحمته ، وعدم اليأس من أى طلب يطلبونه من الله ، فإن هذا اليأس هو سوء ظن بالله ، وإنه لا يظن الظن الحمى بالله إلا الكافرون به ، الذين لا يعرفونه ، ولا يؤمنون به ...

روى أن بعض الصالحين كان يقول : «إن لى حاجة أدعو الله لها منذ أربعين سنة ، فما استجاب لى ، وما يئست من دعائه » !!

فالمؤمن لا ييأس من روح الله ، ولا يقطع الرجاء من فضله وإحسانه أبداً .
وفى قوله : « فتحصوا » إشارة إليهم بأن يكون مجتهدون عن أخيرهم
بحسب ما قام على التهدي بالمشار ، تلك المشار التي إن صدقت أعطت حداثاً
لا يخطئ .. أما البحث الذي لاتصعبه رغبة قوية ، وشعور مخلص ، في طلب
ما يطلب الإنسان من أمور ، فإنه لا يجدي شيئاً ، ولا يفتح للإنسان مغالتي
الأمر الذي يطلبه .. إن نجاح أى عمل رهن بالرغبة فيه ، وبالسعى الجاد
في تحصيله ..

إلقاء .. ومصارحة

« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها
المزير مسنا وأهلنا الضر وجئنا
ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل
وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين .
قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه
إذ أنتم جاهلون .. قالوا أئنتك لأنت
يوسف ؟ قال أنا يوسف وهذا أخى
قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر
فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ..
قالوا نأله لقد آثر الله علينا وإن
كننا لخاطئين .. قال لا تثريب عليكم
اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم
الراحمين » .

(الآيات : ٨٨ - ٩٢)

كان لابد لأبناء يعقوب من
المودة إلى مصر مرة أخرى ، لاللمدة
وحدها ، ولكن استجابة لدعوة
أبيهم ، بالبحث عن يوسف وأخيه ،
إذ كانت مصر هي الوجه الذي عرفوه
والذي تركوا فيه أحد أخويهم ..
فلا بد إذن أن تكون مصر هي وجهتهم
لينظروا ما يفعل الله بهذا الأخ الذي
احتجزه العزيز عنده متهما بالسرقة ..
أما يوسف فهم بهات أن يعرفوا له وجهاً
بطلبونه فيه ..

وهناك - في مصر - دخلوا على
العزيز في حال من الحزن والألم ،

وسوء الحال .. فلما مثلوا بين يدي العزيز :

« قالوا يا أيها المزير مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا
الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » .

والبضاعة المزجاة ، هي البضاعة المتحركة ، التي يسوقونها أمامهم من إبله
وقم ونحوها .. أما بضاعتهم التي جاءوا بها أولاً ، فقد كانت أمتعة محمولة
معهم .. وفي قولهم : « فأوف لنا السكيل وتصدق علينا » أى أعطنا بهذه
البضاعة المزجاة ما يوازي قيمتها ، ولا تنتظر إليها دون نظرتك إلى عروض
التجارة ، من حرير ، أو صوف ، أو نحو هذا ، ثم إننا لنطمع منك في أكثر
من هذا ، وذلك بأن تتصدق علينا بأن تعطى كل واحد منا حمل بعير ، إذا
كانت بضاعتنا تلك لا تفي بهذا .

عاطفة الأخوة :

ويرى يوسف من هذا ما أصاب أهله من ضر ، وما حل بهم من ضيق ،
فيفيض قلبه رحمة بهم ، ثم لا يملك مع هذا إلا أن يطلع عليهم
بما يعلا قلوبهم دفناً بالأمل المسعد ، والرجاء العظيم ، وذلك حين يعلمون أن
العزیز الذي يقفون بين يديه ، والذي في يديه خزائن الأرض إنما هو أخوهم .
إن هذا الخبر سيبدل حالهم في الحال من شدة إلى رخاء ، ومن فقر إلى غنى ،
وجاء وسلطان !

ولكنه قدر أن هذا الخبر إذا ألقى إليهم في غير حكمة كان وقعه شديداً
عليهم ، وربما صعقوا له .. ولهذا فهو يدخل عليهم بهذا الخبر بتلك المقدمة
التي تشبه الاستئذان على أهل الدار ، قبل الدخول عليهم ، ومباغتتهم على غير
استعداد .. فهو يقول لهم :

« هل علمتم ما فعلتم ويوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » .

ويثير هذا التساؤل تساؤلات كثيرة كانوا يدبرونها بينهم وبين أنفسهم ،
ثم فيما كان بينهم وبين يوسف من قبل ، حتى لقد كادوا يسألونه : من أنت ؟
وما لك تفعل نفسك بنا وبأبينا وبأخينا ؟ ولم تختصنا بالحديث إليك ؟ ولم
نعملنا على أن تأتيك بأخينا من أيدينا ثم هأنت ذا تختجزه عندك ؟ .

هذه الأسئلة وكثير غيرها كانت تدور بين القوم ، ويتناجون بها في حلهم وترحالهم ، ثم لا يجدون الجواب عليها . حتى جاءهم الخبير اليقين عنها . فإنه ما كان يوسف يسألهم هذا السؤال : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » حتى يطل عليهم الجواب الذي كان تأثراً في رؤوسهم ، منذ أمد بعيد فيهتمون به ؛ « أإنك لآنت يوسف ؟ »

أى أإنك لآنت يوسف الذى كننا نعتك أنه أنت ؟

« قال أنا يوسف ، وهذا أخى .. قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وقوله تعالى « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .. هو تعقيب من يوسف على هذا الذى هو هبة من عطاء ربه .. إنه جزاء من الله تعالى لما كان منه تقوى الله ، ومراقبته ، والاستقامة على طريق الحق ، والصبر على ما يبتلى الله به من مكروه .. فإنه من يتق الله ، ويصبر على ما يبتليه به يكون من المحسنين ، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين ..

وهنا يستشعر إخوته الندم على ما كان منهم ، وأنهم كانوا على طريق ضال في السكبة التى كادوه له « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

أى أن هذا الحب ، وذاك الإيثار الذى كان من أليك لك دوتنا ، هو فضل من فضل الله عليك ، وإن فى غيرتنا وحمدنا لما ألبسك الله تعالى من نعم ، هو ضلال منا .. وإن هذا الذى أنت فيه من مكان عال ، ومن سلطان عظيم ، هو فضل اختصك الله تعالى به « لقد آثرك الله علينا » .. ولكننا كنا خاطئين إذ حمدناك على هذا الفضل الذى يختص به الله من يشاء من عباده ..

ويطوى يوسف سريماً هذه الصفحة السوداء مما كان بينه وبين إخوته ، ويعطى على كل آثارها بالصفح الجميل منه ، ويطلب المغفرة لهم من الله ..

« قال لا تريب عليكم اليوم » إنه يوم عيد بهذا اللقاء ، فلا لوم فى هذا

اليوم ، ولا عتاب ، بل صفح ، ورضى .. « يغفر الله لكم » . ويتجاوز عن سيئاتكم ، فقد عفوت أنا وغفرت ، والله سبحانه هو أهل القبول والمغفرة : « وهو أرحم الراحمين » .

[قبيص يوسف ، وما فيه]

ما إن كشف يوسف لإخوته عن وجهه ، وما إن أراهم الصفح والمغفرة منه ، وطلب لهم من الله العفو والمغفرة ، حتى التفت بوجوده كله إلى أبيه الذي أضرب به الحزن عليه ، وعلى أخيه ، وعلاه الكبير ، ومسه الوهن والضعف ..

وهنا يقدم لإخوته قبيصه قائلاً :

« اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » .

« اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين .. ولما فصلت المير قال أبوم إنى لأجد ربيع يوسف لولا أن تعمدون .. قالوا تالله إنك لنى ضلالك القديم .. فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون .. قالوا يا آبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .. قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » .
(الآيات : ٩٣ - ٩٨)

ما هذا القميص ؟

يكشف يوسف مما لهذا القميص من أثر في شفاء أبيه ، ورد بصره إليه بعد أن ذهب به الحزن .. إن يوسف يقول على سبيل القطع والجزم : « يأت بصيراً » .

فا هذا القميص ؟ وما شأنه ؟ أهو معجزة نبى ؟ أم ماذا ؟

تكثر الأقوال من المربين حول هذا القميص ، حتى لتنبه بعض الأقوال إلى إبراهيم عليه السلام ، وأنه كان القميص الذى يقال إن جبريل

جاء به من الجنة ، وألبسه إبراهيم حين ألقى به في النار ، فلم تصبه بسوء . .
ثم جعل إبراهيم هذا القميص ميراثاً في ذريته ، أعطاه إسحق ، ثم أعطاه
يعقوب . . ثم هاهنا يوسف يدفع به إلى إخوته ، ليلقوه على وجه أبيه
فيرتد بصيراً ، ويأتى بتلك المعجزة الحارقة !

وقد كان يمكن أن يصح هذا ، لو كان له مستند من كتاب الله
أو سنة رسوله . .

وأما وليس في القرآن الكريم ، ولا في حديث رسول الله شاهد لهذا ،
فإنه من الخير أن يتخفف العقل من هذه التنبؤات القائمة على الرجم بالنيب ،
وأن يأخذ الأمور على ظاهرها . .

ومن جهة أخرى ، فإن القرآن الكريم يتحدث عن القميص الذي كان
يلبسه يوسف ، حين ألقى به إخوته في الجب ، وأنهم قد جردوه منه ، وجاءوا
به إلى أبيهم ملطخاً بدم كذب !

ثم لو أن القميص الذي كان يلبسه يوسف يوم ألقى به في الجب ، كان
قميص إبراهيم ، لكان أول شيء يحرص إخوته على سلبه إياه ، وألا يدعوه
يذهب به .

فليكن ذلك القميص إذن واحداً من الأقمصة التي كان يلبسها يوسف ،
والتي علق بها عرقه ، فكان فيها ريحه .

أما كيف وجد يعقوب ريح يوسف في هذا القميص ، على هذا المدى
البعيد ، الذي أحد طرفيه مصر ، وطرفه الآخر أرض كنعان — فإن
هذا السؤال يرد على أي قميص ، سواء أكان القميص الذي يقال إنه قميص
إبراهيم أم أي قميص آخر . .

والذي علينا هو أن نصدق بيقيننا بأن يعقوب قد وجد ريح يوسف

من مصر . .

أما هذه الريح التي وجدها يعقوب ، فهي إما أن تكون ريحاً شمياً فلما
بأنفه على الحقيقة ، كما تنسم أرواح الأشياء ذات الريح ، وإما أن تكون
هذه الريح مشاعر وخواطر مثلت له يوسف قريباً ، مقبلاً عليه ، أشبه
بالطيف الزائر في المنام ، أو الخاطر المسعد في اليقظة ، وذلك كله من اللطاف
الله تعالى يعقوب ، ومن إشراق نفسه الصافية ، وانطلاق الروح من كثافة
المادة ، وقيود الجسد .. ولقد رأى عمر بن الخطاب - وهو على منبر رسول
الله ﷺ في المدينة - رأى «سارية» قائد جيش المسلمين ، في الشام ، وهو يكاد
يقع ليد العدو الذي دبر له كيداً خفياً ، فقال عمر وهو على المنبر «باسارية ..
الجليل» أي أنجه إلى الجبل ، واجعله حصناً من ورائك .. وقد سمع سارية
صوت عمر ، وانحاز بالجيش إلى الجبل ، وكان في ذلك نجاة ونجاة من معه ..
فكيف ينبي من أنبياء الله .. ألا تكون له من نفسه المشرقة بنور الله هذا
الحديث أو تلك المعجزة ؟

قيص له .. شأن :

وأما كيف كان لهذا القميص أن يعيد إلى يعقوب بصره بمجرد أن أُلقي
عليه ، فلهذا أكثر من قول يقال هنا ..

فلك أن تقول إنه آية من آيات الله أجراها الله سبحانه وتعالى بين يدي
بين كرمين .. يعقوب ، ويوسف ..

ولك أن تقول إن ذلك لم يكن أمراً معجزاً ، وإنه جاء على سنن الطبيعة ،
ومألوف الحياة ، وأن الذي ذهب ببصر يعقوب هو شدة الحزن ، وأن الذي
يعيد إليه بصره الذهاب ، هو شدة الفرح .. وهذا مما يعلمه يوسف مما علمه
الله تعالى من تأويل الأحاديث .

والقميص في حياة يوسف شأن أي شأن ..

فلقد كان القميص أول الأمر يحمل بصمات يوسف ، التي تشهد بكذب إخوته . . وتلك البصمات هي التي احتدل منها يعقوب على كذب بنيهِ حين جاءوه بالقميص ملطخا بدم كذب ، مدعين أن الذئب قد أكله ، على حين أن القميص كان سليماً لم يصب بمخدش من مخلب الذئب أو نابِه . . هذه واحدة .

وأخرى . . هي أن العزيز ، قرأ على قميص يوسف ، البصمات التي تدل على براءته ، حين رآه قد قد من دبر ، لا من قُبُل . .

وثالثة ، وهي هذا القميص الذي بعث به إلى أبيه يحمل إليه الشفاء لبصره والفرحة لقلبه . . والقميص في كل حال غيره في أي منها في الحال الأخرى ، والله تعالى أَلطاف خفية ، لا تستند إلى هذه الظواهر التي نعلمها ، وتعامل مع الأشياء بمقتضاها . .

وأخيراً يجتمع الشمل ١

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش ، وخرأله سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتني من الملك وهبته لي من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ، [الآيات ٩٩ - ١٠١]

هناك أحداث كثيرة طويت ، ولم يجر لها ذكر هنا ، إذ لم يكن لها أثر ظاهر في مضمون القصة . . فلم تذكر القصة ما كان من موقف يعقوب من دعوة يوسف وإخوته بالسفر إلى مصر . . وهل يستجيب لهذه الدعوة ، ويترك موطنه وهو في هذه الحالة من الشيخوخة والضعف ؟ أم هل يرى من الأفضل أن يعود يوسف إلى موطنه ؟ لم تذكر الآيات القرآنية شيئاً من هذا . . كما أنها لم تذكر خبراً عن اتجاه يعقوب ببنيه نحو مصر . .

وها نحن أولاء نرى يعقوب وبنيه في مصر ، بعد أن كانوا منذ لحظة ممنا في أرض كنعان ، وشهد الشيخ وقد ارتد إليه بصره بعد أن ألقى قيصر يوسف عليه ، ثم نراه يلوم أبناءه وبؤسهم على ما كان منهم من إنكار واستمراء من قوله : « إني لأجد ربح يوسف لولا أن تفقدون » .. ثم نراه يطلبون المغفرة من أبيهم ، الذي يعدم بأنه سوف يستغفر الله لهم ، على ما كان منهم من كيد لإخوتهم ، ثم ما كان منهم من تنفيذ ، ولوم له ، بذكر يوسف ، وحزنه عليه ، ورجائه في الله أن يرده إليه ، إذ قالوا له : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » وها هو ذا يوسف يلتقي أبويه وإخوته ، ويضمهم إليه ، ويفتح لهم الطريق إلى مصر ، وينزلهم فيها منزل الآمن والسلامة .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » أي أنهم حين دخلوا على يوسف في مجلس حكمه وسلطانه أخذ بيد أبويه ، وضمهما إليه ، ومن وراءهما إخوته ، وحياتها تحية السلام والإكرام « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

هذا تأويل رؤياي :

ويرفع يوسف أبويه إلى العرش الذي يجلس عليه ، احتفاء بهما ، وتكريماً لهما ، وقد قابلا هذا الإكرام منه بالشكر له ، والحمد لصنيعه .. فسجدا له « سجود حمد وشكر ، وسجد معهما أبناءهما الأحد عشر .. » وإذ يشهد يوسف هذا المنظر يذكر رؤياه التي رآها عندما كان صبياً ، والتي قصها على أبيه في قوله : « يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين .. » ثم ذكر ما قاله له أبوه إذ ذاك : « قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان هوى مبين ، وكذلك يحثيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث .. » وها هو ذا يوسف يرى تأويل رؤياه واقعا محسوسا ، بعد أن رآها في تأويل أبيه

لها ، وعداً بخير عظيم ، ودرجة عالية عند الله تعالى - إذ يرى يوسف كل هذا يقول لأبيه :

« يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل قد جعلها رى حقاً ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان ببنى وبين إخوتى .. أى أن هذه الرؤيا التى رآها فى صباه قد تحققت اليوم ، إذ قد جعلها الله تعالى رؤيا صادقة ، لأن فى الرؤى ما يصدق وما يكذب .. ورؤى الأنبياء لا تكون إلا صدقا .. ويوسف وإن لم يكن نبيا حين رأى تلك الرؤيا ، فإنه مرشح للنبوة ، لابس إهابها منذ ولد .. »

وفى قوله : « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو » إشارة إلى أن التحول من البدو إلى الحضرة بعد من النعم ، التى تستوجب الحمد والشكران لله رب العالمين ، وذلك لما فى حياة البدو من جفاء وغلظة ، وجاهلية ، على خلاف حياة الحضرة ، وما فيها من نعم كثيرة ، وخير عظيم ، لمن يوعى حق هذه النعم ، ويؤدى شكر هذا الخير .. »

وفى قوله : « إن ربي لطيف لما يشاء » - إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أمراً أحكم تدبير الأسباب الموصلة إليه ، فجاء بها على غير ما يقدر العباد ، ثم أراهم من عواقبها غير ما يتوقعون .. »

فمن كان يقع فى تقديره أن تلك الأحداث التى وقعت ليوسف ، من إلقاءه فى الحب ، إلى وقوعه فى يد جماعة من التجار ، إلى بيعه لرجل من مصر ، إلى كيد امرأة العزيز له ، إلى تأمرها مع جماعة النسوة عليه ، إلى إلقاءه فى السجن بضع سنين - من كان يقع فى تقديره أن هذه الأحداث بدمج من خيوطها عرش ، ويصاغ من حصاها تاج ، ويولد من تصارعها ملك يجلس على هذا العرش العظيم ، ويتوج بهذا التاج الكريم ؟ إن ذلك لا يكون إلا من تدبير حكيم خير ، يمسك الأسباب بلطفه ، ويجريها بحكمته ،

فإذا هي طوع مشيئته ، ورهن إرادته ، فيجعل من المسكروه - في تقديرنا - محبوا ، ومن المحبوب مكروها ، « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة : ٢١٦) .

تساييح وابتهالات :

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما وألحقني بالصالحين » .
وبهذه الابتهالات ، والضراعات ، وتلك التساييح والصلوات ، يستقبل يوسف هذه النعم التي أنعم الله بها عليه ، فإنه بعد أن سوى حسابه مع أبيه وإخوته ، وبعد أن وضع الأمور في نصابها بينهم وبينه ، وأعطى كل ذي حق حقه - خلس إلى مناجاة ربه ، وإلى رفع آيات الحمد والشكران له ، بعد أن أتم الله تعالى عليه نعمته ، وبعد أن أخلى الله تعالى قلبه من الهم والحزن ، فكانت تلك الحال أعدل الأحوال التي يجد فيها المرء وجوده كله ، - قلباً ، وعقلاً ، ولساناً - خالصاً لله ، لا تطرقه طوارق الهموم ، ولا تصطبغ في نفسه أمواج الآلام والأحزان ، التي تحجز كثيراً من عواطفه ومشاعره المنجبة إلى ربه . . وهكذا يلتقي يوسف ربه هذا اللقاء الخاشع الضارع ، وكله لسان حمد وشكر لله رب العالمين . . ويبدأ في هذا الموقف باستعراض نعم الله تعالى عليه ، وتمثلها في خاطره ، واستحضارها في وجدانه ، من مبدأ أمره إلى نهايته التي انتهى إليها في يومه هذا ، وذلك مما يلهب مشاعره ، وبطلق لسانه ، فيحدث بنعم ربه ، ويسبحه بها ، ويحمده عليها ، ويستزيده من فضله بأن يتم تلك النعم عليه ، وذلك بأن يتوفاه على دين الإسلام ، وأن يلحقه بالصالحين من عباده . فذلك هو الذي يجعل لهذه النعم مساقاً في فمه ، وطعماً هنيئاً في حياته . . إن هذه النعم كلها هي زرع طيب ، وإن خير ثمار هذا الزرع ما يكون زاداً في الآخرة ، وإن الشقي من آتاه الله من

فضله وإحسانه ، ثم لم يزد من هذا الفضل وذلك الإحسان لآخرته . . رافقه سبحانه وتعالى يقول ، « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون »

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولى
الألبياب ، ما كان حديثاً يفترى
ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل
كل شيء وهدي ورحمة لقوم يؤمنون
الآية : [١١]

[لقد كان في قصصهم عبرة
لأولى الألبياب]

وإلى هنا تنتهي قصة يوسف ،
التي كانت السورة كلها ، معرضاً لها ،
وحديثاً عنها ، وتمقياً عليها .

عبرة لأولى الألبياب :

هذا ، وقد ينظر بعض ذوى الأبصار السكينة إلى هذه القصة ، وما فيها
من المواقف العاطفية بين الرجل والمرأة ، فيخيل لهم من ذلك أن القرآن
الكريم إنما اصطنع هذا الموقف اصطفاها ليعرض به بعض الغرائز ، استهواه
للنفوس ، وشدة الانتباه ، كما يحدث ذلك في أغلب ما يعرض القصاصون
من قصص . . وهذا لاشك ضلال في الرأي ، وفساد في الإدراك . . فالقصص
القرآني متزل من عالم الحق ، لا يلتبس به باطل ، ولا يطوف بحماه زور ،
وإنما هو كما وصفه الحق سبحانه في قوله . « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل »
وما كان من عالم الحق فلن يحمل إلا ما يزكى النفوس ، ويطهر القلوب ، وينير
البصائر ، ويعلى قدر الإنسانية في الإنسان ، ويدفع عنها عوادي الوهن
والضعف . .

والذي ينظر في قصة يوسف نظرة واعية ، يرى أنها انتصار للخلق ،
والفضيلة ، وقهر للهوى والشهوة . . فلقد انتصر يوسف في معركته مع
دواهي الإغراء ، وانتصرت امرأة العزيز كذلك على الهوى المبرح الذي استبد
بها أول الأمر ، وانتهى بها الحال إلى أن تكشف عن ضعفها ، وأن تعترف
بخطئها . . وأخيراً نجد إخوة يوسف ، وقد انكشف لهم ما كانوا فيه من

ضلال ، وما اشتد بهم من غيرة وحسد ، فيرجعون قائلين نادمين .

وهكذا انكشف القصة عن ضعف الإنسان ، وعن قوته في حال معاً .
فالإنسان ضعيف إذا استسلم لهواه ، وأعطى زمامه لنفسه الأمانة بالسوء ،
وهو قوى قوى ، إذا رجع إلى سلطان عقله ، واستمع إلى وحي ضميره
وعرف قدر إنسانيته ، واستشعر أنه خائفة الله في الأرض ، وأنه إنما خلق
ليسود ويحكم ، وأنه لن يسود ويحكم إذا كان عبداً لأهوائه ، ولياً
لشهوته . . . وأنه يسود ويحكم إذا حكم أهواءه ، واحتمل على دواهي
شهواته . . . « لقد خلقنا الإنسان في تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ،
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون »

* * *

مفتتح وخاتمة

بدأت سورة يوسف بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .. ثم ما يكاد النبي الكريم يفتح قلبه لتلقى ما يوحى إليه من قصص ، حتى يحجد نفسه مع قصة يوسف عليه السلام ، قصصا بقلبه وروحه إليها .. إنها قصة أخ كريم من أنبياء الله ، عليهم السلام ، وفيها يرى النبي الكريم ما وقع لهذا النبي الكريم من أحداث ، وما استقبلته به الحياة في مدارج صباه من كيد ، على يدى أقرب الناس إليه ، وأمسهم رحماً به .

وفي نعم علوى ، ويأتى ربانى جرت أحداث القصة ، وترددت أصداؤها في كيان الرسول ، وانسكب نعيمها العذب الصافي في وجدانه قطرة قطرة ، حتى إذا بلغت نهايتها كان قد ارتوى واتعش ، ووجد برد الراحة في هذه الواحة الظليلة التي يستروح فيها أرواح العافية بعد أن أضناه السير ، وأضرت به لفحات السموم التي تهبت عليه من سفهاء قومه وحقاقم .

ففى أضياف هذه الواحة الظليلة ، وعلى خطوات هذه الرحلة الطويلة مع قصة يوسف وأحداثها ، يستعرض النبي ، ما كان يجرى بينه وبين قومه من أحداث ، وما يكيدون له من كيد ، وما يرمونه من ضر ، لالتقى إلا لأن الله تعالى قد اصطفاه للرسالة ، ووضع في يده الخير الذي بدعوم إليه - فيرى النبي الكريم أن أحق له من أنبياء الله قد كيد له هذا الكيد ، من إخوانه ، وطرح ومطارح الهلاك بيد أبنائه أبيه ، لا قد نبذاه ، ولا لمدواؤا كان منه ولكنة الحمد منهم لما آتاه الله من فضله ، وهما إليه من حال الحزن والكآل ، خلقاً وخلقاً ، فلطف الله به رنجاه من تلك المكروب ، ثم مكن له في الأرض ، وبسط يده وسلطانه على هؤلاء الذين مكروا به ، وكادوا له ، وتلك هي طاقبة الصابرين المتقين ..

فليهنأ النبي الكريم إذن ، ولينتظر مايفتح الله له من رحمة ، ومايقوق إليه من فضل ، فإن العاقبة له ، والحزى والخذلان لكافرين .

ونستمع إلى آيات الله وهي تعقب على قصة يوسف .

« ذلك من أنباء الغيب لوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .. » .

فهذه القصة هي من أنباء التي أوحاها الله تعالى إلى النبي ، والتي لم يكن عند قومه علم بها ..

ثم تكشف آيات القرآن للنبي عن الغاية من هذا القصص ، وأنه عزاء للنبي بما يرى من خلاف قومه عليه ، وإعراضهم عن الهدى الذي بين يديه ، فيقول سبحانه :

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وماأسألم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للمالين » .. فهكذا الناس يغاب تهرم خيرهم ، ويطنى سفهاؤهم وجهالهم على العقلاء والراشدين فيهم ، وأنه مهما حرص النبي على هداية الناس ، ومهما اجتهد في طلبهم إليه ، وشدم إلى ناحيته ، فإن أكثرهم سيظل أبداً على خلاف وإباء ، وفي هذا عزاء للنبي أى عزاء فيمن يهلك من قومه وأهله ، ويموت على الكفر ..

ثم إنه من جهة أخرى ، أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إذ يرى في مجريات أحداث القصة ، وفي خاتمها أنه سيملك من أمر قومه ماملك يوسف من إخوته ، وأنه - صلوات الله وسلامه عليه - سيكون صاحب السلطان عليهم ، فإنه يرى كذلك أن قومه سينتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه إخوة يوسف ، من اعتراهم بضلالهم ، وانضوائهم تحت سلطان أخيه ، حيث سيدخل هؤلاء المشركون في دين الله ، وفي طاعة الله ورسوله .. ثم في انتقالهم من الجذب إلى الخصب ، ومن البدو إلى الحضرة ، ومن الضعف إلى القوة والسلطان ، كما حدث ذلك لأخوة يوسف ، وأن ملكاً عظيماً سينتظر

مؤلاء القوم ، كهذا الملك العظيم وأعظم من الذى وقع ليوسف وإخوته ..
كل هذا وكثير غيره رآه النبي - صلوات الله وسلامه عليه - فى آيات
تلك القصة التى هى إرهاب ميلاد قصة جديدة تعيد سيرة تلك القصة ،
ونسكون تأويلا لها .. ولقد جاءت الأيام بقصة محمد وقومه ، أوسع مدى
وأعظم أثرا وأخلد ذكرا من قصة يوسف ، التى لم تسكن إلا إشارة إليها ..
وكان يوم فتح مكة خاتم القصة المحمدية ، كما كان استيلاء يوسف على
إخوته وضمهم إليه خاتمة قصته ..

وكانت كلمات قريش للنبي الكريم يوم فتح مكة ، وطلب صفحه عنهم ،
وقد ملك أمرهم ، أخبه بكلمات إخوة يوسف ليوسف ، إذ قالوا له :
« تافه لقد آثر الله علينا وإن كنا غاططين » .

وإذ تقول قريش للنبي الكريم يوم الفتح : « أخ كريم وابن أخ كريم »
أى إنما ننتظر منك فى هذا اليوم ماينتظر الأخوة من أخيهم الكريم ، وكما
ينتظر الأحمام من ابن أخيهم المحسن الرحيم ، من صفح ومغفرة وإحسان ..
وكما كان من يوسف الصفح والمغفرة لإخوته فى قوله : « لا تريب
عليكم اليوم ، بغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » - كان من النبي الكريم
الصفح والمغفرة لقومه ، بعد أن ملك أمرهم ، إذ يقول لهم : « اذهبوا
فأنتم الطلقاء » .

ثم تختم سورة يوسف بهاتين الآيتين .

« حتى إذا استقيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى
من نشاء ، ولا يورد بأسنا عن القوم المجرمين .. لقد كان فى قصصهم
عبرة لأولى الأبصار ، ماكان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه
وتفصيل كل شئ ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وفى هذا تطمين لرسول الكريم ، وأنه سيكون له من هذا الضيق

الذى يعالجه فرجاً ، وأن هذه الآلام التى يلقاها الرسول من قومه ، هى آلام
المخاض لميلاد حياة جديدة ، يستقبل فيها النبى قومه . مؤمنين بالله ، مطيعين
لرسوله ، بعد أن تقلب منهم على حجر القضا ، وشوك القتاد ..

وهكذا حياة أصحاب الرسالات من الأنبياء ، والرسل ، والقادة ،
والمصلحين .. إنها زرع وحصاد ، وإنه بقدر الجهد المبذول فى الزرع ، وبقدر
العناء والمكابدة فى الغرس ، والحقى ، والرعاية ، يكون الثمر ، كثرة ، وطيباً ..

فإذا نظرناظر إلى هذه الأمة - أمة الإسلام - فى كثرة أعدادها ، وفى
وفرة عطائها ، وفى قوة تأثيرها فى الحياة ، عرف قدر الجهد الذى بذله
النبى صلى الله عليه وسلم ، وقدر ما احتمل من عناء ، وما كابد من مشقة ..
إن كل مؤمن برسالة هذا النبى الكريم ، هو ثمرة من ثمار هذا الزرع الذى
غرسه النبى بيده ، وزواه بمرقه ، ونمأه بسهره وأرقه ..

فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به ، وعزروه
ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ..

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

مراجع البحث

• كان القرآن الكريم هو وحده مصدر الإشعاع لهذا البحث ، وكان
وقوفنا بين يدي آياته وكلماته ، في عبادة خاشعة ضارعة ، هو الذي فتح لنا
رجوها من النظر في كتاب الله ، وأدانا الرأي الذي جعلناه كلمات مسطورة
في هذا البحث ١

• ثم كان لنا بعد ذلك نظر في كتب التفسير منها :

تفسير الخازن ، والزخشري ، وجمع البيان (للطبرسي) ، وتفسير
البيضاوي ، والطبري ، وابن كثير والألوسي ، وغيرها .

• ثم نظرات في كثير من الكتب ، والرسائل ودواوين الشعراء . .
نذكر منها :

- تجديد التفكير الديني في الإسلام لـ محمد إقبال
- القرآن المجيد لـ محمد عزة دروزه
- القزوميات للمعري
- الحماسة لأبي تمام
- المملكات شرح الزوزني
- السيرة لابن هشام
- البيان والتبيين للجاحظ
- الأمالي لأبي علي القالي
- طبقات العمراني للشمراني
- الفصوص لابن عربي

الفهرست

الصفحة	
٣	مقدمة
١٣	مدخل إلى البحث [القصة في الحياة العربية]
٢٩	الباب الأول : القصة ومفهومها في القرآن
٧٨	الباب الثاني : عناصر القصة في القرآن
١١٩	الباب الثالث : الحركة والحوار
١٤٢	الباب الرابع : القوى الضمنية في القصص القرآني
١٦٧	الباب الخامس : القدر وحسابه في القصص القرآني
١٩٢	الباب السادس : الصراع في القصص القرآني
٢٣٠	الباب السابع : التكرار في القصص القرآني
٢٧٥	— أصحاب الفن القصصي ورأيهم في التكرار
٣٠٢	— هل في القرآن أساطير
٣٢٩	الباب الثامن : الرمز والقصص القرآني
٣٤٨	الباب التاسع : منهج في دراسة القصة القرآنية
٣٥٥	— وقفة مع قصة آدم وخروجه من الجنة
٣٧١	— تعميقات على القصة
٣٩٦	— قصة يوسف [بين يدي القصة]
٤٩١	— مفتتح وخاتمة
٤٩٥	مراجع البحث